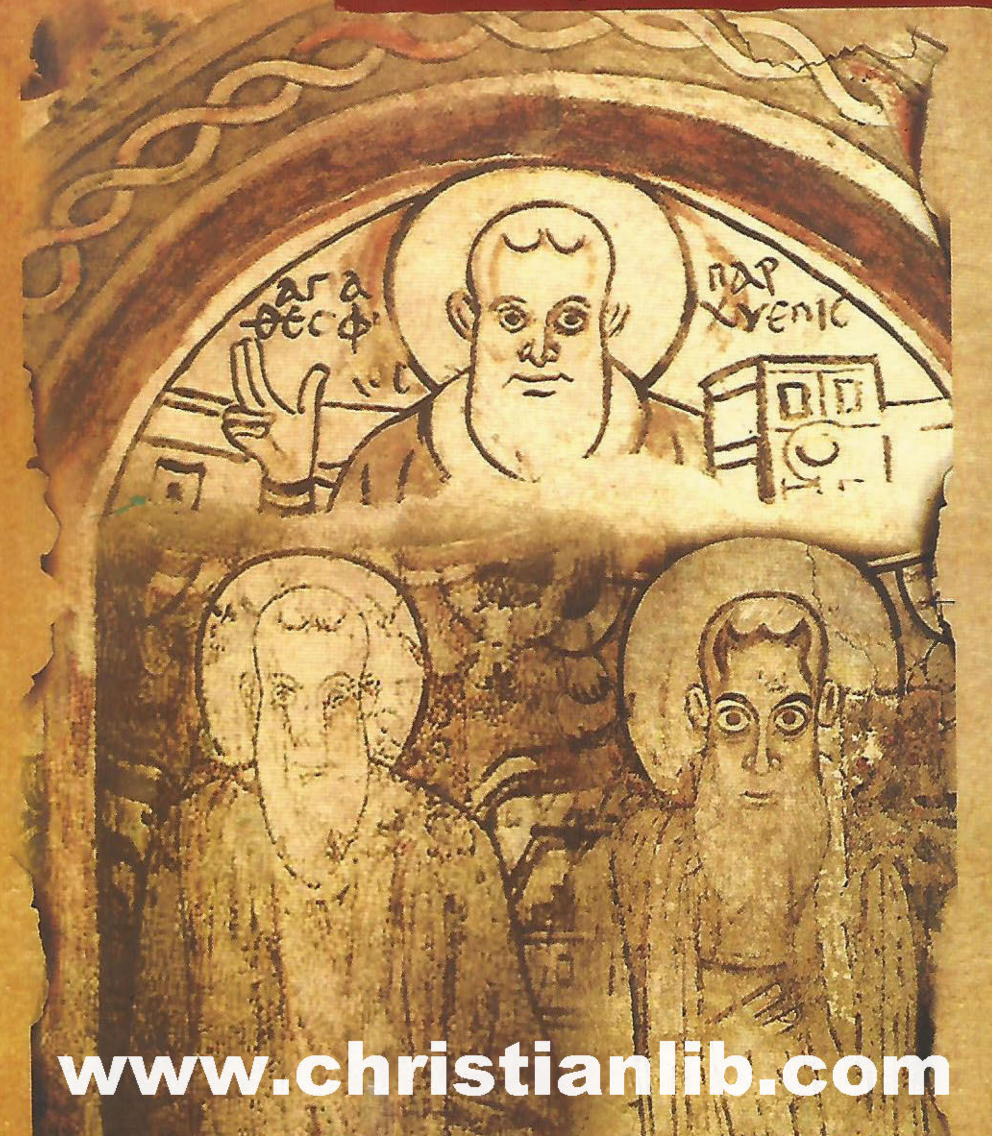
دراسات عن آباء الكنيسة في العصور الأولى



علم الآبائيات "باترولوجي"

المجلد الأول "بدايات الأدب الآبائي"

تأليف: جوهانس كواستن

ترجمة وتقديم: أنبا مقار
أسقف الشرقية ومدينة العاشر من رمضان

دراسات عن آباء الكنيسة في العصور الأولى

علم الآبائيات

"باترولوجي"

المجلد الأول

جوهانس كواستن

الترجمة عن اللغة الإنجليزية

نيافة أنبا مقار
أسقف الشرقية ومدينة العاشر من رمضان

المراجعات

مراجعة الترجمة على النسخة الإنجليزية
الأستاذ مايكل رأفت شهدي
الدكتور جرجس كامل يوسف

المراجعة اللغوية وتدقيق النص العربي
الدكتور وجدي رزق غالي

المراجعة العامة
الدكتور جوزيف موريس فلتس
الدكتور عماد موريس إسكندر
الأستاذ كريم كمال شحاته

يتقدّم مركز باناريون للتراث الآبائي
بالشكر والامتنان للآباء والإخوة الأحباء
الذين ساهموا في تكلفة طبع هذا الكتاب

الكتاب:	علم الآبائيات - باترولوجي (المجلد الأول)
الترجمة:	نيافة أنبا مقار - أسقف الشرقية والعاشر من رمضان
المراجعة:	مجموعة من المراجعين.
الناشر:	مركز باناريون للتراث الآبائي - ٧ أ ش الصباغ متفرع من ش الأهرام، الكوربة - مصر الجديدة ت: ٠١١١٥٠٥٠١٣٥
الطبعة:	الأولى يناير ٢٠١٥م
رقم الإيداع:	١٩١٦ / ٢٠١٥
الترقيم الدولي:	ISBN 978-977-6363-06-9

أيقونات الغلاف[1]

هي عبارة عن ثلاثة رسوم جدارية (فريسكات)؛ في الأعلى القديس ثيؤفيلوس السكندري وفي الأسفل القديسان باسيليوس الكبير وأثناسيوس الرسولي. وهذه الفريسكات هي ضمن المجموعة التي تزين الكنيسة الأثرية بالدير الأحمر بسوهاج والموزعة ما بين الحائط البحري والحائط القبلي. وتتنوع الرسوم الجدارية بالدير فى الموضوعات التي تصورها ما بين الملائكة والإنجيليين وشخصيات توراتية بالإضافة إلى آباء الجيل الرهباني الأول والأساقفة البارزين فى الكنيسة فى القرون الأولى للمسيحية. وتغطي اللوحات حوالى ثمانين بالمئة من الجدران تقريبًا.

أما عن كنيسة الدير الأحمر الأثرية، فهي بازليكا كانت تمثل قلب المجتمع الرهباني فى مركز من أهم مراكز النسك والتي تتمثل في ثلاثة أديرة: ديران منها للرجال وآخر للنساء. وقد تأسس الدير الأحمر علي يد الأنبا بيشاي في منتصف القرن الرابع، وأصبح فيما بعد تابعًا للدير الأبيض تحت قيادة الأنبا بيجول مؤسس الدير الأبيض، وفي الخطوة الأخيرة قاد الأنبا شنوده هذه الأديرة الثلاثة ما يقرب من ثمانين عامًا.

ومن الجدير بالذكر أن تاريخ هذه الجداريات لاحق على بناء الكنيسة، ولم تتم فى مرحلة زمنية واحدة بل استمر تصميمها من القرن السادس الميلادي إلى القرن الثامن الميلادي. وقد تم حجبها لقرون عديدة (من القرون الوسطى إلى نهاية القرن العشرين) حيث كانت مغطاة بطبقة متراكمة من الأدخنة والغبار.

---

[1] شرح أيقونات الغلاف من إعداد الأستاذ مايكل حلمي راغب الباحث في القبطيات.



قداسة البابا تواضروس الثاني

بابا الإسكندرية وبطريرك الكرازة المرقسية

المحتويات

تقديم

باسم الآب والابن والروح القدس الإله الواحد آمين

لماذا الآباء؟ ألا يكفي الكتاب المقدس وحده؟ ماذا يمكن أن يقدم فكر آباء القرون الأولى لكنيسة القرن الحادي والعشرين؟ كيف تتلاقى الأفكار مع بعد المسافات الزمنية والبيئية؟

قبل أن نجيب عن هذه الاسئلة لا بد أن نقرر أن الكنيسة واحدة في كل زمان ومكان، تحمل سمات المسيح المتألم والمصلوب والقائم من بين الأموات لأنه هو حمل الله الذي رفع خطيئة العالم، وأرسلنا لنحمل نور الإنجيل للخليقة كلها.

وهذه هي رسالة الكنيسة، أن تكون نورًا للعالم تدعو الكل للخلاص باسم الفادي القدوس، تدعو الكل للتوبة وغفران الخطايا، تدعو الكل للمحبة التي هي رباط الكمال. وهذه هي مسئولية كل إنسان في كل مكان وزمان، بدأت منذ الرسل في سفر الأعمال، وهو السفر الذي لم ينته حتى الآن، بل هو مستمر مسجلًا أعمال الكنيسة حتى المجيء الثاني. وهكذا تتلاحم الأجيال وتتلاقى الأفكار وتتشابه الآلام، فالكنيسة المتألمة في كل زمان تتمثل بعريسها الذي حمل الصليب، ولبس إكليل الشوك، وقام ليقيمنا معه ويجلسنا معه في السماويات.

هنا نرى الآباء الذين ساروا خلف الرسل ككواكب مضيئة تنير لنا مسيرتنا في دروب هذا العالم ومشاكله. قد تختلف البيئات ولكن فكر الإنسان مازال يحمل عطشه الدائم إلى الله خالقه وهذا ما يقدمه لنا الآباء: حياتهم مع الله، خبرتهم ومعرفتهم وعشرتهم الحية التي هي أثمن من الذهب وكل كنوز الأرض.ويقدم لنا الآباء لنا ثلاثة

أمور هامة: حياة ليتورجية، وتعاليم كتابية وسلوكيات مسيحية.

١. الحياة الليتورجية

لقد ترك لنا الآباء تراثًا ثمينًا من صلوات للمعمودية والإفخارستيا كما كانت تمارس منذ الرسل، وكيف كانت توضع الأيادي للكهنوت وإرساليات الخدمة وعمل الروح في الكنيسة وتنظيماتها.

٢. التعاليم الكتابية

إن الآباء هم الذين فسروا الكتاب المقدس، كل كلمة وكل آية، وشرحوا لنا المسيحية وإيمانها الثمين الذي سُلم مرة للقديسين، وعقيدتها الناصعة التي حفظوها بدمائهم.

٣. السلوكيات المسيحية

الآباء أيضًا هم الذين شرحوا لنا كيف يكون سلوك الإنسان المسيحي نورًا في وسط ظلمة هذا العالم، كيف عاشوا الإنجيل في زمانهم وكيف نعيشه الآن، نحن الذين انتهت إلينا أواخر الدهور.

الرب يبارك هذا العمل ويكمل كل نقص فيه ويعوض كل من له تعب في إعداده وإخراجه بهذه الصورة المشرفة، بصلوات أبينا البابا أنبا تواضروس الثاني وشريكه في الخدمة الرسولية أبينا الأسقف أنبا إيسيذوروس أسقف ورئيس دير البرموس، ولفادينا وربنا يسوع المسيح كل المجد والكرامة مع أبيه الصالح والروح القدس آمين

مقار

خادم كرسي الشرقية ومدينة العاشر من رمضان

١١ نوفمبر ٢٠١٤ م

٢ هاتور ١٧٣١ ش

مقدمة الناشر

يقول القديس أثناسيوس الرسولي في رسالته الأولى إلى سيرابيون (١ : ٢٨): "دعونا ننظر إلى تقليد الكنيسة الجامعة وتعليمها وإيمانها، الذي هو من البداية، والذي أعطاه الرب وكرز به الرسل وحفظه الآباء وعلى هذا الأساس تأسست الكنيسة، ومن يسقط منه فلن يكون مسيحيًا ولا ينبغي أن يدعى كذلك فيما بعد."

إذن الإيمان هو واحد، وهو الذي أعطاه الرب وكرز به الرسل وسُلم للآباء. وهذا الإيمان هو الأساس الذي قام الآباء بحفظه وصياغته وشرحه ليسلموه لمن بعدهم نقيًا كما تسلموه. واعتمادًا على نفس هذا الأساس الصحيح تم تفسير الكتاب المقدس ووضع الصلوات الليتورجية بل وكل خبرة الحياة الجديدة في المسيح، لأن سلامة الإيمان (الأساس) هي التي تؤدي إلى حياة تقوية صحيحة (البناء)، وصحة الحياة التقوية هي التي تحفظ سلامة الإيمان.

ونحن لا نحتاج إلى وضع أو تحديد أساس جديد في كل جيل، لأن الأساس واحد وهو المسلم مرة للقديسين. والله لا يتعامل مع الكنيسة كأفراد منفصلين فيبدأ مع كل واحد منهم من نقطة البداية من جديد، ولكنه يتعامل مع الكنيسة كجسد واحد متصل، ويحملنا مسئولية تسليم ما قد وهبه لنا من جيل إلى جيل. وهذا ما عبر عنه القديس بولس بقوله: "وما سمعته مني بشهود كثيرين أودعه أناسًا أمناء يكونون أكفاء أن يعلموا آخرين أيضًا" (٢ تي ٢ : ٢).

ولهذا فإن أرثوذكسية الكنيسة تتجلي في التمسك الدائم بالتسليم الآبائي، لكي يكون للكنيسة إيمان واحد متواصل عبر العصور. فكتابات الآباء لها أهمية عظمى في تأصيل معرفتنا لشرح العقيدة وتفسير الكتاب المقدس والنصوص الليتورجية، وخبرة

الحياة الروحية كلها. ولكن تمسكنا بالفكر الآبائي الأصيل، لا يعني أن نجنح نحو الجمود وعدم الإبداع، لأن التسليم هو كيان حي متنام ومتجدد، وهو مزيج من الأصالة والإبداع في آن واحد. أصالة مبدعة وإبداع أصيل. فنحن مطالبون بأن نكون أمناء نحو أساسنا الواحد الصحيح الذي حفظه وشرحه لنا الآباء، ولكننا وفي نفس الوقت مطالبون بأن نكون مبدعين في التطبيق ومجددين في تقديم ذلك الأساس نفسه للجيل المعاصر. وهذا بالتحديد هو ما كان الآباء أنفسهم يقومون به، فهم لم يكونوا جامدين مكررين لما سبقوهم وحسب، ولكنهم كانوا بالفعل مواكبين لعصرهم رغم أمانتهم الثابتة للأساس الحي الذي استلموه ممن قبلهم.

ويُسمى العلم الذي يهتم بدراسة تاريخ الكتّاب المسيحيين فى العصور الأولى وكتاباتهم بـ "علم الآبائيات" أو "علم آباء الكنيسة" (باترولوجي). ونظرًا لأهمية هذا التخصص في مجال نشر الفكر الآبائي، حرص مركز باناريون للتراث الآبائي أن يقدم للقارئ سلسلته الثالثة:

دراسات عن آباء الكنيسة في العصور الأولى

وهي السلسلة التي تتناول سير الآباء والأحداث التاريخية والكنسيّة في عصرهم، كما تتناول أيضًا كتاباتهم، وتعاليمهم اللاهوتية.

والمجلد الذي بين يديك أيها القارئ الحبيب، هو المجلد الأول من مجموعة "علم الآبائيات - باترولوجي" لمؤلفها جوهانس كواستن. وتقع هذه المجموعة تحت تصنيف الكتب المسمى "ينبغي اقتناؤها". فبرغم صدور كتب أخرى متنوعة ولاحقة عن "علم الآبائيات" إلا أن مجموعة كواستن تظل هي اللبنة الأولى والضرورية لكل باحث ومهتم بهذا

الفرع من المعرفة. وبينما تأتي الكتب الأخرى التي تعالج نفس الموضوع في شكل مجلد واحد بسبب منهجها الانتقائي في العرض، جاءت مجموعة كواستن في أربعة مجلدات لما تميزت به من شرح وافٍ لكتابات الآباء ومنهجهم اللاهوتي، حتى قيل عنها إنها "المرجع الأشمل لمن يريد البدء في دراسة الأدب المسيحي المبكر". وهكذا لن يتمكن فريقان من القراء على الأقل من أن يستغنيا عن مجموعة كواستن: الفريق الأول وهو الذي يريد أن يحصل على معرفة أساسية شاملة عن الآبائيات أكثر من مجرد المقدمات التي تعرضها الكتب الأخرى؛ والفريق الثاني هو الذي يريد أن ينال معرفة أولية عن الآبائيات تؤهله للدخول إلى دراسات أكثر تقدمًا.

وقد تفضل مشكورًا نيافة أنبا مقار أسقف الشرقية ومدينة العاشر من رمضان بترجمة هذا المجلد الأول قبل سيامته أسقفًا، وقد تمت مراجعة الترجمة على النسخة الإنجليزية، وإضافة الحواشي والفهرس الموضوعي في نهاية الكتاب لتعظم فائدة القارئ.

وسنوالي ترجمة ونشر بقية مجلدات مجموعة كواستن "علم الآبائيات - باترولوجي" في المستقبل القريب بمشيئة الرب.

نسأل الله أن يبارك في هذا العمل

وللثالوث القدوس المجد والإكرام والسجود الآن وإلى الأبد آمين.

الناشر

٧ توت ١٧٣١ ش - ١٧ سبتمبر ٢٠١٤م

تذكار نياحة البطريرك البابا ديسقورس

المقدمة

مفهوم وتاريخ علم الآبائيات (باترولوجي)

علم "الباترولوجي" هو جزء من تاريخ الأدب المسيحي الذي يهتم بتناول الكُتّاب اللاهوتيين للتراث المسيحي الأول، وهو يضم كلًّا من الكُتَّاب الأرثوذكسيين والهراطقة، ولكنه يعطي الأفضلية لمن يمثِّلون التعاليم الكنسية التقليدية، والذين يُطلق عليهم آباء ومعلمي الكنيسة. لذلك يمكن تعريف علم "الباترولوجي" بأنه علم آباء الكنيسة (أو علم الآبائيات)، وهو يضم في الغرب كل الكُتاب المسيحيين حتى غريغوريوس الكبير (٦٠٤م) أو إيسيذورس أسقف إشبيلية (٦٣٦م)، ويمتد عادة في الشرق حتى يوحنا الدمشقي (٧٤٩م)[1].

وتعتبر تسمية هذا الفرع من العلوم اللاهوتية أمرًا حديثًا إلى حد ما، فقد كان اللاهوتي اللوثري جون جيرهارد (John Gerhard) هو أول من استخدم هذه التسمية كعنوان لعمله (Patrologia) الذي نشره عام ١٦٥٣م. ولكن فكرة الكتابات التي تتناول تاريخ الأدب المسيحي والتي يغلب عليها المحتوى اللاهوتي هي فكرة قديمة، فهي تبدأ مع يوسابيوس الذي ذكر في مقدمة كتابه "تاريخ الكنيسة" (١ : ١ : ١) أنه ينوي أن يكتب عن "أولئك الذين كانوا في كل جيل سفراء كلمة الله سواء بالكلام أو بالقلم؛ وعن أسماء وأعداد وأعمار هؤلاء الذين بسبب شهوة الابتداع البالغ ذروة الخطأ قد أعلنوا عن أنفسهم زورًا أنهم أصحاب المعرفة". وهكذا وضع يوسابيوس قائمة بكل الكُتَّاب والكتابات حسبما نما إلى علمه، وسجل اقتباسات طويلة من معظمها. ولهذا السبب صار يوسابيوس أحد أهم مصادر

---

[1] تتفق الكنائس غير الخلقدونية (ومن ضمنها الكنيسة القبطية الأرثوذكسية) مع الكنائس الخلقيدونية في الاعتراف بمجموعة موحدة من الآباء حتى مجمع خلقيدونية (٤٥١م)، ولكن أصبح بعد هذا المجمع هناك مجموعة إضافية مختلفة لكل كنيسة [المترجم].

علم الباترولوجي، خاصة لأن عددًا كبيرًا من الكتابات التي اقتبس منها قد فُقد، بل يعتبر هو المصدر الوحيد للمعلومات عن بعض المؤلفين الكنسيين.

وكان جيروم هو أول من جمع تاريخ الأدب الخاص بالعلوم اللاهوتية المسيحية حيث كتب مؤلفًا تاريخيًّا يتناول الكتابات اللاهوتية المسيحية. وقد أراد في كتابه (De Viris Illustribus) "مشاهير الرجال"، أن يرد على الوثنيين الذين اعتادوا التهكم على ضحالة فكر المسيحيين البسطاء، لذلك عدد أسماء الكُتَّاب الذين تشرف بهم الأدب المسيحي. وقد كتب جيروم هذا العمل في بيت لحم سنة ٣٩٢م بطلب من الحاكم الإمبراطوري دكستر (Praetorian Perfect Dexter)، وصاغ عمله على غرار العمل الذي ألّفه سوتونيوس (Suetonius) والذي يحمل عنوان (De Viris Illustribus) عن مشاهير الرجال ، فهو يبدأ من سمعان بطرس إلى أن يصل لما كتبه هو نفسه حيث سرد مؤلفاته التي كتبها قبل عام ٣٩٢م. كما ضمت قائمة الأسماء المكونة من ١٣٥ قسمًا، مؤلفين يهودًا مثل فيلو ويوسيفوس؛ ومؤلفين وثنيين مثل الفيلسوف سينكا؛ ومؤلفين من هراطقة القرون المسيحية الأولى. وقد اعتمد جيروم في الأقسام الثمانية والسبعين الأولى على كتاب "تاريخ الكنيسة" وكتاب "الوقائع" (The Chronicles) ليوسابيوس القيصري، إلى درجة أنه كرّر حتى أخطاء يوسابيوس الواردة فيهما. كما يعطي كل قسم سيرة مختصرة لكاتب ما وتقييمًا لمؤلفاته. وما أن نُشر هذا العمل، حتى أعرب القديس اغسطينوس لجيروم (Ep. :40) عن أسفه الشديد لأنه لم يتحمل عناء فصل المؤلفين الهراطقة عن الأرثوذكسيين. أما الأهم من ذلك في حقيقة الأمر، فهو أن كتاب "مشاهير الرجال" يحتوي على أخطاء كثيرة، ويكشف العمل كله عن تحيزات جيروم وعداواته،

وهذا يظهر، على سبيل المثال، في الأقسام التي تتكلم عن القديس يوحنا ذهبي الفم والقديس أمبروسيوس. وبالرغم من ذلك، يظل هذا العمل هو المصدر الرئيس لتاريخ الأدب المسيحي، لأنه بالنسبة لبعض الكُتاب الكنسيين مثل مينوكيوس (Minucius) وفيلكس (Filix) وترتليانوس (Tertullian) وكبريانوس (Cyprian) ونوفاتيان (Novatian) وأخرين، يعتبر هو المصدر الوحيد للمعلومات التي نعرفها عنهم، وقد كان كل مؤرخي الأدب المسيحي القديم خلال أكثر من ألف سنة يرون فيه الأساس لدراساتهم، بل كان سعيهم الوحيد هو كتابة مُلحقات لهذا العمل العظيم.

وقام جيناديوس (Gennadius) - وهو كاهن من مارسيليا - في عام ٤٨٠م تقريبًا، بكتابة ملحق لهذا الكتاب. وكان هذا الملحق ذا فائدة كبيرة، حتى إن أغلب المخطوطات تعده الجزء الثاني لكتاب جيروم. وكان جيناديوس نصف بيلاجي[٢] (Semi Pelagian)، وقد أثر ذلك على آرائه في بعض المواضع، ولكنه فيما عدا ذلك يتضح أنه رجل ذو معرفة واسعة وحكم دقيق. ولا يزال هذا الكتاب ذا أهمية عظمى لتاريخ الأدب المسيحي القديم.

أما كتاب إيسيذوروس الإشبيلي[٣] (De Viris Illiustribus)

---

[٢] في بداية القرن الخامس الميلادي ظهرت في بريطانيا الهرطقة البيلاجية (Pelagianism) نسبة إلى مبتدعها الراهب الإنجليزي (Pelagius) الذي نادى بعدم احتياج البشر للنعمة وبأن للإنسان قدرة ذاتية طبيعية تمكنه من الخلاص والوصول للكمال الأخلاقي بمجهوداته الشخصية دون تدخل من جانب النعمة. وقد عقدت عدة مجامع كنسية شجبت هذه البدعة. وقد انبرى القديس أوغسطينوس مفندًا هذه الهرطقة ومثبتًا أنه لا خلاص إلا بالنعمة الموهوبة من الله. وقام البعض بعد ذلك بالاعتراض على آراء ق. أغسطينوس في تجاهل حرية الإرادة الإنسانية؛ إذ سلموا بضرورة النعمة لمعونة الإنسان ليرجع إلى الله، لكنهم قالوا إن الرغبة في الرجوع والعزم عليه هما من اختيار الإنسان، وإنه يشرع في ذلك من تلقاء نفسه. فيحقّ له بناءً على تلك الرغبة أن ينتظر معونة الله في إدراك غايته. وقد سميت هذه الآراء "نصف بيلاجية" أو "شبه بيلاجية" والتعليم النصف بيلاجي ينكر لزوم الدعوة الإلهية الداخلية الفعالة وأنها ضرورة تسبق رجوع الإنسان إلى الله، ولكنه يسلّم بأن الله يعين كل من يقصد التقوى من تلقاء نفسه. [المراجع]

[٣] من إشبيلية بأسبانيا.

"مشاهير الرجال" الذي كُتب بين ٦١٥و ٦١٨م، والذي هو بمثابة ملحق آخر لكتاب جيروم، فهو أقل من حيث الأهمية، كما أنه يعطي اهتمامًا خاصًا للاهوتيين الأسبان.

وكتب أيضًا إيلدِفونسوس أسقف طليطلة بأسبانيا (Ildephonsus of Toledo)، تلميذ إيسيذوروس، والمتوفى عام ٦٦٧م، ملحقًا مماثلًا، ولكن كتابه باسم "مشاهير الرجال" كان محليًا وقوميًا في طبيعته، فكان يهدف في الأساس إلى تمجيد أسلافه من إيبارشية طليطلة. وكانت ثماني سير ذاتية فقط من الأربع عشرة سيرة التي قام إيلدِفونسوس بكتابتها هي لكُتَّاب كنسيين، وواحدة منها فقط هي لكاتب غير أسباني هو غريغوريوس الكبير.

ولم تُبذل أي محاولة جديدة لكتابة مرجع حديث في النصوص المسيحية التي كُتبت قبل نهاية القرن الحادي عشر. وقد قام بهذه المهمة المؤرخ البندكتي (Sigebert of Gembloux) في بلجيكا عام ١١١٢م، حيث قدم كتابه (De Viris Illiustribus ML 160: 547 - 588). وقد تناول فيه أولًا الكُتَّاب الكنسيين القدامى متتبِّعًا عن كثب ما كتبه جيروم وجناديوس، ثم جمع ملاحظات قليلة عن سير وكتابات لاهوتي العصور الوسطى المبكرة من اللاتين؛ لكنه لم يذكر أي كاتب بيزنطي. ثم كتب هونوريوس الذي من أجستودونوم (Augustodunum) حوالى سنة ١١٢٢م ملخصًا مشابهًا عنوانه: (De Luminaribus Ecclesiae ML 172: 197-234). وبعد سنوات قليلة، حوالى عام ١١٣٥م، قام شخص مجهول (Anonymus Mellicensis) بكتابة كتاب بعنوان: (De Scriptoribus Ecclesiasticis ML 213: 961 - 984)، ويبدو أن مكان كتابة هذا الكتاب هو مدينة (Pruefening) بالقرب من (Ratisbon) وليس (Melk) في النمسا السُفلى حيث وُجدت أول مخطوطة له. وهناك أيضًا عمل

آخر يعد مصدرًا أفضل بكثير لتلك المعلومات، وهو بعنوان: (De Scriptoribus Ecclesiasticis)، تأليف الأب جوهانّس تريثيميوس (Abbot Johannes Trithemius). وقد كُتب هذا العمل حوالى عام ١٤٩٤م، وهو يقدم سيرًا مفصلة وقوائم كتابات لـ ٩٦٣ كاتبًا، بعضهم ليس لاهوتيًّا، لكن حتى تريثيميوس حصل على معلوماته من جيروم وجناديوس.

ثم جاء عصر النهضة، ليجلب فترة صحوة الاهتمام بالأدب المسيحي القديم، فمن جهة كانت الادعاءات التي أطلقها بعض المصلحين بأن الكنيسة الكاثوليكية قد انحرفت بعيدًا عن كنيسة الآباء، وكذلك من الجهة الأخرى القرارات التي توصَّل إليها مجمع ترنت، قد أسهمت كلها في زيادة هذا الاهتمام الجديد، فظهر كتاب الكاردينال الموقر "بلارمين" (Bellarmine)، وعنوانه: (De Scriptoribus Ecclesiasticis Liber Unus)، عام ١٦١٣م، وهو يمتد ليتناول تاريخ الأدب المسيحي حتى عام ١٥٠٠م. ثم تبع ذلك عملان لاثنين من الكُتَّاب الفرنسيين، أولهما صدر في ١٦ جزءًا وهو:

L.S. Le Nain de Tillemont, Mémoires pour servir à l`histoire ecclèsiastique des six premiers siècles, Paris, 1693 - 1712.

والثاني صدر في ٢٣ جزءًا، ويتناول كل الكُتَّاب الكنسيين قبل عام ١٢٥٠م. وهو:

R. Ceillier, Histoire générale des auteurs sacrés et ecclésiastiques, Paris, 1729 - 1763.

غير أن العصر الجديد لعلم الأدب المسيحي المبكر قد تمثل على نحو خاص في المجموعات الأولى الكبيرة والدقيقة لكتابات الآباء، والتي بدأت في الظهور في القرنين السادس عشر والسابع عشر. كما

أثرى القرن التاسع عشر مجال الأدب المسيحي القديم بعدد كبير من الاكتشافات الجديدة، خاصة ما يتعلق بالكتابات الشرقية، لذلك ساد شعور بالحاجة إلى إصدارات نقدية جديدة. وهكذا قامت الأكاديميات في فيينا وبرلين بإصدار سلسلة نقدية تحوي النصوص اللاتينية واليونانية لكتابات الآباء، في حين بدأ الدارسون الفرنسيون في إصدار مجموعتين نقديتين كبيرتين في الأدب المسيحي الشرقي، هذا بالإضافة إلى أن كل الجامعات تقريبًا قامت بإنشاء أقسام بها لدراسة علم الآبائيات (باترولوجي).

وقد انصب اهتمام الدارسين في القرن العشرين بالأكثر على دراسة تاريخ الأفكار والمفاهيم والمصطلحات الواردة في الكتابات المسيحية، بالإضافة إلى التعليم الذي طرحه مختلف الكُتاب الكنسيين. وقد مكنت البرديات المكتشفة حديثًا في مصر من أن يستعيد الدارسون الكثير من الكتابات الآبائية التي كانت قد فقدت.

آباء الكنيسة

لقد اعتدنا أن ندعو مؤلفي الكتابات المسيحية المبكّرة باسم "آباء الكنيسة". وفي القرون الأولى للمسيحية، كانت كلمة "أب" تطلق على المعلم، لأنه بحسب الاستخدام الكتابي والمسيحي المبكّر، كان المعلِّمون آباء روحيين لتلاميذهم. وهكذا - على سبيل المثال - يقول القديس بولس في رسالته الأولى لأهل كورنثوس (٤ : ١٥): "لأنه وإن كان لكم ربوات من المرشدين في المسيح لكن ليس آباء كثيرون لأني أنا ولدتكم في المسيح يسوع بالإنجيل." ويعلن القديس إيرينيوس في ضد الهرطقات (Adv Haer 4: 41: 2)، قائلًا: "لأن كل إنسان تعلّم من فم آخر، صار ابنًا لمن علّمه وصار الآخر أبًا

له"، وكذلك يقول كليمندس السكندري (Strom 1: 1: 2 - 2: 1): "الكلمات وليدة الروح، لذلك ندعو أولئك الذين علّمونا آباء... وكل مَن تعلّم صار بحسب الخضوع ابنًا لمعلّمه".

وقد كان التعليم في العصور القديمة للمسيحية مهمّة الأسقف، لذا أُطلق لقب "الأب" لأول مرة على الأسقف، ولكن الجدال العقائدي في القرن الرابع طوّر هذا المفهوم، وامتد لقب "أب" ليشمل الكُتّاب الكنسيين أيضًا طالما قبلتهم الكنيسة كمعبرين عن تقليدها. وهكذا يحصي القديس أغسطينوس القديس جيروم من ضمن شهود التعليم التقليدي بالرغم من أن جيروم لم يكن أسقفًا (Cont. Jul. 1: 7: 34). هذا وقد أطلق فنسِنت اللاريني (Vincent of Lerins) - من بلاد الغال (فرنسا حاليًا) - في كتابه المعروف بعنوان: (Commonitory) والذي كتبه سنة ٤٣٤م، لقب "الأب" على الكُتّاب الكنسيين بغضّ النظر عن رتبتهم الكنسية: "لو أثير سؤال جديد لم يكن قد اتُّخذ قرار بشأنه قبل ذلك، فينبغي عندئذ الرجوع إلى آراء الآباء القديسين وعلى الأقل إلى آراء أولئك الآباء الذين - كل واحد منهم في زمانه ومكانه الخاص - كانوا مقبولين كمعلمين يحظون بالاعتراف العام من الجميع بسبب أنهم ظلوا في وحدة الشركة والإيمان. وكل ما وُجدَ أن هؤلاء الآباء قد علّموا به، بفكر واحد واتفاق تام، فهذا ينبغي أن يُحسب أنه التعليم الحقيقي الجامع للكنيسة، بدون أي شك أو تردد" (فصل٢٩). "ولا ينبغي لمن يَخلِفونهم أن يؤمنوا بأي شيء سوى ما أجمع عليه القدماء من الآباء القديسين في "المسيح"." (فصل٣٣). ومبدأ فنسِنت الليريني هذا يُظهر أهمية "البرهان من الآباء" لصحة أي تعليم.

وأول قائمة تضم الكُتّاب الكنسيين المقبولين أو المرفوضين كآباء فموجودة في العمل الذي يرجع إلى القرن السادس وهو:

Decretum Gelasianum de Recipiendis et Non Recipiendi Libris

أما اليوم، فمن يُعتبر ضمن "آباء للكنيسة" هو فقط من تتوفر فيه الصفات الأربع الأساسية التالية: أرثوذكسية التعليم، قداسة الحياة، القبول الكنسي، والقِدَمية. أما كل اللاهوتيين الآخرين فيُدعَون "كُتّابًا كنسيين"[٤] (ecclesiae scriptores) أو (scriptores ecclesiastici)، وهو مصطلح صاغه القديس جيروم في كتابه: (De Viris Ill., Prol.; Ep. 112: 3). كما أن لقب "معلم الكنيسة" (Doctor of the Church) يختلف عن لقب "أب الكنيسة"، لأن بعضًا ممن يطلق عليهم لقب "معلمي الكنيسة" تنقصهم صفة "القدَم"، ولكنهم يمتازون إلى جانب الصفات الثلاث الأخرى (استقامة التعليم، وقداسة الحياة، والقبول الكنسي) بصفتين هما: رفعة وسمو الثقافة، والوضوح الكنسي المتميز.

وقد أعلن البابا بونيفاس الثامن (١٢٩٨م) في الغرب أنه يريد أن يُدعى أمبروسيوس وجيروم وأغسطينوس وغريغوريوس الكبير "معلمي الكنيسة" عن جدارة، هذا بالإضافة إلى أن هؤلاء الأربعة يلقبون أيضًا بـ "آباء الكنيسة العظام". وتوقر الكنيسة اليونانية ثلاثة "معلّمين مسكونيين عظام" فقط، وهم: باسيليوس الكبير، وغريغوريوس النزينزي، وذهبي الفم، في حين تضيف الكنيسة الرومانية إليهم

[٤] آباء الكنيسة هم معلمو الإيمان الذين حفظوا العقيدة سليمة، وهم امتداد للرسل القديسين والذين قاموا بتوصيل إيمان الرسل إلى الكنائس، وقاموا بشرحه وبتثبيته وقاموا أحيانًا بصياغة تحديدات للعقيدة تضمن سلامة الإيمان الرسولي من التحريف، وحفظ المؤمنين من الوقوع في فخاخ الهرطقات. هؤلاء الآباء اعتُمدت كتاباتهم كمصدر للتعليم، وهم من تذكر الكنيسة أسماءهم في تحليل الخدام في القداس الإلهي. أما الآباء الآخرون والكُتّاب الكنسيون، سواء كانوا من شيوخ البرية القديسين (أنطونيوس، مقاريوس، باخوميوس وغيرهم)، أو كانوا من البطاركة والأساقفة والكهنة والعلماء في مختلف العصور بعد عصر المجامع المسكونية، فهم الذين لم تعتمد كتاباتهم كمصدر للتعليم، ولكن ما تحويه كتاباتهم من تعاليم وأفكار وتفسيرات وشروحات تتفق مع عقيدة الكنيسة الأرثوذكسية المستقرة ومع منهجها في العبادة والحياة الروحية والتوجيه المسيحي القويم في السلوك والأخلاق. [المراجع]

القديس أثناسيوس، وبذلك تعترف [الكنيسة الرومانية] بأربعة معلمين في الشرق وأربعة آخرين في الغرب.

وبالرغم من أن آباء الكنيسة يشغلون مكانة عظيمة في تاريخ الأدب اليوناني والروماني، إلا أن سلطانهم في الكنيسة الجامعة يعتمد على أسس مختلفة تمامًا، فالتعليم الكنسي بخصوص التقليد كمصدر للإيمان هو ما يجعل كتابات وآراء الآباء مهمة إلى هذا الحد، فالكنيسة تعتبر اتفاق آباء الكنيسة الإجماعي معصومًا.

ويصف الكاردينال نيومان[5] (Newman) أهمية هذا الإجماع (consensus)، والفرق بينه وبين الآراء الشخصية للآباء قائلًا: "إني أتبع الآباء القدماء، ليس على أنهم في موضوع معين لهم الثقل الذي يملكونه في حالة العقائد والتعاليم - رغم أنهم كذلك - فحينما يتكلم الآباء عن العقائد، يتكلمون عنها على أن الجميع يؤمنون بها. فالآباء هم شهود الحقيقة أن هذه التعاليم قد استُلمت استلامًا، ليس هنا أو هناك بل في كل مكان، ونحن نستلم هذه التعاليم والعقائد التي يعلّمون بها، ليس لمجرد أنهم يعلّمون بها، بل لأنهم يشهدون أن كل المسيحيين في كل مكان في عصورهم كانوا يؤمنون بها. فنحن نتخذ الآباء كمصدر أمين للمعرفة، ولكن ليس كسلطة كافية فى ذواتهم، رغم أنهم هم أيضًا سلطة. فلو أنهم قالوا بهذه

---

[5] ولد نيومان في عام ١٨٠١م في المملكة المتحدة، ونشأ وتربى في الكنيسة الإنجيلية في إنجلترا. وكان من مؤسسي "حركة أوكسفورد". وقد نشأت الحركة في جامعة أوكسفورد، سنة ١٨٣١م، ودعت إلى إعادة اكتشاف تقاليد مسيحية فقدت في الإيمان وطالبت بإدماجها في قداس ولاهوت الكنيسة الإنجيلية. وفي سنة ١٨٤٥م انضم نيومان إلى الكنيسة الكاثوليكية، وذلك بعد دراسته المستفيضة في التاريخ المسيحي. وكان السبب الأول الذي دفع نيومان للانضمام للكنيسة الكاثوليكية، هو دراسته لقانون الكتاب المقدس وملاحظته أنه بدون التقليد الرسولي الذي يجري في الكنيسة لا يمكننا الثقة في مدى صحة ودقة قانون أسفار الكتاب المقدس. وبعد انضمامه للكنيسة الكاثوليكية أصبح نيومان كاهنًا بها حتى وصل لرتبة الكاردينالية، وبعد ذلك قام بتأسيس جامعة في إنجلترا وهي "جامعة إيرلندا الكاثوليكية"، وتم إعلانه طوباويًا في ١٩ سبتمبر عام ٢٠٠٩م. [المراجع]

التعاليم نفسها وأضافوا قائلين: "إن هذه هي آراؤنا وقد استنتجناها من الكتاب المقدس، وهي آراء صحيحة"، فإننا في هذه الحال كنا نتشكك في استلامها على أيديهم، وكنا سنقول إن لنا الحق مثلهم أن نستنتج من الكتاب كما فعلوا هم، وأن الاستنتاج من الكتاب هو مجرد آراء، فإن اتفقت استنتاجاتنا مع استنتاجاتهم، فهذا يكون تطابقًا سعيدًا معهم، ولكن إن لم تتفق فإننا سنتبع نورنا الخاص، وبلا شك ليس هناك إنسان، له الحق أن يفرض استنتاجاته الخاصة على الآخر في أمور الإيمان. طبعًا هناك التزام واضح على الجاهل أن يخضع لأولئك الذين هم أعلم منه، وهناك تناسب ولياقة أن يخضع الصغار والشباب مؤقتًا لتعليم شيوخهم، ولكن فيما هو أبعد من ذلك فليس هناك رأي لإنسان أفضل من آخر. ولكن الأمر ليس هكذا فيما يخص الآباء الأولين، فالآباء لا يتكلمون برأيهم الخاص، إنهم لا يقولون: "هذا الأمر حقيقي لأننا رأيناه في الكتاب المقدس" - وهو أمر هناك اختلافات في الحكم بخصوصه - ولكنهم يقولون: "هذا الأمر حقيقي بسبب أن الكنائس كلها تؤمن به وكانت فيما سبق تؤمن به طوال الأزمنة السابقة بلا انقطاع منذ زمن الرسل"، وهنا يكون الأمر هو موضوع شهادة، أي شهادة عن وجود وسائل معرفة لديهم بأن هذا الأمر كان يُؤآمن به طوال العصور السابقة، لأنه كان إيمان كنائس كثيرة مستقلة (إداريًا) عن بعضها البعض، ولكن كان هذا إيمانها فى نفس الوقت، وذلك يكون على أساس أن هذا الإيمان هو من الرسل، فبلا شك أنه لا يمكن أن يكون إلَّا حقيقيًا ورسوليًا." (Discussions and Arguments II: 1).

الطبعات الخاصة بالكتابات المسيحية المبكرة

أ. لا يُمكن اعتبار الطبعات الأولى لكتابات الكُتّاب

الكنسيين الأوائل بمثابة طبعات نقدية، لأن القواعد العلمية لاختيار المخطوطات لم تكن موجودة. وعلى الرغم من ذلك، فالكثير من هذه الطبعات غاية في الأهمية الآن، لأن المخطوطات التي اعتمدت عليها قد فُقدت.

٢. من بين كل الطبعات القديمة للكتابات المسيحية المبكِّرة، والتي ظهرت منذ القرن السادس عشر، هناك مجموعة واحدة لها قيمة نقدية: وهي الطبعة التي قام بها الرهبان البندكتيون الفرنسيون من دير (St. Maur)، وقد صدرت في القرنين السابع عشر والثامن عشر. ولقد تأسس هذا الدير عام ١٦١٨م في باريس، واجتذب لصفوفه بعض العلماء الدارسين مثل: (Luc D'Achéry, Mabillon, Thierry, Ruinart, Maran, Montfaucon, and Marmiet)، وبعض طبعاتهم لكتابات الآباء لا تعلو عليها في الجودة أي طبعات أخرى، وقد تم تزويد النصوص اليونانية في هذه الطبعات بترجمة لاتينية، وأضيفت فهارس ممتازة لكل مجلّد.

٣. أما أكثر مجموعة من النصوص الآبائية اكتمالاً فهي تلك المعروفة بعنوان: (Patrologiae Cursus Completes) والتي حرّرها الأب ميني (Abbé J. P. Migne) الذي توفي عام ١٨٧٥م. وفيها أُعيدت طباعة كل النصوص الآبائية التي نُشِرت حتى ذلك الوقت، حتى تكون متاحة للاهوتيين وفي متناولهم. ولكن للأسف تحتوي طبعة ميني على الكثير من الأخطاء المطبعية، لذلك يُفضّل استخدام الطبعات القديمة التي اعتمد عليها ميني، هذا إذا لم يكن هناك طبعة حديثة محقّقة للنص. وبالرغم من ذلك تظل مجموعة ميني الآبائية (Migne's Patrologia) هي النص الوحيد المتاح بالنسبة للكثير من النصوص الآبائية. ولتقدير الخدمات التي قدّمها ميني لنشر حركة البحث في مجال الباترولوجي انظر:

W. JACOB, Bemerkungen zu Ausgaben theologischer Texte vom XVI bis zum XIX Jahrh: ZNW 28 (1939) (193 - 195).

٤. ويرجع الفضل لأكاديميتي فييّنا وبرلين في البدء في سلسلتين من الكتابات الآبائية، تسعيان فيها للجمع بين الدقة اللغوية والاكتمال. ولا تزال السلسلتان - اليونانية واللاتينية - في مرحلة الصدور.

لغة الآباء

أما فيما يخص اللغة، فقد كانت المسيحية تستخدم اللغة اليونانية حتى نهاية القرن الثاني تقريبًا، فخلال القرون الأولى للإمبراطورية الرومانية، انتشرت اليونانية في كل حوض البحر المتوسط. ولقد كان للحضارة الهللينية وآدابها السيطرة الكلية في العالم الروماني، حتى إنه كان من الصعب أن تجد مدينة في الغرب لا تستخدم اللغة اليونانية في حياتها اليومية، ففي روما وشمال إفريقيا والغال - فرنسا حاليًا - كانت اللغة اليونانية هي السائدة حتى القرن الثالث. ولهذا السبب يجب أن يُنظر للغة اليونانية باعتبارها اللغة الأصلية لكتابات الآباء، لكن قد استُبدلت بها جزئيًا في الشرق السريانية والقبطية والأرمنية، واُستُبدِلت بها تمامًا في الغرب اللاتينية.

هذا ولم يكتب كل من كُتّاب العهد الجديد والآباء اليونانيين باليونانية الكلاسيكية، بل كتبوا باللهجة اليونانية العامة (Koine) التي أحسن ما توصف به، هي أنها وسط ما بين اللغة الأدبية الأتيك (Attic) واللهجة الدارجة. وقد أصبحت اللهجة اليونانية العامة هي لغة العالم الهلليني من القرن الثالث قبل الميلاد وحتى نهاية العصور المسيحية القديمة، أي القرن السادس الميلادي.

وبدأت النصوص المسيحية باللاتينية بترجمة الكتاب المقدس،

تلك الترجمة التي من المحتمل أنها تكون قد أُنجزت في القرن الثاني الميلادي. وقد كان الاعتقاد السائد حتى وقت قريب هو أن شمال إفريقيا هي مهد اللغة اللاتينية التي استخدمت بعد ذلك، وأن "أعمال شهداء صقلية" (حوالى سنة ١٨٠م) تُمثل أقدم وثيقة مسيحية باللغة اللاتينية، وأن ترتليانوس على وجه التحديد هو أول من صك المصطلحات الكنسية الغربية. ولا يزال هذا الاعتقاد باقٍ، ولكنه قد يكون قد قلل من تأثير روما، فقبل أن يبدأ ترتليانوس في كتابة مؤلفاته بخمسين سنة، وقبل أن تُكتب "أعمال شهداء صقلية" بثلاثين سنة، بدأت عملية الانتقال من اليونانية إلى اللاتينية في المجتمع المسيحي في روما، الأمر الذي يمكن أن يُستدل عليه من نصوص الراعي لهرماس. علاوة على ذلك، تُرجمت رسالة كليمندس الروماني إلى مؤمني كورنثوس إلى اللغة اللاتينية في بداية النصف الأول من القرن الثاني الميلادي في روما. هذا ويُرجح نص هذه الترجمة - والذي نشره (G. Morin) سنة ١٨٩٤م - أن المترجم قد استخدم ترجمة لاتينية للعهد القديم كانت موجودة بالفعل في أيامه، ولهذا يبدو أن الكتابات اللاتينية الكنسية بدأت في روما وليس في شمال أفريقيا.

الفصل الأول

الصيغ الليتورجية والتشريعات القانونية الأولى

قانون إيمان الرسل

إن "قانون إيمـان الرسـل" (Symblum Apostolicum)، هـو عبارة عن موجز مختصر للعقائد المسيحية الرئيسة، لذلك يمكن أن يُطلق عليه الخلاصة الوافية للتعاليم اللاهوتية في الكنيسة. ولكن الشكل الذي هو عليه الآن، المكون من إثني عشر بندًا، لم يظهر قبل القرن السادس الميلادي، ومنذ ذلك الوقت فصاعدًا، استُخدم في بلاد الغال، وإسبانيا، وأيرلندا، وألمانيا في مناهج تعليم الموعوظين. وبالرغم من ذلك، فإن التسمية "قانون إيمان الرسل" تعود إلى ما قبل القرن السادس الميلادي، فقد كتب روفينوس في نهاية القرن الرابع تفسيرًا بعنوان "حول قانون إيمان الرسل"، يشرح فيه أصل هذا القانون. وبحسب روفينوس، كان هناك تقليد يذكر أن الرسل بعد ما حلّ عليهم الـروح القـدس، وقبل أن يخرجوا للكرازة في مختلف الأمم والبـلاد، اتفقوا على صيغة مختصرة للعقيدة المسيحية كأساس لتعاليمهم وكقاعدة إيمـان للمؤمنين (ML 21: 337)، ويبـدو أن أمـبروسيـوس يشـارك روفينيوس في رأيـه، حيث يشير عن عمد في كتابه "شـرح مثال الإيمـان" (Explanatoin of the Symbol)، إلى الإثـني عشر بندًا باعتبارها تمثّل الإثني عشر رسـولاً. أما في القرن السادس الميلادي، فنقرأ لأول مرة التأكيد الجازم على أن كل رسول وضع بندًا من بنود قانون إيمـان الرسل الإثني عشر، وذلـك في عظة منسوبة إلى أغسطينوس تعود لهذا القرن، وهي تشرح أصل القانون في الكلمات التالية: "قال بطرس: أنا أؤمن بالله الآب ضابط الكل، خالق السموات والأرض ... و قال أندراوس: وأؤمن بيسوع المسيح، ابنه الوحيد، ربنا..." (ML 39: 2189 - 2190)، وهـكذا ساهم كل رسول في وضع أحد البنود الإثني عشر. وقد ظلّ هذا الشرح لقانون إيمان

الرسل، والذي ظهر في القرن السادس الميلادي، هو الشرح السائد طوال القرون الوسطى. ولهذا كانت مفاجأة كبرى عندما أعلن ماركوس إفجينيكوس (Marcus Eugenicus)، رئيس أساقفة أفسس اليوناني، في مجمع فيريرا (Ferrara) ١٤٣٨م، أن الكنائس الشرقية لا تعرف شيئًا لا عن قانون الإيمان المُستخدَم في الكنائس الغربية، ولا عن نسبته للرسل. وبعد بضع سنين، أنكر عالم الإنسانيات الإيطالي "لورينزو فالا" (Lorenzo Valla) بشكل قاطع نسبة هذا القانون للرسل.

وقد أثبتت الأبحاث الحديثة حول هذا الموضوع، بشكل كافٍ، أن المحتوى الجوهري لقانون إيمان الرسل يعود إلى العصر الرسولي؛ ولكن صورته التي هو عليها الآن قد تطوّرت تدريجيًا. هذا ويرتبط بشدة التاريخ الطويل لقانون إيمان الرسل بالتطور المتطرد لليتورجية المعمودية وإعداد الموعوظين لنوالها، فلم يؤثر شيء آخر، في وضع "قانون الإيمان" هذا، أكثر مما أثرت الحاجة لصيغة اعتراف إيمانية يعلن بها المرشحون لنوال المعمودية إيمانهم، فمنذ عصر الرسل وإلى الآن، كانت الممارسة المسيحية تتطلّب أن يعترف الموعوظ بوضوح بإيمانه بالعقائد الأساسية بخصوص يسوع المسيح، لذا كان على المرشّحين للمعمودية أن يحفظوا كلمات معدّة مسبقًا عن ظهر قلب، وأن يردّدوها بوضوح أمام الشعب. ومن هذه العادة ظهر طقس "التسليم" (Traditio) و "تلاوة قانون الإيمان من الذاكرة" (redditio symboli). وقد كان اعتراف الإيمان جزءًا لا يتجزأ من الليتورجية، وعندما ندرك هذه الحقيقة إدراكًا كاملًا، عندئذ يمكننا أن نستوعب مدى أصالتها.

وتكشف دراسة التاريخ المبكر لقانون الإيمان عن صيغتين محددتين له: الصيغة الخريستولوجية، والصيغة الثالوثية:

أولاً: الصيغة الخريستولوجية (The Christological Formula)

إن أبسط أشكال قانون الإيمان مُسجل في سفر أعمال الرسل (أعمال ٨: ٣٧)، فقد عمّد فيلبس الخصي الحبشي بعد أن اعترف الأخير بإيمانه هكذا: "أنا أؤمن أن يسوع المسيح هو ابن الله". هذه العبارة تثبت لنا أن نقطة البداية في قانون الإيمان هي الاعتراف الإيماني بأن يسوع المسيح هو ابن الله. ولم تكن هناك حاجة لأن يُطلب المزيد من المرشّحين للمعمودية، فقد كان الاعتراف بأن يسوع هو المسيّا كافيًا، خاصة بالنسبة للمتحوّلين من اليهودية. وبمرور الوقت، أُضيفت ألقاب أخرى لهذه الصيغة، فبعد ذلك بفترة وجيزة أُضيف لقب "المخلِّص" إلى الصيغة، وظهر الشعار "إختيس" (ΙΧΘΥΣ)، وهو قانون الإيمان المتداول في العالم اليوناني، لأن كلمة (ΙΧΘΥΣ) وتعني سمكة - تحتوي على الأحرف الأولى من الكلمات اليونانية الخمس: (Ἰησοῦς Χριστὸς Θεοῦ Υἱὸς Σωτήρ) "يسوع المسيح ابن الله المخلِّص". ويشهد ترتليانوس، وكذلك نقوش "أبيركيوس" (Abercius)، عن انتشار هذه الصيغة [كقانون إيمان] في النصف الثاني من القرن الثاني. غير أنه قبل ذلك بكثير، كانت توجد في الكتابات المسيحية المبكِّرة ما يُعبر عن الإيمان بالمسيح بصورة رسمية أكثر وبنظرة أوسع، فبالفعل كان الرسول بولس في رسالته إلى أهل رومية (١: ٣، ٤) يصيغ "إنجيل الله" باعتباره رسالة "ابنه الذي صار من نسل داود من جهة الجسد. وتعين ابن الله بقوة من جهة روح القداسة بالقيامة من الأموات يسوع المسيح ربنا". هناك أيضًا صيغ مشابهة في كورنثوس الأولى (١٥: ٣) وبطرس الأولى (٣: ١٨ - ٢٢). وربما كانت هذه الصيغ تُستخدم ليتورجيًا، هذا الاستنتاج يفرض نفسه خاصة إذا كنا نتكلم عن مُلخص العمل الخلاصي الذي يذكره القديس بولس في فيلبي (٢: ٥ - ١١). وفي حوالى عام

١٠٠ ميلاديًّا، أعلن إغناطيوس الأنطاكي (في الرسالة إلى تراليا: ٩) إيمانه بيسوع المسيح بكلمات تذكّرنا بالبند الثاني من قانون إيمان الرسل، فقال: "يسوع المسيح، الذي من نسل داود، ابن مريم، الذي وُلد بالحقيقة، أَكَلَ وشَرِبَ، وتألم بالحقيقة على عهد بيلاطس البنطي، صُلب حقًّا ومات، ونظرته الكائنات السمائية والأرضية وما تحت الأرض، والذي أُقيم حقًّا من الأموات؛ إذ أقامه أبوه، وهكذا سيقيمنا أيضًا في المسيح يسوع طالما نؤمن به، وبدونه ليست لنا حياة حقيقية".

ثانيًا: الصيغة الثالوثية (The Trinitarian Formula)

إلى جانب الصيغة الخرستولوجية، وجدت أيضًا منذ عصر الرسل صيغة ثالوثية للاعتراف بالإيمان خاصة بطقس المعمودية، تلك التي صارت الصيغة السائدة، فوصية الرب بتعميد كل الأمم "باسم الآب والابن والروح القدس" هي التي أوحت بقاعدة الإيمان هذه. وقد ذكر يوستينوس الشهيد (Apol 1: 61)، حوالى سنة ١٥٠م، أن المتقدمين لنوال المعمودية كانوا "يتقبلون غسل الماء باسم الله الآب و رب الكون، ومخلّصنا يسوع المسيح، والروح القدس." علاوة على ذلك، كان العمل المعروف باسم "رسالة الرسل" (Epistola Apostolorum)، والذي كُتب في نفس الوقت تقريبًا، قد وسع بالفعل من اعتراف الإيمان هذا من ثلاثة بنود إلى خمسة. فقانون الإيمان - المذكور في هذه الرسالة - يحتوي ليس فقط على الإيمان "بالآب، ضابط العالم كله؛ وبيسوع المسيح مخلصنا؛ وبالروح القدس المعزّي"؛ ولكنه يضيف أيضًا "وبالكنيسة المقدسة، وبمغفرة الخطايا".

ثالثًا: الصيغة المركّبة (The Combination Formula)

في حين وسّعت "رسالة الرسل" الصيغة الثالوثية بإضافة عنصرين

جديدين إليها، إلا أنه قد بقى هناك أسلوب آخر للنمو، وهو بإعطاء تفاصيل أكثر عن كل بند من بنود قانون الإيمان. وتتمثل هذه الطريقة في نمط يمكن لنا أن نسمّيه الصيغة المركبة، تلك التي تجمع بين الصيغتين الخريستولوجية والثالوثية. وكان إدخال الاعتراف المسياني الذي كان في الأصل مستقلًا (والذي لا يزال محتفظًا بوجوده المستقل في مدخل الليتورجية الإفخارستية) قد أخلَّ بتناسق الصيغة الثالوثية البسيطة، وقد نتج عن هذا ثماني أو تسع عبارات بها قاعدة إيمان خريستولوجية موسعة، مثل تلك الصيغة التي كانت سارية في روما سنة ٢٠٠م، فقد احتوى طقس المعمودية لكنيسة روما الذي يصفه هيبوليتس في التقليد الرسولي على قانون الإيمان التالي: "أؤمن بالله الآب ضابط الكل، وبيسوع المسيح، ابن الله، الذي وُلد من الروح القدس ومن مريم العذراء، وصُلب على عهد بيلاطس البنطي، مات و دُفن، وقام من الأموات في اليوم الثالث، وصعد إلى السماء، وجلس عن يمين الآب، وسيأتي ليدين الأحياء والأموات، وبالروح القدس، وبالكنيسة المقدسة، وبقيامة الجسد." وكان ترتليانوس في نهاية القرن الثاني على علم بقانون الإيمان الروماني هذا، وهناك أسباب كثيرة لنعتقد أن هذا القانون كان قد تمت صياغته قبل أن نسمع عنه لأول مرة بفترة طويلة. هذا ولقد أثبت البحث العميق والواسع النطاق أنه ينبغي اعتبار هذه الصيغة الرومانية لقانون الإيمان بمثابة الأم لكل قوانين الإيمان الغربية بل وأيضًا "قانون إيمان الرسل" خاصتنا. هذا وقد انتقل [قانون الإيمان الروماني] خلال القرن الثالث من كنيسة إلى أخرى حتى ساد عالميًا، ولكننا لا نستطيع أن نثبت - كما حاول (Kattenbush) أن يفعل - أنه كان النموذج الأصلي لصيغ قوانين الإيمان في الشرق، فيبدو على أغلب الظن أن صيغ قوانين الإيمان الشرقية وقانون الإيمان الروماني كانا

فرعين مستقلين من أصل مشترك له جذوره في الشرق.

غير أنه يمكننا أن نرى تطوراً في الشرق يشبه ذاك الذي تتبعناه في الغرب، فقد أضيفت إلى الاعتراف الثالوثي البسيط تصريحات خريستولوجية[1]، لكن في حين تم التركيز على الميلاد من العذراء مريم في الغرب، أدخل الشرق عبارات جديدة بخصوص ميلاد المسيح الأزلي قبل خلق العالم، وقد سُميت هذه الإضافات بـ: "المضادة للهرطقة"، ولكننا لا نستطيع أن نكون متأكدين من أن هذه الإضافات كانت لمقاومة أي هرطقة إلا في حالات قليلة فردية، فمعظمها قد تمت إضافته بسبب ظهور حاجة في الكنيسة لشرح العقائد الأساسية في المسيحية أكثر وأكثر في قانون الإيمان بصورة مختصرة بهدف تعليم الموعوظين. ومثلما تطوّر طقس المعمودية من طقس بسيط إلى احتفال مهيب، هكذا تطور قانون الإيمان الخاص بالمعمودية من اعتراف ثالوثي بسيط إلى ملخص لكل عقائد المسيحية. ومثلما كانت هناك ليتورجيات مختلفة للمعمودية، هكذا أيضًا وجدت عدة قوانين إيمان. أما أشهر قوانين الإيمان في الشرق فهو القانون الأورشليمي المُسجل في مقالات كيرلس الأورشليمي لطالبي العماد، والقانون القيصري الذي دونه لنا يوسابيوس المؤرخ. ولا يزال الدارسون مختلفين حول ما إذا كان قانون الإيمان النّيقيّ هو صيغة معدلة من النموذج القيصري أم من النموذج الأورشليمي.

من الواضح إذن أن نص قانون إيمان الرسل الحالي لم يظهر قبل القرن السادس، حيث كان قد ظهر أولاً في قيصرية آرل (Arles).

---

[1] ويعطينا هذا الموضوع فكرة عن مدى قدم الصيغة الثالوثية المستخدمة في المعمودية حتى الآن في كنيستنا القبطية (قانون إيمان دير البلايزه): "أؤمن بإله واحد، الله الآب ضابط الكل، وابنه الوحيد يسوع المسيح ربنا، والروح القدس المحيي، وقيامة الجسد، والكنيسة الواحدة الوحيدة المقدسة الجامعة الرسولية. آمين." [المترجم]

كما أن قانون الإيمان الروماني الذي يعود إلى القرن الخامس الميلادي يختلف هو الآخر عن قانوننا؛ إذ تنقصه العبارات التالية: "خالق السماء والأرض - وِلد - تألم ومات ونزل إلى الجحيم - الجامعة - شركة القديسين - الحياة الأبدية". وعلى كل الأحوال فإن العناصر العقائدية المحتواة في قانون إيمان الرسل كانت جميعها قد ظهرت نحو نهاية القرن الأول الميلادي في صيغ الإيمان المتعددة والمختلفة المُسجلة في الكتابات المسيحية المبكرة.

الديداخي

يُذكر الديداخي، في فهرس المخطوطة التي وجدت فيها، تحت اسم مختصر هو: "تعليم الإثني عشر رسولاً (Διδαχὴ τῶν δώδεκα ἀποστόλῶν)، ولكن عنوانها الكامل هو:" تعليم الرب للأمم بواسطة الإثني عشر رسولاً (Διδαχὴ τοῦ Κυρίου διὰ τῶν δώδεκα ἀποστόλῶν τοῖς ἔθνεσι) ويبدو أن هذا العنوان الأخير هو العنوان الذي كان معروفًا به في الأصل. ولا يكشف الكاتب عن اسمه، إلا أنه سيكون من التسرّع أن نفترض، مثلما فعل (Duchesne)، أن العنوان يشير إلى أصل رسولي لهذه الوثيقة، فالنص لا يدل على ذلك بأي شكل من الأشكال، فمن الواضح أن نيّة الكاتب كانت هي أن يعطي مختصرًا لتعاليم المسيح كما علّمها الرسل للأمم، وهذا ما قد يفسر العنوان.

ويعتبر الديداخي أهم وثيقة من العصر بعد الرسولي، وهو أقدم مصدر قانوني كنسي نملكه. هذا ولم يكن الديداخي معروفًا حتى عام ١٨٨٣م، حينما نشره مطران نيكوميديا اليوناني فيلوثيئوس برينيوس (Philotheos Bryennios) من المخطوطة اليونانية رقم (١٠٥٧) المملوكة لبطريركية أورشليم. ومنذ ذلك الحين، أغنى

الديداخي معرفتنا عن بداية الكنيسة وعمقها بطريقة مدهشة. وقد جنى الدارسون، الذين طالما انجذبوا لمحتواه، الكثير من الإلهام والاستنارة من هذا الكتاب صغير الحجم. وقد يتوقع المرء - بالاحتكام إلى العنوان فقط - أن الديداخي يُبرز عظات المسيح الكرازية، ولكننا نجده مهتمًّا بالأكثر أن يُقدم خلاصة وافية للوصايا الأخلاقية، وإرشادات تنظيم الجماعات، والقوانين المتعلّقة بالوظائف الليتورجية؛ فنحن نملك هنا ملخصًا لتوجيهات من شأنها أن تمنحنا صورة واضحة للحياة المسيحية في القرن الثاني. وفي الحقيقة نقول إنه لدينا هنا أقدم ترتيب كنسيّ، فهو النموذج الأولي ذو المكانة لكل مجموعات الدساتير والقوانين الرسولية اللاحقة، تلك التي بها بدأت القوانين الكنسية في الشرق والغرب.

المحتويات

١. ينقسم نص الديداخي إلى ستة عشر فصلًا نستطيع أن نميز فيها قسمين كبيرين: القسم الأول (الفصول ١ - ١٠)، ويحتوي على إرشادات ليتورجية، والقسم الثاني (الفصول ١١ - ١٥)، ويتضمن قوانين تنظيمية. أما الفصل الأخير عن مجيء الرب الثاني (Parausia)، والواجبات المسيحية المترتبة على ذلك فهو بمثابة الخاتمة.

٢. يحتوي الجزء الأول من القسم الليتورجي (الفصول ١ - ٦) على توجيهات لتعليم الموعوظين، وطريقة عرض هذه التوجيهات هي أكثر ما يثير الاهتمام، فقد قُدمت القواعد الأخلاقية فيه في صورة طريقين: طريق الخير وطريق الشر، وهكذا يبدأ النص قائلًا: "هناك طريقان، أحدهما للحياة والآخر للموت، وهناك فارق كبير بينهما. والآن طريق الحياة هو هذا: أولًا: أحب الله الذي خلقك، ثانيًّا: أحب قريبك كنفسك، لا تفعل بآخر ما لا تحب لنفسك." (فصل ١: ١ - ٢). أما

طريق الموت فموصوف في الفصل الخامس كما يلي: "ولكن هذا هو طريق الموت قبل كل شيء، أنه شرير وملعون بالكامل ومليء بكل أنواع القتل، والزنى، والشهوات، والعُهر، والسرقة، وعبادة الأوثان، والسحر، والشعوذة، والخطف، وشهادة الزور، والنفاق، والرياء، والمجد الباطل، والخبث، والفظاظة، والطمع، والكلام الباطل، والغيرة، والطيش، والعجرفة، والادّعاء الكاذب، وعدم مخافة الله." وتحمل هذ الطريقة المزدوجة، والتي تُعتبر هنا وسيلة رئيسة لتعليم الموعوظين، طابعًا يونانيًا عتيقًا، فقد كانت هذه الطريقة تُستخدم في المجامع الهلينية لتعليم الدخلاء.

٣. أما بالنسبة لدارس التاريخ الليتورجي، فإن الفصول (٧ ـ ١٠) هي الأهم. وقد وردت إجراءات منح المعمودية أولًا هكذا: "المعمودية كالتالي: بعدما تشرحون كل هذه النقاط أولًا، عمِّدوا باسم الآب والابن والروح القدس في ماء جارٍ، وإن لم يكن هناك ماء جارٍ فعمدوا بماء آخر، وإن لم يمكنكم أن تعمدوا بماء بارد فعمدوا بماء ساخن، وإن لم يكن لديكم كلاهما، فاسكبوا ماء على الرأس ثلاث مرات باسم الآب والابن والروح القدس[٢]." (فصل٧: ١ ـ ٣).

وبحسب النصّ، فإن المعمودية بالتغطيس في ماء جارٍ، أي في الأنهار والينابيع، كانت هي الطريقة المعتادة في ممارسة هذا السر، أمّا المعمودية بالسكب فقد أُجيزت في حالات الضرورة، وهذا هو المصدر الوحيد من القرنين الأول والثاني بخصوص المعمودية بالسكب. وفوق ذلك، يتضمن الديداخي تعليما صريحا عن ضرورة الصوم، فقد كان يجب على كل من المتقدِّم للمعمودية والمُعمِد أن يصوما قبل إتمام السر (فصل٧: ٤). كذلك، حُدِّد يوما الأربعاء والجمعة بأنهما يوما

---

[٢] هنا السكب جاء كحالة استثنائية عندما لا يوجد ماء كاف للتغطيس، لأن المعمودية هي سر موت ودفن الطبيعة القديمة مع المسيح، والقيامة معه بالطبيعة جديدة المؤهلة لسكنى الروح القدس. [المراجع]

صوم ثابتان، وهي عادة موجهة ضد الممارسة اليهودية، حيث كانت الأخيرة تتضمن حفظ يومي الإثنين والخميس كيومي صوم تقليديين[٣] (فصل ٨: ١).

٤. الصلاة والليتورجيا: كان ترديد الصلاة الربانية ثلاث مرات في اليوم أمرًا واجبًا على كل مؤمن. كما أن للفصلين التاسع والعاشر أهمية خاصة في تاريخ الليتورجية، فهما يحتويان على أقدم صلاة إفخارستية مسجَّلة وهي كالآتي: "فيما يختص بالإفخاريستيا، اشكروا هكذا: أولاً: بخصوص الكأس: "نشكرك يا أبانا، لأجل كرمة عبدك داوود المقدسة، التي عرّفتنا إياها بواسطة خادمك يسوع. لك المجد إلى الأبد." ثانيًا: بخصوص الخبز المكسور: "نشكرك يا أبانا من أجل الحياة والمعرفة التي أظهرتها لنا بواسطة يسوع خادمك. لك المجد إلى الأبد. كما كان هذا الخبز المكسور منثورًا فوق التلال ثم جُمِع فصار واحدًا، هكذا فلتجتمع كنيستك من أقصاء الأرض إلى ملكوتك، لأن لك المجد والقدرة بيسوع المسيح إلى الأبد." لا يأكل ولا يشرب أحد من إفخارستيتكم غير المعتمدين باسم الرب، لأن الرب قد قال بخصوص هذا: "لا تعطوا القدس للكلاب." (فصل ٩).

والحقيقة إن الرأي الذي قُدم أكثر من مرة والقائل بأن ما لدينا هنا ليست صلاة مخصصة للإفخارستيا بل مجرد صلاة مائدة، هو رأي لا سند له، فمناقشة موضوع الإفخارستيا هنا مرتبط بشكل وثيق بالمعمودية، وكلاهما مرتبطان ببعضهما البعض في إيمان الكاتب كما هو واضح، بل الأكثر من ذلك هو أن غير المعمَّدين ممنوعون صراحة من الاشتراك في (مائدة) الإفخارستيا.

---

[٣] نستطيع أن نلمح بوضوح مدى تطابق هذة الطقوس والتقاليد السحيقة مع ما تمارسه كنيستنا القبطية حتى يومنا هذا. [المترجم]

ثم يورد الفصل العاشر صلاة تُقال بعد التناول: "بعد أن تمتلئوا من الطعام، اشكروا هكذا: "نشكرك أيها الآب القدوس من أجل اسمك القدوس الذي أسكنته في قلوبنا، ومن أجل المعرفة والإيمان والخلود الذين أعلنتهم لنا بواسطة يسوع خادمك. لك المجد إلى الأبد. أنت أيها السيد القدير خلقت كل الأشياء لأجل اسمك، ومنحت الناس طعامًا وشرابًا ليتمتعوا بهما، لكي يشكروك؛ أمّا نحن فمنحتنا طعامًا وشرابًا روحيَيْن وحياة أبدية بواسطة خادمك (يسوع). نشكرك قبل كل شيء لأنك قدير، لك المجد إلى الأبد." (١٠: ١ ـ ٤)

وتُسمى الإفخارستيا هنا ـ بكل صراحة ـ طعامًا وشرابًا روحيًا (πνευματικὴ τροφὴ καὶ ποτόν) ثم يضيف الكاتب: "كل من كان طاهرًا فليتقدم، ومن ليس كذلك فليتُب" (١٠: ٦).

ولا تشير التوجيهات الكثيرة فقط، ولكن أيضًا السياق بشكل خاص، إلى أن المقصود من هذه التوجيهات هو تنظيم التناول لأول مرة للمعمَّدين الجُدد في عشية عيد القيامة، أمّا الإفخارستيا المعتادة كل يوم أحد فقد وُصفت في الفصل الرابع عشر: "في يوم الرب، اجتمعوا معًا لكسر الخبز والشكر، ولكن اعترفوا أولاً بخطاياكم لكي تكون ذبيحتكم طاهرة، لا يجتمع معكم كل من له منازعة مع أخيه حتى يتصالحا لئلا تتنجّس ذبيحتكم، لأن الرب قال: "في كل مكان وزمان قرِّبوا لي ذبيحة طاهرة؛ لأني ملك عظيم، يقول الرب، واسمي مرهوب بين الأمم"." والإشارة الواضحة هنا إلى الإفخارستيا بكونها ذبيحة (θυσία) كذلك التلميح إلى نبوة ملاخي (١: ١٠) هما أمران لا يخلوان من دلالة.

٥. الاعتراف: وليس أقل إثارة للاتهام، التأكيد على الاعتراف قبل الاشتراك في الإفخارستيا. ويبدو أن الاعتراف بالخطايا الوارد هنا هو على الأرجح اعتراف ليتورجي، وليس اعترافًا شخصيًّا. وبالمثل، في

الفصل (٤ : ١٤)، يطلب الكاتب من المصلين الاعتراف بالخطايا قبل الصلاة في الكنيسة: "اعترفوا بخطياكم في الكنيسة ولا تتقدّموا لصلواتكم بضمير مذنب."

٦. الرتب الكنسية: لا توجد إشارات في الديداخي تُبرهن لنا على وجود ما يُعرف بنظام الإيبارشية ذات الأسقف الواحد (Monarchial episcopate)، فقادة الجماعات المسيحية يُدعون أساقفة (ἐπίσκοποι) وشمامسة (διάκονοι) لكن من غير الواضح إذا كان هؤلاء المُشار إليهم بكلمة (ἐπίσκοποι) هم كهنة عاديون أم أساقفة، كما أننا لا نجد أي ذكر للقسوس (πρεσβύτεροι) ومن ثَمَّ، انتخبوا لكم أساقفة وشمامسة، رجالًا جديرين بالرب، ودعاء، غير محبّين للمال، أمناء، وقد أُختُبروا جيدًا، لأنهم يسدون إليكم خدمة الأنبياء والمعلمين المقدسة. إذًا فلا تحتقروهم لأنهم هم المكرّمون بينكم مع الأنبياء والمعلمين." (فصل ١٥ : ١ ـ ٢)

وهذا الجزء يدفعنا لنستنتج أنه إلى جانب الإكليروس المحلي، فإن من يُدعون بـ "الأنبياء" قد لعبوا دورًا هامًّا. ونحن نقرأ بخصوصهم في الفصل (١٣ : ٣) [إنهم] "هم رؤساء كهنتكم" و قد سُمح لهم بالاحتفال الإفخارستي: "اسمحوا للأنبياء أن يقدموا الإفخارستيا εὐχαριστεῖν كما يشاؤون" (١٠ : ٧). كما أنه كان يحق لهم الحصول على العشور كلها: "لذلك، خذوا كل بكور الكرمة والمحصول، الماشية والأغنام، وأعطوها للأنبياء ... وبالمثل عندما تفتحوا وعاء خمر أو زيت جديدًا خذ باكورته وأعطه للأنبياء. أما فيما يخص الأموال والملابس والممتلكات الأخرى، فافرزوا أولًا جزءًا بحسب تقديركم وأعطوه حسب الوصية." (فصل ١٣ : ٣ ـ ٧) ومن الواضح أن المكانة التي كان الأنبياء يحتلونها كانت رفيعة حتى إنه قد قيل عنهم إنه لا يمكن لأحد أن يحكم عليهم: "أنه (النبي) غير خاضع لحكمكم

لأنه يُحكم عليه من قبل الرب." (فصل ١١ : ١١)، بل وإن انتقادهم كان خطيئة ضد الروح القدس: "كل نبي يتكلم بالروح لا تجربوه ولا تدينوه، فكل خطيئة تُغفَر، أمّا هذه فلا يمكن أن تُغفر" (فصل ١١ : ٧).

٧. أعمال البر والعمل الاجتماعي: إن مبادئ أعمال الصدقات والعمل الاجتماعي كما تظهر في الديداخي مثيرة جدًّا للاهتمام. فبالرغم من أن إعطاء الصدقات هو أمر مُستحسن جدًّا، إلا أن وجوب العمل لأجل كسب العيش هو أيضًا أمر مُشدد عليه. فالتصدق على الآخرين مشروط بعدم قدرتهم على العمل: "إذا كان الآتي عابر سبيل فساعدوه بقدر ما تستطيعون، ولكن لا يبقَ عندكم أكثر من يومين أو ثلاثة إذا اقتضى الأمر، أمّا إذا نوى أن يسكن بينكم، إن كان صاحب حرفة فليعمل ليعول نفسه؛ وإذا لم تكن له تجارة أو حرفة فتبصروا كيف تعولونه لكي لا يحيا تابع المسيح بينكم بلا عمل. فإذا لم يرضَ بهذا الترتيب فهو متاجر بالمسيح. احذروا مثل هؤلاء." (فصل ١٢ : ٢ ـ ٥ ACW).

٨. الإكليسيولوجيا (الكنسيات): مفهوم "الكنيسة" في الديداخي يحمل معنى "الجامعية" (universality) ففكرة الكنيسة التي تحتضن العالم كله تتصدر الوعي المسيحي، ذلك لأن كلمة (ἐκκλησία) "كنيسة" لا تعني فقط جماعة المؤمنين المجتمعين للصلاة، بل أيضًا الشعب الجديد أو الجنس الجديد من المسيحيين الذين سيجتمعون معًا في ملكوت الله يومًا ما، كما أن السمتين "الواحدة" و"المقدسة" لهما أهمية خاصة. ورمز هذه الوحدة هو خبز الإفخارستيا حيث يُصبح العديد من الحبوب خبزًا واحدًا، وذلك كما توضح إحدى الصلوات: "كما كان هذا الخبز المكسور منثورًا فوق التلال وحين جُمِع صار واحدًا، هكذا فلتجتمع كنيستك من

أقاصي الأرض إلى ملكوتك." (فصل ٩: ٤) وفي فقرة أخرى نجد الصلاة الآتية: "اذكر يا رب كنيستك: نجِّها من كل شرٍّ، وكمِّلها في محبتك، واجمع تلك المقدسة من الرياح الأربع إلى ملكوتك الذي أعددته لها." (فصل ١٠: ٥)

٩. الإسخاتولوجيا (الأخرويات): إن البُعد الإسخاتولوجي (الأخروي) بارز في الديداخي، وهو يظهر من حين لآخر في الصلوات الإفخاريستيّة: "لتأتِ النعمة، ولينتهِ العالم"، كما أنه يظهر في الخاتمة الآرامية "ماران أثا" - والتي تعني - "يارب تعال!". وهو أيضًا يتخلل الفصل الأخير من العمل بشكل كامل. وقد كان المسيحيون جميعهم يجهلون متى تأتي الساعة، ولكن "الباروسيا" أي مجيء المسيح الثاني كانت بالنسبة لهم قد غدت وشيكة، لذلك يجب على المؤمنين أن يجتمعوا معًا كثيرًا ليبحثوا عمّا هو نافع لنفوسهم. هذا ويشير الديداخي إلى العلامات التي سوف تسبق مجيء الرب وقيامة الأموات: سيكثر الأنبياء الكذبة والمنحرفون، ستتحول الحملان إلى ذئاب، وستتبدل المحبة إلى كراهية؛ عندئذ سيظهر مُضل العالم كابن لله وسيعمل آيات وعجائب، وستُدفَع الأرض ليديه، "وحينئذ، ستجتاز البشرية الامتحان الصعب"؛ وعلى الرغم من أن كثيرين سيتضايقون ويضلّون، ولكن من يتمسكون بإيمانهم سيخلصون، عندئذ سيرى العالم الرب آتيًا على السحاب وكل قدّيسيه معه. لذلك ينصح الديداخي المسيحيين قائلًا: "اسهروا على حياتكم؛ يجب ألّا تنطفئ مصابيحكم، وألّا تنكشف عوراتكم؛ بل على العكس، كونوا مستعدّين. أنتم لا تعرفون ساعة مجيء ربنا." (فصل ١٦: ١)

زمن كتابة الديداخي:

إن السؤال ذا الأهمية القصوى الذي يمكن للمرء أن يطرحه بشأن

الديداخي هو: متى كتب هذا العمل؟ ويكشف الفحص النقدي الحديث للنصّ أن الفصول (١ ـ ٦) من الديداخي تتشابه إلى حد بعيد مع الفصول (١٨ ـ ٢٠) من رسالة برنابا، ولكن كون هذا التشابه يعبِّر عن اعتماد حقيقي للديداخي على رسالة برنابا فهذا محلّ شك كبير. وعلى أية حال، لا يمكن لمثل هذه العلاقة أن تؤكد دون أن تثير الجدل. وهناك تفسير آخر محتمَل؛ بما أن الفقرات محل النقاش ـ في كل من الديداخي و رسالة برنابا ـ تتكلم عن "طريقين"، إذًا من الممكن أن يكون كلاهما مدينًا لمصدر آخر مشترك. كما أن محاولات ربط الديداخي بـكتاب "راعي هرماس" أو "دياتسرون" تاتيانوس لم تؤدِّ إلى نتيجة مؤكدة. ولكن هناك شيء واحد مؤكد، وهو أن الجزء (من ١: ٣ إلى ٢: ١) هو إضافة متأخرة على نص الديداخي، وقد يكون هذا هو الحال أيضًا بالنسبة للفصلين (٦ و١٤).

والديداخي ككلّ ليس كتابًا متماسك الأجزاء، بل هو بالأحرى تجميع غير متناسق لنصوص كانت موجودة مسبقًا، فهو أكثر قليلًا من مجرّد مجموعة من القوانين الكنسية التي كانت مستخدمة لبعض الوقت، ولهذا اكتسب ـ مع الزمن ـ قوة القانون الكنسي. وهذا سيفسر لنا أيضًا الكثير من التناقضات الموجودة في الديداخي، فقد فشل المصنِّف في محاولته للوصول إلى وحدة متماسكة من المادّة التي أمامه.

وتساعدنا الأدلّة الداخلية أكثر على تحديد الزمن الذي جُمع فيه الديداخي. ويكشف المحتوى بوضوح أن النصّ لا يعود للعصر الرسولي، وذلك لأن المشاعر المعادية لليهود تظهر فيه واضحة، كما كانت عملية التخلّي عن عادات المجامع اليهودية لا تزال في طريقها. علاوة على ذلك، تفترض مثل هذه المجموعة من القوانين الكنسية

فترة ما من الاستقرار. وكذلك تشير التفاصيل المتفرّقة داخل النص إلى أن العصر الرسولي لم يكن هو زمن الكتابة بل كان قد انقضى، فقد أقر الديداخي المعمودية بالسكب في حالة عدم توفر الماء الجاري للتغطيس؛ كذلك لما كان الاهتمام بالأنبياء في النظام الديني الجديد قد تراجع، لذا وجب أن يتم التنبيه عليه مرة أخرى. لكن ومن ناحية أخرى، هناك الكثير من الخصائص تشير إلى أصله القريب من العصر الرسولي: فالليتورجية الموصوفة في الفصول (٧ ـ ١٠) بسيطة إلى أبعد حد؛ ولا تزال المعمودية في الماء الجاري، أي في الأنهار، هي القاعدة السائدة؛ أما المعمودية بالسكب فكان يُسمَح بها على سبيل الاستثناء فقط؛ بل وأكثر من هذا، لا توجد أيّة آثار تشير إلى وجود صيغة موحَّدة لقانون الإيمان أو قانون للعهد الجديد؛ ولا يزال الأنبياء يقيمون الإفخارستيا، كما أنه كان من الضروري التشديد على أن خدام الليتورجيا الفعليين، الأساقفة والشمامسة، لهم نفس الكرامة والاحترام من قِبل المؤمنين. كل هذه الحقائق تساعد في إثبات أن الديداخي كُتب بين (١٠٠م ـ ١٥٠م)، وأغلب الظن أنه كُتب في سوريا.

ولقد مُنح الديداخي اهتمامًا وتوقيرًا كبيرًا في العصور المسيحية المبكِّرة حتى إن كثيرين كانوا يحسبونه مماثلاً في أهميته لأسفار العهد الجديد، ولهذا السبب كان يوسابيوس (Euseb. Hist. eccles 3: 25: 4)، وأثناسيوس (Ep. fest. 39)، وروفينوس (Comm. in symb. 38)، يرون أنه من الضروري التأكيد على أن الديداخي ليس له صفة قانونية، ولذا يجب أن يُعَدَّ من ضمن الكتب الأبوكريفية[4]. ولقد عمِل الديداخي كنموذج لكتابات ليتورجية وقوانين كنسية لاحقة، منها على سبيل المثال: الدسقولية السريانية والتقليد الرسولي لهيبوليتس الروماني والمراسِم الرسولية،

[4] أي ليست من الأسفار المقدسة القانونية

وقد كانت تُستَخدَم لتعليم الموعوظين كما يخبرنا أثناسيوس.

كيف وصل نص الديداخي إلينا

فيما يلي النسخ المرجعية لنص الديداخي:

أولًا: النصوص اليونانية:

١. المخطوطة الأورشليمية (The Codex Hierosolymitanus) المملوكة للبطريركية اليونانية في أورشليم، والتي كانت قبلًا محفوظة في مكتبة نُزل كنيسة القبر المقدس في القسطنطينية. ولقد نُسِخت تلك المخطوطة عام ١٠٥٦م بواسطة "ليو" كاتب العدل (Notary)، ووضِع فيها نص الديداخي بعد رسائل برنابا وكليمندس وقبل رسائل إغناطيوس.

٢. حُفظ النص اليوناني الخاص بالفصول (١: ٣ ـ ٤، و٢: ٧ ـ ٣: ٢) في مخطوطات أوكسيرينيخوس (Oxyrhynchos) التي تعود إلى القرن الرابع الميلادي.

٣. ضُمِنت الفصول (١ ـ ٦) من الديداخي في الفصول (١٨ ـ ٢٠) من رسالة برنابا.

٤. تحتوي قوانين الرسل المجمعة في مصر في القرن الرابع الميلادي على الفصول (١: ١ ـ ٣، و٢: ٢ ـ ٤، ٨). كما يحتوي الكتاب السابع من المراسم الرسولية المكتوبة في سوريا في القرن الرابع الميلادي، على النص اليوناني الكامل الخاص بالديداخي تقريبًا.

ثانيًا: النصوص اللاتينية:

حُفظت لدينا شذرتان من ترجمة لاتينية قديمة لا بد وأنها قد أُنجزت في القرن الثالث الميلادي، أقصرهما من مخطوطة جاءت من مدينة ميلك (Melk)، وتعود إلى القرن التاسع أو العاشر الميلادي،

وهـي تحتوي على الفصول (١: ١ ـ ٣ و٢: ٢ ـ ٦) من الديداخي. أما الشـذرة الأخـرى فقد وجـدت في مخطوطة ميونخ (Cod. Monac. Lat. 6264) وتعـود إلى القـرن الحـادي عشـر، وتتضمن الفصول (١: ١ ـ ٢ و٢: ٢ ـ ٦: ١). ولقد اكتُشف حديثًا جزء كبير من الديداخي (الفصول ١٠: ٣ب ـ ١٢ :٢أ) في ترجمة قبطية تعود إلى القرن الخامس في البردية رقم (٩٢٧) بالمتحف البريطاني. ووفقًا لهذه الشذرة القبطية كان هذا الجزء من الديداخي بمثابة صلاة تُتلى على زيت المسحة (μύρον) بعد صلاة الإفخارستيا، و كان هذا الزيت غالبًا هو الميرون المستخدَم في تتميم سرّي المعمودية والتثبيت.

وبالإضافة للمخطوطات سابقة الذكر نملك شذرات من ترجمات سريانية وعربية وإثيوبية وجورجية.

الفصل الثاني

الآباء الرسوليون

الآباء الرسوليون هم الكُتَّاب المسيحيون الذين عاشوا في القرن الأول وبداية القرن الثاني الميلادي، والذين تُعتبر تعاليمهم بحق صدًى مباشرًا لتعاليم الرسل. ولقد كان هؤلاء على اتصال شخصي بالرسل أو تعلّموا من تلاميذهم. ولم يكن مصطلح "الآباء الرسوليين" معروفًا في الكنيسة الأولى، ولكن أدخله الدراسون في القرن السابع عشر. ولقد أدرج (B. Cotelier) تحت هذا المسمى (Patres Aevi Apostolici, 2 vols 1672)، خمسة كُتّاب كنسيين وهم: برنابا، وإكليمنضس الروماني، وإغناطيوس الأنطاكي، وبوليكاربوس أسقف سميرنا (أزمير)، وهرماس. لكن في وقت لاحق جرى العُرف على زيادة عدد الآباء الرسوليين إلى سبعة، وذلك بإضافة باباياس الذي من هيروبوليس (Hieropolis)، وكاتب الرسالة إلى ديوجنيتوس المجهول؛ وفي العصر الحديث أُضيف إليهم الديداخي. ومن الواضح بالطبع أن هذا التقسيم لا يدلّ على مجموعة متجانسة من الكتابات؛ فراعي هرماس ورسالة برنابا ينتميان، من حيث الموضوع والشكل، إلى الأبوكريفا، في حين الرسالة إلى ديوجينتوس - بسبب الهدف الذي كتبت لأجله - يجب أن تُصنف ضمن كتابات المدافعين اليونانيين.

ولكتابات الآباء الرسوليين طابع رعوي، وهي تتشابه مع أسفار العهد الجديد - خاصة رسائل الرسل - من حيث المضمون والأسلوب، وبالتالي يمكن اعتبارها حلقة وصل بين عصر الوحي (الاستعلان) (revelation) وعصر التقليد (tradition)، كما أنها شاهد هام على الإيمان المسيحي. وينتمي الكُتّاب لمناطق مختلفة تمامًا من الإمبراطورية الرومانية: أسيا الصغرى، وسوريا، وروما، وقد كتبوا لظروف معينة، إلا أنهم يمثّلون عالمًا واحدًا من الأفكار التي تعطينا صورة عن التعاليم المسيحية في نهاية القرن الأول.

والبُعد الإسخاتولوجي هو الطابع المميِّز لكل هذه الكتابات،

فمجيء المسيح كان يُعتبر وشيكًا. ومن ناحية أخرى، كانت الذكريات عن شخص المسيح لا تزال حية في الأذهان، وذلك لعلاقة الكُتاب المباشرة بالرسل، لذلك تُظهر كتابات الآباء الرسوليين اشتياقًا شديدًا للمسيح المخلِّص الذي عاد إلى السماء والمنتظَر، وهو شوق يأخذ أحيانًا كثيرة شكلًا سرائريًّا (mystical) مثلما عند إغناطيوس الأنطاكي. ولم يكن الآباء الرسوليون يهدفون إلى إعطاء شرح علمي للإيمان المسيحي، فكتابتهم تحتوي على تعبيرات عَرَضية أكثر منها تعريفات عقائدية. وبالرغم من هذا، فإنهم بشكل عام يؤكدون على نفس الإيمان الواحد المتعلق بطبيعة المسيح، فالمسيح بالنسبة لهم هو ابن الله، الكائن منذ الأزل، والذي شارك في خلق العالم.

كليمندس الروماني

وفقًا لأقدم قائمة بأسماء أساقفة روما، تلك التي تركها إيرينيوس للأجيال اللاحقة (Adr. Haer. 3: 3: 3)، كان كليمندس الخليفة الثالث للقديس بطرس على كرسي روما. ولم يذكر لنا إيرينيوس متى بدأ كليمندس عهده، ولا مُدّة رئاسته للكنيسة. وبالمثل ذكر يوسابيوس المؤرِّخ (Hist eccl. 3: 15: 34) أن كليمندس هو الخليفة الثالث بعد القديس بطرس، جاعلًا من السنة الثانية عشرة من حكم دومتيان بداية لعهده، والسنة الثالثة من حكم تراجان هي الأخيرة من فترة حبريته، وبالتالي يكون كليمندس هو بابا روما في الفترة من ٩٢م وحتى ١٠١م. ويذكر ترتليانوس أن كليمندس قد رسمه القديس بطرس بنفسه، ويؤكد إبيفانيوس هذا ولكنه يضيف أن كليمندس من أجل سلام الكنيسة قد تخلّى عن الأسقفية لـ لينوس (Linus) واستأنفها ثانية بعد موت أناكليتوس (Anacletus). ونحن

لا نعرف شيئا عن حياة كليمندس الأولى في روما. ويشير إيرينيوس إلى أن كليمندس كان يعرف شخصيًا كُلًا من القديس بطرس والقديس بولس، كما أن أوريجانوس (Comm. in Joan 6: 36) ويوسابيوس (Hist. eccl. 6: 3: 15) يقولان إنه هو نفسه كليمندس الذي مدحه القديس بولس في الرسالة إلى أهل فيلبي كشريك له في الخدمة (فيلبي ٤: ٣)، ولكن هذا الرأي ينقصه التأييد. أما الإكليمنديات المنحولة (Pseudo-Clementines)، والتي تجعل من كليمندس عضوًا في أسرة فلافي (Flavii)، الإمبراطورية، فليست محلّ ثقة. كما أنه لا يمكن التعويل على رأي دَيو كاسيوس (Dio. Cassius) (Hist. Rom. 67: 14) بأن كليمندس هذا ما هو إلا القنصل تيطس فلافيوس كليمندس (Titus Flavius Clemens)، أحد أعضاء الأسرة المالكة! والذي أُعدِم سنة (٩٥م أو ٩٦م) بسبب اعترافه بالمسيح. و لا نستطيع كذلك أن نثق في القصة التي تقول بأن هذا الأسقف الرابع على كرسي روما قد مات شهيدًا، فالكتاب اليوناني "استشهاد القديس كليمندس" هو من مدونات القرن الرابع الميلادي، بل والأكثر من ذلك هو أن له طابعًا أسطوريًا! وتعيد الليتورجيا الرومانية القديس كليمندس الروماني في ٢٣ نوفمبر، كما يُذكَر اسمه في مجمع القدّاس.

الرسالة إلى أهل كورنثوس

إن المكانة العالية التي كان يحظى بها كليمندس الروماني تظهر واضحة في المؤلَّف الوحيد الذي وصلنا بقلمه، وهي الرسالة إلى أهل كورنثوس.

ورسالة كليمندس الروماني لأهل كورنثوس هي واحدة من أهم كتابات العصر ما بعد الرسولي، حيث إنها أقدم قطعة من الأدب

المسيحي خارج العهد الجديد توثّق تاريخيًّا اسم ومنصب وتاريخ مؤلِّفها. وقد كان اندلاع النزاعات في كنيسة كورنثوس في عهد دوميتيان هو الذي دفع الكاتب إلى التدخُّل؛ فالتحزُّبات التي قد وبّخها القديس بولس بشدة قد ثارت من جديد. لقد تمرد بعض الأفراد المتكبِّرين المتهوِّرين على السلطة الكنسية ومنعوا الكهنة من الخدمة، فقط أقلِّية صغيرة من الجماعة هي التي ظلّت مخلصة للكهنة المخلوعين. وكان قصد كليمندس هو أن يسوّي تلك الخلافات، ويعالج تلك الفضيحة التي عابت المسيحيين أمام الوثنيين. ونحن لا نعرف كيف وصلت أخبار تلك الخلافات إلى روما، ولا يوجد أساس للرأي الذي كثيرًا ما تردد في الماضي والقائل بأن الكورنثيين قد استغاثوا بأسقف روما لكي يتدخّل ضد العناصر المتمرّدة، ولكن النظرية الأكثر قبولًا هي أن روما قد علمت بالظروف الراهنة عن طريق مسيحيين رومانيين كانوا مقيمين بصورة مؤقتة في كورنثوس وكانوا شهودًا على الخلافات والنزاعات التي قامت هناك.

أولًا: المحتويات

تتكوّن الرسالة من مقدمة (فصول ١ ـ ٣)، وجزأين رئيسين (٤ ـ ٣٦ و٣٧ ـ ٦١)، وخُلاصة (٦٢ ـ ٦٥).

وتلفت المقدمة الانتباه إلى الحالة المزدهرة التي كان عليها المجتمع المسيحي في كورنثوس قبل اندلاع النزاعات، والتوافق الذي ساد بين أعضائه وغيرتهم على الحق، ولكن الفصل الثالث - على النقيض - يشير إلى حالة المجتمع التي تغيّرت بالكلّية.

والجزء الرئيس الأول له صفة العمومية، فهو يستنكر الخلاف والحسد، ويستشهد في شأن هذه النقائص بأمثلة كثيرة من العهد القديم وتاريخ الكنيسة (فصل ٤ ـ ٦). كما أنه يحثّ على التوبة،

وإضافة الغرباء، والتقوى والاتضاع، ثم يدعم حجته بالكثير من الاستشهادات والأمثلة. وبعد ذلك يسهب الكاتب في الكلام عن صلاح الله، والتوافق الموجود في الخليقة، وقدرة الله الكلية، والقيامة والدينونة، والاتضاع، والاحتمال، والإيمان والأعمال الصالحة التي تقودنا نحو المكافأة، نحو المسيح.

أما الجزء الرئيس الثاني فيتناول مباشرة الخلاف الموجود بين مسيحيّي كورنثوس؛ فالله، خالق النظام في الطبيعة، يطلب النظام والطاعة من خليقته. ثم يثبت الكاتب ضرورة الانضباط والخضوع بالإشارة إلى تدريبات الجيش الروماني الصارمة والنظام الكهنوتي في العهد القديم، وهكذا أيضًا بالمثل دعا المسيح رسلًا، وهم بدورهم أقاموا أساقفة وشمامسة. ولا بد من أن يحلّ الحب محلّ الخلاف، ولا بد للمحبة من أن تحث على الغفران. كما يجب وعظ المحرِّضين على الخلاف لكي يقدِّموا توبة ويخضعوا.

ثم تلخِّص الخاتمة النُصح الذي قُدِّم سابقًا، وتعبِّر عن الآمال المتقدة في عودة المكلَّفين بتسليم الرسالة بسرعة إلى روما حاملين أخبارًا سارّة عن استعادة السلام في كورنثوس.

ولهذه الرسالة شأن هام في دراسة العصور الأولى للكنيسة، وأيضًا في دراسة تاريخ العقيدة والليتورجيا.

١. تاريخ الكنيسة

(أ) الفصل الأول هام جدًّا، فهو يحمل شهادة موثَّقة على إقامة القديس بطرس في روما، ورحلة القديس بولس إلى إسبانيا، واستشهاد هامتي الرسل بطرس وبولس: "لنأخذ المثال النبيل الذي لجيلنا: فإنه بسبب الغيرة والحسد اضطُهِد العمودان المقدّسان العظيمان، وحوربا حتى الموت. دعونا نسترجع ما حدث للرسولين الصالحين: لقد جاز

بطرس - بسبب الغيرة الجائرة - لا في ضيقة واحدة أو ضيقتين بل في ضيقات كثيرة، وهكذا استُشهِد ورحل إلى موضع المجد الذي يستحقه. وأيضًا من خلال الغيرة والنزاع أظهر بولس كيف ربح جائزة صبر الاحتمال، فقد سُجِن سبع مرّات، وأُجبِر على الهرب، ورُجِم، وبشّر في الشرق والغرب؛ وأخيرًا نال المكافأة الجليلة التي استحقّها إيمانه. لقد علَّم العالم كلّه سبيل الحياة الصالحة، وسافر بعيدًا حتّى الحدود الغربية للإمبراطورية الرومانية، وعندما شهد أمام السلاطين، وانتهت سيرته الأرضية، ورُفِع إلى الأقداس كمثال للصبر والاحتمال." (ACW).

(ب) أيضًا يزودنا الفصل السادس بمعلومات عن اضطهاد نيرون للمسيحيين، ويتحدّث عن جموع الشهداء، ويذكر أن كثيرًا منهم من النساء: "لقد لحق بهؤلاء الرجال الذين عاشوا حياة مقدسة جموع كثيرة من المختارين الذين احتملوا كثيرًا من الإهانات والعذابات بسبب الحسد، وهكذا صاروا أمثلة لامعة بيننا. بسبب الحسد، احتملت كل من دانايدس (Danaids)، وديرسي (Dircae)، عذابات مخيفة وكريهة، ثم وصلتا بأمان إلى الهدف المنشود في مضمار الإيمان، وحصلتا على الجائزة النبيلة بالرغم من ضعف جنسهما." (ACW).

٢. تاريخ العقيدة

(أ) إن هذه الوثيقة ثمينة جدًّا من وجهة النظر العقائدية، ويحق لنا أن نسميها "بيان القانون الكنسي" (manifesto of ecclesiastical jurisdiction). ونحن هنا نرى لأول مرّة اعترافًا واضحًا وصريحًا بعقيدة الخلافة الرسولية، كذلك التشديد على الحقيقة القائلة بأنه لا يمكن لأعضاء الجماعة عزل الكهنة، لأن هذا السلطان ليس

ممنوحًا لهم، فحق القيادة مستمد من الرسل الذين مارسوا سلطانهم في طاعة المسيح، الذي بدوره كان مُرسَلًا من الله الآب: "لقد بشرنا الرسل بالإنجيل الذي تسلّموه من يسوع المسيح، ويسوع المسيح هو سفير الله الآب، وبكلمات أخرى، أتى المسيح برسالة من الله، وأتى الرسل برسالة من المسيح. إذًا ينبع هذان الترتيبان التنظيميان من إرادة الله. وهكذا بعدما استلموا التعليم، وتيقّنوا بواسطة قيامة ربنا يسوع المسيح، وثبتوا في الإيمان بكلمة الله، خرجوا، متسلحين بملء الروح القدس، ليكرزوا بالبشارة بأن ملكوت الله قد اقترب. من أرض لأرض، ومن مدينة إلى مدينة بشّروا، وعيّنوا من أوائل الذين آمنوا رجالًا اختبروهم بالروح، ليصيروا أساقفة وشمامسة لمؤمني المستقبل. هذا ليس ابتكارًا، لأن الكتاب قد تحدّث منذ وقت طويل عن الأساقفة والشمامسة حيث يقول في موضع: "أقيم أساقفتهم في حفظ الناموس، وشمامستهم في الإيمان" (فصل ٤٢)[١]. "ولقد أُعطيَ لرسلنا أيضًا أن يفهموا من ربنا يسوع المسيح أن خدمة الأسقف قد تثير المؤامرات، لذلك إذ قد تسلّحوا بمعرفتهم المسبَقة، عيّنوا الرجال المذكورين آنفًا لهذه الوظيفة، ووضعوا مرّة وإلى الأبد قاعدة أنه عند موت هؤلاء الرجال فليخلفهم في هذه الخدمة المقدسة آخرون متَّفَق عليهم، ولذا نرى أنه ليس من العدل أن يُطرد من هذه الخدمة المقدسة من عينهم الرسل، أو عُينوا لاحقًا باتفاق الكنيسة كلها، وذلك بواسطة إناس ذوي سمعة طيبة." (فصل ٤٤ : ١ ـ ٣) (ACW).

(ب) ولرسالة القديس كليمندس أهمية قصوى بالنسبة لنقطة أخرى في العقيدة، ألا وهي أوّلية كنيسة روما، حيث تمدنا ببرهان لا لَبس فيه على صحتها[٢]. ولا يمكننا أن ننكر أن الرسالة لا تحتوي

---

[١] إشعياء ٦٠: ١٧ (حسب السبعينية). [المترجم]

[٢] حسب عقيدتنا القبطية الأرثوذكسية نحن لا نوافق على هذا الرأي ولا يوجد في النص إشارة واضحة تدعم هذا الادعاء، لكنها كلها استنتاجات من قبل المؤلف. [المترجم]

على تأكيد قاطع بشأن أوّلية الكرسي الروماني، فالكاتب لا يذكر صراحة في أي جزء من الرسالة أن تدخُّله يقيّد أو يلزم قانونًا المجتمع المسيحي في كورنثوس، لكن على الرغم من ذلك، وجود الرسالة هو في حدّ ذاته شهادة في غاية الأهمية لسلطان أسقف روما، فكنيسة روما تتحدّث إلى كنيسة كورنثوس كما يتحدّث من هو أرفع مقامًا إلى من هو تابع. ويعتذر الكاتب في الفصل الأول فورًا لأنه لم يستطع تخصيص جزء من انتباهه مبكرًا إلى الخلافات الموجودة في كورنثوس البعيدة. وهذا يثبت بوضوح أن كتابة الرسالة لم تكن فقط بسبب اهتمام وقلق المسيحيين الأوائل في إحدى الجماعات على إخوتهم في جماعة أخرى، ولو كان الأمر هكذا لوجدنا اعتذارًا عن التدخُّل في الصراع، ولكن أسقف روما يعتبر أنه من واجبه أن يتولّى الأمر، ويعتبرهم آثمين لو لم يقدّموا له الطاعة[٣]: "ولكن إن كان أناس غير طائعين للكلمات التي كلّمناهم بها، فليفهموا أنهم سيوقعون بأنفسهم في المعصية، وهو خطر ليس بقليل، ولكننا سنكون أبرياء من هذه الخطية." (فصل ٥٩ : ١ ـ ٢). مثل هذه اللهجة السلطوية (authoritative tone) لا يمكن أن نفسرها على أساس العلاقات الثقافية الوثيقة بين كورنثوس وروما. والكاتب مقتنع بأن أفعاله مدفوعة بواسطة الروح القدس: "لأنكم ستعطوننا فرحًا وبهجة إذا أطعتم ما كتبناه بواسطة الروح القدس." (فصل ٦٣ : ٢).

(ج) ويعالج كل من الفصل (٢٤) والفصل (٢٥) موضوع قيامة الأموات ورمزية أسطورة طائر العنقاء (Phoenix) وهذه هي أقدم إشارة مسيحية إلى هذه القصة القديمة. وقد لعبت تلك الأسطورة دورًا هامًّا في الأدب والفن المسيحيين المبكرين.

---

[٣] هذا محض تأويل للنص الذي لم يحتو على تبعية أو طاعة بحسب الرتبة، بل طاعة للوصية الإنجيلية والتي إن لم يطيعوها فسيوقعون أنفسهم في المعصية وسيكون ق. كليمندس بريئًا منها لأنه قد نبههم إليها. [المراجع]

(د) يكشف المقال الذي نجده في الفصل (٢٠)، والذي يدور حول الانسجام الموجود في نظام العالم، عن تأثير الفلسفة الرواقية:

"لنتحدث عن كيفية تعامله - أي الله - مع خليقته بهدوء، السماوات تدور بترتيبه، وتخضع له في سلام؛ النهار والليل يكملان دورتهما المرسومة، ولا يتداخل أحدهما مع الآخر؛ الشمس والقمر وجوقات النجوم تطيع ترتيبه، وتدور في توافق بدون أن تحيد عن مداراتها؛ الأرض تحمل ثمرًا طبقًا لإرادته في مواسمها المواتية، وتعطي الطعام اللازم للإنسان والوحوش وكل الأحياء عليها وهي لا تتردد في تنفيذ أوامره ولا تبدلها؛ الأحكام غير المفحوصة التي تضبط الأعماق تحكمها نفس الأوامر؛ البحر الذي بلا حدود، والذي أنشأه الله بفعله الخلاق بجمعه للمياه، لا يتعدى الحدود المحيطة به، ويفعل تمامًا ما أُمِر به، لأن الله يقول: "إلى هنا تأتي، وأمواجك ستتحطم فيك"؛ المحيط الذي لا يستطيع البشر عبوره، والعوالم التي وراءه تحكمه نفس أحكام السيد؛ الفصول الأربعة - الربيع والصيف والخريف والشتاء - تتعاقب، الواحد وراء الآخر، في تتابع سلمي؛ الرياح بحسب أدوارها تقدِّم خدمتها بدون اضطراب في الوقت المعين؛ الينابيع الدائمة الجريان، المخلوقة للبهجة والصحة، تقدِّم للبشر أثداءها التي لا تنضب التي تحفظ الحياة؛ أصغر الحيوانات تتواءم في سلام وتوافق؛ كل هذة الخليقة التي رتّبها الخالق القدير والسيد لتعمل في سلام وتوافق لفائدة العالم، وبالأكثر جدًا لنا، نحن الذين التجأنا تحت رحمته بربنا يسوع المسيح، الذي له المجد والعظمة إلى أبد الآبدين. أمين." (ACW).

٣. الليتورجيا

(أ) الرسالة تشير إلى الفصل الواضح بين الرئاسات - الإكليروس -

والعلمانيين، فبعد شرح الأقسام المختلفة لرئاسة الكهنوت في العهد القديم، يضيف الكاتب: "العلماني مرتبط بالقوانين التي وُضِعت للعلمانيين" (فصل٤٠ :٥)، ثم يصل لهذه الخلاصة: "كل واحد مِنّا أيها الإخوة لا بد أن يسعى في موضعه لكي يرضي الله بضمير صالح، ويحترس بوقار ألّا يحيد عن قاعدة الخدمة(Λειτουργία) المقرَّرة" (فصل ٤١ : ١).

(ب) أعضاء رئاسة الكهنوت المسيحية يُدعَون "أساقفة" ἐπίσκοποι و"شمامسة" διάκονοι وفي فقرات أخرى يُطلق عليهم جميعًا لقب "شيوخ" πρεσβύτεροι (قارن ٤٤: ٥ و ٥٧: ١). أما أهم وظائفهم فهي الاحتفال بالليتورجيا، أي رفع التقدمات (فصل ٤٤ : ٤).

(ج) يحتوي الجزء الذي يسبق الخاتمة (فصل ٥٩ : ٤ ـ ٦١: ٣) على صلاة رائعة اقتبستها لكي أظهر أن كنيسة روما تحمل رخاء العالم المسيحي بأسره في قلبها. ولن نكون مخطئين لو قلنا إنها ليست بأقل من صلاة ليتورجية كانت مُستخدمة في كنيسة روما، حيث إنه إن لم يُقتبس في هذا السياق، وبأمانة كاملة، صلاة من الصلوات المعتاد تلاوتها في الليتروجيا، سيكون الأمر بلا معنى. أما من ناحية الصيغة واللغة، يمكننا أن نقول إن تلك الصلاة ليتورجية وشعرية من بدايتها إلى نهايتها. إنها تشهد لأُلوهية المسيح الذي تسميه بـ "فتى الله المحبوب" (ἠγαπημένος παῖς) "والذي من خلاله علمنا الرب وقدسنا ومجدنا". والمسيح فيها هو "رئيس الكهنة"، و"حارس نفوسنا" (فصل ٦١: ٣). إضافة إلى ذلك، يترنم كليمندس فيها بعناية الله ورحمته. أما الخاتمة فهي عبارة عن صلاة توسلية من أجل السلطات المدنية؛ وهي ذات شأن كبير في مجال دراسة المفهوم المسيحي المبكر للدولة: "فأنت أيها السيد، الذي منحتهم أن يمارسوا السلطة والسيادة

بقوتك العجيبة التي تفوق كل وصف، حتى إذا ما عرفنا أنهم منك استمدوا المجد والكرامة، نخضع لهم بدون أن نناقض إرادتك. امنحهم، يا رب الصحة والسلام، والوئام والاستقرار حتى يزاولوا دون عائق السيادة التي سلمتها لهم. لأنك أنت، يا سيد وملك السموات إلى الأبد، تمنح أبناء البشر المجد والكرامة والقدرة على كل ما في الأرض. فوجه مشورتهم وفقًا لما هو حسن ومرض في عينيك حتى إذا ما زاولوا في السلام والوداعة والتقوى والسلطة التي منحتها لهم، يفوزوا برضاك." (فصل ٦١: ١ ـ ٢)

ولننتقل من دراسة التفاصيل إلى دراسة الرسالة ككل، ويمكننا أن نذكر بعض الحقائق عن زمن كتابتها، وشخصية كاتبها، والسبب الذي دفعه إلى كتابتها.

ثانيًا: زمن الكتابة

بالإضافة إلى ما ذكر عن اضطهاد نيرون (فصل ٢: ٤)، نلمح إشارة إلى اضطهاد آخر كان لا يزال دائرًا، وذلك من الكلمات التالية: "نظرًا للمصائب التي حلت بنا فجأة واحدة تلو الأخرى." (١: ١). كما أن كلميندس، عقب وصفه للاضطهاد الذي أثاره نيرون، يقول: "ونحن في نفس الحلبة نواجه نفس المعركة." (فصل٧: ١). ولا شك أن كليمندس، في إشاراته الواضحة تلك إلى اضطهاد آخر، كان يقصد الاضطهاد الذي أثاره دومتيان عامي ٩٥م و ٩٦م. علاوة على ذلك، يفترض سياق الكلام أن الرسل قد ماتوا منذ فترة، بل وحتى القسوس الذين أقاموهم قد تركوا وظائفهم لآخرين ثم رقدوا هم أيضًا في الرب (فصل ٤٢ - ٤٤: ٢). وتتفق هذه المعلومات التي حصلنا عليها من داخل الرسالة نفسها مع شهادة التقليد، خاصة ما أورده يوسابيوس عن هيجيسيبوس (Hegesippus) (١٨٠)، في أن

الخلافات التي جعلت كليمندس يكتب هذه الرسالة قد حدثت في حكم دومتيان. هذا بالإضافة إلى أن بوليكاربوس رجع إلى رسالة إكليمندس عندما كتب إلى أهل فيلبي.

ثالثًا: شخصية الكاتب

لم يشر كليمندس في رسالته إلى نفسه بالاسم، بل ذكر أن المُرسل هو "كنيسة الله المتغربة في روما". كما أن الكاتب يستخدم صيغة الجمع "نحن" عند حديثه عن نفسه، ذلك بالرغم من أننا متأكدون من أن الرسالة بقلم كاتب واحد، فالوحدة الأدبية والموضوعية في الرسالة تقطع بهذا. ويبدو أن كليمندس قد وضع في اعتباره أن هذه الرسالة ستُقرأ باعتبارها موجهة للجميع لا لشخص واحد؛ ولقد تصور أنها ستُقرأ على جماعة المسيحيين المجتمعين معًا للعبادة الإلهية، ومن ثم نجد أن الرسالة مُستفيضة جدًّا وزاخرة بالكثير من المُحسنات البديعية. ويأخذ الجزء الأول من الرسالة شكل عظة موجهة إلى الجماعة بأسرها، وبه القليل من الإشارات إلى الوضع القائم في كورنثوس. وفي الحقيقة، يذكر الأسقف ديونيسيوس (Dionysius)، أسقف كورنثوس، أن رسالة القديس كليمندس كانت لا تزال تُقرأ على جماعة المؤمنين في إيبارشيته أثناء العبادة الإلهية (حوالى عام ١٧٠م)، فها هو يقول في رسالة إلى البابا سوتير (Eusebius Hist. eccles 4: 23: 11): "اليوم نحن نحفظ يوم الرب المقدس ونقرأ رسالتك التي سنداوم على قراءتها من وقت لآخر للتذكر، كما نفعل بتلك التي أرسلها إلينا كليمندس من قبل." وقد ذكر يوسابيوس أيضًا في موضع آخر (Hist. eccles. 3: 16) أن هذة العادة ليست مقتصرة على كنيسة كورنثوس، فقال: "هناك رسالة ذائعة الصيت لكليمندس، طويلة ورائعة، كتبها

لكنيسة كورنثوس باسم كنيسة روما، حينما كانت هناك شقاقات في كورنثوس، وقد نما إلى علمنا أن هذه الرسالة تقرأ علانية في كنائس كثيرة أثناء العبادة العامة، في الماضي والحاضر.ʺ ومن الواضح أن قصد كليمندس كان أن يمنح هذه الوثيقة أهمية تتعدى المناسبة المباشرة لكتابتها، بالطبع بعد أن تكون قد حققت هدفها وضمنته، وهي إعطاؤها مكانة دائمة في الأدب الكنسي. وبقدر ما يمكننا أن نكون متأكدين، يبدو أن الكاتب كان من أصل يهودي، فالإشارة المتكررة للعهد القديم والاقتباسات القليلة نسبيًا من العهد الجديد تصنع ثقلًا لهذا الافتراض.

رابعًا: كيف وصل النص إلينا

حُفظ نص هذه الرسالة في المخطوطات التالية:

١. المخطوطة السكندرية (Codex Alexandrium) من القرن الخامس في المتحف البريطاني، ولكن ينقصه الفصول (٥٧: ٦ ـ ٦٤: ١).

٢. المخطوطة الأورشليمية أو مخطوطة القدس (Hierosolymitanus) وهي التي خطها سنة ١٠٥٦م ليو كاتب العدل (Leo the Notary) وتحتوي تلك المخطوطة على نص الرسالة كاملًا.

وهناك ترجمة سريانية قديمة محفوظة في مخطوطة للعهد الجديد من القرن الثاني عشر (١١٧٠م) موجودة في متحف جامعة كامبريدج. وقد اكتشف (G. Morin) ترجمة لاتينية في مخطوطة من القرن الحادي عشر موجودة في (the Grande Seminaire) في نامور (Namur). وتكاد تلك الترجمة أن تكون حرفية وتعود غالبًا إلى النصف الأول من القرن الثاني الميلادي (cf. p 21) .

وهناك أيضًا ترجمتان قبطيتان باللهجة الأخميمية، إحداهما قد

حُررت من البردية (MS orient. fol 3075)، وهي من مقتنيات مكتبة برلين (Berlin Staatsbibliothek)، ولكن الفصول (٣٤: ٥ ـ ٤٢) مفقودة نظرًا لضياع خمس ورقات من المخطوطة. وتعود تلك البردية إلى القرن الرابع وقد كانت في حوزة الدير الأبيض الشهير الذي للأنبا شنوده (Shenute). أما الترجمة القبطية الثانية فقد وجدت في ستراسبورج (Strasbourg) في مخطوطة من القرن السابع، وهي عبارة عن أجزاء لم تتخط الفصل (٢٦ : ٢).

الرسالة المعروفة باسم "الرسالة الثانية لكليمندس"

تسبب الصيت الذائع الذي حازه كليمندس في العصور القديمة في نسبة بعض الكتابات الأخرى إليه، فهناك "رسالة ثانية" زائدة في المخطوطتين اللتين تحتويان على النص اليوناني لرسالة كليمندس الأصيلة، وهي موجودة كذلك في الترجمة السريانية، وهي موجَّهة أيضًا إلى أهل كورنثوس. ولكن هذه الوثيقة ليست رسالة، كما أنها ليست بقلم كليمندس، ويقدم كل من الأسلوب الأدبي والصيغة الأدبية إثباتا دامغا على هذا. ومع ذلك، فإن لهذه الوثيقة أهمية كبرى بالنسبة لنا، لأنها تعد أقدم عظة مسيحية موجودة لدينا، فاللهجة والأسلوب الوعظي فيها لا يمكن أن تخطئه عين. وهناك فقرتان على وجه الخصوص تدعمان هذا الرأي، وهما: "دعونا لا نبدو مصدقين ومنتبهين فقط الآن وقتما ينصحنا القسوس، بل أيضًا حينما نعود إلى منازلنا، دعونا حينها نتذكر وصايا الرب." (فصل ١٧ : ٣). أما الفقرة الثانية فتقول: "وهكذا أيها الإخوة والأخوات قد تكلم الآن رب الحق، لقد قرأت عليكم عظة لتحفظوا في قلوبكم ما هو مكتوب، وذلك لعلكم تخلِّصون أنفسكم، وذاك الذي يقرأ هذا في وسطكم." (فصل ١٩ : ١). ويبدو أن الكاتب هنا يشير إلى

الفصل الكتابي الذي في الغالب كان قد قُرئ قبل أن يبدأ في إلقاء عظته. وأسلوب هذه الوثيقة غير أدبي، ومن ثم يختلف كليًا عن أسلوب رسالة كليمندس الأصيلة، بالإضافة إلى أن الواعظ يشير إلى نفسه بضمير المتكلم المفرد لا الجمع. ولا يقتبس الكاتب من الأسفار المقدسة فحسب، بل أيضا من أناجيل أبوكريفية (مثلًا من إنجيل المصريين)، ولا تزال الآراء بشأن مكان كتابة هذه العظة مختلفة فيما بينها إلى حد كبير، وقد فشلت كل المحاولات التي بُذلت لتحديد زمن كتابتها أو هوية الكاتب لعدم وجود أية معلومات تاريخية فيها. أما الافتراض الذي قدمه هرناك (Harnack) بأن هذة الوثيقة هي رسالة أرسلها البابا سوتير (١٦٥-١٧٣م) إلى المسيحيين الكورنثيين فيواجهه هذا الاعتراض الذي لا يُرد والقائل بأن هذه الوثيقة لا تحمل صفات الرسالة. ويعتقد كل من هاريس (Harris) وستريتر (Streeter) أنها عظة سكندرية، لأن الفكر اللاهوتي للكاتب ينم عن تأثره بالفكر اللاهوتي السكندري، بالإضافة إلى استخدام الكاتب لـ "إنجيل المصريين" كمصدر، إذًا: كيف نُسب هذا العمل إلى كليمندس؟ قدم "لايت فوت" (Lightfoot) و"فانك" (Funk) و"كروجر" (Krüger)، أكثر الاقتراحات قبولًا، وهو ذاك الاقتراح القائل بأن هذا العمل قد كُتب في كورنثوس، فربما تُفسر مسابقات الدوري الرياضية (Isthmian atheletic contests) - التي كانت تُقام بالقرب من كورنثوس - هذا التشبيه الذي أورده الكاتب في الفصل السابع. حينئذ يمكن للمرء أن يفهم أيضًا سبب نسبة هذا العمل إلى كليمندس وإلحاقه برسالة كليمندس الأولى، فمن المحتمل جدًا أن تكون هذه العظة قد حُفظت مع رسالة كليمندس الأولى في أرشيف مدينة كورنثوس، ثم عُثر عليهما معًا. أما عن زمن كتابة هذا العمل، فليس لدينا سوى دليل واحد يقودنا إليه،

ألا وهو تطور شرح التعليم العقائدي المسيحي كما تدل عليه هذه العظة، ومن ثم يصبح من المستحيل أن نحدد تاريخًا معينًا قد كُتبت فيه. لكن الآراء المُتعلقة بالتوبة - كما تظهر في العظة - تكشف أنها قد كُتبت ليس بعد كتاب "راعي هرماس" بفترة طويلة، أي حوالى عام ١٥٠م. وبالرغم من أن هذه الوثيقة قد ضُمت إلى الكتب المقدسة القانونية في الكنيسة السريانية، إلا أن كلًّا من جيروم ويوسابيوس قد صرح بأنها غير أصيلة. فيوسابيوس - على سبيل المثال - يقول: "لا بد أن نعرف أن هناك رسالة ثانية منسوبة لكليمندس ولكننا لسنا متأكدين من أنها قد لاقت نفس درجة القبول الذي حظيت به الرسالة الأولى، لأننا لا نعرف أحدًا من الكتاب القدامى قد استخدمها." (Hist eccles 3: 38: 4). أما جيروم فقد رفض هذه الرسالة بالكامل قائلًا: "هناك رسالة ثانية يتداولها الناس تحت اسم كليمندس ولكن الأقدمين لم يسلموا بصحة هذا الأمر." (De Viris Illustr. 15).

أولًا: المحتوى

يتصف محتوى هذه العظة بالشمول. وهي تؤكد على أن المفهوم المسيحي الخاص بشخص المسيح بكونه ديّان الأحياء والأموات، لا بد أن يتفق مع (فهمنا عن) عظمة الله. لذا لا بد لنا أن نمجده بحفظنا لوصاياه واحتقار الملذات العالمية، وبالتالي نقتني لأنفسنا الحياة الأبدية.

١. الخريستولوجي

إن ألوهة المسيح وبشريته تظهران بوضوح في هذه الفقرات التالية: "يا إخوة لا بد لنا من أن نفكر في يسوع المسيح كما نفكر في الله، كونه هو ديّان الأحياء والأموات." (فصل١: ١)؛ "فإذا كان المسيح ربنا الذي خلصنا، بالرغم من أنه أصلًا روح، قد أخذ جسدًا

ومن ثم دعانا، لذا ينبغي لنا أيضًا أن ننال مُكافأتنا في هذا الجسد." (فصل٩: ٥)؛ "لقد احتمل المسيح الألم لأجلنا." (فصل١:١)؛ "لأنه قد أشفق علينا وخلصنا برحمته، ونظر إلى خطئنا العظيم والهلاك المحدق بنا، ورأى أنه لا رجاء لنا في الخلاص إلا به." (فصل١ : ٧).

وقد لُقب المسيح في هذه الرسالة بلقب "رئيس عدم الفساد" (ἀρχηγὸς τῆς ἀφθαρσίας) الذي به "أظهر (الله) لنا الحق والحياة الأبدية." (فصل٢٠ : ٥).

٢. مفهوم الكنيسة

إن مفهوم الكنيسة في هذة الرسالة مثير للاهتمام، فالكاتب يعتبر الكنيسة موجودة قبل خلق الشمس والقمر، ولكنها كانت غير منظورة، وروحية، وعاقرًا. أما الآن فقد صارت جسدًا. إنها هي جسد المسيح؛ إنها عروسه، ونحن قد أُعطينا لها كأولاد: "هكذا أيها الإخوة، إذا فعلنا مشيئة الله أبينا سنكون من الكنيسة الأولى الروحية التي خُلقت قبل الشمس والقمر؛ ..... لذا، دعونا نختار أن ننتسب لكنيسة الحياة حتى نخلُص. ولكني لا أظنكم تجهلون أن الكنيسة الحية هي جسد المسيح، لأن الكتاب يقول: "ذكرا وأنثى خلقهما". الذكر هو المسيح، والأنثى هي الكنيسة. من ناحية أخرى، تُعلن الأسفار والرسل أيضًا أن الكنيسة ليست شيئا مستحدثًا، ولكنها كانت من البدء، وذلك لأنها كانت روحية كما كان يسوعنا، ولكنه قد أُظهر في الأيام الأخيرة حتى يخلصنا. والآن، بما أن الكنيسة روحية، لذا استُعلنت في جسد المسيح، وبهذه الطريقة اتضح لنا أن أي إنسان منا يحفظها في الجسد ولا يدنسها سوف ينالها مرة أخرى في الروح القدس. لأن هذا الجسد نفسه هو النموذج النقيض (anti-type) للروح، لذا أي إنسان يدنس النموذج النقيض

لن يكون له الحقيقي، وهذا هو ما يعنيه يا إخوة: "احفظوا الجسد لكي تشتركوا في الروح. والآن إذا قلنا إن الجسد هو الكنيسة والروح هو المسيح؛ إذًا من لا يكرم الجسد لا يكرم الكنيسة. مثل هذا لن يشترك في الروح الذي هو المسيح." (فصل ١٤: ١ ـ ٤). والكاتب هنا يظهر تأثره الكبير بفكر القديس بولس، وخاصة فكره في رسالة أفسس (١: ٤، ٢٢ ؛ ٥: ٢٣، ٣٢)، ذلك لأنه يسمي الكنيسة "جسد المسيح السري"، ويشبهها بعروسه.

ونجد كذلك أن لهذة العظة قيمة من ناحية أخرى، ففيها نتقابل لأول مرة مع الإشارة إلى الكنيسة باعتبارها "أم"، بالرغم من أن الكاتب لم يستخدم هذه الكلمة. وفي هذا يقول الكاتب: "ففي قوله: "افرحي أيتها العاقر التي لم تلد" يتكلم عنا، لأن كنيستنا كانت عاقرًا قبل أن يُعطى لها أولاد." (فصل ٢: ١).

٣. المعمودية

يطلق الكاتب على المعمودية اسم "الختم" (σφραγίς) ؛ هذا الذي يجب أن يبقى محفوظًا: "لأن الكتاب يقول عن هؤلاء الذين لم يحفظوا الختم: دودهم لا يموت، ونارهم لا تُطفأ، ويكونون منظرًا لكل ذي جسد." (فصل ٧: ٦)؛ "لأن هذا هو ما يقوله: احفظوا الجسد طاهرًا والختم بلا دنس حتى ننال الحياة الأبدية." (فصل ٨: ٦). وهنا تظهر التعاليم اللاهوتية للرسول بولس مرة أخرى بكل وضوح. (انظر: أف ٤ ؛ ٢كور ١: ٢١ ـ ٢٢).

٤. التوبة

يحتوي الجزء الأخير من العظة على شاهد صريح لما يُسمى بـ "التوبة الثانية"، ويقصد بها التوبة عن الخطايا التي يرتكبها الشخص بعد المعمودية. ويحض الكاتب المسيحيين على التوبة حضًا

يُماثل في قدره ذاك الذي قد ورد في كتاب "راعي هرماس": "لهذا، أيها الإخوة، دعونا نتوب عن خطايانا فورًا، دعونا ننتبه إلى ما هو في صالحنا، لأننا ممتلئون بقدر كبير من الجنون والشر. دعونا نزيح عن كاهلنا خطايانا السابقة، ودعونا نخلص بأن نتوب من كل قلوبنا. دعونا ألا نسعى لإرضاء الناس أو أن نكون راغبين في إرضاء أنفسنا فقط، بل نرضي ببرنا من هم في الخارج، لئلا يُجدف على الاسم بسببنا." (فصل ١٣ : ١ ـ ٢) "إذًا أيها الإخوة، بما أنكم قد حظيتم بفرصة كبيرة للتوبة، دعونا ـ بما أن الوقت متاح الآن ـ أن نتوجه إلى الله الذي يدعونا، في حين هو الوحيد الذي ينتظرنا." (فصل ١٦ : ١)؛ "دعونا ـ طالما كنا في هذا العالم ـ نتوب بكل قلوبنا عن أي شر قد ارتكبناه ونحن في الجسد، ليخلصنا الرب في حين لا يزال لدينا وقت للتوبة. لأنه بعد أن نرحل من هذا العالم، لن يكون في وسعنا أن نعترف بخطايانا أو أن نتوب عنها." (فصل ٨ : ٢ ـ ٣).

٥. فاعلية الأعمال الصالحة في الخلاص:

العظة واضحة جدًّا في نصها على ضرورة الأعمال الصالحة، كما أن الصدقة هي الوسيلة الرئيسة التي من خلالها تُغفر الخطايا؛ فهي تفوق الصوم والصلاة في فضلها: "إذًا، الصدقة صالحة مثلما هي التوبة عن الخطية. والصوم أفضل من الصلاة، أما الصدقة فأفضل من كليهما. المحبة تستر كثرة من الخطايا، ولكن الصلاة بضمير صالح تخلص من الموت. مبارك كل إنسان مملوء من هذه الأشياء، لأن الصدقة ترفع ثقل الخطية." (فصل ٤ : ١٦).

الرسالتان الموجهتان إلى البتوليين:

لقد وصلت إلينا تحت اسم كليمندس رسالتان عن البتولية موجهتان إلى غير المتزوجين من الجنسين، وهما في الحقيقة تنتميان

إلى النصف الأول من القرن الثالث، وقد أُشير إليهما لأول مرة في كتابات إبيفانيوس (Haer 30 : 15) وجيروم (Adv. Jovin 1: 12).

والنص اليوناني الأصلي الخاص بهاتين الرسالتين مفقود، ما عدا بعض الشذرات الصغيرة عُثر عليها في: (Πανδέκτης τῆς ἁγίας γραφῆς) للراهب أنطيوخوس (Antiochos) الذي من دير القديس سابا حوالى عام (٦٢٠م). غير أن الرسالتين قد حُفظتا لنا بالكامل في ترجمة سُريانية أُكتشفت عام ١٤٧٠م في مخطوطة تحوي ترجمة العهد الجديد المعروفة باسم "البشيطة". علاوة على ذلك، لدينا ترجمة قبطية للفصول الثمانية الأولى من الرسالة الأولى تذكر أن أثناسيوس هو المؤلف. وفي الحقيقة، كانت الرسالتان تشكلان معًا عملًا واحدًا، لكنه قد انقسم إلى جزئين بمرور الزمن.

تبدأ الرسالة الأولى بإرشادات عن طبيعة ومعنى البتولية. وينظر الكاتب إلى العفة باعتبارها شيئًا إلهيًا، فهي بالنسبة له حياة فوق الطبيعة، إنها حياة الملائكة. لقد لبس الأبكار والبتوليون المسيح حقًا، إنهم متشبهون بالمسيح والرسل؛ إنهم ينتمون في الظاهر فقط إلى الأرض لا في الحقيقة، كما أنهم يستحقون أن يشغلوا في السماء مكانة تفوق تلك التي لبقية المسيحيين. غير أن الكاتب يشدد بقوة على أن البتولية وحدها بدون أن تصحبها أعمال محبة (مثل زيارة المرضى) لن تضمن للبتول الحياة الأبدية. والكاتب يعرف جيدًا السلوكيات الخاطئة المنتشرة بين من يوجه لهم الرسالة، ويشعر أنه مجبر على أن يشير إلى أن حياة البتولية تلقي على عاتق من يمارسها مسئوليات كبيرة، وهو ينصح ويحذر ولا يتردد أن يوبخ بقسوة. وينهي الكاتب الرسالة (في الفصول ١٠ ـ ١٣) بتوجيهات ضد السُكنى المُشتركة للنُساك الرجال والنساء معًا، وأيضًا بمرثاة بسبب الشرور الناتجة عن الكسل. غير أن الرسالة ليست لها خاتمة رسمية محددة

المعالم.

أما الرسالة الثانية فتبدأ على نحو مفاجئ بلا أي مقدمة من أي نوع، ثم تسير في نفس اتجاه الرسالة الأولى، فالكاتب يستمر في إسداء نصائحه، ولا يمكننا ملاحظة أي انقطاع في حبل الأفكار الساري مُتصلًا بين الرسالتين. ثم ينتقل الكاتب إلى وصف العادات والقوانين المنتشرة بين النساك في بلده، ويستشهد بنماذج عديدة من الكتاب المقدس، مُشيرًا في الختام إلى نموذج المسيح.

وكما يتضح من المُلخص أعلاه، يقاوم الكاتب بشدة مساوئ السُكنى المُشتركة بين النساك من الجنسين (Συνείσακτοι) فهو يندد بسُكنى النساك من الجنسين تحت سقف واحد. وحيث إن أول مرة تُسجل في الكتابات الكنسية اعتراضات على مثل هذه الممارسة اللافتة للنظر كانت في حوالى مُنتصف القرن الثالث، لذا يُمكننا أن نستنتج أن هاتين الرسالتين بالمثل قد كُتبتا أيضًا في نفس الفترة التاريخية. ويبدو أن فلسطين هي مسقط رأس الكاتب، إلا أنه لم يكشف عن اسمه، لكن العمل يدفع المرء ليعتقد أن الكاتب كان ولا بد ناسكًا شهيرًا موقرًا جدًا. كما أن الرسالتين قيمتان كونهما من أقدم المصادر التي لدينا عن تاريخ النُسك المسيحي المُبكر.

كتابات منحولة عن كليمندس:

"الكلميندیات المنحولة" هو عنوان رواية شاملة ذات هدف تعليمي بطلها هو كليمندس الروماني. ومؤلف الرواية المجهول يقدم كليمندس باعتباره سليل العائلة الإمبراطورية الرومانية الذي ـ في رحلة بحثه عن الحق ـ يلتحق بلا فائدة بعدة مدارس فلسفية مُحاولًا أن يجد إجابة لشكوكه المتعلقة بخلود الروح وأصل العالم ومشاكل كثيرة من هذا القبيل. لكن أخيرًا، تدفعه ما وصلته من أخبار عن ظهور

ابن الله في اليهودية البعيدة إلى الارتحال نحو الشرق، وفي قيصرية تقابل كليمندس مع القديس بطرس الذي شرح له تعاليم الأنبياء الحقيقيين وأزال شكوكه ودعاه ليشترك معه في رحلاته التبشيرية.

ولقد خُصص الجزء الأكبر من هذا العمل لرواية خبرات كليمندس كمرافق للقديس بطرس في رحلته الرسولية وكذلك المواجهة التي حدثت بين القديس بطرس وسيمون الساحر. والقصة في تحليلها الأخير تعتبر مجرد مقدمة لعظات القديس بطرس الكرازية، وتنتمي غالبًا لفئة "أعمال الرسل الأبوكريفية المنحولة"، لكنها تختلف عن الأساطير الأخرى التي تدور حول الرسل في كون هدفها ليس هو القراءة المجردة بقدر ما هو توفير التعاليم والأسس اللاهوتية التي تُساعد على الدفاع عن المسيحية بفاعلية.

أما الشذرات المتبقية لدينا من "الكتابات المنحولة عن كلميندس" فهي التالية:

أولًا: العظات العشرون

وتشتمل على:

١. عظات القديس بطرس الكرازية، والتي يُقال إن كليمندس قد كتبها وأرسلها إلى يعقوب أسقف أورشليم.

(Κλήμεντος τοῦ Πέτρου ἐπιδημίων κηρυγμάτων ἐπιτομή)

٢. رسالتان موجهتان إلى يعقوب، أحدهما بقلم بطرس والأخرى بقلم كليمندس. وقد كُتبتا بهدف أن تكونا بمثابة مرشد للأسلوب الأمثل لاستخدام تلك المجموعة الوعظية، وهما تسبقان العظات من حيث الترتيب.

ولقد أعطت هاتان الرسالتان لكنيسة أورشليم مكانة مميزة،

ولُقب الرسول يعقوب فيهما بلقب "أسقف الأساقفة". وتتميز هاتان الرسالتان بأنهما تُناصران تعاليم الإبيونيين[٤] (Ebionites) والإلكاسيين[٥] (Elkasaites) المتهودين، هؤلاء الذين لم تكن المسيحية في نظرهم سوى "يهودية جديدة"، فالله يعلن عن نفسه للإنسان بواسطة نبي حقيقي يظهر متخفيًا في أشكال مختلفة، وقد ظهر أولاً في شخص آدم، ثم في شخص موسى، وأخيرا ظهر في شخص يسوع المسيح. غير أن لقب "ابن الله" لا يطلق إلا على المسيح فقط؛ لكنه، مع ذلك، لا يزال يُعتبر بمثابة نبي ومُعلِّم فقط وليس مُخلصا. ولقد كانت مهمة موسى هي أن يُعيد التعاليم التي عَتَّمتها الخطية إلى سابق رونقها. وبمرور الوقت، عندما تُصبح التعاليم التي أعلنها موسى مجهولة ومُحرفة، يُصبح هناك ضرورة لإعلان آخر في شخص يسوع المسيح، وتُظهر تعاليم المسيح هنا - في هذه العظات - نظرة توحيدية مُغالية تخلو من أيّة إشارة إلى تمايز الأقانيم الإلهية. ولا يوجد هنا مفهوم محدد عن الله، فمن ناحية، يظهر الله بصورة الشخص الكائن، ويُصور باعتباره الخالق والديان (١٧ : ٧)، ومن ناحية أخرى، يُصور الله - بلغة تميل إلى وحدة الوجود[٦] - باعتباره "قلب العالم" (١٧ : ٩)، ويُشرح التطور الحادث في العالم باعتباره تطورًا يحدث في الله نفسه.

---

[٤] هو اسم معناه الفقراء أو المساكين، وهم جماعة مسيحية يهودية رفضت رسولية القديس بولس واعتبروه مجدفًا على الناموس ولم يقبلوا رسائله، وكانوا يستخدموا إنجيل العبرانيين (من كتب الأبوكريفا). واعتقدوا أن الحفاظ على الختان والناموس أمر ضروري للخلاص، وكانوا يؤمنون أن المسيح هو إنسان حل عليه روح الله. [المراجع]

[٥] جماعة نشأت في بداية القرن الثاني في منطقة ما بين النهرين وهي جماعة مسيحية يهودية. وكان أتباعها يرفضون رسائل القديس بولس، ويقولون إنهم استلموا كتابًا جديدًا من السماء. [المراجع]

[٦] وحدة الوجود هو المذهب القائل بأن الله والطبيعة شيء واحد وبأن الكون المادي والإنسان ليسا إلا مظاهر للذات الإلهية، فالشجرة هي الله، والصخرة هي الله، والحيوانات هي الله، والسماء هي الله، والشمس هي الله، وأنت الله ...إلخ. ومذهب وحدة الوجود هو النظرية التي تقوم عليها بدع وديانات خاطئة كثيرة [المراجع]

ثانيًا: كُتُب التعارف العشرة

لم توجد هذه النصوص مُكتملة إلا في ترجمة روفينوس اللاتينية فقط، أما المادة القصصية فيها، والتي تتشابه جوهريًا مع تلك التي في العظات العشرين، فهي أيضًا عبارة عن سيرة ذاتية لكليمندس لكنها أكثر تفصيلًا.

وتحكي هذه الوثيقة عن ظروف غريبة تسببت في تشتُت شمل أسرة كليمندس؛ حيث تفرق الأب والأم والأبناء عن بعضهم البعض، وأخذ كل فرد من الأسرة يبحث عن مكان الآخرين. لكن، بتدخل من بطرس، التأم شمل الأسرة أخيرًا بعد مغامرات كثيرة ومتنوعة.

ولقد أخذت تلك الوثيقة اسمها "كُتُب التعارُف" من مشاهد التعارُف المتعددة التي فيها يتقابل مجددًا أعضاء الأسرة المُشتتون منذ وقت طويل. أما الاختلاف الأكبر بين "كُتُب التعارُف" و"العظات العشرين" فيكمن في المحتوى التعليمي لكليهما، فوجود الفكر المتهود في كتب التعارُف أقل حدة كما أنه ثانوي. كذلك، يُطلق على المسيح في تلك الوثيقة لقب "الروح الأمين والنبي الحق".

وتظهر اليهودية في هذه الوثيقة باعتبارها ممهدة للمسيحية، كما أن الوثيقة تبرز عقيدة الثالوث بكل وضوح كما يتضح في العبارة التالية: "نحن نقول عن ابن الله الوحيد في جنسه إنه مولود من ذاته [أي من ذات الله]، وليس من أصل آخر، بطريقة لا يعبر عنها، ويتشابه في هذا أيضًا ما نقوله عن الباركليت." ومن الممكن بالطبع أن يكون روفينوس المترجم هو من أدرج مثل هذه العبارة في النص الأصلي، لكن من الصعب أن نحدد ما إذا كان روفينوس بالفعل قد أضافها إلى النص الأصلي أم لا.

ثالثًا: اقتباسان من العظات

بالإضافة إلى العظات العشرين وكتب التعرف العشرة، لدينا أيضًا اقتباسان يونانيان (ἐπιτομαί) من العظات؛ وقد جرى توسيع هذين الإقتباسين بإضافات من رسالة كليمندس إلى يعقوب الواردة في عمل سيمون ميتافراستيس (Symeon Metaphrastes) المعروف بعنوان: (Martyrium Clementis)، كذلك من مقالة الأسقف إفرايم من تشيرسون (Ephraim of Cherson) والتي تتكلم عن معجزة صنعها كليمندس لطفل.

رابعًا: اقتباسان عربيان من "العظات العشرين" و "كُتُب التعارُف"

إضافة إلى تلك النصوص اليونانية، لدينا أيضًا اقتباسان عربيان من "العظات العشرين" و" كُتُب التعارُف"، وهما يقتصران على العناصر القصصية فقط ويجتنبان أية محاورات طويلة.

وسيكون من المفيد لنا جدًا أن نحدد الوقت الذي كُتبت فيه "العظات العشرون" و"كُتُب التعارُف"، ولكن تلك المسألة تتضمن مشكلات أدبية معقدة تحدت كل محاولة لحلها واختلفت بشأنها الآراء إلى أبعد حد. ولكن هناك قناعة عامة بأن "العظات العشرين" و"التعارف" تعتمدان بشكل مشترك على وثيقة أقدم، ولكن لا يوجد اتفاق بشأن المصادر التي استقت منها هذه الوثيقة الرئيسة المعلومات التي بها، تلك المصادر التي كانت في الغالب ذات حجم ضخم. كما أنه لا بد أن نواة هذه الوثيقة كانت سيرة كليمندس الذي ينسب إليه العمل كله، الأمر الذي يفسر سبب تكرار العناصر القصصية في كل من "العظات العشرين" و"كُتُب التعارف" بصورة تصل إلى حد التطابق، هذا إذا استثنينا بعض الاختلافات البسيطة، وذلك

على الرغم من أن المحاورات الملحقة بكل من تلك القصص تختلف اختلافًا بينًا. ويغلب الظن على أن كاتب هذه الوثيقة كانت له علاقة بالمسيحية المتهودة الهرطوقية، وربما كُتبت الوثيقة الرئيسة التي إعتمد عليها هذا العمل في العقود المبكرة من القرن الثالث الميلادي.

إغناطيوس الإنطاكي

إغناطيوس هو الأسقف الثاني على إنطاكية، وهو رجل ذو شخصية فريدة حُكم عليه في عهد تراجان (٩٨-١١٧م) بأن يُقدم للوحوش المفترسة، فتم ترحيله من سوريا إلى روما لكي يستشهد هناك. وفي طريقه إلى المدينة الخالدة، كتب القديس إغناطيوس سبع رسائل هي الذكرى الوحيدة الباقية لنا عن الآلام الشديدة التي جازها. كُتبت خمس من هذه الرسائل إلى الجماعات المسيحية في مدن أفسس و مغنسيا وتراليا وفيلادليفيا وسميرنا (أزمير)، وهي المدن التي كانت قد أرسلت مندوبين عنها لتحيته عندما كان في طريقه إلى روما. وهناك أيضًا رسالة أخرى موجهة إلى الأسقف بوليكاربوس أسقف سميرنا، أما أهم تلك الرسائل جميعًا فهي تلك الموجهة إلى الجماعة المسيحية في المدينة التي كان يقصدها، مدينة روما.

والرسائل التي قُصد توجيهها إلى أفسس ومغنسيا وتراليا، تم تدوينها في مدينة سميرنا، وهو يشكر فيها الجماعات المسيحية في تلك المدن على ما أظهروه ببراهين كثيرة من شفقة عليه بسبب ما هو مزمع أن يواجهه، ثم يحثهم على طاعة الرؤساء الكنسيين ويحذرهم من التعاليم الغريبة التي للهراطقة. ومن نفس المدينة، أرسل إغناطيوس تحياته الحارة إلى أعضاء كنيسة روما، راجيًا إياهم ألا يتخذوا أي خطوة تحول دون تحقيق رغبته الشديدة، وهي أن يموت من أجل المسيح، لأن الموت بالنسبة له ما كان إلا بداية الحياة الحقيقية: "كم

هو مجيد أن أكون شمسًا تغرب عن العالم نحو الرب حتى أشرق في حضوره." (رومية ٢ : ٢). "أخاف أن يضرني حبكم، لإني لن أجد فرصة أخرى لملاقاة الرب. فأنا حنطة الرب ويجب أن أطحن بأسنان الوحوش الضارية حتى أصير خبزًا نقيًّا للمسيح." (رومية ١ : ٢، ٢ : ١، ٤ : ١).

أما رسائل إغناطيوس إلى شركائه في الإيمان في كل من فيلادليفيا وسميرنا، بالإضافة إلى رسالته لبوليكاربوس، فأرسلت من تـرواس، لأنه كان قد نما إلى علم إغناطيوس، عندما كان هناك، أن الاضطهاد قد توقف في إنطاكية، ومن ثم أرسل إلى المسيحيين في فلادليفيا، وسميرنا، وأيضًا إلى أسقف سميرنا "بوليكاربوس" ليحثهم على أن يرسلوا رُسُلًا إلى أنطاكية لتهنئة الإخوة هناك. وتُشبه هذه الرسائل بشدة تلك التي كان إغناطيوس قد أرسلها من سميرنا، وذلك من حيث الموضوعات التي تتناولها، فهي تحمل رجاءً حارًّا من أجل وحدة الإيمان ووحدة الذبيحة، وتحث قُراءها على الارتباط الوثيق بالأسقف المعين لرعايتهم. أما الرسالة إلى بوليكاربوس فتتضمن، إضافة إلى ما سبق، تعليمات خاصة بخدمة الأسقف؛ فهو يسدي إليه بعض النصائح مثل: "قف ثابتًا مثل السندان تحت المطرقة، الرياضي العظيم هو الذي يتلقى الضربات ولكنه يغلب." (بوليكاربوس ٣ : ١).

وتلقي هذه الرسائل بالضوء على الحالة الداخلية للجماعات المسيحية المبكرة، وهي أيضًا تعطينا لمحة عما يدور في قلب هذا الأسقف الشهيد العظيم، وتُرسل نحونا نسمة من الغيرة الروحية، تلك التي تمتلك كياننا وتُشعل في قلوبنا نارها. ولغة إغناطيوس روحية وشديدة الأصالة، تبعد عن الزخارف الكلامية والتكلُّف الأدبي. وروحه تحمل غيرة لا تضاهى وحماسة تُحلق في مستوى يعلو أساليب

التعبير المعتادة وتتخطاه. وأخيرًا، فإن تلك الرسائل ذات أهمية تفوق الوصف في تاريخ العقيدة .

التعاليم اللاهوتية عند القديس إغناطيوس

١. إن عقيدة "التدبير الإلهي في الكون" هي محور التعاليم اللاهوتية عند إغناطيوس. فلقد أراد الله أن يخلص العالم والبشرية من طغيان رئيس هذا العالم، لذا أعد البشرية للخلاص في اليهودية، مستخدمًا الأنبياء كأداة؛ الذين قد تحقق لهم كل ما كانوا ينتظرونه في المسيح: "يسوع المسيح هو معلمنا الوحيد. إنه هو الذي تتلمذ له الأنبياء في الروح، وهو الذي كانوا ينتظرونه كمعلم لهم." (مغنسيا ٩: ١ - ٢)

٢. التعاليم الخريستولوجية عند إغناطيوس واضحة جدًا، سواء فيما يختص بلاهوت المسيح أو ناسوته: "هناك طبيب واحد، جسدي وروحي، مولود وغير مولود (γέννητος καὶ ἀγέννητος) الله قد صار إنسانًا، وحياة حقيقية في الموت نبعت من العذراء ومن الله (καὶ ἐκ Μαρίας καὶ ἐκ Θεοῦ) تألم قبلًا، وهو الآن عصيّ على الألم، يسوع المسيح ربنا." (أفسس ٧: ٢). ويقول أيضًا: "إنه بالحقيقة من نسل داوود حسب الجسد وابن الله بمشيئة الله[٧] وقوته؛ ولد حقا من عذراء، واعتمد من يوحنا لكي يكمل كل بر." (سميرنا١: ١).

والمسيح لا زمان له (ἄχρονος) وغير منظور (ἀόρατος). "ترجى ذاك الذي لا زمان له، غير المنظور الذي لأجلنا صار منظورًا، غير المتألم الذي صار معرضًا للألم إكرامًا لنا، الذي لأجلنا احتمل كل شيء." (بوليكاربوس ٣: ٢)

وفي الوقت نفسه هاجم إغناطيوس البدعة المعروفة باسم

---

[٧] تم توضيح علاقة الابن بالآب في القرون اللاحقة حيث أكد الآباء أن الابن مولود من الآب بالطبيعة وليس بالإرادة على خلاف الخليقة التي أوجدت بمشيئة الله. [المراجع]

"الدوسيتية"[٨] (الخيالية) التي أنكرت طبيعة المسيح البشرية، خاصة فيما يتعلق بآلامه: "لكن إن قال أحد، مثل بعض الملحدين غير المؤمنين، إن آلامه كانت خيالية (وهم الخياليون حقًّا) فلماذا أنا إذن في سلاسل؟ لماذا أصلي حتى أصارع الوحوش؟ سأموت إذن عبثًا! ستكون شهادتي، في آخر الأمر، مجرد كذبة عن الرب! تجنبوا هذه الأغصان البرية التي لا تحمل سوى ثمرٍ مميتٍ، تلك التي إن ذاقها أحد يحكم عليه بالموت الكلي." (تراليا ١٠، ١١ : ١). "إنهم يجتنبون الصلاة والاشتراك في الإفخارستيا، لأنهم لا يعترفون بأن الإفخارستيا هي جسد مخلصنا يسوع المسيح، الجسد الذي تألم من أجل خطايانا، والذي أقامه الآب من الأموات برأفات محبته. وهكذا يهلك هؤلاء الذين في مجادلاتهم يشككون في عطية الله. الأفضل لهم أن يقتنوا المحبة حتى يكون لهم نصيب في القيامة. إذًا، من الأفضل أن نتجنب مثل هؤلاء القوم ولا نتحدث عنهم سواء سرًّا أو علانية، ولندرس كتابات الأنبياء جيدًا، خاصة الأناجيل، تلك التي نرى فيها الآلام واضحة والقيامة ظاهرة بكمالها." (سميرنا ٧)

وبعد أخذ كل ما يلزم في الاعتبار، يمكننا أن نقول إن الأساس الذي قامت عليه التعاليم الخرستولوجية للقديس إغناطيوس هو التعاليم اللاهوتية عند القديس بولس، لكنها تأثرت أيضا بتعاليم القديس يوحنا اللاهوتي الذي أثراها .

٣. سُميت الكنيسة في رسائل القديس إغناطيوس بـ "مكان الذبيحة" (θυσιαστήριον) (أفسس ٥ : ٢؛ تراليا ٧ : ٢؛ فيلادلفيا ٤). ويبدو أن مفهوم الإفخارستيا باعتبارها الذبيحة التي تقدمها

---

[٨] هي بدعة تعود إلى القرن الأول الميلادي وانتشرت بين الغنوسيين، ينادي أصحابها بأن جسد المسيح هو خيال، وأن آلامه وموته كانت مجرد آلام ظاهرية، وتكلم عنهم القديس يوحنا الرسول في (١يو٤:٢، ٢يو٧)، وحاربهم القديس إغناطيوس الأنطاكي في رسائله كما يتضح في المتن. [المراجع]

الكنيسة هو سبب هذه التسمية، خاصة وأن الإفخارستيا قد سُميت في الديداخي "الذبيحة" .(θύσια) ولقد دعا إغناطيوس الإفخارستيا "دواء الخلود، وترياق عدم الموت، والحياة الأبدية في المسيح" (أفسس ٢٠ : ٢)، وهو ينصح قائلًا: "إذًا، احرصوا على الاشتراك في إفخارستيا واحدة؛ لأن جسد ربنا يسوع المسيح واحد، وواحد هو الكأس الذي وحدنا بدمه، كما أن هناك أسقفًا واحدًا يساعده القساوسة والشمامسة شركائي في الخدمة." (فيلبي ٤)

كما أن الاقتباس التالي واضح بما لا يدع مجالًا للخطأ في فهم المعنى المقصود: "الإفخارستيا هي جسد مخلصنا يسوع المسيح، الجسد الذي تألم لأجل خطايانا، والذي أقامه الآب من الأموات برأفات محبته." (سميرنا ٧ : ١)

٤. كان إغناطيوس هو أول من استخدم مصطلح "الكنيسة الجامعة"[٩] .(ἡ καθολικὴ ἐκκλησία) (سميرنا ٨: ٢) ويعني به المؤمنين كلهم بشكل جماعي: "حيث يظهر الأسقف هناك تجتمع الرعية، تمامًا كما أنه حيث يكون يسوع المسيح هناك تكون الكنيسة الجامعة." (سميرنا ٨: ٢)

٥. وندرك من رسائل إغناطيوس الصورة الحية لكرامة الرئاسات الكهنوتية والمكانة الممنوحة للأسقف في وسط رعيته. ولا يذكر القديس إغناطيوس أي شيء عن الأنبياء الذين كانوا لا يزالون ينتقلون من كنيسة إلى أخرى مدفوعين من الروح كما وصِفوا في الديداخي، بل كان هناك أساقفة ذوو سلطة يرعون جماعات. ونحن لا نرى في الصورة سوى الأسقف الذي يحيط به كهنته وشمامسته. ويترأس الأسقف كممثل لله، ويشكل الكهنة مجمع الرسل، ويقوم

[٩] لم يكن مصطلح "الكنيسة الجامعة" عند إغناطيوس يعني "الكنيسة الكاثوليكية" بالمعنى الطائفي، لكنه يعني نعتًا "للكنيسة الرسولية" "الجامعة" لكل الأجناس والشعوب والبلاد و"الكراسي" الرسولية المحلية. [المراجع]

الشمامسة بخدمات المسيح: "إني أنصحكم بأن تجتهدوا لتفعلوا كل شيء في اتفاق إلهي، برئاسة الأسقف القائم مقام الله، والكهنة يعملون كمجمع الرسل، أما الشمامسة - وهم الأقرب إلى قلبي - فمؤتمنون على خدمة يسوع المسيح." (مغنيسيا ٦: ١)

إن الفكرة القائلة بأن الأسقف يمثل حضور المسيح تكسب وظيفته كرامة وسموًّا غير عادي حتى إن سلطان الأسقف صغير السن يصبح أمرًا لا يمكن التشكيك فيه: "ولكن بالنسبة لكم أيضًا، يجب ألا تستغلوا حداثة سن أسقفكم، ولكن ينبغي عليكم بالأحرى أن تظهروا له كل احترام لكونه يمثل سلطة الله الآب، وقد عرفت أن قساوستكم يفعلون هذا عينه، إنهم لا يطلبون أن يربحوا شيئًا من وراء حداثة سنه؛ لا، بل إنهم حكماء في الله ولهذا يخضعون له، أو بالأحرى ليس له، بل لأبي ربنا يسوع المسيح، أسقف البشر جميعهم." (مغنيسيا ٣: ١)

٦. والأسقف - قبل كل شيء - هو معلم المؤمنين والمسئول عنهم، ومعنى أن يكون المسيحي في شركة معه هو أن يكون محصنًا ضد الخطأ والهرطقة (تراليا ٦؛ فيلادلفيا ٣)، وذلك لأن الأسقف دائمًا ما يحض رعيته على السلام والوحدة اللذين لا يمكن الوصول إليهما إلا بالتضامن مع الرئاسة الدينية: "لذلك يجب أن تعملوا في اتفاق مع فكر الأسقف؛ وهذا هو ما تفعلونه. وبكل تأكيد ينطبق هذا الكلام على جماعة قساوستكم، هؤلاء الجديرون باسم القسوسية والجديرون بالله، لأنهم متناغمون مع الأسقف تمامًا كتناغم الأوتار مع القيثارة، ولهذا السبب تنطلق من سيمفونية تناغمكم ومحبتكم ترانيم التسبيح ليسوع المسيح. لكن، ينبغي عليكم - أيها العلمانيون - أن تشكلوا أنتم أيضًا جوقة تسبيح، وذلك حتى إنه بانضمامكم إلى تلك السيمفونية بتناغمكم معًا، وحصولكم على مفتاح

موسيقاكم من الله باتحادكم، يمكن لكم في صوت واحد من خلال يسوع المسيح أن ترنموا ترنيمة للآب، وهكذا سيسمعكم وسيميز فيكم ألحان ابنه بسبب صلاح حياتكم. لذلك، يجب عليكم أن تستمروا في وحدتكم التي لا عيب فيها، حتى يكون لكم في كل وقت نصيب في الله." (أفسس ٤، ACW)

٧. والأسقف - بحسب إغناطيوس - هو أيضًا رئيس الكهنة المسئول عن إقامة الليتورجيا وهو موزع أسرار الله، فلا يمكن أن يُحتفل بالمعمودية أو مائدة الأغابي أو الإفخارستيا بدونه: "ليس مسموحًا بدون أذن الأسقف أن تتم معمودية أو تُقام مائدة أغابي؛ لكن الأمر الذي يقره الأسقف، مهما يكن، هو مقبول من الله، وهكذا يكون كل شيء تفعلونه محصنًا من الأخطار وشرعيًا." (سميرنا ٨: ٢). "لا يصنع أحد شيئًا متعلقًا بالكنيسة بعيدًا عن الأسقف. ولنعتبر الاحتفال الإفخارستي الذي يقيمه الأسقف أو من ينوب عنه هو وحده الشرعي." (سميرنا ٨: ١)

وبالمثل، يجب أن تُبرم عقود الزواج أمامه: "بالنسبة لهؤلاء الذين من الجنسين ويفكرون في الزواج، سيكون من اللائق أن يدخلا في هذا الاتحاد بمباركة الأسقف؛ وهكذا يكون زواجهم مقبولاً أمام الرب وليس إشباعًا لشهوة ما." (بوليكاربوس ٥ : ٢)

٨. إن شرح القديس إغناطيوس للزواج والبتولية يُظهر تأثير القديس بولس عليه، فالزواج عنده يمثل الاتحاد الأبدي بين المسيح وعروسه الكنيسة: "أخبر أخواتي أن يحببن الرب وأن يكتفين بأزواجهن جسديًا وروحيًا. وبالمثل، انصح إخوتي في اسم يسوع المسيح أن يحبوا زوجاتهم مثلما أحب الرب الكنيسة." (بوليكاربوس ٥: ١)

ولكنه أيضًا ينصح بالبتولية: "إذا كان إنسان يستطيع أن يظل بتولاً لإكرام جسد الرب، فليهرب دائما من التفاخر." (بوليكاربوس

٥ : ٢)

٩. حينما يقارن المرء افتتاحيات الرسائل الموجهة إلى الجماعات المسيحية في آسيا الصغرى مع التحيات التي وجهها إغناطيوس إلى كنيسة روما، لن يبادره أي شك في كون إغناطيوس يضع كنيسة روما في مكانة أعلى من الكنائس الأخرى، ولا يمكن أن نكون قد بالغنا في فهم دلالة هذه التحيات؛ فهي بمثابة أقدم اعتراف بأولوية كنيسة روما نملكه بقلم كاتب كنسي غير روماني[١٠]: "من إغناطيوس المدعو أيضًا حامل الله (ὁ καὶ Θεοφόρος) إلى الكنيسة التي وجدت رحمة في العظمة الفائقة التي لله الآب العلي، وفي يسوع المسيح ابنه الوحيد؛ الكنيسة التي بإرادته - ذاك الذي بإرادته صار كل شيء - صارت محبوبة ومستنيرة بإيمان ومحبة يسوع المسيح إلهنا؛ المترئسة أيضًا في عاصمة بلاد الرومان، تلك اللائقة بالله، واللائق بها الفخر، واللائق بها الحبور، واللائق بها المديح، واللائق بها القداسة، والمترئسة في المحبة، والحافظة لشريعة المسيح، والحاملة لاسم الآب، أحييها باسم يسوع المسيح ابن الآب. وأتمنى الفرح الذي لا ينقطع في يسوع المسيح إلهنا لهؤلاء الذين هم متحدون في الجسد والروح بكل وصاياه الذين برباطة جأش يتمتعون بملء نعمة الله، هؤلاء الأنقياء من كل صبغة غريبة." (ACW) ومن ضمن ألقاب المديح التي أسبغها إغناطيوس الأنطاكي على كنيسة روما لقب محدد إسترعى إنتباه الدارسين، وهو "المترئسة في المحبة"

---

[١٠] المؤلف من أبناء الكنيسة الكاثوليكية، وهو بالرغم من مكانته العلمية العالية إلا أنه يحاول في كل مناسبة أن يستخرج من النصوص ما لا تتضمنه لإثبات أولية كنيسة روما أو عقائدها المختلفة كما سنرى. وعلى سبيل المثال، كما يتضح من النص، الصفات التي أطلقها ق. إغناطيوس على كنيسة روما لا تشير إطلاقًا إلى أولية تلك الكنيسة ورئاستها على بقية الكنائس كما يدعي المؤلف: فعبارة "المترئسة في عاصمة بلاد الرومان" إنما تعني أن وضعها هو مثل وضع كنيسة الإسكندرية بالنسبة لمصر، وكذلك "المترئسة في المحبة" فتعني تميزها في أعمال المحبة والرحمة وأنها أكثر الكنائس إظهارًا للكرم والإحسان. [المراجع]

(προκαθημένη τῆς ἀγάπης)، لكنهم منقسمون جدًا حول ما يعنيه هذا اللقب، فقد رأى أ. هارناك (A. Harnack) في هذه العبارة مجرد اعتراف يحمل عرفانًا بالجميل بسبب المحبة الفائقة التي كان المسيحيون الرومانيون يُظهرونها. فوفقًا لرأيه، لُقبت كنيسة روما بلقب "المترئسة في المحبة" لأنها كانت أكثر الكنائس إحسانًا وكرمًا وإستعدادًا لتقديم يد العون، ولهذ السبب صارت حامية وراعية المحبة. غير أنه لا يمكن للمرء أن يتجاهل حقيقة كون اللقب قد جاء ذكره في التحيات مرتين بدون أي تغير واضح في المعنى، وقد ذكره إغناطيوس في المرة الأولى على النحو التالي: "المترئسة أيضًا في عاصمة بلاد الرومان" (ἥτις καὶ προκάθηται ἐν τόπῳ χωρίου Ρωμαίων)، وهنا تصبح فكرة الرئاسة الكنسية لا مفر منها"[11]، ويصبح تفسير هارناك غير قابل للتطبيق. أما الدليل على هذا هو أن العبارة الاصطلاحية اليونانية نفسها المستخدمة هنا لم تستخدم في أي مكان آخر في رسائل إغناطيوس إلا في (مغنيسيا ٦: ١، ٢)، وهي تشير، بلا أدنى خطأ من جانبنا، إلى ممارسة الأسقف والقساوسة والشمامسة لوظيفة الإشراف. كما أن هناك مشكلة أصعب فيما يتعلق بالمعنى المقصود من كلمة "المحبة" (τῆς ἀγάπης)، فمن يقرأ رسائل إغناطيوس سرعان ما سيدرك أن كلمة (αγάπη) مُستخدمة فيها بعدة معاني. ولقد قدم (F. X. Funk) حلًا اعتمد فيه على حقيقة كون إغناطيوس قد قام في أحيان عدة (مثلًا في: فيلادلفيا ١١: ٢؛ سميرنا ١٢: ١؛ تراليا ١٣: ١؛ رومية ٩: ٣) بجعل المصطلح "المحبة" مُرادفًا للكنائس التي وجه إليها رسائله، ولكنه قام بتغيير العبارة في الرسالة إلى كنيسة روما إلى: "مترئسة على رباط المحبة" بحيث تكون عبارة "رباط المحبة"

---

[11] ارجع إلى الحاشية السابقة. [المراجع]

مجرد طريقة أخرى لقول "الكنيسة الجامعة". ولكن الأبحاث اللاحقة التي قام بها كل من (J. Thiele) و(A. Ehrhard) أثبتت أنه من المُستبعد أن تكون هذه هي الترجمة الصحيحة وذلك مع أخذ سياق واتجاه فكر إغناطيوس في الاعتبار. أضف إلى ذلك أن الترجمات اللاتينية القديمة، والسريانية، والأرمنية لرسائل إغناطيوس لا تدعم مثل هذه الصياغة. أما الاقتراح الذي قدمه (J. Thiele) فهو الأكثر إقناعًا، وهو يقوم على إعطاء الكلمة المذكورة في هذه الفقرة معنى أوسع وأعمق، وفهم كلمة "المحبة" باعتبارها تعني كلية الحياة الخارقة للعادة التي يضرمها المسيح في قلوبنا بحبه، وهكذا يكون إغناطيوس قد عزا إلى كنيسة روما - بالعبارة القائلة: "المترئسة في المحبة" - السلطة ليكون لها دور الإرشاد والقيادة في هذا الأمر الذي يشكل جوهر المسيحية، وكذلك في النظام الجديد الذي أدخلته إلى العالم محبة المسيح الإلهية للبشر. لكن، وبعيدًا عن تلك المشكلة الممثلة في هذا المُصطلح الصعب، تُظهر رسالة إغناطيوس إلى كنيسة روما في مُجملها - متخطية أي اعتراضات - أن إغناطيوس قد اعترف بالمكانة المُشرفة الممنوحة لكنيسة روما باعتباره أمرًا تستحقه، وأن هذه المكانة المُشرفة ليست مؤسسة على مدى ما يتركه إحسانها من تأثير، بل على كونها حقًا أصيلاً أن تكون لها الأولية في الكنيسة الجامعة، وهذا ما تؤكده هذه العبارة الواردة في التحيات التي تقول: "المترئسة أيضًا في عاصمة بلاد الرومان"؛ وأيضًا عبارة "بل علمتم الآخرين" (روما ٣: ١)؛ ومرة ثالثة بالطلب الذي قدمه إغناطيوس الأنطاكي لأعضاء كنيسة روما في رسالته إليهم بأن يقفوا إلى جانب كنيسة سوريا كما كان للمسيح أن يفعل وكما يجدر بالأسقف أن يعمل: "اذكروا في صلواتكم الكنيسة في سوريا تلك التي ليس لها إلا الله ليرعاها بدلاً مني. فلن يكون لها أسقف سوى يسوع

المسيح ومحبتكم." (فصل ٩ : ١) وأيضًا من الأمور ذات المغزى، هو أن إغناطيوس بالرغم من أنه في كل رسائله يحض المؤمنين على الوحدة والتناغم إلا أنه لا يفعل ذلك في رسالته إلى كنيسة روما، وذلك لأن سلطانها ممنوح لها من مقدمي الرسولين بطرس وبولس: "إني لا آمركم كبطرس وبولس؛ إنهما رسولان أما أنا فمدان" (روما ٤ : ٣). وهذه الشهادة أيضًا تجعل من إغناطيوس شاهدًا مهمًّا على إقامة بطرس وبولس المؤقتة في روما.

المنهج السرائري (المستيكي) للقديس إغناطيوس

ومثلما تجمع التعاليم الخريستولوجية للقديس إغناطيوس بين التعليم اللاهوتي للقديس بولس والتعليم اللاهوتي للقديس يوحنا، هكذا أيضًا تأثر مذهبه المستيكي بكليهما، فهو يربط بين تعليم بولس عن الاتحاد بالمسيح وتعليم القديس يوحنا عن الحياة في المسيح. وهنا تظهر فكرة القديس إغناطيوس المحببة لديه وهي فكرة "الاقتداء بالمسيح".

١. الاقتداء بالمسيح

ربما لم يتحدث كاتب في العصور المسيحية المبكرة عن "الاقتداء بالمسيح" بمثل هذه الفصاحة التي تحدث بها القديس إغناطيوس. فإذا أردنا أن نحيا حياة في المسيح وفي الله لا بد أن نتبنى المبادئ والفضائل التي لله وللمسيح: "لا يستطيع الجسداني أن يحيا حياة روحية، ولا يستطيع الروحاني أن يحيا حياة جسدانية، فلا يمكن للإيمان أن يمارس أفعال الكُفر، ولا يمكن للكُفر أن يأتي بأفعال الإيمان. لكن، حتى الأشياء التي تفعلونها بالجسد هي روحية، لأننا نفعل كل شيء متحدين بيسوع المسيح." (أفسس ٨ : ٢)

ومثلما كان المسيح يعمل ما يعمله الآب، هكذا أيضًا يجب

علينا أن نقتدي بالمسيح: "افعلوا ما فعله المسيح، لأنه هو أيضًا عمل ما يفعله الآب." (فيلبي٧: ٢)

ولكن هذا الاقتداء بالمسيح لا يقتصر فقط على حفظ الناموس الأخلاقي في حياة لا تختلف قيد أنملة عما علَّم به المسيح، ولكنه أيضًا يتضمن بشكل خاص أن يأخذ المرء إلى نفسه آلام المسيح وموته، وهكذا يستعطف إغناطيوس مؤمني روما قائلًا: "دعوني أتمثل بإلهي المتألم." (روما ٦: ٣)

٢. الاستشهاد

ينبع اشتياق إغناطيوس وحماسه للاستشهاد من إدراكه للاقتداء بربه، فهو يفهم الاستشهاد باعتباره قمة الاقتداء بالمسيح؛ ومن ثم يكون التلميذ الحقيقي للمسيح هو من لديه الاستعداد أن يبذل حياته من أجله: "إني لم أكتمل بعد في يسوع المسيح، لكني بالفعل قد بدأت الآن أن أكون تلميذًا، وأني أخاطبكم الآن كشركائي في التلمذة." (أفسس ٣: ١) "أعذروني، أنا أعرف جيدًا أين تكمن مصلحتي، فأخيرًا أنا في طريقي لأكون تلميذًا. أتمنى ألا يشتت انتباهي أي شيء سواء كان منظورًا أو غير منظور حتى أكمل طريقي بسعادة إلى يسوع المسيح! النار، الصليب، الصراع مع الوحوش، سحق العظام، تشويه الأطراف، سحق الجسد بالكامل، العذابات الرهيبة التي يثيرها الشيطان، لتأتِ كلها عليَّ بشرط أن أسير في طريقي إلى يسوع المسيح. فليس لأقاصي الكون أو ممالك العالم أية أهمية عندي، فأنا أفضل أن أموت وأمضي إلى يسوع المسيح على أن أصير ملكًا على الأرض كلها. إني أطلب ذاك الذي مات من أجلنا، إني أحب ذاك الذي قام بسببنا. لقد أتت آلام المخاض عليَّ. سامحوني أيها الإخوة، لا تعطلوا وصولي إلى الحياة، ولا تكونوا

راغبين في موتي؛ لا تقدموا إنسانًا هدية إلى العالم وهو يريد أن يكون ملكًا لله، احذروا لئلا تغروني بالماديات، واسمحوا لي أن أنال النور النقي، فبمجرد أن أصل إلى هناك سأصير إنسانا." (رومية ٥: ٣ - ٦)

"لماذا إذًا أسلم نفسي للموت، للنار، للسيف، للحيوانات المفترسة؟ حسنًا، أن أقترب من السيف يعني أن أقترب من الله؛ أن أكون في مخالب الوحوش المفترسة يعني أني سأكون في يد الله، ليكن هذا فقط في اسم يسوع المسيح! إني أحتمل كل شيء لأتألم معه، يمنحني القوة، ذاك الذي قد صار إنسانًا." (سميرنا ٤: ٢)

٣. سكنى المسيح

إن تعاليم بولس الرسول عن حلول الله في النفس البشرية تُشكل أحد الموضوعات المفضلة عند القديس إغناطيوس، فإن ألوهية المسيح تسكن في نفوس المسيحيين[١٢] كما في هيكل: "لنفعل كل شيء ونحن مقتنعون أنه يسكن فينا، وهكذا نكون هيكله وهو إلهنا الذي فينا. هذا حق وسيظهر أمام أعيننا، لذا دعونا نحبه كما يستحق." (أفسس ١٥: ٣)

وكان إدراك إغناطيوس لسكنى الله في الإنسان قد امتلكه تمامًا وألهمه إلى درجة أنه قد صك مصطلحات جديدة دخلت إلى ثقافة عصره، فهو يدعو المسيحيين بالألقاب التالية: "حاملو الله" (θεοφόροι)، "حاملو المسيح"، (χριστοφόροι)، "حاملو الهيكل" (ναοφόροι): "هكذا أنتم كلكم رفقاء لنا في رحلة السفر، حاملو الإله، وحاملو الهيكل، وحاملو المسيح." (أفسس ٩: ٢) وهو

---

[١٢] التأثر الكاثوليكي عند المؤلف يظهر هنا أيضًا في الفصل بين اللاهوت والناسوت في هذه العبارة، لأن المسيح الواحد كله يتحد بنا روحيًا بروحه القدوس وجسديًا بسر الإفخارستيا كما يقول ق. كيرلس السكندري. ونحن لا نرى هذا الفصل في الاقتباس الذي يورده هنا المؤلف للقديس إغناطيوس. [المراجع]

يدعو نفسه "حامل الله" (θεοφόρος) وهكذا كان يبدأ رسائله بالعبارة التالية: "إغناطيوس المدعو أيضا ثيؤفورس".

٤. الكينونة في المسيح

إن المسيح ليس فقط فينا، ولكننا نحن أيضًا واحد معه، ومن ثم يرتبط المسيحيون بعضهم بالبعض الآخر في اتحاد إلهي. وهكذا يكرر إغناطيوس مرة بعد أخرى تعبير القديس بولس "في المسيح"، فهو يرغب في أن "يوجد في المسيح". والاتحاد بالمسيح هو الرابطة التي تجمع كل المسيحيين معًا، لذلك هو يتوسل إلى أهل أفسس أن يتمثلوا بالرب: "حتى تكونوا كاملين في النقاوة والتعقل في يسوع المسيح جسديًا وروحيًا." (أفسس ١٠ : ٣)

وقد كتب إغناطيوس في رسالته إلى مؤمني مغنسيا يقول إنه يصلي لأجل الكنائس: "إني أصلي لكي يكون فيهم الوحدة القائمة على جسد وروح يسوع المسيح الذي هو حياتنا الأبدية، وحدة الإيمان والمحبة التي ليس هناك شيء آخر أفضل منها، لكنها اتحاد بنوع خاص مع يسوع والآب." (مغنسيا ١ : ٢)

ومن الأمور المميزة لإغناطيوس هو أنه يؤكد مرارًا وتكرارًا على أن المسيحيين يصبحون متحدين في المسيح فقط حينما يكونون متحدين مع أسقفهم بالإيمان، وبالطاعة، وعلى وجه الخصوص بالشركة في العبادة الإلهية؛ فهو لا يعرف الاستقلالية الذاتية في الحياة الروحية أو في الاتحاد السري بالمسيح، لكنه يعترف فقط باتحاد إلهي واحد مع المُخلِّص، هذا الذي يتم من خلال العبادة الليتورجية، فالمنهج الروحي للقديس إغناطيوس ينبع من العبادة الإلهية، أي أن مركزها ليس هو الفرد الواحد بل الجماعة المؤمنة التي تعمل كجسد واحد من خلال الليتورجيا. وهذا يفسر السبب في أن

مصطلحاته السرائرية وروحانيته التي تتخلل أسلوبه الأدبي تميل إلى الرموز والعبارات التي مصدرها العبادة والليتورجيا.

أصالة الرسائل

كانت أصالة هذه الرسائل محل شك لمدة طويلة من قِبَل البروتستانت، فقد كانوا يرون - من وجهة نظرهم - أنه من غير المحتمل أن يجد المرء في زمن الإمبراطور تراجان نظام الأسقفيات المونارخية أي ذات الأسقف الواحد، وهذا الترتيب الواضح القاطع في تقسيم الوظائف الكهنوتية إلى أساقفة، وقسوس وشمامسة. لقد شكوا في رسائل إغناطيوس باعتبارها رسائل ملفقة كتبت لهدف معين هو خلق المنظومة الكهنوتية. ومثل هذا الادعاء ليس صحيحًا. ولكن اليوم يتفق الجميع على أصالة تلك الرسائل، وذلك بعد الدفاع البارع الذي قدمه كل من لايت فوت (J. B. Lightfoot) وهارناك (A. V. Harnack) وزان (Th. Zahn) وفانك (F. X. Funk) عن أصالتها. وتقف كل من الأدلة الخارجية والداخلية في صالحها، فلدينا شهادات ترجع إلى زمن كتاباتها؛ فقد كتب القديس بوليكاربوس أسقف سميرنا - وأحد من وجهت إليهم تلك الرسائل - في رسالته إلى أهل فيلبي والتي كُتبت بعد استشهاد إغناطيوس بوقت قليل: "نُرسل إليكم كما طلبتم رسائل إغناطيوس التي أرسلها إلينا ورسائل أخرى موجودة عندنا، ستستفيدون منها كثيرًا لأنها ستقودكم إلى الإيمان والصبر وكل ما يبني في ربنا." (١٣ : ٢) وهذا الوصف ينطبق تماما على الرسائل. وقد أشار كل من أوريجانوس وإيرينيوس إلى هذه الرسائل، أما يوسابيوس فقد ذكر أسماءها في ترتيبها التقليدي واعتبرها أجزاء مكملة لبعضها البعض في مجموعة واحدة (Hist eccles: 3: 36: 4 ff.)

كيف وصل النص إلينا

حُفظت هذه الرسائل لنا في ثلاثة نصوص:

١. النص القصير

وهو النص الأصلي الموجود فقط باللغة اليونانية والمحفوظ في المخطوطة (Codex Mediceus lauretianus 57)، ويرجع هذا النص إلى القرن الثاني الميلادي، غير أنه تنقصه الرسالة إلى أهل رومية، لكن نصها قد وجد في المخطوطة (Codex Paris graec .no.1457) التي ترجع إلى القرن العاشر الميلادي.

٢. النص الطويل

تم التلاعب بالمجموعة الأصلية وتحريفها في القرن الرابع الميلادي، فخرج النص الطويل من قلم كاتب معاصر لمؤلف "المراسم الرسولية"، وهو شخص له علاقة ما بأتباع الهرطقة الأبولينارية[١٣]. وقد أضاف هذا الشخص ست رسائل مزورة إلى جانب الرسائل السبع الأصلية. ويوجد هذا النص الطويل في عدة مخطوطات يونانية ولاتينية، وقد اشتهر النص الطويل أولًا، فقد طُبع باللغة اللاتينية عام ١٤٨٩م ثم باللغة اليونانية عام ١٥٥٧م. أما النص القصير الأصلي، الخاص بكل من الرسالة إلى أهل أفسس، والرسالة إلى أهل مغنسيا، والرسالة إلى أهل تراليا، والرسالة إلى أهل فيلادلفيا، والرسالة إلى أهل سميرنا، والرسالة إلى الأسقف بوليكاربوس، فقد طُبع عام ١٦٤٦م، ثم طُبع نص الرسالة إلى أهل روما عام ١٦٨٩م، ومنذ ذلك الحين صارت هناك قناعة بأن النص الطويل مزيف.

---

[١٣] كان أبوليناريوس من أشد المقاومين للأريوسية، وقد صار أسقفًا للاذيقية عام (٣٦١م). ادعى أبوليناريوس أن لاهوت اللوغوس حلّ محل الروح البشرية في المسيح. وقد رد القديس غريغوريوس النزينزي عليه في الرسالة ١٠١ قائلًا " ما لم يؤخذ كله لا يشفى كله"، مؤكدًا أنه لا بد أن يتخذ الكلمة الناسوت كاملًا حتى يشفى الناسوت بكامله. [المراجع]

٣. المختصر السرياني

نشر W. Cureton عام ١٨٤٥م نصًا سريانيًا لمجموعة مكونة من الرسالة إلى أهل أفسس، والرسالة إلى أهل روما، والرسالة إلى بوليكاربوس. ولقد اعتبر المُحرر هذا المختصر السرياني هو النص الأصلي، غير أن لايت فوت (Lightfoot) وآخرين أثبتوا أن هذا النص ما هو إلا مختصر سرياني للنص القصير.

القديس بوليكاربوس أسقف أزمير (سميرنا)

كان بوليكاربوس أسقفًا لمدينة سميرنا، وترجع المكانة الرفيعة التي كان يحظى بها إلى حقيقة كونه تلميذًا للرسل، فقد ذكر إيرينيوس (Euseb. Hist. eccles 5: 20: 5) أن بوليكاربوس قد جلس عند قدمي القديس يوحنا، بل والأكثر من ذلك أنه قد أُقيم أسقفًا لسميرنا بواسطة الرسل أنفسهم (Adv. haer. 3: 3: 4). وقد أرسل إليه القديس إغناطيوس برسالة من رسائله باعتباره أسقفًا لسميرنا. أما المناقشات التي حدثت بينه وبين البابا أنيكتوس (Anicetus) في روما عام ١٥٥م بخصوص عدة شؤون كنسية خاصة بذلك الوقت، خاصة أمر تحديد ميعاد الاحتفال بعيد الفصح، فهي دليل آخر على المكانة الرفيعة التي كان بوليكاربوس يتمتع بها. غير أن الطرفين - في خضم هذا النقاش الحامي - لم يصلا في هذا الموضوع إلى حل مرضٍ لكليهما، حيث إن بوليكاربوس قد احتكم إلى القديس يوحنا والرسل باعتبارهما السلطة التي يعتمد عليها في عادة الاحتفال الأربعشري[١٤] بالفصح، في حين تمسك أنيكتوس بالتقليد الذي كان أسلافه يعملون به، أي الاحتفال بالفصح يوم الأحد. وبالرغم

---

[١٤] أي الاحتفال بالفصح في الرابع عشر من شهر نيسان بغض النظر عن كونه أي يوم من أيام الأسبوع. [المترجم]

من اختلاف البابا أنيكتوس مع بوليكاربوس، إلا أنهما افترقا بسلام[١٥]. وذكر إيرينيوس أيضًا (Adv. Hear. 3: 3: 4) أن ماركيون[١٦] الهرطوقي قابل بوليكاربوس وسأله: "هل تعرفني؟" فرد عليه قائلاً: "بالطبع أعرفك، أنت بكر الشيطان".

استشهاد بوليكاربوس

لدينا رواية تفصيلية عن استشهاد بوليكاربوس الذي حدث بعد مدة قصيرة من رجوعه إلى روما (غالبًا بتاريخ ٢٢ فبراير عام ١٥٦م)، وذلك في رسالة مبعوثة من كنيسة سميرنا إلى الجماعة المسيحية بمدينة فيلوميلوم (Philomelum) بفيرجية الكبرى (عام ١٥٦م). وهذه الوثيقة هي أقدم رواية مفصلة باقية لدينا عن استشهاد فرد واحد، لذلك كثيرًا ما تُعتبر أول عمل يندرج تحت فئة "أعمال الشهداء" (Acts of the Martyers)، ذلك بالرغم من أن هذه الوثيقة - احتكامًا إلى تكوينها الأدبي - لا تندرج تحت هذه الفئة، لكنها تقع تحت فئة "الأدب الرسائلي المسيحي المبكر" (early Christian epistolography). وتحمل الرسالة توقيع رجل اسمه ماركيون، وكُتبت بعد استشهاد بوليكاربوس بوقت قصير، ولقد أضيفت لاحقًا إلى هذه الوثيقة بعض المعلومات الإضافية. ونحصل من هذه الرسالة على صورة ممتازة لشخصية بوليكاربوس النبيلة، فحينما أمره الوالي "ستاتيوس كوادراتوس" (Statius Quadratos) قائلاً: "العن ولسوف أطلقك، سُبْ المسيح"، جاوبه قائلاً: "لقد خدمته لستة وثمانين عامًا ولم يسئ إليَّ قط؛ كيف أجرؤ إذن أن أجدف على ملكي الذي خلصني؟" (فصل ٩: ٣). كذلك، عندما أراد معذبوه

---

١٥ هذا الموقف يناقض ما يدعيه المؤلف عن رئاسة كنيسة روما على اي كنيسة أخرى. [المترجم]

١٦ أحد رواد الهرطقة الغنوسية في القرن الثاني. [المراجع]

أن يسمروه إلى العمود الخشبي الخاص بالمحرقة قال لهم: "اتركوني كما أنا، فإن الذي يمكّنني من أن أحتمل النيران سوف يمكّنني أيضًا أن أبقى في المحرقة بلا حراك دون الحاجة إلى مساميركم." (١٣ : ٣)

وهذه الرواية تعد أقدم رواية استشهاد معروفة للباحثين المعاصرين، وهي مهمة جدًا لفهم مصطلح الاستشهاد فهمًا صحيحًا. ولقد صادفنا من قبل تركيزًا على فكرة كون الاستشهاد اقتداءً بالمسيح، هذا الاقتداء الذي يكمن في التشبه بآلامه وموته.

وعلاوة على ذلك، تعتبر هذه الوثيقة أقدم دليل على عادة تكريم الشهداء: "وبعد ذلك أخذنا بقاياه، تلك الأثمن من الحجارة الكريمة الغالية الثمن، والأرفع شأنًا من الذهب، ودفناها في مكان لائق حتى يسمح الله بأسرع ما يمكن أن يجمعنا في فرح عظيم بشهادته التي هي يوم مولده ." (فصل ١٨ : ٢)

ومن المدهش أن نرى مدى الإيجابية التي تؤكد بها تلك الوثيقة على التكريم الممنوح للشهداء وتفسره: "نحن نعبده لأنه ابن الله ونحب الشهداء لأنهم تلاميذ الرب والمقتدون به؛ إنهم يستحقون ذلك بسبب حبهم الذي لا يبارى لملكهم ومعلمهم." (فصل ١٧ : ٣) وهنا يظهر بشكل واضح لا لبس فيه كُلٌّ من الهدف الحقيقي والطابع العقائدي لتكريم الشهداء، ذلك التكريم الذي يختلف عن العبادة المقدمة للمسيح.

أما الصلاة التي قالها القديس بوليكاربوس قبل استشهاده فهي مهمة لدراسة تاريخ الصلوات المسيحية المبكرة، ليس فقط من أجل التسبحة الثالوثية مكتملة الأركان الظاهرة فيها، ولكن لأن الصلاة كلها تذكرنا بصيغ الصلوات الليتورجية: "أيها الرب الإله الكلي المقدرة، أبو ابنك المحبوب والمبارك يسوع المسيح، الذي

بواسطته قبلنا معرفتك الكاملة، إله الملائكة والقوات والخليقة كلها، وكل صفوف القديسين الذين يعيشون أمام عينيك، أباركك لأنك قد حسبتني مستحقًا أن تهبني هذا اليوم وتلك الساعة، لتكون لي مع عداد شهدائك شركة كأس مسيحك، وأن أقوم إلى الحياة الأبدية بالروح والجسد، بفضل خلود الروح القدس. اقبلني أمامك اليوم في عدادهم ذبيحة ثمينة مرضية كما سبق وأعددت وأعلنت مقدمًا وأكملت أيها الإله الحقيقي الذي لا ينطق زيفًا. لذلك أسبحك على كل شيء، أباركك وأمجدك بيسوع المسيح رئيس الكهنة الأبدي والسمائي، ابنك الحبيب الذي به لك المجد معه ومع الروح القدس الآن وكل أوان آمين." (ACW 14)

ومن ناحية أخرى، هناك وثيقة منحولة تدعى "حياة بوليكاربوس" (Vita Polycarpi) كتبها شخص يدعى "بيونيوس" (Pionius). لكن إذا تحدثنا عن المؤلف، فيجب أن نُخرج من حساباتنا بيونيوس، كاهن سميرنا الذي استشهد في حكم داكيوس. ويتسم العمل بالكامل بسمة أسطورية، ويحتمل أن يكون قد كتب سنة ٤٠٠م كملحق لقصة استشهاد بوليكاربوس الأصلية الأقدم.

الرسالة إلى أهل فيلبي

يخبرنا إيرينيوس (Euseb. hist. 5: 20: 8) أن بوليكاربوس وجه عدة رسائل للجماعات المسيحية المجاورة وللأساقفة شركائه في الخدمة. ولكن، بقيت لدينا واحدة فقط من هذه الرسائل هي الرسالة إلى أهل فيلبي. وقد وصل إلينا نص الرسالة الكامل في ترجمة لاتينية، فالمخطوطة اليونانية تقف عند الفصل (١ - ٩: ٢)، لكن يوسابيوس قد أشار أيضًا (Euseb. hist. 3: 36: 13 - 15) إلى

النص اليوناني الخاص بالفصول من (٩ إلى ١٣).

وكان المسيحيون في فيلبي قد طلبوا من بوليكاربوس نسخة من رسائل إغناطيوس فأرسلها إليهم مع رسالة بخط يده يطلب فيها أن يعلموه بأخبار موثوق بها عن إغناطيوس، وبالتالي لا بد أن تكون قد كُتبت بعد استشهاد إغناطيوس بقليل. والرسالة عبارة عن عظة أخلاقية يمكن لنا أن نقارنها برسالة كليمندس الأولى لأهل كورنثوس. ولقد استعان بوليكاربوس بالفعل برسالة كليمندس كمرجع لرسالته، كما أننا يمكننا أن نرى فيها صورة أمينة للتعليم والنظام والمحبة المسيحية التي سادت في الكنيسة في ذلك الوقت.

وقد اقترح هاريسون (p. n. Harrison) نظرية مفادها أن الوثيقة التي ندعوها رسالة بوليكاربوس هي في الحقيقة مكونة من رسالتين وجههما بوليكاربوس لأهل فيلبي في وقتين مختلفين، ولكنهما قد كُتبتا معًا في وقت مبكر على نفس البردية، وهكذا اندمجتا معًا في رسالة واحدة. وقد كانت الرسالة الأولى مكونة من الفصل الثالث عشر، وربما أيضًا من الفصل الرابع عشر، وهي عبارة عن مذكرة قصيرة أرسلها بوليكاربوس مع رسائل إغناطيوس مباشرة بعد زيارة إغناطيوس كسجين إلى سميرنا وفيلبي في طريقه إلى روما. وكان تاريخ كتابة هذه المذكرة على الأرجح في وقت مبكر من شهر سبتمبر في العام الذي استشهد فيه إغناطيوس (حوالى ١١٠م). أما الرسالة الثانية فتتكون من الفصول (١ ـ ١٢) وقد كتبها بوليكاربوس بعد ٢٠ سنة من الرسالة الأولى، وفي ذلك الوقت كان اسم إغناطيوس قد أصبح ذكرى مباركة، وأصبحت قصة استشهاده طي التاريخ. أما الهرطوقي الرئيس الذي أدانه بوليكاربوس في جسم الرسالة فهو ماركيون. وعلى هذا الضوء، إلى جانب الأدلة الداخلية الأخرى، لا يمكننا أن نُرجع تاريخ كتابة هذه الرسالة إلى

ما قبل ثلاثينات القرن الثاني الميلادي. والحقيقة أن نظرية هاريسون مقنعة جدًّا وتزيل الاعتراض القوي الوحيد الموجه ضد التأريخ المبكر لرسائل إغناطيوس.

١. التعليم العقيدي

تدافع الرسالة عن التعاليم الخريستولوجية المتعلقة بالتجسد وموت المسيح على الصليب ضد "التعاليم الخاطئة"، من خلال الكلمات التالية: "كل إنسان لا يعترف بأن يسوع المسيح قد جاء في الجسد هو ضد المسيح، والذي لا يعترف بشهادة الصليب هو من الشرير، والذي يشوه كلمات الرب حسب أهوائه ويقول ليس قيامة ولا دينونة هو بكر الشيطان." (فصل ٧: ١)

٢. التنظيم الكنسي

لا يذكر بوليكاربوس اسم أي أسقف لفيلبي، ولكنه يتكلم عن الطاعة الواجبة للقسوس والشمامسة. وهكذا يمكن للمرء أن يبرر موقفه في افتراض أن المجتمع المسيحي في فيلبي كان يديره مجلس من القسوس. وتصف لنا الرسالة القس المثالي بالكلمات التالية: "يجب أن يكون القسوس شفوقين، رحومين بالكل وبالخراف الضالة التي سارت بعيدًا، مفتقدين كل المرضى، غير مهملين للأرملة واليتيم والفقير، معتنين دائمًا بمن هو حسن في عيني الله والناس، منزهين عن كل غضب، ومحاباة للوجوه، والأحكام الظالمة، بعيدين عن كل محبة للمال، غير مسارعين في تصديق أي اتهام ضد أي إنسان، غير قاسين في أحكامهم، عالمين أننا كلنا مديونون بسبب خطايانا." (فصل ٦: ١)

٣. الإحسان

إعطاء الصدقات هو أمر محبذ جدًّا: "عندما يكون في إمكانك أن تفعل الخير لا تتردد، لأن الصدقة تنجي من الموت. ليخضع بعضكم لبعض حتى تكون تصرفاتكم بلا لوم أمام الأمم، لأن بأعمالك الطيبة سيكون لك مديح، ولن يجدف على الرب بسببك." (فصل ١٠ : ٣)

٤. الكنيسة والدولة

موقف الكنيسة من الدولة في الرسالة جدير بالملاحظة، فالصلاة لأجل السلطات المدنية أمر موصى عليه صراحة: "صلوا أيضًا من أجل الملوك والسلطات والحكام ومن أجل الذين يضطهدونكم ويكرهونكم ومن أجل أعداء الصليب حتى يظهر ثمركم للكل حتى تكونوا كاملين فيه." (فصل ١٢ : ٣)

بابياس أسقف هيرابوليس

كان بابياس أسقف مدينة هيرابوليس في آسيا الصغرى، وقال عنه إيرينيوس (Adr. Haer. 5: 33: 4)، إنه سمع القديس يوحنا يعظ، وبأنه كان أيضًا صديقًا لبوليكاربوس أسقف سميرنا. أما يوسابيوس (Euseb. hist. 3: 39: 3)، فيخبرنا أنه: "كان رجلًا محدود الذكاء كما يظهر من كتبه."

والكتب التي يقصدها يوسابيوس هنا لا يمكن إلا أن تكون مقالات وضعها بابياس سنة ١٣٠م في خمسة كتب بعنوان "شرح أقوال الرب" (Λογίων κυριακῶν ἐξηγήσεις). وهذا النقد القاسي الذي وجهه يوسابيوس لبابياس فهو بسبب: (أ) دفاع بابياس عن

عقيدة الحكم الألفي[17]. (ب) أظهر بابياس قدرًا ضئيلًا جدًا من الدقة في اختيار مصادره وتوثيقها. ولكن العمل - بقدر ما تبقى لدينا منه - له أهمية خاصة بالرغم مما شابه من عيوب، حيث احتوى على ما هو ذي قيمة كبيرة بالنسبة لنا، ألا وهو تعاليم تلاميذ الرسل الشفاهية.

وهكذا يُلخص بابياس عمله في الكلمات التالية: "أنا لن أتردد في أن أضيف لأجلكم الشروحات التي تعلمتها وأتذكرها جيدًا، تلك التي أثق أنها حق. لأني - على العكس من كثيرين - لا أُسر بهؤلاء الذين يتكلمون كثيرًا بل بمن يُعلِمون بالحق، ولا أسر بهؤلاء الذين يسردون وصايا الآخرين، بل بالذين يسجلون ما قد أخذوه من الرب للإيمان، ذلك الذي ينبثق من الحق نفسه. فإذا ما جاء أي شخص وكان تابعًا للشيوخ، أسأله عن كلماتهم، ما كان يقوله أندراوس أو بطرس أو فيليبس أو توما أو يعقوب أو يوحنا أو أي شخص من تلاميذ الرب، كذلك ما كان يقوله أريستيون أو يوحنا الشيخ تلميذا الرب لأني لا أعتقد أن المعلومات المستمدة من الكتب سوف تساعدني بقدر ما ستفعل الأصوات الحية الباقية." (Euseb. Hist. eccles. 3: 39: 3 - 4)

ويتضح لنا من هذا الاقتباس أن كلمات الرب التي تناولها بابياس بالشرح لم تكن مأخوذة فقط من الأناجيل المكتوبة التي كانت في متناوله، بل أيضًا من التقليد الشفاهي؛ فعمله هذا لم يكن مجرد تفسير للأناجيل وإن كانت أغلب الفقرات الواردة به مأخوذة من الروايات الإنجيلية.

---

[17] هي عقيدة ينادي أصحابها بأن المسيح سيأتي ليملك على الأرض مع المؤمنين ألف سنة (رؤ٢٠: ١-٦) لكي يحقق بعض الوعود مثل (إش ١١، ٦٥)، والتي لا يمكن أن تكون تحققت في المجيء الأول. وهذا الاعتقاد قد تسلل إلى بعض الآباء الأولين من التعاليم اليهودية التي ظهرت في فترة ما بين العهدين، والتي تتكلم عن مملكة المسيا الذي سيأتي ليحرر اليهود من كل هذه الأمور، ومن أشهر من نادى بالملك الألفي القديس إيرينيوس، ويوستينوس الشهيد. [المراجع]

ومن ضمن الشذرات القليلة التي بقيت من هذا العمل وحفظها لنا يوسابيوس، اشتهرت تلك الملاحظات التي تتحدث عن الإنجيلين الأولين (متى ومرقس)، فالشذرة الأولى تقول: "و قال الشيخ: صار مرقس مترجمًا لبطرس وسجل بدقة كل ما تذكر أن الرب قاله أو فعله، ولكن بلا ترتيب تاريخي، لأنه لم يسمع الرب ولم يتبعه، لكنه لاحقًا ـ كما سبق وقلت ـ تبع بطرس الذي اعتاد يُعلم بحسب الحاجة، لكنه لم يكن مهتمًا أن يُرتب أقوال الرب ـ ترتيبًا تاريخيًا ـ وهكذا لم يرتكب مرقس أي خطأ من هذه الجهة في كتابة النقاط المتفرقة كما تذكرها، لأن كل اهتمامه كان أن يكتب كل ما سمعه بدون أن يترك أي شيء منه و ألا يكتب أي شيء خطأ." (Euseb. Hist. eccles. 3: 39: 15 - 16). ولدينا هنا أقوى شهادة عن قانونية إنجيل مرقس، غير أننا حتى الآن لا نجد تفسيرا مرضيا لسبب ذكر باباياس ليوحنا مرتين (Euseb. Hist. eccles 3: 39: 4).

أما بخصوص أصل إنجيل متى فيقول: "كتب متى أقوال [الرب] بالعبرية، وفسر كل واحد منها بقدر ما استطاع." (Euseb. Hist. eccles. 3: 39: 16) وهذه العبارة تؤكد أنه في وقت بابياس كان العمل الأصلي الذي كتبه متى قد حلت محله ترجمة يونانية له، أما الترجمات التي يقصدها بابياس هنا فليست ترجمات مكتوبة للإنجيل، بل صياغة شفوية لأقوال ربنا المسجلة فيه؛ لقد كانت ـ على الأرجح ـ ترجمة للفقرات الإنجيلية المستخدمة في الاجتماعات الليتورجية بين الجماعات المتكلمة باليونانية أو تلك الثُنائية اللغة.

أيضًا يقول يوسابيوس عن بابياس: "يدون الكاتب نفسه روايات وصلت إليه من تقاليد غير مكتوبة، وأمثالاً وتعاليم غريبة للمُخلص، بالإضافة إلى أمور أخرى أكثر إغراقًا في الخرافة، منها أنه سيكون هناك ألف عام بعد قيامة الأموات يُقام فيها ملكوت المسيح في

شكل مادي على الأرض، وأنا أعتقد أنه قد أتى بمثل هذه الأفكار بسبب سوء فهمه لتعاليم الرسل، غير مُدرك أنهم قد تكلموا بهذه الأمور بطريقة سرية ورمزية." (Euseb. Hist. eccles 3: 39: 11 - 12).

وقد أشار يوسابيوس إلى أن المكانة التي كان يتمتع بها بابياس أغوت الكثير من المسيحيين ليؤمنوا بعقيدة الملك الألفي: "أنه هو المسئول عن كون الكثير من الكُتاب الكنسيين بعده صار لهم نفس رأيه معتمدين على أقدميته، مثل إيرينيوس وكل من يبدو أنه قد اعتقد بهذا الرأي." (Euseb. Hist. eccles 3: 39: 13). أما "القصص المغرقة في الخرافة" التي أشار إليها يوسابيوس فمنها ـ دون شك ـ القصة التي تحكي عن نهاية يهوذا الخائن الشنيعة، وقتل يوحنا أخي يعقوب الذي خانه اليهود، وأيضًا ما سمعه بابياس من بنات فيلبس (أع ٢١: ٨) الذين سكنوا في هيرابوليس، حيث أخبروه بمعجزات حدثت في أيامهن، مثل قيامة والدة مانايموس (Manaimus) من الموت، وقصة يسطس بارسابا الذي ابتلع جرعة من السم دون أن يضار.

رسالة برنابا

رسالة برنابا هي مقالة لاهوتية ولكنها رسالة من حيث الشكل الخارجي فقط. وهي في الحقيقة لا تحتوي على أي شيء شخصي، كما أنها تفتقد إلى المقدمة والخاتمة المميزة للرسائل، أما المحتوى فذو سمة عامة ولا يعطي انطباعًا بأنه موجه لأشخاص معينين، ومن ثم يكون شكلها مجرد نص أدبي. وقد كان الكُتاب المسيحيون المبكرون ينظرون إلى الرسالة باعتبارها الشكل الأدبي الوحيد الصالح للنصح بطريقة فيها تقوى، وكانوا يلجأون إليه حتى عندما لا يكونون بصدد مخاطبة دائرة محدودة من القراء. ويهدف الكاتب

المجهول الاسم أن يعلِّم "المعرفة الكاملة والإيمان".

المحتويات

الرسالة مقسمة إلى قسمين، قسم نظري وقسم عملي:

١. يتكون القسم النظري من الفصول (١ - ١٧)، وهو ذو صفة عقائدية. ويصف الكاتب في الفصل (١: ٥) الغرض من رسالته بالكلمات التالية: "حتى تكتمل معرفتكم مع إيمانكم"، إلا أن هذه المعرفة فريدة من نوعها. ويُريد الكاتب، في المقام الأول، أن يشرح ويُثبت لقُرائه قيمة الإعلان الإلهي في العهد القديم ومعناه، إنه يريد أن يُظهر أن اليهود قد أساءوا فهم الناموس كليًّا لأنهم فسروه حرفيًا. وبعد أن أعرب الكاتب عن رفضه لهذا النوع من التفسير الحرفي، فسر النصوص بشكل روحي ومجازي.

٢. "المعرفة الكاملة" (τελία γνῶσις) والتي يشكل التفسير الرمزي لتعاليم العهد القديم ووصاياه، قلب هذه المعرفة. فالله لا يريد تقديمات مادية بذبائح دموية بل تقدمة القلب في التوبة، وهو لا يريد ختان أجسادنا بل ختان أسماعنا حتى تُذعن أذهاننا للحق. أنه لا يصر على وجوب امتناع الإنسان عن لحوم الحيوانات النجسة ولكنه يصر على وجوب اجتناب الخطايا التي تمثلها هذه الحيوانات (فصل ٩، ١٠)، فالخنزير - على سبيل المثال - يعد من الحيوانات النجسة لأن هناك من البشر من يشبه الخنزير، إنهم هؤلاء الذين عندما يمتلئون من الطعام ينسون اليد التي امتدت لتطعمهم. كما أن النسر والصقر والحدأة والغراب تعد من الطيور الممنوع تناول لحومها لأنها ترمز للإنسان الذي يحصل على غذاء يومه بالسلب وكل وسيلة ظالمة بدلاً من أن يكسبه بأمانة ومن عرق جبينه (فصل ١٠: ٤). كذلك يظهر في الفصل التاسع من الرسالة، الذي يتكلم فيه الكاتب

عن ختان إبراهيم لـ ٣١٨ من عبيده، دليلًا على جسارة الكاتب في استخدام التفسير الرمزي. فبحسب تأويل الكاتب، أُظهِر لإبراهيم بهذه الطريقة سر الخلاص بصليب المسيح وموته، فالرقمين ١٠ و ٨ يكتبان في اليونانية بحرفي اليوتا والإيتا (ιη = ιησούς يسوع)، أما الرقم ٣٠٠ في اليونانية فيُرمز إليه بحرف (τ) الذي يشير إلى الصليب، ومن ثم يرمز الرقم ٣١٨ إلى الخلاص بموت يسوع المسيح على الصليب.

وهكذا، لم يكُن الناموس القديم مُعدًّا - أصلًا - لليهود، "لقد استلمه موسى لكنهم لم يكونوا مستحقين له"، بل كان مُعدًّا للمسيحيين منذ البدء: "لكن اعلموا كيف قبلناه، لقد استلمه موسى كخادم، ولكن الرب نفسه أعطاه لنا بوصفنا شعب الميراث، وذلك بأن تألم لأجلنا." (فصل ١٤ : ٤). أما التأويل اليهودي للعهد القديم فلم يكن ذاك التأويل الذي أراده الله، بل قد انخدع اليهود بمكائد الملاك الشرير: "لقد أخطأوا لأن ملاكًا شريرًا كان يُضلهم." (فصل ٩ : ٤). بل أن الكاتب تجرأ حتى قال إن شكل العبادة اليهودية يشبه العبادة الوثنية (١٦ : ٢).

٣. يناقش القسم الثاني (الفصول ١٨ - ٢١) القيم الأخلاقية بدون أي تحيز من أي نوع، فهو يشبه الديداخي؛ إذ يضع طريقين أمام البشر: طريق الحياة وطريق الموت، ولكنه يسميهما "طريق النور" و"طريق الظلمة". ولكي يرسم الكاتب صورة لطريق النور، يقدم الكثير من الوصايا الأخلاقية التي تعكس محتوى الوصايا العشر. أما الفقرات التي تتناول طريق الظلمة فتذكر أنواعا كثيرة من الآثام والخطايا.

التعليم العقائدي

بالرغم من أن التعاليم العقائدية في هذه الرسالة ضئيلة مُتناثرة، إلا أن بعض التفاصيل تستحق الاهتمام:

١. يعترف برنابا بعقيدة الوجود الأزلي للمسيح. لقد كان المسيح مع الآب عندما خلق العالم، بل إن كلمات الكتاب القائلة: "لنخلق الإنسان على صورتنا كشبهنا"، قد نطقها الآب مُحدثًا بها ابنه الإلهي (فصل ٥ : ٥). والأكثر من ذلك هو أن برنابا قد استخدم مثل الشمس، المشهور استخدامه في التعليم اللاهوتي السكندري، لشرح التجسد: "لأنه إذا لم يكن قد جاء في الجسد، كيف كان للبشر أن ينظروا إليه ليخلصوا مع معرفتهم أنه عند نظرهم للشمس لا تكون لهم القدرة على التحديق في أشعتها." (فصل ٥ : ١٠)

وقد تحدث عن سببين للتجسد: (١) "لقد تجسد ابن الله حتى يُكمل كأس ذنوب هؤلاء الذين اضطهدوا أنبياءه حتى الموت، ولهذا احتمل الآلام"؛ (٢) "لقد شاء أن يتألم لأجلنا." (٥ : ١١ - ١٣)

٢. تشرح الفصول (٦ - ١١) بطريقة رائعة الكيفية التي تمنح بها المعمودية نعمة التبني للإنسان وتختم نفسه بصورة الله وشبهه: "لقد جددنا بغفران خطايانا، وجعلنا جنسًا آخر حتى يكون لنا روح البنين كما لو كان يخلقنا من جديد، لذلك يقول الكتاب بخصوصنا حينما صوّر الآب مُحدثًا الابن: "لنخلق الإنسان على صورتنا ومثالنا"." (٦ : ١١ - ١٢)

٣. من خلال المعمودية تتأهل خليقة الله لتصير هيكلًا للروح القدس: "بقى لي فقط أن أحدثكم بخصوص الهيكل، وكيف أن هؤلاء القوم الأشقياء - اليهود - قد أخطأوا عندما وضعوا ثقتهم في الهيكل وليس في الله نفسه الذي خلقهم؛ كما لو كان هذا الهيكل هو مكان سُكنى الله، وهكذا يفعلون كالأمم، فهم أيضًا يحصرون الله في معبد. لكن اعلموا ما الذي تكلم به الله معتبرًا الهيكل كأنه لا شيء: "من الذي قاس السماء بشبره والأرض بيده؟ أ ليس هو أنا؟ هذا ما يقوله الرب، السماء كرسي

لي والأرض موطئ قدمي، ما هو البيت الذي ستبنونه لي؟" فاعلموا إذن أن كل رجائهم قد صار هباءً. أيضًا يقول الرب: "انظر، الذين ينقضون الهيكل هم من سيبنونه مرة أخرى." وهذا قد حدث عندما هدم أعداؤهم الهيكل في حروبهم معهم؛ وبناه خُدام أعدائهم مرة أخرى في أيامنا هذه ... لكن دعونا نسأل، هل يمكن أن يكون هناك أي هيكل للرب؟ نعم يمكن، وهو المكان الذي أعلن الرب نفسه أنه سوف يبنيه ويكمِّله، لأنه مكتوب: "في آخر الأسبوع سيبنى هيكل الله بمجد" وهكذا أجد أن هناك هيكلاً. ولكن كيف سيُبنى باسم الرب؟ سوف أريكم، قبل أن نؤمن بالله كانت قلوبنا فاسدة وضعيفة مثل هيكل مبني بالأيادي، لأنه كان مسكنًا مملوءًا أصنامًا، بيتًا للشياطين، نظرًا لأن كل ما كان يحدث فيه كان ضد الله، ولكنه سيبنى باسم الرب. إن هيكل الرب سيُبنى بمجد، ولكن بأى وسيلة؟ اعلموا إذن أننا بغفران خطايانا وثقتنا في اسم الرب نتجدد مخلوقين ثانية، حيث سيسكن الله بالحقيقة في داخلنا." (فصل ١٦ : ١ ـ ٨، ٩)

٤. يركز الكاتب، خاصة في (فصل ١٥ : ٨)، على الاحتفال باليوم الثامن في الأسبوع (يوم الأحد) بدلاً من السبت اليهودي وذلك لأنه يوم قيامة المسيح من بين الأموات: "قال الله لهم: "أوائل شهوركم وسبوتكم لم أعد أحتملها"، تأملوا ما الذي يعنيه بتلك الكلمات، إنه يقول: إن سبوت هذا الدهر الحاضر ليست مقبولة أمامي بل تلك حددتها لنهاية العالم مشيرًا إلى اليوم الثامن الذي هو بداية العالم الذي يأتي، لذلك نحن نحتفل فرحين باليوم الثامن الذي فيه قام يسوع من بين الأموات وأظهر نفسه لتلاميذه، وصعد إلى السموات."

٥. إن حياة الرضّع ـ الذين ولدوا والذين لم يولدوا بعد ـ محمية بقوة الناموس: "لا تقم بعملية إجهاض ولا تقتل طفلاً بعد ولادته." (١٩ : ٥)

٦. يؤمن الكاتب بعقيدة الملك الألفي[١٨]، فأيام الخليقة الستة تعني ستة آلاف سنة، لأن ألف سنة في عيني الله كيوم واحد، ولسوف يكتمل كل شيء في ستة أيام، أي في ستة آلاف سنة، وبعدها سينتهي هذا الدهر الحاضر الشرير وسيأتي ابن الله وسيدين الأشرار وستتغير الشمس والقمر والنجوم وسيرتاح حقا في اليوم السابع، وهكذا سيشرق سبت الملكوت الألفي (١٥: ١ ـ ٩).

الكاتب

لا تدعي الرسالة في أي مكان منها أن كاتبها هو برنابا، كما أنها حتى لم تدعِ لنفسها أصلًا رسوليًا؛ إلا أنها منذ العصور المبكرة كانت تُنسب تقليديًا إلى الرسول برنابا رفيق القديس بولس الرسول وشريكه في الخدمة.

وتدرج المخطوطة السينائية ـ التي تعود إلى القرن الرابع الميلادي ـ الرسالة ضمن الكتب القانونية للعهد الجديد، وتضعها بعد سفر رؤيا يوحنا. وقد استشهد كليمندس السكندري بعدة فقرات منها ناسبًا إياها إلى القديس برنابا، وكان أوريجانوس يدعوها باسم "الرسالة الجامعة" (καθολικὴ ἐπιστολή) كما كان يحسبها في عداد الكتب المقدسة. أما يوسابيوس فيضعها ضمن الكتب المختلف عليها، فى حين أن جيروم يحسبها مع كتب الأبوكريفا.

وقد أثبتت الأبحاث الحديثة بما لا يدع مجالًا للشك أن برنابا الرسول ليس هو كاتب هذه الرسالة، وذلك بسبب ما يظهر فيها من رفض قاس وتام للعهد القديم. لذلك، وبسبب هذا العداء السافر لكل ما هو يهودي، لا يمكن أن يكون برنابا هو كاتب هذه الرسالة. علاوة على ذلك، هناك فارق كبير بين تعاليم القديس

---

[١٨] انظر الحاشية رقم ٢٥. [المراجع]

بولس، الذي كان برنابا رفيقًا له في الكرازة، وبين تعاليم هذه الرسالة، فبولس يعتقد أن الناموس القديم كان قانونًا إلهيًا في حين تتكلم تلك الرسالة عنه بوصفه خداعًا شيطانيًا (فصل ٩: ٤). وينبغي أيضًا أن تُرفض نسبة هذه الرسالة إلى برنابا على أساس تاريخي، وذلك لأنه من المؤكد أنها قد كُتبت بعد دمار أورشليم، وهذا ما يثبته الفصل السادس عشر بوضوح. أما استخدام التفسير الرمزي في الرسالة فيشير إلى الإسكندرية كموطن للمؤلف؛ فتأثير "فيلو" الظاهر فيها لا تخطئه عين، وهذا يفسر سبب المكانة الرفيعة التي كانت تلك الرسالة تحظى بها عند اللاهوتيين السكندريين.

زمن كتابة الرسالة

بالرغم من أن التاريخ الذي يجب أن تكون تلك الرسالة قد كُتبت بعده محدد جدًا، حيث إن الرسالة لا يمكن أن تكون قد كُتبت قبل خراب أورشليم، إلا أن الآراء تختلف اختلافًا بينًا في تحديد التاريخ الذي يجب أن تكون تلك الرسالة قد كُتبت قبله. وقد جاءت في (فصل ١٦: ٣ ـ ٤) الكلمات التالية: "أيضًا يقول الرب: "انظر، الذين ينقضون الهيكل هم من سيبنونه مرة أخرى"، هذا يحدث الآن، لأن الأعداء قد دمروا الهيكل بسبب الحرب، لكن في أيامنا هذه حتى خدام الأعداء يبنونه مرة أخرى." وتقودنا الجملة التي تبدأ بعبارة "هذا يحدث الآن" إلى أن نستنتج أنه ـ في وقت كتابة الرسالة ـ كان ردح من الزمن قد مضى منذ دمار الهيكل. ولكن هارناك (Harnack) يرى في الإشارة إلى إعادة بناء الهيكل تلميحًا إلى بناء هيكل جوبيتر (Jupiter) في أورشليم أثناء حكم هدريان (١١٧ ـ ١٣٨م)، وهكذا يضع تاريخ كتابة الرسالة في الفترة ما بين ١٣٠ ـ ١٣١م. أما رأي فانك (Funk) والذي يقول بأن هذه الفقرة تتحدث عن

بناء الكنيسة - التي هي هيكل الله الفائق للطبيعة - فغير مقنع، والأقل إقناعًا هي محاولته لاستنتاج تاريخ كتابة الرسالة من الفقرة (٤: ٤ - ٥). حيث تستشهد الرسالة في هذه الفقرة بنص (دا ٧: ٢٤) و (دا ٧: ٧ - ٨) قائلة: "ويقول النبي أيضًا: "ستقوم عشر ممالك على الأرض وبعدها يقوم ملك صغير سيخضع ثلاثة ملوك له". كذلك يقول دانيال بخصوص الأمر نفسه: "ونظرت إلى الحيوان الرابع، شرير وقوى، وأشرس من كل حيوانات البحر، وله عشرة قرون يخرج منهم قرن آخر صغير أخضع له ثلاثة قرون كبيرة". وقد اعتبر فانك أن الملك الحادي عشر الصغير المذكور في هذه النبوة هو نفسه الإمبراطور الروماني "نيرفا" (Nerva) (٩٦ - ٩٨م)، ووفقًا لفانك،أخضع نيرفا ثلاثة ملوك له، وحدث ذلك حين ارتقى عرش الإمبراطورية بعد اغتيال الإمبراطور دومتيان، الأمر الذي قضى على حكم أسرة فلافيان الحاكمة والتي أفرزت ثلاثة أباطرة هم فيسبسيان (Vespasian) وتيتوس (Titus) ودومتيان (Domitian). لكن، لن تنطبق كلمات دانيال هنا على الإمبراطور نيرفا إلا بتفسيرها مثل هذا التفسير التعسفي. وعلى الجانب الآخر، توجد في الطريقة التي استخدمها هارناك في تحديد زمن كتابة الرسالة مشاكل خاصة بها، فهي تعتمد على تحديد الوقت الخاص بهدم الهيكل ووقت إعادة بنائه المشار إليه في الرسالة. ويعتقد لايتزمان (Leitzmann) أن الكاتب يشير هنا إلى المرة الثانية التي دُمر فيها الهيكل والتي كانت أثناء حرب باركوخبا (Barcochba)، وهذا سيقودنا إلى أن نعتقد أن العمل قد كُتب بعد بداية هذه الثورة - ثورة باركوخبا، تلك التي تزامنت نهايتها مع السنة الأخيرة من حكم هادريان (١٣٨م)، ويصعب علينا تحديد تاريخ لاحق على هذا الوقت كتاريخ مفترض لكتابة هذه الرسالة.

وقد تساءل البعض حول مدى تجانس محتوى رسالة برنابا، وبُذلت

بعض المحاولات لإثبات دخول بعض الإضافات على نصها، غير أن مولينبورج (Muilenburg) أثبت بنجاح أن الوثيقة من بدايتها إلى نهايتها هي لنفس الكاتب، وأنه لا يمكن تمييز أي إضافات لاحقة عليها. أما سقوطها في كثير من عدم الترابط فيمكننا أن نرجعه إلى لغتها غير الدقيقة وطريقة كتابتها المفتقدة إلى البراعة، فالكاتب يغير أسلوب الكتابة فجأة بل يقطع سياق أفكاره ليدخل إلى عظة أخلاقية ليس لها علاقة بما كان يقوله.

أما عرض الكاتب لطريقين - طريق الخير وطريق الشر - فمأخوذ من نفس المصدر الذي استقى منه الديداخي محتواه، إلا أننا بالرغم من ذلك متأكدون من أن كاتب رسالة برنابا لم يعتمد على الديداخي كمصدر له. ويقودنا تحليل رسالة برنابا إلى أن نستنتج أن الكاتب لم يكن في متناوله فقط هذا المصدر المشترك بالإضافة إلى الكتب المقدسة، بل له أيضًا مصادر أخرى غير معروفة لنا.

كيف وصل النص إلينا

بالنسبة للنص اليوناني لدينا هذه الوثائق :

١. المخطوطة السينائية (Codex Sinaiticus) التي تعود إلى القرن الرابع الميلادي، والتي كانت محفوظة سابقًا في سان بترسبرج والآن في لندن. وتدرج تلك المخطوطة رسالة برنابا ضمن أسفار العهد الجديد، وتضعها بعد سفر الرؤيا مباشرة .

٢. المخطوطة الأورشليمية (Hierosolymitanus Codex) التي كُتبت عام ١٠٥٦م. وكانت تلك المخطوطة محفوظة سابقًا في مدينة القسطنطينية أما الآن فهي في أورشليم. اكتشفها بيرينيوس (Bryennios) عام ١٨٧٥م، وتحتوي على رسالة برنابا والديداخي ورسالة كليمندس الأولى.

٣. المخطوطة الفاتيكانية (اليونانية) (٨٥٩) Codex Vaticanus (grace. 859) التي تعود إلى القرن الحادي عشر، وتحتوي على رسائل إغناطيوس وبوليكاربوس ورسالة برنابا، إلا أن الفصول (١:١ ـ ٥ : ٧) تنقصها، وقد وجِد أن هذا الجزء نفسه مفقود أيضًا في المخطوطات الأخرى اللاحقة المنقولة عن نفس المخطوطة الأم التي نقلت عنها المخطوطة الفاتيكانية اليونانية.

والرسالة موجودة أيضًا في ترجمة لاتينية أُنجزت في القرن الثالث الميلادي. وقد نُسخت تلك الترجمة في القرن العاشر الميلادي في دير كوربي (Corby) وهي محفوظة في مدينة سان بترسبرج ولكن ينقصها الفصول (١٨ : ١ ـ ٢٩ : ٩).

راعي هرماس

رغم أن هذا الكتاب يحسب من ضمن كتابات الآباء الرسوليين، لكنه في الحقيقة ينتمي إلى فئة الكتب الرؤيوية المنحولة (Apocryphal apocalypses)، وهو عبارة عن كتاب يضم مجموعة من الرؤى أُعطيت لهرماس في روما بواسطة اثنين من الكائنات السماوية: الأولى كانت امرأة مسنة، والثاني كان ملاكًا في صورة راعٍ، ومن هذا الأخير أخذ الكتاب اسمه. ولا يحوي الكتاب سوى عبارة واحدة فقط تلك التي يمكننا أن نستنتج منها زمن كتابته، فوفقًا للفقرة (٤ : ٣) في الرؤيا الثانية، أمرت المرأة التي تمثل الكنيسة هرماس أن ينسخ نسختين من الرؤيا ويعطي إحداها لكليمندس الذي سيرسلها إلى المدن البعيدة، وكليمندس هذا بلا شك هو كليمندس الروماني الذي كتب رسالته إلى أهل كورنثوس عام ٩٦م. لكن، يبدو هذا متناقضًا مع ما ورد في الوثيقة الموراتورية[١٩]

[١٩] الوثيقة الموراتورية (أو القانون الموراتوري) اكتشفها موراتوري (١٦٧٢-١٧٥٠) في

(Muratorian fragment) التي تتكلم عن كاتب هذا العمل قائلة: "وحديثًا في وقتنا هذا في مدينة روما كتب هرماس كتاب الراعي عندما كان أخوه بيوس الأسقف يجلس على كرسي مدينة روما." وتعطي شهادة الوثيقة الموراتورية ـ التي ترجع إلى نهاية القرن الثاني الميلادي ـ انطباعًا بموثوقية المعلومات المذكورة بها، لكن بما أن حبرية بيوس الأول تقع ما بين (١٤٠م ـ ١٥٠م)، نظر الباحثون إلى إشارة الكاتب إلى البابا كليمندس الواردة في الرؤيا الثانية على أنها خيال محض. لكن، ليس هناك سبب معقول يدفعنا لندعو هذه الإشارة خيالاً، فنحن يمكننا أن نفسر كلا التاريخين إذا أخذنا في الاعتبار الطريقة التي جُمعت بها أجزاء هذا الكتاب، فعلى أغلب الظن، تعود الأجزاء الأقدم من هذا الكتاب إلى عهد حبرية كليمندس، في حين تعود النسخة المنقحة الموجودة بين أيدينا إلى عهد حبرية بيوس. ويقود الفحص النقدي لمحتويات الكتاب إلى نفس هذا الاستنتاج، ويظهر هذا أن أجزاء الكتاب المختلفة تعود إلى فترات تاريخية مختلفة.

ونجد أيضًا أن أوريجينوس كان يرى أن مؤلف هذا الكتاب هو هرماس الذي ذكره بولس في رسالته إلى أهل رومية، وهذا رأي غير مقبول. ويذكر المؤلف نفسه أنه قد تم بيعه كعبد في شبابه المبكر وأُرسل إلى روما، وهناك اشترته سيدته المدعوة رودا. أما الأسلوب العبراني الذي للكاتب فيؤكد أنه إما من أصل يهودي أو تعلم على يد معلمين يهود، وهو يحكي ـ في صراحة و وِد ـ كل أنواع الأمور التي تتعلق به شخصيًا أو بأقاربه؛ وهو يتكلم عن صفقاته التجارية،

مكتبة القديس أمبروسيوس بمدينة ميلانو الإيطالية، فعرفت باسمه. وهي عبارة عن وريقة صغيرة، ترجع إلى حوالى ١٧٠م. وتعتبر هذه الوثيقة أقدم لائحة بأسفار العهد الجديد المعترف بها في الكنيسة، ويعود المخطوط الحالي لها إلى القرن السادس الميلادي، وهو نسخة عن وثيقة قديمة دوّنت في النصف الثاني من القرن الميلادي الثاني في روما أو في جوارها على يد هيبوليتس الروماني. وتتضمّن ٨٥ سطرًا، وهي مكتوبة بلغة لاتينية معقدة يصعب فهمها. [المراجع]

وفقدانه لكل ثروته التي جمعها كشخص حر، وزراعته لفدادين الأرض التي يملكها على طريق السفر الواصل بين مدينة روما ومدينة كومي (Cumae)، هذه الحقيقة الأخيرة تفسر سبب خروج هذا الكم الكبير من الصور الريفية التلقائية من قلم الكاتب. ويخبرنا الكاتب أيضًا أن أولاده قد ارتدوا عن الإيمان أثناء فترة الاضطهاد، وكيف أنهم خانوا والديهم وعاشوا حياة منافية للأخلاق، كما أنه لا يجد شيئًا طيبًا ليقوله عن زوجته التي تتحدث كثيرًا ولا تلجم لسانها. وتدفعنا هذه المعلومات لنستنتج أن الكاتب كان رجلًا تقيًّا بارًّا له ضمير حي، رجلًا قد ثبت في مواجهة الاضطهاد.

ويتكون الكتاب من عظة عن التوبة ذات سمات رؤيوية وعلى وجه العموم فإن موضوعها كان غريبًا من جهة الشكل والمضمون. والعمل ينقسم ظاهريًّا إلى ثلاثة أقسام: خمس رؤى، وإثني عشر حكمًا أو وصية، وعشرة أمثال. وبالرغم من أن هذا التقسيم من وضع الكاتب، إلا أن العمل لا يحتوي داخليًّا على أساس منطقي يُبرر هذا التقسيم الثلاثي أو حتى العناوين الفرعية المُختلفة داخله، وذلك لأنه حتى الوصايا والأمثال الواردة في العمل هي أيضًا ذات طبيعة رؤيوية. أما منطقيًّا، فينقسم الكتاب إلى قسمين رئيسين وخاتمة.

المحتويات

١. في القسم الرئيس الأول، الذي يضم الرؤى من الأولى إلى الرابعة، يستقبل هرماس رؤى من المرأة التي تمثل الكنيسة والتي ظهرت له أولًا في شكل امرأة عجوز جليلة ولكنها بالتدريج تفقد علامات السن وتظهر في الرؤيا الرابعة كعروس تمثل مُختاري الله.

الرؤيا الأولى

تبدأ الرؤيا الأولى بكلام عن خطية فكر تؤرق ضمير هرماس،

وتظهر الكنيسة فيها كسيدة عجوز تحثه على التوبة عن خطاياه وخطايا أسرته.

الرؤيا الثانية

تعطيه السيدة العجوز كتيبًا لينسخه ويوزعه؛ ويحث مُحتوى الرؤيا أيضًا على التوبة ويحمل نبوة واضحة بأن الأضطهاد على الأبواب.

الرؤيا الثالثة

في هذه الرؤيا تستخدم السيدة العجوز رمز البُرج الذي لم يكتمل بناؤه لتشرح لهرماس مصير المسيحية التي سوف تنمو في وقت قصير لتصبح الكنيسة المثالية. كل حجر لا يناسب باني البرج سيُرفض، لذلك كل خاطئ لا يتوب عن خطيته سيُخرَج خارج الكنيسة. والتوبة السريعة مطلوبة لأن الوقت مُقصر.

الرؤيا الرابعة

تكشف هذه الرؤيا للرائي عن نكبات خطيرة وشيكة الوقوع، واضطهاد تحت سلطان تنين بشع. لكن على قدر بشاعة هذا الوحش، إلا أنه لن يؤذي الرائي وكل من يتسلح بالإيمان. وخلف الوحش، يرى الرائي الكنيسة في ثياب عروس، رمزا للبركة التي سينالها المطيعون تأكيدًا لدخولهم إلى الحياة الأبدية.

الرؤيا الخامسة

في هذه الرؤيا، التي تمثل مرحلة الانتقال من القسم الأول إلى القسم الثاني، يظهر ملاك التوبة في شكل الراعي الذي سيرعى ويقود عملية التوبة. إنه هو من سيعيد إحياء المسيحية، وهو الآن يشرح لهرماس الوصايا والأمثال.

٢. يتكون الجزء الرئيس الثاني من إثنتي عشرة وصية بالإضافة إلى الأمثال من ١ إلى ٩:

الوصايا الإثنتا عشرة

تُمثل الوصايا الإثنتا عشرة ملخصًا للأخلاق المسيحية؛ فهي تكشف عن المبادئ التي ينبغي أن يسلك بها التائب بحسب الطبيعة الجديدة، وهذه الوصايا هي:

(أ) الإيمان، مخافة الله والسلوك بإعتدال

(ب) وحدانية القلب و البراءة

(ج) الصدق

(د) الطهارة والسلوك المستقيم في كل من حالتي الزواج والترمل

(هـ) الصبر وكظم الغيظ

(و) ذاك الذي ينبغي الإيمان به، وذاك الذي ينبغي عدم الاعتداد به، وهما بالترتيب: ملاك العدل وملاك الشر.

(ز) ذاك الذي ينبغي أن تخافه وذاك الذي ينبغي ألا تخافه: الله والشيطان.

(ح) ما ينبغي أن نتجنبه وما ينبغي أن نفعله: الشر والخير.

(ط) فيما يتعلق بالشكوك (δυψυχία)

(ي) فيما يتعلق بالحزن والتشاؤم

(ك) في الأنبياء الكذبة

(ل) في وجوب اقتلاع المرء لكل رغبة شريرة من قلبه وملئه بالصلاح والفرح.

ثم يُختم القسم - مثل كل وصية - من الوصايا الإثنتى عشرة- بنصيحة ووعد، فالملاك يؤكد لتلك النفس الضعيفة التي تشك في قدرتها على تتميم تلك الوصايا، أن الإنسان الذي واثقًا في الله يجاهد

ليحفظها سوف يجد أن حفظها أمر سهل؛ وأن كل من يلتزم بها سينال الحياة الأبدية.

الأمثال العشر

تشتمل الأمثال الخمس الأولى على وصايا أخلاقية مثلها في ذلك مثل الوصايا الإثنتي عشرة. ويصور المثل الأول المسيحيين كغرباء عن الأرض: "أنتم تعرفون يا خدام الله أنكم تسكنون في أرض غريبة لأن مدينتكم بعيدة جدًّا عن هذه المدينة، فإن كنتم إذن تعرفون مدينتكم التي ستسكنون فيها، لماذا تشترون هنا أراضي، وتقومون بمثل هذه الاستعدادت المُكلفة، وتكدسون البيوت والأبنية عديمة القيمة؟ إن الذي يقوم بمثل هذه الاستعدادت من أجل هذه المدينة لن يستطيع العودة إلى مدينته... إذًا، بدلًا من الأراضي، اشتروا النفوس المتعبة حسب طاقة كل إنسان. افتقدوا الأرامل والأيتام ولا تتعالوا عليهم، وأنفقوا كل خيراتكم وأملاككم التي نلتموها من الله على مثل هذه الأراضي والبيوت... هذا تصرف نبيل ومقدس."

والمثل الثاني يُلزم الأغنياء بواجب مساعدة المُحتاجين، وذلك تحت مثل الكرمة وشجرة الدَّردار لتي تعتمد كل واحدة منهما على الأخرى. ففي مقابل المساعدة التي يسديها الأغنياء للفقراء، يجب على الفقراء أن يصلّوا من أجل إخوتهم الأغنياء. أما بالنسبة للسؤال الذي يحير المسيحيين، والذي يدور حول السبب الذي لأجله لا يمكن أبدًا التمييز بين الخاطئ والبار على الأرض، فيجيب المثل الثالث عليه، وذلك بأن يشبههما بشجر الغابة في فصل الشتاء، فحينما تفقد الأشجار أوراقها في فصل الشتاء وتتغطى أغصانها بالثلوج لا يمكن أيضًا التمييز بينها. ثم يضيف المثل الرابع بطريقة الجملة الاعتراضية أن العالم الآتي مثل الغابة في فصل الصيف، حيث يمكن التمييز

بين كل من الأشجار الميتة والأشجار ذات الصحة الجيدة. ويتكلم المثل الخامس عن الأصوام الجماعية التي كانت الجماعة كلها تحفظها، تلك التي كانوا يسمونها بـ "المحطات" (Stations). وهو لا ينتقد النظام نفسه ولا الصوم بشكل عام، لكنه ينتقد الثقة الفارغة التي كان يضعها بعض الناس في تلك الممارسة، فالصوم يتطلب - أولًا وقبل كل شيء - تغييرًا أخلاقيًّا، والتزامًا تامًّا بناموس الله، ثم ممارسة لأعمال الخير. ويسمح المثل في أيام الصوم بتناول الخبز والماء فقط، ومن ثم تذهب النفقات التي كان ينفقها المرء يوميًّا إلى الفقراء. أما الأمثلة الأربعة الأخيرة فتتحدث عن الخضوع لله من خلال التوبة، وهكذا يُظهر المثل السادس ملاك النهم والغش وملاك العقاب في صورة راعيين، ثم يتحدث عن فترة العقاب الآتية. وفي المثل السابع يتوسل هرماس إلى ملاك العقاب - الذي يعذبه - كي يخلُص. ولكنه ينصحه بأن يصبر، ويعزيه قائلًا إنه يتألم لأجل خطايا العائلة. والمثل الثامن يشبّه الكنيسة بشجرة صفصاف كبيرة لها أغصان قوية، تلك التي بالرغم من أنها قد انتُزعت من جذع الشجرة و تبدو يابسة إلا أنها سوف تُزهر في حيوية إذا زُرعت في الأرض وبقيت رطبة؛ وهكذا، كل من فصلته الخطايا الأخلاقية عن الاتحاد المحيي بالكنيسة يمكنه أن يحيا مرة أخرى بالتوبة وأسرار النعمة التي تقدمها الكنيسة. ويبدو أن المثل التاسع قد أضيف لاحقًا؛ فهو يبدو إلى حد ما استدراكًا لما سبق، حيث إن مثل البُرج قد استُخدم مرة أخرى وأصبحت الحجارة المختلفة فيه تُمثل أنواعًا مختلفة من الخطاة. لكن الجديد في الأمر هو أن عملية بناء البرج قد تعطلت حتى تُعطي فرصة لخطاة كثيرين ليتوبوا حتى يتم قبولهم كحجارة في البرج، ولكن إذا لم يسرعوا للتوبة سيُرفضون. بمعنى آخر، امتد زمن التوبة الذي كان مُحددًا قبلًا مُتخطيًا الوقت الذي كان قد

أُعلن أصلًا، ومن الممكن أن يكون هرماس نفسه هو من قام بمثل هذا التغيير، لأن المجيء الثاني الذي كان يتوقعه لم يحدث. ويشكل المثل العاشر خاتمة هذا العمل،حيث يحث ملاك التوبة هرماس مرة أخرى ليطهر عائلته من كل شر، كما أنه يكلفه مرة أخرى بمهمة دعوة الجميع للتوبة.

والحقيقة أنه أمر بالغ الصعوبة أن نجد عملًا من العصور المسيحية المبكرة تبدو فيه حياة المجتمع المسيحي بمثل هذا الوضوح مثلما الحال في كتاب راعي هرماس؛ فنحن هنا نتقابل مع كل أطياف المسيحيين، الطيب منهم والشرير أيضًا. وفيه نقرأ عن الأساقفة، والكهنة، والشمامسة الذين قاموا بخدمتهم أمام الرب بكل كفاءة، لكننا أيضًا نقرأ عن كهنة صاروا تحت العقاب بسبب كبريائهم أو إهمالهم أو طموحهم، وشمامسة استحلوا لأنفسهم أموال الأرامل واليتامى. ونقرأ عن شهداء لم يهتز قلبهم لحظة، لكننا نقرأ أيضًا عن مرتدين، وخونة، وجواسيس؛ هؤلاء الذين ارتدّوا من أجل مطامع عالمية، أمثال هؤلاء الذين لم يخجلوا أن يلعنوا الله والمسيحيين أخوتهم علنًا. كذلك يخبرنا راعي هرماس عن مهتدين إلى المسيحية لم تدنسهم الخطية، كما يخبرنا عن خطاة من كل نوع. ويُخبرنا أيضًا عن أشخاص أغنياء يحتقرون الإخوة الأفقر منهم، كما يخبرنا عن مسيحيين مُحسنين صالحين. ويخبرنا عن هراطقة، كما يُخبرنا عن شكاكين يجاهدون ليجدوا طريق البر. ويخبرنا عن مسيحيين صالحين ذوي أخطاء صغيرة، كما يخبرنا عن مُرائين ومنافقين. وهكذا يُعتبر كتاب راعي هرماس بمثابة مُحاسبة قوية للنفس من جانب كنيسة روما[٢٠]، لأنه من الواضح أن السلوك المُتسم بالجُبن عند عدد كبير من المسيحيين قد نجم عن فترة من

[٢٠] لا يعدو ما كتبه المؤلف هنا غير مجرد رأي لا تسانده الأدلة. [المراجع]

السلام استقرت فيها حياة هؤلاء الأعضاء في راحة وكدسوا الأموال بل وحتى أصبحت لهم مكانة رفيعة بين جيرانهم الوثنيين، ولم يلبثوا أن فوجئوا تمامًا بويلات الاضطهاد المريع. إن هذه الأحداث تميز فترة حكم الإمبراطور تراجان، ومن ثم تشير بقوة إلى النصف الأول من القرن الثاني الميلادي، وهذا يتفق مع ما ذكرناه أعلاه. لكن يبدو أن هرماس يرى أن المسيحيين النموذجيين - لا الخطاة - هم الأغلبية. ولم يكن هدف الكاتب أن يجتذب الخطاة للتوبة فقط، بل أيضًا أن يشجع النفوس الضعيفة. ولهذا من الواضح أننا نجد في العمل بوجه عام نظرة متفائلة للحياة.

الاتجاهات التعليمية في كتاب الراعي

١. التوبة:

شكّل التعليم عن التوبة، كما ذكر في كتاب راعي هرماس، موضوع جدل عنيف. وقد تمركز هذا الجدل حول الوصية (٤: ٣: ١ - ٦) والتي تُقدم حوارًا يدور بين هرماس وملاك التوبة: "لقد سمعت، يا سيدي، من بعض المعلمين أنه ليست من توبة أخرى غير تلك التي كانت عندما نزلنا إلى الماء ونلنا مغفرة خطايانا السابقة. فقال لي: ما سمعته صحيح، لأن الأمر هو هكذا. إن من نال مغفرة خطاياه ينبغي ألا يخطئ مرة أخرى بل أن يعيش في طهارة، لكن بما أنك تسأل باجتهاد عن كل شيء، سوف أشرح لك هذا أيضًا، لا كمن يعطي العذر لمن سوف يؤمنون في المستقبل أو من قد آمنوا فعلاً بالرب، لأن هؤلاء الذين قد آمنوا أو هؤلاء الذين على وشك أن يؤمنوا ليس لهم توبة عن الخطايا بل غفران لخطاياهم السابقة. لأن الرب قد وضع التوبة لهؤلاء الذين قد دُعوا قبل هذه الأيام. لكن بما أن الرب يعلم القلب ويعرف كل الأشياء مسبقًا، ويعرف شر الإنسان والخبث

الماكر الذي للشيطان، لذا يعلم أنه سوف يتسبب في بعض الشرور لخدام الله وسوف يتعامل معهم بخبث. ولأن الرب مليء بالعطف، لذا رحم خليقته وأسس هذه التوبة وأعطاني سلطانًا عليها. ثم قال: لكني أقول لك، إنه بعد هذه الدعوة الجليلة، إن أخطأ إنسان وأغراه الشيطان بالخطية، سيكون له فرصة واحدة للتوبة، لكن إن أخطأ أكثر من مرة وتاب لن يكون هذا مجديًا له، لأنه بالكاد يحيا. فقلت له: لقد عادت لي روحي مرة أخرى عندما سمعت منك هذه الأمور بمثل هذه الدقة، لأني علمت أنه إن لم أضف المزيد إلى خطاياي سوف أحيا، فقال لي: لسوف تخلُص أنت وكل من يفعل هذه الأمور"

وحسب هذة الفقرة يمكن أن يتلخص التعليم عن التوبة كما يقدمه كتاب راعي هرماس في النقاط التالية:

(أ) هناك توبة مُخلِّصة بعد المعمودية، وهذا ليس تعليمًا جديدًا يعلنه هرماس لأول مرة، كما افترض البعض كثيرًا مخطئين، ولكنه تعليم قديم في الكنيسة. وقد اندفع هرماس ليكتب هذا العمل لأن بعض المعلمين أصروا على أنه لا توجد توبة إلا في المعمودية، وأن أي شخص يرتكب خطيئة مميتة لا يعود من ضمن أعضاء الكنيسة. ولم يكن في نية هرماس أن يعطي انطباعًا بأنه هو أول من أعلن للخاطئ المسيحي أن خطاياه يمكن أن تُغفر أو أن هذا مجرد تنازل استثنائي، لكن في الحقيقة، رغب الكاتب في أن يوضح للمسيحيين أن رسالته هذه لا تُقدم الفرصة الأولى لغفران ما ارتكبوه من خطايا بل الفرصة الأخيرة. وهذا هو ما يُشكل العنصر الجديد في رسالته.

(ب) للتوبة صفة الشمول، لذا لا يوجد خاطئ مُستثنى منها حتى غير الطاهر أو المرتد. الشقي الذي لن يتوب هو فقط المُستثنى منها.

(ج) لابد للتوبة أن تكون سريعة ولا بد أن ينتج عنها تغيير؛ ولا

يجب أن يُستهان بالفرصة التي تقدمها التوبة بأن يسقط الإنسان مرة أخرى في الخطية. وهو يحاول أن يُبرهن على ضرورة حدوث تغيير في حياة التائب بالتركيز على الجانب النفسي، والصعوبات التي سيواجهها من يرتد إلى حياة الخطية في طريقه نحو بلوغ الحياة الأبدية. والكاتب هنا يتكلم انطلاقًا من نظرة لاهوتية رعوية لا عقائدية. أما حث الكاتب على الإسراع في التوبة فيرتكز على أرضية إسخاتولوجية (أخروية)، فلا بد للتوبة من أن تتم قبل أن يصبح بناء البرج - الذي هو الكنيسة - حقيقة واقعة، لأن عملية البناء قد توقفت حتى تمنح الخاطئ فرصة للتوبة.

(د) الهدف الداخلي للتوبة هو "تغيير الفكر" .(μετάνοια). إنه التغيير الكامل للخاطئ، والرغبة في التكفير عن الخطية بالتأديبات الطوعية والصوم، والصلاة من أجل مغفرة ما ارتكبه من خطايا[٢١].

(هـ) لا يكون التبرير الذي يناله الخاطئ بالتوبة مجرد تطهير من الأدناس، لكنه سيكون أيضًا تقديسًا إيجابيًا مثل ذلك التقديس الذي ينتج عن المعمودية بحلول الروح القدس. (Sim. 5: 7: 1-2)

(و) إن عقيدة التوبة عند هرماس كانت مشبعة بمفهوم ضرورة الكنيسة لخلاصنا، ولهذا يذكر هرماس الصلوات التي يقدمها شيوخ الكنيسة عن الخطاة. والمصالحة على هذا النحو لم تُذكر في النص، ولكنها ولأسباب قوية ينبغي أن تُقبل بشكل مؤكد.

٢. الخريستولوجي:

أثارت التعاليم الخريستولوجية الخاصة بهرماس شكوكًا قوية، فهو لم يستخدم أبدًا مصطلح "لوغوس"، أو اسم "يسوع المسيح"، لكنه يستخدم دائمًا لقب "المخلص"، أو "ابن الله"، أو "الرب"، لكن في

---

[٢١] المفهوم الذي قدمه المؤلف هنا للتوبة يختلف عن مفهوم التوبة في الكنيسة القبطية الأرثوذكسية. [المراجع]

المثل (١ : ١ : ٩) نقرأ أن ملاك التوبة يقول لهرماس: "أريد أن أريك كل ما أراك إياه الروح القدس (τὸ Πνεῦμα τὸ ἅγιον) الذي تكلم معك في صورة امرأة، لأن هذا هو ابن الله." وهنا يُعرف هرماس الروح القدس باعتباره ابن الله، وبمعنى آخر، لدينا هنا أقنومان إلهيان فقط: الله والروح القدس - هذان اللذان تُوصف العلاقة بينهما بعلاقة أب وابن.

أما ما هو أكثر أهمية فنقرأه في المثل (٥: ٦: ٥ - ٧): "إن الروح القدس الأزلي، ذاك الذي خلق كل شيء، قد جعله الله يسكن في جسد اختاره لنفسه. وهذا الجسد الذي سكن فيه الروح القدس قد خدم الروح بكل طهارة وقداسة بدون أي شائبة. وبعد أن سلك الجسد بصلاح وبطهارة، وبعد أن ساعد الروح وعمل معه في كل شيء، مُظهرًا قوة وشجاعة، سمح الله له بأن يشارك الروح القدس؛ لأن سلوك هذا الجسد قد أسر الله لأنه لم يتنجس عندما كان يحمل الروح القدس على الأرض. لذلك، استشار ابنه وملائكته المجدين. حتى يتمكن هذا الجسد، الذي خدم الروح دون أن يسبب أي شيء يُلام عليه، من أن يحصل على مكان للسكن، ولا يفقد أجرة خدمته. فهناك مكافأة لكل جسد يتضح - من خلال سكنى الروح القدس - أنه لا يشوبه أى شائبة." وبحسب تلك الفقرة، يبدو أن الثالوث عند هرماس يتكون من الله الآب، وأقنوم إلهي آخر هو الروح القدس الذي يدعوه ابن الله، ثم المُخلِص الذي ارتفع ليصبح مرافقًا لهما كمُكافأة استحقها. وبمعنى آخر، يعتبر هرماس أن المخلص هو ابن الله بالتبني، وذلك طالما كنا نتكلم عن طبيعته البشرية.

٣. الكنيسة :

يرى هرماس أن الكنيسة هي أول المخلوقات، ولهذا السبب ظهرت

له على شكل امرأة عجوز جليلة. ولقد خُلق العالم كله من أجلها: "أيها الإخوة، بينما أنا نائم تلقيت إعلانًا من شاب جميل جدًا قال لي: من تظن المرأة العجوز التي أخذت منها الكتاب؟ قلت: العرافة، فأجابني قائلًا: أنت مخطئ، إنها ليست عرافة، فقلت: من هي إذن؟ فأجابني: الكنيسة، فقلت له: ولماذا إذن هي سيدة عجوز؟ فأجابني: لأنها أول من خُلق، ولهذا السبب هي عجوز، ولقد خُلق العالم كله من أجلها." (Vis. 2: 4: I)

لكن أشهر رمز ظهرت به الكنيسة عند هرماس كان هو "البرج السري" (Vis. 3: 3: 31; Simil. 8: 13: 1)، غير أن هذا الرمز كان يرمز إلى كنيسة المُعينين والمختارين، الكنيسة المنتصرة، لا الكنيسة المجاهدة التي يعيش فيها كل من القديسين والخطاة جنبًا إلى جنب. والكنيسة مؤسسة على صخرة هي ابن الله.

٤. المعمودية :

لا يُقبل أحد في هذه الكنيسة إلا بنوال المعمودية: "اسمع إذن سبب كون البرج مبنيًا على الماء: لأن حياتكم قد خلُصت وستخلُص بالماء، ولقد تأسس هذا البرج بكلمة القدير واسمه العظيم، وهو محفوظ بقدرة السيد غير المنظورة." (Vis. 3: 3: 5). ويسمي المثل (٩: ١٦) المعمودية بـ "الختم"؛ ويذكر مفعولها. "قلت: يا سيدي، لماذا صعدت الحجارة من أعماق المياه ووضعت في مبنى البرج بعد أن حملت تلك الأرواح؟ فأجابني قائلًا: كان من الضروري لها أن تصعد من الماء حتى تنال الحياة، لأنه لا يمكنها بطريقة أخرى أن تدخل ملكوت الله إلا بأن تطرح عنها موات حياتها السابقة. وبالمثل، نال هؤلاء أيضًا الذين رقدوا ختم ابن الله(τὴν σφραγῖδα τοῦ υἱοῦ τοῦ θεοῦ) ودخلوا ملكوت الله. ثم استطرد قائلًا: لأنه قبل أن يحمل الإنسان

اسم ابن الله يكون ميتًا، ولكنه عندما يقبل الختم يطرح عنه الموت ويقبل الحياة، والختم هنا هو الماء. إنهم ينزلون إلى الماء أمواتًا ويصعدون أحياء. قد كُرِز لهؤلاء أيضًا بهذا الخَتم ثم استخدموه ليدخلوا ملكوت السموات. ثم سألته قائلًا: يا سيدي، لما إذن صعدت الأربعون صخرة معهم من الماء بالرغم من أنها كانت قد نالت الخَتم بالفعل؟ فأجابني قائلًا: لأن هؤلاء الرسل والمعلمين الذين كرزوا باسم ابن الله، ثم ماتوا في قوة وإيمان ابن الله، كرزوا أيضًا لهؤلاء الذين قد ماتوا قبلهم ومنحوهم ختم الكرازة. لهذا السبب نزلوا معهم إلى الماء ثم صعدوا مرة أخرى. لكن، في حين نزل هؤلاء الآخرون أحياء وصعدوا أحياء؛ نزل الأولون - هؤلاء الذين قد رقدوا من قبلهم - أمواتًا وصعدوا أحياء، لذلك أصبح هؤلاء أحياء بواسطتهم وقبلوا اسم ابن الله، ولهذا السبب صعدوا معهم وأخذوا مكانهم في مبنى البرج، وإستُخدموا معهم في بناء البرج بدون أن يُصقلوا، لأنهم كانوا قد ماتوا أبرارًا وفي طهارة عظيمة لكن فقط هذا الختم هو الذي لم يكونوا قد نالوه. هذا هو تفسير تلك الأمور".

وهكذا يؤكد هرماس أن المعمودية ضرورية للخلاص، حتى إنه يُعلم بأن الرسل والمعلمين قد نزلوا إلى الجحيم بعد موتهم ليعمدوا الأبرار الذين رقدوا قبل ظهور المسيحية.

التعاليم الأخلاقية في كتاب الراعي

للتعاليم الأخلاقية في كتاب راعي هرماس أهمية تفوق التعاليم العقائدية:

١. من الأمور الجديرة بالذكر والمهمة أننا نجد هنا بالفعل تفريقًا بين الوصية والنصيحة، بين الضرورات والنوافل: "سأريك وصاياه، لكن إذا فعلت أمرًا صالحًا يزيد على ما تطلبه وصايا الله، سوف

تقتني لنفسك مجدًا أعظم وسيرضى الله عنك أكثر مما كان مُقدرًا لك." (Sim 5: 3: 3) ويذكر هرماس من ضمن هذه الأعمال النافلة كلا من: الصوم، والبتولية، والاستشهاد.

٢. مما هو جدير بالذكر أيضًا تلك الملاحظة الجلية التي تتكلم عن الأرواح التي تُسيطر على قلب الإنسان: "يسكن في الإنسان ملاكان: واحد للخير والثاني للشر... وملاك الخير لطيف ومتواضع ووديع ورقيق، لذلك، عندما يأتي ليتكلم في قلبك يتكلم من فوره عن الخير، والطهارة، والقداسة، والتحكم في الذات، وكل عمل صالح وكل فضيلة مجيدة. فعندما تأتي كل هذه الأشياء في قلبك اعلم أن ملاك الخير معك، لذا آمن به وبأعماله. والآن انظر أيضًا إلى أعمال ملاك الشر، إنه ـ قبل كل شيء ـ مُرّ، وغضوب، وأحمق، وكل أعماله شر، ويؤذي خدام الله. لذا عندما يأتي إلى قلبك أعرفه من أعماله." (Mand. 6: 2: 1 - 4)

وفي فقرة أخرى يبذل الكاتب جهده ليوضح أنه من المستحيل أن يسكن ملاك الخير وملاك الشر في قلب الإنسان في وقت واحد: "لأن هذه الأرواح عندما تسكن في إناء واحد حيث يسكن الروح القدس أيضًا، لا يعود ثمة مكان في هذا الإناء بل سيصبح مزدحمًا، لذلك يهجر الروح اللطيف، غير المعتاد على أن يساكن روحًا شريرًا أو قساوة، مثل هذا الإنسان يطلب أن يسكُن مع البساطة والهدوء. لذا، عندما يهجر الروح اللطيف ذلك الإنسان الذي كان يسكُن فيه، يصبح الأخير مُفتقرًا من روح البر، وتملأه الأرواح الشريرة، وتصبح كل تصرفاته مختلة حيث تجره الأرواح الشريرة هنا وهناك، ويعمى تمامًا عن الأفكار الصالحة." (Mand. 5: 2: 5 - 7)

٣. أما بشأن الزنى، فقد قال الكاتب إنه ينبغي على الزوج أن يُطلق امرأته التي أُدينت بهذه الخطية وترفض التوبة، غير أنه ينبغي

عليه هو نفسه ألا يدخل في علاقة أخرى طالما بقيت زوجته حية. أما إذا تابت الزوجة الزانية وأصلحت من نفسها، يكون الزوج حينئذ مجبرًا على أن يقبلها مجددًا: "إذا لم يقبلها زوجها فهو يخطئ ويجلب على نفسه خطيئة كبيرة. فلا بد لنا أن نقبل الخطاة التائبين، ولكن ليس إذا تكرر الأمر كثيرًا؛ لأنه لا يوجد لخدام الله سوى فرصة واحدة للتوبة." (Mand. 4: 1: 8)

٤. يسمح هرماس، بخلاف عدد من الكتاب المسيحيين القدامى، بالتزوج مرة أخرى بعد موت الزوج أو الزوجة: "قلت: يا سيدي، إذا ماتت الزوجة أو الزوج، فهل يخطئ الطرف الثاني إذا تزوج مرة أخرى؟ فأجابني قائلًا: إنه لا يخطئ، ولكن إذا بقي أعزب فإنه ينال كرامة أعظم أمام الرب، ولكن إذا تزوج لا يخطئ." (Mand. 4: 4: 1 - 2)

٥. ونتقابل في الرؤيا (٣: ٨: ١ - ٧) مع قائمة مكونة من سبع فضائل هي: الإيمان، والعفاف، والبساطة، والمعرفة، والبراءة، والوقار، والمحبة. ولقد صورت هذه الفضائل السبع في صورة سبع نسوة، وهو تصور لعب دورًا كبيرًا في تطور الفن المسيحي.

وقد نال كتاب الراعي مكانة رفيعة في القرون الأولى من خلال شهادة كُتّاب كنسيين، له، منهم: إيريناؤس، وترتليانوس قبل اعتناقه المونتانية[٢٢]، وأوريجينوس. وقد اعتبروا هرماس بمثابة نبي وعدوا كتابه من ضمن الكتب المقدسة. ويبدو أن هذا الكتاب كانت له شعبية كبيرة في الشرق أكثر منها في الغرب، حيث إن

---

[٢٢] سُميت بذلك نسبة إلى مؤسسها مونتانوس، وكان كاهنًا وثنيًا اهتدى إلى المسيحية، ثم أعلن نفسه نبيًا في فريجيا (١٥٥-١٦٠م)، مدعيًا أنه قد تلقى إعلانًا مباشرة من الروح القدس، واعتبر نفسه أنه هو النبي الأخير مؤسس المدينة السمائية، وأن الروح القدس الموعود به في (يو ١٤: ٦، ١٦: ٧) قد تجسد فيه، وسعت هذه الجماعة إلى تطهير الكنيسة من وجهة نظرها وتنشئة مسيحية روحانية، وقد قاومت السلطة الكنسية، ومنعت الزواج لأنهم ظنوا أنهم يعيشون قرب المجيء الثاني للمسيح. وقد حرمت هذه البدعة في مجمع محلي عقد في روما عام ١٧٧م، وبعض المجامع التي عقدت في آسيا الصغرى. [المراجع]

القديس جيروم قد ذكر أنه في أيامه كان ذلك الكتاب يكاد يكون غير معروف بين الناطقين باللاتينية (de vir.ill.10). ونعرف من الوثيقة الموراتورية أنه كان مسموحًا بقراءة هذا الكتاب في الجلسات الخاصة، ولكنه لم يكن يُقرأ علنًا في الكنيسة. ولكن أوريجانوس يشهد أنه كان يقرأ علنًا في بعض الكنائس ولكن هذه الممارسة لم تكن عامة.

كيف وصل النص إلينا

المصادر المعتمدة لنص راعي هرماس باللغة اليونانية هي:

١. المخطوطة السينائية (Codex Sinaiticus): كتبت في القرن الرابع، وتحوي الربع الأول من العمل الكامل حتى: (Mand. 4: 3: 6)

٢. مخطوطة من جبل أثوس تعود إلى القرن الخامس الميلادي، وهي تضم العمل كاملًا ما عدا آخر جزء من الخاتمة، أي الأجزاء التالية: (Siml. 9: 30: 3 - 10: 6).

٣. مجموعة جامعة ماتشيجان للبرديات وتضم شذرتين من راعي هرماس قام كامبل بونر (Campbell Bonner) بنشرهما، وهما تُشكلان إضافة لمعلوماتنا عن النص. والشذرة الأطول ذات أهمية كبرى لأنها حفظت لنا معظم العبارات المفقودة من مخطوطة جبل أثوس، فهي تضم الجزء: (Simil. 2: 8 - 9: 5: 1)، كما أنها أقدم من معظم مخطوطات راعي هرماس التي نُشرت حتى الآن، وقد كُتبت في نهاية القرن الثالث الميلادي. وتعود الشذرة الأقصر إلى نفس زمن كتابة الأطول، وتضم نهاية المثل الثاني والكلمات الافتتاحية من المثل الثالث.

٤. شذرة صغيرة من مخطوطة "فيلوم" (Vellum). المحفوظة في مدينة هامبورج. وتحتوي على الأجزاء التالية: (Sim. 4: 6 - 7: 5: 1- 5)

٥. وجدت أيضًا شذرات من نص راعي هرماس في البردية الأمهرية: (CXC. Oxyrh. Pap. رقم 404 و 1172) و(Berlin Pap. رقم 5513و 6789).

والنص أيضا محفوظ في ترجمتين لاتينيتين وفي ترجمة إثيوبية، ولدينا أيضًا أجزاء من ترجمة قبطية صعيدية محفوظة في المكتبة الوطنية بباريس وفي مكتبة اللوفر، ولدينا شذرة من العمل في ترجمة فارسية وسيطة[٢٣].

[٢٣] وهي لغة بين الفصحى والفارسية الحديثة [المراجع].

الفصل الثالث

البدايات الأولى للروايات والقصص الشعبية والاساطير المسيحية

أدب العهد الجديد الأبوكريفي

في الحقيقة لم يقدم لنا العهد الجديد إلا معلومات قليلة عن طفولة الرب وحياة أمه وانتقالها ورحلات رسله التبشيرية، لذا لا عجب في أن خيال المسيحيين الأتقياء قد تحرك ليُكمل التفاصيل الناقصة. وهكذا تمت عملية كتابة الأساطير على مجال واسع من الحرية بهدف التثقيف والتهذيب. ومن ناحية أخرى، شعر الهراطقة، خاصة الغنوسيين [١]، أنهم بحاجة إلى روايات إنجيلية تؤيد تعاليمهم العقائدية. وهكذا، نمت حول الأسفار القانونية مجموعة من الأساطير تُشكل تلك الكتابات المعروفة بـ "أبوكريفا العهد الجديد"، وقد ظهرت الأناجيل غير القانونية، والأسفار الرؤيوية المنحولة، والرسائل، و أسفار الأعمال المنحولة المنسوبة للرسل بوصفها متممة للأسفار القانونية.

ولم تكن كلمتا "أبوكريفي"، و"أبوكريفا" في الأصل تعنيان ما هو مزيف أو غير حقيقي، وذلك على الأقل في أذهان من استخدموهما. أولًا: فقد اعتُبرت بعض من تلك الأعمال قانونية وفقًا لشهادة كل من القديس جيروم (Prol. gal. in Samuel et Mal و Epist. 107, 12). والقديس أغسطينوس (De civitate Dei, 15,23,4). وقد كان السفر الأبوكريفي في بداية الأمر سفرًا مقدسًا جدًّا وخاصًّا للغاية حتى إنه يجب ألّا يطلع عليه الجميع، لذا كان يجب أن

---

[١] ليست الغنوسية مذهبًا واحدًا، ولكنها مذاهب شتى تجمع بين المسيحية واليهودية والوثنية والأفكار الفلسفية الهيلينية، ولكن جميع هذه المذاهب تنظر للمادة على أنها شر ونجاسة وخطية، والإله العظيم منزَّه عن الاتصال بالمادة، لذلك فهو لم يخلق العالم إنما صدر منه آلهة أخرى، وأكثر هذه الآلهة بعدًا عنه هو الإله الذي اتصل بالمادة وخلق العالم، واعتقدوا أن الأرواح كانت موجودة في عالم سماوي منير ولكنها سقطت فجأة إلى الأرض وأصبحت سجينة الجسد المادي، وتحتاج إلى من يخلصها، والخلاص يأتي عن طريق المعرفة، غنوسيس gnosis، والغنوسيون هم أصحاب المعرفة، وبالمعرفة يعرف الإنسان أصله، ويعرف من هو، ويعرف كيف يخلص. [المراجع].

يكون مخفيًا (apocryphon) عن العامة وأن تقتصر معرفته فقط على هؤلاء المنضمين الجدد إلى المسيحية. وفي سبيل أن تحصل تلك الأسفار على القبول، كانت تظهر تحت أسماء الرسل و تلاميذ يسوع الأتقياء. لكن، عندما اكتُشف زيف هذه الأسفار، تغير معنى كلمة "أبوكريفي"؛ ومن هذا الوقت فصاعدًا صارت كلمة "أبوكريفي" تعني "منحول"، و"مزيف"، و"مرفوض".

ويستطيع حتى القارئ البسيط جدًا أن يشعر بتدني هذه الكتابات مُقارنة بالأسفار القانونية، فهي تزخر بالمعجزات المزعومة التي أحيانا ما تكون مبتذلة إلى حد السخف. ولكن بالرغم من هذا، فللأبوكريفا أهمية قصوى بالنسبة للمؤرخين الكنسيين، لأنها تمدهم بمعلومات قيمة عن الاتجاهات والعادات التي اتصفت بها الكنيسة الأولى. علاوة على ذلك، تُمثل الأبوكريفا بدايات الأساطير المسيحية، والقصص الشعبية، والأدب الروائي المسيحي. ولا غنى عن الأبوكريفا لفهم الفن المسيحي، فهي التي أوحت بلوحات الموزاييك الموجودة في بازيليكا "سانتا ماريا ماجيوري" (Santa Maria Maggiore) بمدينة روما وأيضًا الحفر البارز الذي كان يزين النعوش المسيحية القديمة. كما أن الرسومات الصغيرة التي تزين الكُتُب الليتورجية والنوافذ الملونة الخاصة بكاتدرائيات العصور الوسطى كانت ستصبح غير مفهومة إن لم تكن تشير إلى القصص المذكورة في هذه الأبوكريفا. وللأبوكريفا أيضًا تأثير قوي على الأعمال المسرحية التي كانت تدور حول المعجزات أو الغوامض في العصور اللاحقة، فحتى "دانتي" قد استخدمها كمصدر للمشاهد الأخروية التي أوردها في عمله المعروف بـ "الكوميديا الإلهية"، لذلك نحن نمتلك من خلالها صورة واضحة ومصدرًا مباشرًا للفكر المسيحي المبكر.

وقد أبدى م. ر. جيمس (M. R. James) تقديرًا رائعًا لمكانة

الأبوكريفا في تاريخ الأدب المسيحي بقوله: "ربما لا يزال المرء يسمع بعض الناس يقولون: "على أية حال، هذه الأناجيل وأسفار الأعمال الأبوكريفية - كما تُحب أن تدعوها - هي محل اهتمام مثلها مثل الأسفار القديمة، وهي لم تدخل ضمن أسفار العهد الجديد فقط من قبيل الصدفة البحتة أو بسبب أهواء البعض." أما أفضل رد على هذا الحديث الواهن فكان دائمًا - كما هو حاليًا - أن تخرج هذه الكتابات لتتكلم هي عن نفسها، ولسوف يتضح بسرعة شديدة أنه ما من أحد قد استبعد هذه الأسفار من العهد الجديد، فهي التي قد استبعدت نفسها بنفسها. لكن ربما يُقال: "إذا كانت هذه الأسفار لا تصلح ككتب تاريخية، أو دينية، أو حتى أدبية، فلما إذن تصرف وقتك وجهدك في الدعاية لها، الأمر الذي أنت بنفسك تظهر أنها لا تستحقه؟" والإجابة على هذا السؤال هي: نعم بشكل جزئي، إلى أن يتمكن الآخرون بالطبع من أن يكونوا رأيًا نهائيًّا عنها. لكن ليس هذا هو الأمر كله، ففي الحقيقة، لا ينبغي أن يُنظر لهذه الكتب فقط من الزاوية التي تدعيها لنفسها (من جهة قانونيتها)، فهي - من كل الجوانب الأخرى - لها فوائد عظيمة ودائمة... وإذا كانت كتب الأبوكريفا ليست بمصادر تاريخية جيدة من وجهة ما، فهي كذلك من وجهة أخرى؛ فهي تُسجل تخيلات وآمال ومخاوف من كتبوها؛ إنها تُظهر الأمور التي كان يقبلها المسيحيون غير المتعلمين في القرون الأولى، وتلك التي كانت تشغلهم، وتلك التي كانت تعجبهم؛ والأمثلة السلوكية التي كانوا متعلقين بها في هذه الحياة، والأمور التي كانوا يظنون أنهم يجدونها في النص. أما بالنسبة للقصص الشعبية والروايات، سنجد مرة أخرى أن الأبوكريفا ثمينة جدًّا. كما أنها تكشف لمُحبي ودارسي أدب العصور الوسطى وفنها عن جزء ليس بصغير من أصولهما، هذا بالإضافة إلى أنها تعطيهم حلولاً

لألغاز كثيرة تقابلهم. ولقد تركت الأبوكريفا بالفعل تأثيرًا عظيمًا جدًّا وواسعًا جدًّا - لا يتناسب إجمالاً مع قيمتها الداخلية - حتى إنه لا يمكن لشخص مهتم بتاريخ الفكر المسيحي والفن المسيحي أن يهملها.

أولاً: المدسوسات المسيحية المبكرة في أبوكريفا العهد القديم

يمكننا أن نتتبع عادة تقليد الأسفار الكتابية المقدسة، إلى ما قبل ظهور المسيحية. ولقد نسب مؤلفو هذه الأسفار الأبوكريفية كتاباتهم إلى شخصيات معروفة وأرجعوا تاريخ كتابتها إلى فترات تسبق بكثير تاريخ كتابتها الحقيقي.

وهكذا، ظهر في القرن الثاني قبل الميلاد سفر "عزرا الثالث" الذي يسرد نسخة منقحة من قصة انحدار وسقوط مملكة يهوذا بداية من عهد الملك يوشيا، ولقد استُكمل هذا السفر في العصر المسيحي بالسفر المُسمى بـ "عزرا الرابع"، وبما أن هذا الأخير قد كُتب في وقت دمار هيكل أورشليم تقريبًا، لذا تأثر كثيرًا بالآمال والتطلعات المسيحية؛ كما أن تأثيره على الإسخاتولوجيا المسيحية لم يكن قليلًا. لهذا، لم يكن من المُفاجئ أن يتم اعتبار هذا السفر قانونيًّا.

ولقد ظهر سفر أخنوخ بطريقة مماثلة، وهو يتكون من مجموعة من الاستعلانات الرؤيوية، نواتها هي الفصول من ١ إلى ٣٦ والفصول من ٧٢ إلى ١٠٤ التي يعود تاريخ كتابتها إلى القرن الثاني قبل ميلاد المسيح، وتحتوي هذه الفصول في أغلب الظن على أقدم قطعة أدبية يهودية تتناول موضوع "قيامة إسرائيل العامة"، ثم وسعت مدسوسات الكُتاب المسيحيين خلال القرن الأول الميلادي من محتوى سفر أخنوخ أكثر فأكثر.

أما ما هو مثير للاهتمام بشكل خاص، هو أننا نجد في الفصلين

(٣٢ : ٢ - ٣٣ : ٢) من سفر "أسرار أخنوخ" (الموجود باللغة السلافية) أول إشارة إلى عقيدة الملك الألفي[٢]. ويمكننا كذلك أن نجد المزيد من هذه المدسوسات في العمل المعروف بـ "عهد البطاركة الإثني عشر"، وهو عمل مُركب يدعي أنه يحتوي على الكلمات الأخيرة لأبناء يعقوب الإثني عشر. ويمكن أن نجد الأمر نفسه في العمل المعروف بـ "رؤيا باروخ".

أما أهم نموذج للتغييرات التي أحدثها المسيحيون في الكتابات اليهودية فنجده متمثلًا في سفر "صعود إشعياء"، وقد بُنيت هذه الوثيقة القيمة ـ التي تعود إلى نهاية القرن الأول وبداية الثاني ـ على مجموعة من الأساطير اليهودية التي تتحدث عن "باليار" (Beliar) واستشهاد النبي إشعياء. أما الجزء الثاني من العمل (الفصول من ٦ إلى ١١) فعبارة عن وصف متحمس للسموات السبع، وتجسد المسيح وآلامه و قيامته وصعوده إلى السموات بحسب ما رأى إشعياء عندما اختُطف إلى السماء، ولا شك أن هذا القسم من العمل ذو أصل مسيحي. وإلى جانب النبوءات عن المسيح وكنيسته، يعطي هذا القسم وصفًا لا تُخطئه عين للإمبراطور نيرون، وهو وصف ذو أهمية خاصة باعتباره أقدم شهادة موجودة لدينا بشأن الطريقة التي استُشهد بها بطرس. ونحن لا نمتلك النص الكامل لهذه الرؤيا إلا باللغة الإثيوبية فقط، لكن يوجد لدينا شذرات كبيرة منه محفوظة في تنقيحات يونانية، ولاتينية، والسلافية.

---

[٢] هي عقيدة ينادي أصحابها بأن المسيح سيأتي ليملك على الأرض مع المؤمنين ألف سنة (رؤ٢٠:١-٦) لكي يحقق بعض الوعود مثل (إش ١١، ٦٥)، والتي لا يمكن أن تكون قد تحققت في المجيء الأول، وهذا الاعتقاد قد تسلل إلى بعض الآباء الأولين من التعاليم اليهودية التي ظهرت في فترة ما بين العهدين، حيث في ظروف الظلم والفساد والاستعباد، ظهرت بعض الكتابات مثل عزرا الثاني وسفر أخنوخ، والتي تتكلم عن مملكة المسيا الذي سيأتي ليحرر اليهود من كل هذه الأمور، ومن أشهر من نادى بالملك الألفي القديس إيريناؤس، ويوستينوس الشهيد. [المراجع]

ثانيًا: الأناجيل الأبوكريفية

١. الإنجيل بحسب العبرانيين

تكلم القديس جيروم في الفصل الثاني من كتابه "مشاهير الرجال" عن يعقوب أخي الرب قائلاً: "أما الإنجيل المعروف باسم "إنجيل العبرانيين"، والذي قمت بترجمته مؤخرًا إلى اللسانين اليوناني واللاتيني، والذي كثيرًا ما استخدمه أوريجانوس، فيروي أنه بعد قيامة المخلص "أعطى الرب اللفائف الكتابية لخادم الكاهن، ثم ذهب إلى يعقوب وظهر له - لأن يعقوب كان قد أقسم أنه لن يأكل خبزًا منذ أن شرب من كأس الرب حتى يراه قائمًا من بين الراقدين". وبعد ذلك بقليل يقول: "قال الرب: أحضر لي مائدة وخبزًا، ثم أخذ الخبز"، ويضيف الإنجيل بعد ذلك مباشرة: "وبارك وكسر وأعطى يعقوب البار وقال له: يا أخي كل خبزك لأن ابن الإنسان قد قام من بين الراقدين"".

وإنجيل العبرانيين، الذي نقل عنه جيروم هذه الفقرة المثيرة للاهتمام، كان قد كُتب أصلاً باللغة الأرامية ولكن بحروف عبرية. وفي زمن جيروم، كان النص الأصلي الخاص بهذا الإنجيل محفوظًا في مكتبة بمدينة قيصرية في فلسطين. وقد استخدمه كل من "الإبيونيين"[٣] و"الناصريين"[٤]، ومنهم حصل جيروم على نسخة منه ليترجمها إلى اليونانية واللاتينية. أما حقيقة كونه مُستخدمًا من قِبَل

---

[٣] هو اسم معناه الفقراء أو المساكين، وهم جماعة مسيحية ذات نزعة تهودية. وكانوا يستخدمون إنجيل العبرانيين (من كتب الأبوكريفا)، واعتقدوا أن الحفاظ على الختان والناموس أمر ضروري للخلاص. وكانت لهم تعاليم خاطئة عن الرب يسوع. [المراجع]

[٤] كانوا متشددين ناموسيا لدرجة شديدة ورفضوا الاعتراف بألوهية الابن قبل تجسده، إلا أنهم آمنوا بولادته من العذراء وبصلبه وقيامته، ورفضوا كل رسائل بولس لأنها لا تعطى أهمية للناموس، ولم يبالوا بكل الأسفار الأخرى واستعملوا فقط ما يسمى بإنجيل العبرانيين والذي يطلق عليه إنجيل الناصريين نظرا لاستخدامهم له. وكانوا يحافظون على السبت وسائر نظم اليهود، وقد تحدث عنهم يوسابيوس في كتابه تاريخ الكنيسة (٣:٢٧). [المراجع]

المسيحيين الفلسطينيين، الذين يتحدثون العبرانية الأرامية، فتُفسر سبب تسميته بـ "إنجيل العبرانيين"، كما أنها تُفسر أيضًا سبب ظهور يعقوب أخي الرب - الذي يُمثل المسيحية اليهودية الصارمة - في قلب رواية القيامة على عكس ما روته الكتابات القانونية. وقد كان معظم الناس، في أيام جيروم، يعتبرون هذا الإنجيل الأبوكريفي بمثابة الأصل العبري لإنجيل متى القانوني، وهو الأمر الذي ذكره بابياس[٥]. وفي الحقيقة، تُظهر الشذرات القليلة التي بقيت لدينا منه شبهًا قريبًا من إنجيل متى، وهكذا يمكننا أن نستنتج بثقة أن هذا الإنجيل كان في الغالب عبارة عن إعادة صياغة للأصل العبري لإنجيل متى القانوني بتصرف.

وتُظهر الفقرة المقتبسة أعلاه أنه كان يحتوي على أقوال ليسوع لم يوردها أي من الأناجيل القانونية. وقد برهن أناس آخرون غير القديس جيروم على هذه الصفة المميزة لإنجيل العبرانيين، نذكر منهم، على سبيل المثال، يوسابيوس الذي يقول في (Theophany, 22): "إن هذا الإنجيل الذي قد وصل إلينا في حروف عبرية يعطي الويل كما لو لم يكن موجهًا لذاك الذي يخفي وزنته، بل لذاك الذي يحيا حياة مستهترة. لأن - المثل الذي ورد فيه يحكي - عن ثلاثة عبيد؛ واحد منهم أنفق فضة سيده على الزواني والمغنيات، وآخر ربح بها أضعافًا مضعفة، والأخير أخفى وزنته، وكيف أن أحدهم قد قبله سيده، وآخر لم ينله سوى اللوم، وثالثهم أُغلق عليه في السجن."

ولا بد من أن يكون هذا الإنجيل الأبوكريفي قد كُتب في القرن الثاني الميلادي، لأن كليمندس السكندري قد استخدمه في عمله المعروف باسم "المتفرقات" (Stromata 2: 9: 45)، وقد كان ذلك في

---

٥ أنظر يوسابيوس القيصري؛ تاريخ الكنيسة ٣: ٣٩: ١٦؛ ٦: ٢٥: ٤. والقديس إيريناؤس (ضد الهرطقات ١: ١).

الربع الآخير من ذلك القرن.

٢. إنجيل المصريين

كان كليمندس السكندري هو أيضًا المصدر الرئيس لمعلوماتنا عما يسمى بـ "إنجيل المصريين"، ويدل هذا الاسم على أن هذا الإنجيل كان متداولًا بين مسيحيي مصر؛ وهذا يُفسر سبب اطلاع كل من كليمندس السكندري وأوريجانوس عليه. وينتمي "إنجيل المصريين" إلى هذا النوع من الأبوكريفا التي كُتبت لتدعم هرطقات معينة، ومن المرجح جدًا أن يكون ذا أصل غنوسي، أما عناصره العقائدية المميزة فتُظهر بوضوح نزعة طائفية هرطوقية. ولقد احتفظ كليمندس السكندري بعدد ضئيل من كلمات يسوع التي وردت في حديث الرب مع سالومي - الوارد في هذا الإنجيل - تلك التي تُعد أفضل دليل على ما يُظهره "إنجيل المصريين" من نزعات عقائدية هرطوقية: "وعندما سألت سالومي: إلى متى سيكون للموت سلطان؟ أجابها الرب - وهو لا يعني أن الحياة شر أو أن الخليقة شريرة - قائلًا: "طالما كنتن تحبلن أيتها النساء"." (Stromata 3: 6: 45) "أما هؤلاء الذين يناصبون خليقة الله العداء من خلال التقشف المخزي فيتذرعون بهذه الكلمات التي وجهها الرب لسالومي والتي ذكرناها أعلاه، وهي مذكورة أيضًا - كما أعتقد - في إنجيل المصريين، ذلك لأنهم يقولون إن المخلص نفسه قد قال: "لقد أتيت لأدمر أعمال الأنثى".. إن الأنثي هي الشهوة وأعمالها هي الولادة والفساد." (Stromata 3: 9: 63) "ولكن لماذا لا يتكلم - هؤلاء الذين يسيرون تائهين بدلًا من أن يتبعوا إنجيل قاعدة الحق - ببقية الكلمات التي تكلم بها الرب لسالومي؟ لأنها لما قالت: "إذًا، لقد فعلت حسنًا لأني لم أنجب"، كما لو كانت الأمومة أمرًا غير لائق، أجابها الرب قائلًا: "كلي كل عشب، ولكن

تلك الأعشاب التي بها مرارة لا تأكلينها." (Stromata, 3: 9: 66)

"لهذا يقول كاسيان: عندما سألت سالومي عن الوقت الذي ستكون فيه هذه الأمور فيما يتعلق بسؤالها، قال الرب: "عندما تدوسين ثوب الخزي، وعندما يصبح الاثنان واحدًا، والذكر مع الأنثى؛ فلا يكون هناك لا ذكر ولا أنثى." (Stromata 3: 13: 92)

٣. إنجيل الإبيونيين

من المرجح أن يكون "إنجيل الإبيونيين" هو نفسه "إنجيل الرسل الإثني عشر" الذي يذكره أوريجانوس في: (Hom. in Luc. 1). فإذا صح هذا الأمر، فإن زمن كتابته سيعود على الأرجح إلى بدايات القرن الثالث الميلادي. غير أنه من الواضح أن جيروم قد أخطأ في قوله بأن هذا الإنجيل هو نفسه "إنجيل العبرانيين"، وبالرغم من ذلك، يدعم (A. Schmidtke) هذا الرأي.

وقد حصلنا على كل ما نعرفه عن "إنجيل الإبيونيين" من إبيفانيوس (Adv. Haer. 30: 13 - 16) الذي استشهد بشذرات منه. ويمكننا أن نحكم من خلال هذه الشذرات أنه قد كُتب لصالح فرقة من فرق المسيحيين كانت تُقاوم تقديم الذبائح، وهكذا يظهر يسوع - في هذا الإنجيل - وهو يقول: "لقد أتيت لأضع حدًّا للذبائح، وأنه لن يمتنع الغضب عنكم، إلا بأن تتوقفوا عن تقديم الذبائح." (٣٠: ١٦)

٤. الإنجيل بحسب بطرس

اكتشف "بوريانت" (Bouriant) شذرة كبيرة من هذا الإنجيل عام (١٨٨٦-١٨٨٧) في قبر لراهب بأخميم في صعيد مصر، ونشرها مع ترجمة في ١٨٩٢م. ويروي هذا الإنجيل قصة آلام يسوع وموته ودفنه، ويُزين قصة قيامته بتفاصيل مشوقة تتعلق بما تلاها من معجزات.

كما أنـه تـوجـد فيه بعض الآثـار البسيطة للهرطقة الدوسيتية (الخيالية)[٦]، وربما لهذا السبب غيّر كاتب الإنجيل كلمات يسوع على الصليب القائلة: "إلهي إلهي لما تركتني" لتصبح: "قوتي قوتي لقد تركتني." ومن الملفت للنظر أيضًا أن هـيرودس في هذا الإنجيل هو من أصدر الحكم بالإعدام على المسيح وليس بيلاطس؛ وبهذا تقع مسئولية صلب المسيح على اليهود حصريًا. لكن، هناك شك فيما إذا كان هذا الإنجيل يعود حقًّا إلى أصل هرطوقي، لأن الإشارات المبعثرة التي تدل على كونه ينتمي إلى مذهب هرطوقي أقل من أن تكون مقنعة، فالكاتب يبدو كما لو كان قد أعاد صياغة روايات الأناجيل القانونية مُتصرفًا فيها بحرية.

وهناك كذلك إشـارات لـ "الإنجيل بحسب بطرس" في كتابات الـكُتـاب الكنسيين. وقـد كـان أوريجـانـوس هـو أول مـن ذكـره، وذلك في تفسيره لإنجيل متى (١٠ : ١٧)، فهو يقول إن البعض يظنون - معتمدين على تقليد ذكـره إنجيل تحت اسم بطرس - أن هـؤلاء المدعوين "إخوة يسوع" هم أبناء ليوسف النجار من زوجة سابقة كانت تعيش معه قبل مريم. وقد ذكـر يوسابيوس القيصري أن الأسقف سيرابيون الأنطاكي قد رفض هذا الإنجيل حوالى عام ١٩٠ ميلادية باعتباره ذا سمة دوسيتية. ومن ثم، ينبغي أن يكون هذا الإنجيل قد كُتب في النصف الثاني من القرن الثاني الميلادي على أقصى تقدير.

٥. إنجيل نيقوديموس

لقد كـانت النزعة إلى التهوين مـن شـأن الـذنـب الـذي ارتكبه

---

[٦] هي بدعة تعود إلى القرن الأول الميلادي وانتشرت بين الغنوسيين، ينادي أصحابها أن جسد المسيح هو خيال، وأن آلامه وموته كانت مجرد آلام ظاهرية، وتكلم عنهم القديس يوحنا الرسول في (١يو٤: ٢، ٢يو٧)، وحاربهم القديس إغناطيوس الأنطاكي في رسائله كما يتضح في المتن. [المراجع].

بيلاطس - والتي نجدها في " الإنجيل بحسب بطرس" - تُظهر مدى الاهتمام البالغ الذي كانت تنظر به المسيحية الأولى لهذا الشخص. ولكن المكانة المرموقة التي كان يشغلها بيلاطس البنطي في الفكر المسيحي المبكر تظهر بشكل أوضح في "إنجيل نيقوديموس"، فلقد اشتمل هذا العمل القصصي على الوثيقة المعروفة باسم "أعمال بيلاطس"، وهي عبارة عن تقرير رسمي يفترض أن الوالي الروماني قد كتبه عن يسوع. ويبدو أن بعض أجزاء "أعمال بيلاطس" كانت معروفة في زمن مبكر كالقرن الثاني الميلادي، فبعد أن ذكر يوستينوس الشهيد - في دفاعه الأول (فصل ٣٥) - كُلًّا من آلام المسيح وصلبه، قال: "ويمكنكم أن تتحققوا من صحة هذه الأمور التي حدثت مما قد كُتب في أعمال بيلاطس البنطي"، وتوجد أيضًا عبارة مُشابهة في الفصل ٤٨ من نفس العمل. كذلك يشير ترتليانوس مرتين إلى التقرير الذي قدمه بيلاطس إلى - الإمبراطور - طيباريوس؛ فوفقًا لما يقول، أخبر بيلاطس البنطي الإمبراطور عن حكم الإعدام الظالم الذي صدر ضد شخص بريء وإلهي؛ ولقد تأثر الإمبراطور جدًّا بهذا التقرير الذي يحكي عن معجزات المسيح وقيامته، حتى إنه عرض أن يقبل المسيح ضمن آلهة روما، لكن مجلس الشيوخ الروماني رفض (Apologeticum 5). كذلك يذكر ترتليانوس في موضع آخر أن "بيلاطس قد أخبر الإمبراطور - الذي كان في ذلك الوقت هو طيباريوس - بقصة المسيح كاملة، لأنه في ذلك الحين كان هو نفسه مسيحيًّا في قلبه سرًّا." (Apol. 21, 24) ويمكننا في هذا العمل أن نرى الرغبة في استخدام الوالي الروماني كشاهد على تاريخ موت المسيح وقيامته والحق المسيحي.

ولا بد من أن تلك النزعة عينها هي السبب في ظهور تلك الوثيقة المعروفة باسم "أعمال بيلاطس" التي تُشكل قوام "إنجيل نيقوديموس"؛

فالجزء الأول منه (الفصول من ١ إلى ١١) يقدم إلينا رواية تفصيلية لمحاكمة يسوع وصلبه ودفنه، ولهذا الجزء عنوان خاص به هو (Acta Pilate) - أعمال بيلاطس - أما الجزء الثاني من العمل (الفصول من ١٢ إلى ١٦) فيحكي عن المناظرات التي حدثت في مجمع السنهدرين بشأن قيامة المسيح، وهو بمثابة إضافة إلى "أعمال بيلاطس". أما الجزء الثالث من العمل (الفصول من ١٧ إلى ٢٧) فعنوانه هو: "نزول المسيح إلى الجحيم"، وهو يزعم أنه يحكي قصة نزول المسيح إلى الجحيم على لسان شاهدين هما "ابنا شمعون" اللذان قاما من الموت بعد أن شاهدا المسيح في الجحيم.

ولابد أن "إنجيل نيقوديموس" هذا والوارد في مخطوطة لاتينية متأخرة تحت عنوان (Evangelium Nicodemi) قد كُتب بالكامل في بداية القرن الخامس الميلادي، لكن يبدو أنه لم يكن أكثر أو أقل من مجرد تجميع لمادة تعود إلى عصر أقدم. ويخبرنا يوسابيوس القيصري أنه في أثناء الاضطهاد الذي شنه الإمبراطور "مكسيمينوس دايا"، عامي ٣١١ و ٣١٢ ميلادية، نشرت الحكومة الرومانية نسخًا وثنية مزيفة من "أعمال بيلاطس" حتى تُثير مشاعر الكراهية تجاه المسيحيين: "لقد زيفوا تقرير بيلاطس ومخلصنا، وجعلوه مليئًا بكل أنواع التجديف ضد المسيح، ثم أرسلوه بموافقة من رئيسهم إلى كل أرجاء الإمبراطورية مع فرمان يفرض بأنه يجب تعليقه علنًا ليراه الجميع في كل مكان، في الريف والمدن، وأنه يجب أن يعلمه المدرسون الابتدائيون لتلاميذهم بدلًا من الدروس، ليدرسوه ويحفظوه عن ظهر قلب." (Hist. eccl. 9: 5; cf. 1: 9: 1; 1: 11: 9; 9: 1)

ومن الممكن أن تكون "أعمال بيلاطس" التي شكلت قوام "إنجيل نيقوديموس" قد كُتبت في الأصل لتضاد التأثير السيئ الذي تركته تلك التصرفات الوثنية.

ويبدو أن أقدم قطعة أدبية مسيحية تتكلم عن بيلاطس هي "تقرير بيلاطس إلى الإمبراطور كلوديوس"، والتي أُدخلت في نصها اليوناني إلى الكتاب المتأخر "أعمال بطرس وبولس" وأُلحقت في ترجمة لاتينية بـ "إنجيل نيقوديموس"، ومن المحتمل أن يكون هذا التقرير متطابقًا مع ذاك الذي ذكره ترتليانوس، فإذا كان هذا صحيحًا، لوجب أن يكون تاريخ تأليفه قبل عام ١٩٧ ميلادية، وهو التاريخ الذي ألف فيه ترتليانوس كتابه "Apologeticum". وإعتمادًا على النص اليوناني، جاءت الترجمة الإنجليزية التي أنجزها (M. R. James) كالتالي: "من بيلاطس البنطي إلى كلوديوس قيصر، تحية وسلام. لقد جرت مؤخرًا أحداث كنت أنا نفسي شاهدًا عليها لأن اليهود بسبب الحسد قد عاقبوا أنفسهم وذريتهم بأحكام مخيفة بسبب خَطَئِهم؛ لأنه لما كان أباؤهم قد وعدوهم - أو بشروهم - أن إلههم سوف يرسل لهم من السماء قدوسه الذي يستحق أن يدعى ملكًا عليهم، ووعدهم أن يرسله إليهم على الأرض من عذراء؛ أتى - أو أتى إله العبرانيين هذا - في الوقت الذي كنت فيه أنا حاكمًا لليهودية، ورأوه يفتح عيون العميان، ويطهر البرص، ويشفي المفلوجين، ويطرد الشياطين من الرجال، ويقيم الموتى، وينتهر الرياح، ويمشي فوق أمواج البحر دون أن تبتل قدماه، ويفعل عجائب أخرى كثيرة، وكان كل شعب اليهود يدعونه ابن الله. إلا أن رؤساء الكهنة قد ثاروا ضده في حسد، وأمسكوا به وأرسلوه إليّ وأتهموه بتهم ملفقة، واحدة بعد الأخرى، قائلين إنه ساحر وإنه فعل أمورا تخالف ناموسهم. لكني - بينما كنت أعتقد أن الأمور هي هكذا - جلدته وسلمته إليهم بحسب إرادتهم فصلبوه، وبعد أن دُفن وضعوا حراسا عليه. لكن بينما كان جنودي يحرسونه، قام في اليوم الثالث. إلا أن خبث اليهود قد اضطرم كثيرًا حتى إنهم أعطوا الجنود

مالاً قائلين لهم: قولوا إن تلاميذه قد سرقوا جسده، لكن الجنود، بالرغم من أنهم قد أخذوا منهم المال، لم يستطيعوا ان يصمتوا بخصوص هذه الأمور التي قد حدثت، لأنهم أيضًا قد شهدوا أنهم رأوه قائمًا وأنهم قد أخذوا مالاً من اليهود. ولقد قمت بإخبار عظمتكم بهذه الأمور، مخافة من أن يكذب عليك شخص ما - في اللاتينية: مخافة من أن يكذب عليك شخص ويخبرك بأمور مختلفة - فتحسب أنك تُحسن صنعًا بتصديق أكاذيب اليهود."

ونذكر من وثائق بيلاطس الأبوكريفية الأخرى كلا من الأعمال التالية على سبيل المثال لا الحصر: "أنافورا بيلاطس"، و"رسالة بيلاطس إلى الإمبراطور طيباريوس"، و"محاكمة الإمبراطور لبيلاطس"، و"المراسلات المتبادلة بين بيلاطس وهيرودس" والتي يعود زمن كتابتها إلى القرون الوسطى.

ولقد كان لـ "أعمال بيلاطس" الموجودة في "إنجيل نيقوديموس" والمحفوظة في نص يوناني، وترجمات سريانية، وأرمنية، وقبطية، وعربية، ولاتينية - نتائج ملفتة للنظر، فقد كرم المسيحيون في مصر وسوريا بيلاطس باعتباره قديسًا، بل إنه حتى اليوم لا يزال مُدرجًا في التقويم الليتورجي للكنيسة القبطية[٧]. ولقد كان لأعمال بيلاطس في العصور الوسطى تأثير هائل في مجالي الأدب والفن.

٦. إنجيل يعقوب التمهيدي

ينتمي إنجيل يعقوب التمهيدي إلى مجموعة أناجيل الطفولة التي تحكي بشيء من الإسهاب عن فترة شباب العذراء مريم وميلاد يسوع وطفولته. أما تسمية الإنجيل بـ "التمهيدي" (protoevangelium) فحديثة؛ فقد أُطلقت على إنجيل يعقوب لأول مرة عام ١٥٥٢م في

---

[٧] لا نعرف من أين استقى المؤلف هذة المعلومة؛ فبيلاطس ليس أحد قديسي السنكسار القبطي [المترجم]

ترجمة لاتينية قام بها "جويلاوم بوستيل" (Guillaume Postel)، وقد كان أوريجانوس هو أول من أشار إلى "كتاب يعقوب" مشيرًا إلى أن هذا الكتاب يذكر أن "إخوة الرب" كانوا أبناء ليوسف ـ النجار ـ من زوجة سابقة. لكن حتى قبل أوريجينوس، ذكر معلمه كليمندس السكندري، وكذلك يوستينوس الشهيد، أحداثا تتعلق بميلاد يسوع جاء ذكرها في إنجيل يعقوب التمهيدي.

كان هذا الكتاب على الأرجح نتاج منتصف القرن الثاني الميلادي، فمن المؤكد أنه كان موجودًا في نهاية ذلك القرن، كما أنه يحتوى على أقدم رواية لدينا عن ميلاد العذراء المعجزي وطفولتها، ونجد فيه لأول مرة أسماء أبوي العذراء مريم: يواقيم وحنة. أما الأكثر تشويقًا فهي رواية تكريس الطفلة وتقديمها للهيكل حيث أتى بها أبواها وهي في عمر ثلاث سنوات (فصل٦ - ٨): "واشتد عود الطفلة يومًا بعد يوم، وعندما أصبحت في عمر ستة الأشهر، أوقفتها أمها على الأرض لكي ترى إذا كانت ستستطيع الوقوف؛ فسارت سبع خطوات ثم عادت إلى حضنها مرة أخرى، فأمسكت بها قائلة: "حي هو الرب، لن تسيري على هذه الأرض مرة أخرى حتى آتي بكِ إلى هيكل الرب"، ثم صنعت محرابًا في غرفة نومها، ولم تدع أي شيء رديء أو غير طاهر يمر به. ثم أحضرت فتيات عبرانيات غير دنسات، فحملنها من ذراعيها. وعندما أتمت الطفلة سنتها الأولى، صنع يواقيم وليمة عظيمة ودعى الكهنة والكتبة ومجمع الشيوخ وكل شعب إسرائيل. ثم أحضر يواقيم الطفلة للكهنة، فباركوها قائلين: "يا إله آبائنا بارك هذه الطفلة وأعطها اسمًا مشهورًا للأبد في كل الأجيال"، فرد كل الشعب قائلًا: " ليكن هذا، ليكن هذا، آمين"، ثم أحضرها لرؤساء الكهنة، فباركوها قائلين: "يا إله الأعالي، انظر لهذه الطفلة، وباركها بالبركة الأخيرة التي ليس بعدها بركة". ثم

أمسكتها أمها ووضعتها في غرفة نومها وأرضعتها. ورنمت حنة للرب قائلة: "سوف أرنم تسبحة للرب إلهي، لأنه افتقدني ورفع عني تعييرات أعدائي، لقد منحني الرب ثمرة بره أمامه مرة ومرات، من ذا الذي سيُخبر بني رأوبين أن حنة تُرضع؟ اسمعوا اسمعوا يا أسباط إسرائيل الإثني عشر، أن حنة ترضع". ثم وضعت الطفلة لتستريح في غرفة النوم التي بها محرابها، ثم ذهبت لتخدمهم. وعندما انتهت الوليمة، ذهبوا مبتهجين وممجدين إله إسرائيل. وإزدادت شهور عمر الطفلة حتى بلغت سن السنتين، فقال يواقيم: "لنذهب بها إلى هيكل الرب حتى نوفي النذر الذي نذرناه حتى لا يطالبنا الله به وتصبح تقدمتنا غير مقبولة". فقالت حنة: "لننتظر حتى السنة الثالثة حتى لا تشتاق الطفلة إلى أبيها وأمها"، فقال يواقيم: "لننتظر". وعندما بلغت الطفلة ثلاث سنوات، قال يواقيم: "ادعِ الفتيات العبرانيات غير الدنسات، ولتأخذ كل واحدة مصباحًا وتشعله، حتى لا تلتفت الطفلة إلى الوراء ولكي يأسر هيكل الرب قلبها". وفعلوا هكذا حتى صعدوا إلى هيكل الرب. فاستقبلها الكاهن وقبلها وباركها قائلاً: "الرب عظَّم اسمه في كل الأجيال وفي آخر الأيام سيظهر الرب فيكِ خلاصه لكل بني إسرائيل." ثم أجلسها على الدرجة الثالثة للمذبح، ووضع الرب نعمته عليها وكانت فرحة وأحبها كل بيت إسرائيل. ثم رجع أبواها متعجبين وممجدين الرب الإله لأن الطفلة لم تلتفت للوراء، وكانت مريم في الهيكل مثل حمامة، تتغذى وتتلقى طعامًا من يد ملاك. وعندما بلغت مريم إثني عشر عامًا، اجتمع مجمع من الكهنة قائلين: انظروا، قد بلغت مريم الثانية عشرة من العمر وهي في هيكل الرب، ماذا نفعل بها لئلا تدنس قدس الرب؟ فقالوا لرئيس الكهنة: قف أنت على مذبح الرب وادخل وصلِ من أجلها، ومهما يكن الأمر الذي سيعلنه لك الرب دعنا نفعله."

ثم يستمر الإنجيل (الأبوكريفي) ليروي قصة خطبة مريم ليوسف الذي كان حينئذ رجلًا عجوزًا وله أولاد، ثم يذكر بالتفصيل ميلاد يسوع في كهف والمعجزات المصاحبة له؛ وهي من النوع الأكثر إفراطًا في الخيال.

أما الهدف الرئيس من الكتاب كله فهو إثبات بتولية العذراء الدائمة التي لم تمس قبلًا، وأثناء، وبعد ميلاد المسيح. وهكذا، شربت العذراء "ماء الإيمان الراسخ الذي للرب" حتى تزيل من نفسها أي شك (فصل ١٦). كما شهدت لدوام بتوليتها القابلة التي حضرت حادثة الميلاد (فصل ٢٠). وبهذا الخصوص، يبدو أن كليمندس السكندري كان يعرف هذا الإنجيل أو مصادره الأسطورية، فهو يقول في كتابه "المتفرقات" (7: 93: 7 strom): "يقول البعض إنها بعد أن ولدت، اعتنت بها قابلة فوجدت أنها لا تزال عذراء".

ويختتم الإنجيل بحادثة استشهاد زكريا أبي يوحنا المعمدان وموت هيرودس، ثم تأتي في نهايته فقرة بخصوص المؤلف هي: "والآن أنا يعقوب الذي كتبت هذا التاريخ في أورشليم عندما اندلع شغب هناك بسبب موت هيرودس، فانسحبت إلى البرية حتى ينتهي الشغب في أورشليم، ممجدًا للرب الإله الذي منحني الموهبة والحكمة لأكتب هذا التاريخ".

ولا شك أن الكاتب يريد أن يعطي هنا انطباعًا بأنه هو يعقوب الصغير أسقف أورشليم؛ وهو أمر يتعذر إثباته، فالكاتب يُظهر جهلًا شديدًا بجغرافية فلسطين. وعلى الجانب الآخر، تظهر الحكايات التي أوردها الكاتب في هذا الإنجيل أنه متأثر بشدة بالعهد القديم، وهذا يشير إلى أنه مسيحي من أصل يهودي يسكن في مكان ما خارج فلسطين، ربما مصر. ولا يمكننا أن نعتبر أن الإنجيل في شكله الحالي من قلم مؤلف واحد، فروايتا موت زكريا وهروب يوحنا

المعمدان تبدوان كأنهما إضافتان لاحقتان على هذا الكتاب، كما أن تسلسل الأحداث ينقطع عدة مرات فجأة، وهكذا نرى في الفصل الثامن عشر أن يوسف النجار يقتحم الأحداث بغتة ويبدأ في التكلم بدون أي مقدمات.

ويرجع شكل النص اليوناني الموجود بين أيدينا اليوم إلى القرن الرابع الميلادي؛ حيث كان إبيفانيوس قد استخدمه في الجزء الأخير من ذلك القرن. أما الانتشار الواسع الذي كان يحظى به "إنجيل يعقوب التمهيدي" فيمكننا أن نراه في حقيقة كون النص اليوناني قد حُفظ فيما لا يقل عن ثلاثين مخطوطة. علاوة على ذلك، لدينا ترجمات قديمة له في السريانية، والأرمنية، والقبطية، والسلافية، لكننا لم نعثر له على أي مخطوطة لاتينية.

وبالرغم من أن "المرسوم الجلاسياني"[٨] - الذي يعود إلى القرن السادس الميلادي - قد أدان هذا الكتاب باعتباره من الكتب المنحولة، إلا أننا لسنا نبالغ في تقدير مدى التأثير الذي تركه إنجيل الميلاد (إنجيل يعقوب التمهيدي) على الليتورجية، والأدب، والفن؛ فكلها قد تأثرت به على نحو مماثل. ولقد استمد كل من تكريم "القديسة حنة" والعيد الكنسي الخاص بـ "دخول العذراء إلى الهيكل" مصدره من التقاليد المسجلة في هذا الكتاب، كما أن كثيرًا من

---

[٨] كان البابا جلاسيوس الذي تولي باباوية الكنيسة الكاثوليكية من سنة ٤٩٢ - ٤٩٦ قد أصدر قرارًا في نهاية القرن الخامس يحتوي على أسماء الكتب المقدسة القانونية والكتب المنحولة. في الجزء الثاني منه نجد أسماء الأسفار القانونية (٢٧ سفرًا للعهد الجديد) وفي الجزء الخامس من القائمة نجد أسماء كتب مرفوضة وممنوع قراءتها. وقد ورد فيها كتاب باسم إنجيل برنابا وبقية أسماء الكتب المذكورة هي كتب غنوسية. منها أعمال أندراوس، أعمال بطرس، أعمال توما، أعمال فيلبس، إنجيل يعقوب الصغير، إنجيل برثلماوس، إنجيل بطرس، إنجيل أندراوس، كتاب طفولة المخلص، رؤيا توما، رؤيا بطرس، رؤيا إستفانوس ... وغيرها. ويقول البابا جلاسيوس: "إنّ هذه الكتب (المنحولة) وما شابهها قد علّمها ودونها الهراطقة والمنشقّون واتباعهم. فنحن نرفض هذه الكتب ونستبعدها في كل الكنيسة الرومانية الكاثوليكية الرسولية ونحرّمها مع كاتبيها." [المراجع]

الأساطير الجميلة التي تدور حول سيدتنا العذراء تعتمد على القصص التي وردت في إنجيل يعقوب التمهيدي، بالإضافة إلى أنه قد ألهم الفنانين مرارًا وتكرارًا.

٧. إنجيل توما

يقول أوريجينوس في عظته الأولى على إنجيل لوقا: "هناك أيضًا إنجيل متداول بحسب توما". ولقد نشأ هذا الإنجيل الأبوكريفي في دوائر هرطوقية كانت على الأرجح غنوسية. وبينما ينسبه هيبوليتوس الروماني[٩] إلى فرقة "الناسيين"[١٠] (The Naassenes)، يتكلم كيرلس الأورشليمي عنه باعتباره عملًا مانويًا[١١]؛ فهو يقول في عظاته للموعوظين (٤ : ٣٦): "ومن العهد الجديد اقرأوا أربعة أناجيل فقط، فالباقي أبوكريفي ومُضر. ولقد كتب المانويون أيضًا إنجيلًا منسوبًا إلى توما، وبالرغم من أنه يحمل اسمًا جميلًا وهو اسم الإنجيل، إلا أنه يفسد نفوس البسطاء"، وكذلك في عبارة مشابهة يقول في (٦ : ٣١): "لا تدعوا أحدًا يقرأ إنجيل توما، فهو لم يُكتب بواسطة أحد الإثني عشر رسولًا، لكن كتبه أحد تلاميذ ماني الثلاثة الأشرار." ويبدو أن هيبوليتوس كان يقصد أيضًا هذا الإنجيل نفسه؛ لكن بينما

---

[9] philos. 5: 7

[١٠] "الناسيين" هي جماعة ربما يكون اسمها مشتق من الكلمة العبرية (nahash)، والتي معناه (ثعبان). وهي جماعة ظهرت حوالى عام ١٠٠ م تقريبًا، ولم تُعرف إلا من خلال كتابات هيبوليتوس الروماني، وقد زعموا انهم تلقوا تعاليمهم من مارياميني تلميذة يعقوب البار، ويمكن اعتبار أن تعليمهم ينتمي إلى المراحل الأولى من البدعة الغنوسية. [المراجع]

[١١] البدعة المانوية نسبة إلى ماني (٢١٥-٢٧٦م) وهو فارسي الأصل، كان تعليمه مزيجًا من الديانات (المسيحية والبوذية والزرادشتية)، علم بوجود مبدأين للخلق (إله النور / الخير)، (إله الظلمة / الشر)، فكل ما هو خير هو روحي، وكل ما هو مادي فهو شر. لذلك رفض التجسد، وعلم بأن الشر له كيان مادي وأنه كائن في الطبيعة البشرية. ونادى بعدم الزواج لأنه الوسيلة التي ينتقل بها الشر في الكيان الإنساني. والخلاص في المانوية هو تحرر الروح من سجن الجسد حتى تتحد بمبدأ الخير وذلك لن يتم الاعن طريق تعذيب الجسد، بالزهد والتنسك والتصوف وايقاف الغرائز الجسدية. [المراجع]

يتكلم هيبوليتوس عن مؤلف هذا الكتاب باعتباره أحد أعضاء فرقة "الناسيين" الغنوسية؛ ينسب كيرلس كتابته إلى المانويين. وربما يمكننا أن نتخطى هذه المعضلة إذا افترضنا أن إنجيل توما المانوي كان مجرد اختصار وإعادة صياغة لإنجيل توما الغنوسي. على أي حال، لقد ضاع كل من إنجيل توما المانوي وإنجيل توما الغنوسي، أما "إنجيل توما الطفولي"، الموجود لدينا في نسخ يونانية وسريانية وأرمنية والسلافية ولاتينية، فهو في الغالب عبارة عن نسخة منقحة ومختصرة للأصل. وهو يورد رواية عن طفولة يسوع، كما أن القصص التي فيه وتحكي عن معرفة وقوة يسوع المعجزية قد نُسجت معًا لتُبيّن أن القوة الإلهية كانت تسكُن يسوع قبل معموديته. وتشكل الحياة القروية اليومية خلفية هذه القصص، وذلك كما يظهر مثلًا في القصة التالية: "عندما كان الطفل يسوع في الخامسة من عمره كان يلعب عند النهر، وكان يجمع الماء الذي كان يجري فيه في برك، ثم يجعلها نقية فورًا، ويأمرها بكلمته فقط. وبعد أن صنع طينًا لينًا، شكله على شكل إثني عشر عصفورًا، وكان هذا يوم سبت حينما عمل يسوع هذه الأشياء، وكان هناك أطفال آخرون كثيرون يلعبون معه. وحينما رأى أحد اليهود يسوع وهو يفعل هذا، أي وهو يلعب في السبت، ذهب من فوره وأخبر أباه يوسف قائلًا: "يا للعجب، إن ابنك عند النهر وقد أخذ طينًا وصنع منه إثني عشر طائرًا صغيرًا ونجس السبت." فجاء يوسف إلى المكان ورآه، فصاح فيه قائلًا: "لماذا تصنع هذه الأشياء في السبت وهو أمر ضد الناموس؟"، ولكن يسوع صفق بيديه معًا وصاح في العصافير ـ الطينية ـ قائلًا: "طيري!" فطارت العصافير وهي تغرد، وعندما رأى اليهود هذا ذهلوا وذهبوا إلى رؤسائهم وأخبروهم بما فعل يسوع." (فصل ٢)

كما أن بعض المعجزات ـ التي وردت في هذا الإنجيل ـ ليست

مستساغة، فيبدو أن الكاتب لديه مفهوم شاذ عن الألوهة لأنه يصور الصبي يسوع وهو يستخدم قوته في الانتقام: "بعد هذا، ذهب يسوع ليتمشى في أرجاء القرية، فأتى أحد الأطفال جريًا وصدم كتفه، فاستفز هذا يسوع، فقال له: "إنك لن تُكمل طريقك"، فسقط الطفل ميتًا لوقته. لكن عندما رأى البعض ما حدث، قالوا: "من أين أتى هذا الصبي، حتى إن كل كلمة منه هي بمثابة عمل قد اكتمل؟". ثم جاء أهل الصبي الميت إلى يوسف، ولاموه قائلين: "بما أنك تُربي مثل هذا الصبي لا يمكنك إذن أن تعيش معنا في القرية، إلا بأن تعلمه أن يبارك ولا يلعن، لأنه يُميت أولادنا." فدعا يوسف الصبي الصغير على انفراد ولامه قائلًا: "لماذا تفعل هذه الأشياء التي تجعلهم يكرهوننا ويضطهدوننا؟" ولكن يسوع قال: أنا أعرف أن هذه الكلمات ليست لك، ورغم ذلك من أجلك سوف أؤثر السلامة، ولكنهم سينالون عقابهم"، وللحال أُصيب الذين اتهموه بالعمى." (فصل ٤، ٥)

ومن المرجَّح أن تعود تلك النسخة الحالية المنقحة من إنجيل الطفولة هذا إلى ما بعد القرن السادس الميلادي.

٨. الإنجيل العربي لطفولة يسوع

أدى كل من إنجيل يعقوب التمهيدي وإنجيل توما إلى ظهور الكثير من أناجيل الطفولة الأخرى التي وسَّعت من أحداث القصص التي وردت في هذين المصدرين وأضافت إليها قصصًا أخرى، والكتاب المعروف بـ "الإنجيل العربى لطفولة يسوع" هو مثال قوي على هذا. استمد هذا الكتاب المتأخر محتوى جزئه الأول من إنجيل يعقوب التمهيدي، ومحتوى جزئه الثاني من إنجيل توما، لكنه أضاف إليهما الكثير من الأحداث الجديدة والغريبة. وهكذا يذكر هذا الإنجيل الأبوكريفي أن يسوع قال لأمه وهو نائم في مهده: "أنا يسوع

ابن الله، اللوغوس الذي ولدتيه أنتِ".

٩. التاريخ العربي ليوسف النجار

هناك عمل مشابه يدعى "التاريخ العربي ليوسف النجار"، وهو يحكي قصة حياة يوسف النجار وموته وتأبين يسوع له. ولقد ضمّن الكاتب في هذا العمل بعضًا من مادة إنجيل يعقوب التمهيدي وإنجيل توما، تلك التي أضاف إليها عدة تفاصيل مختلفة. أما هدف هذا الإنجيل فهو الإعلاء من شأن يوسف النجار والتشجيع على تكريمه الذي كان معتادًا في مصر. ولدينا نص هذا الإنجيل كاملًا في العربية واللهجة القبطية البحيرية، وشذرات منه في اللهجة القبطية الصعيدية؛ ولقد ترجم في القرن الرابع عشر إلى اللاتينية. أما بالنسبة لزمن كتابته، فلا بد أن هذا الإنجيل لم يكتب قبل القرن الرابع، كما أن زمن كتابته لا يتعدى القرن الخامس.

١٠. إنجيل فيلبس

لم تُنسب الأناجيل الأبوكريفية إلى بطرس ويعقوب وتوما فقط بل إلى باقي الرسل أيضًا. وقد تكلم إبيفانيوس (Haer. 26: 13) عن الغنوسيين المصريين قائلًا: "لقد زيفوا إنجيلًا باسم فيلبس، التلميذ القديس، وهو يقول فيه: "لقد كشف لي الرب عن الذي يجب أن تقوله النفس بينما تصعد إلي السماء، والكيفية التي يجب بها أن تجيب على كل قوة من القوات العليا - يجب على النفس أن تقول: "لقد عرفتُ نفسي، وجمعتُ شتات نفسي من كل مكان، ولم ألد أولادًا للحاكم، لكني قضيت عليه، وجمعت الأعضاء المشتتين في جميع الاتجاهات. وأنا أعرف من أنتِ، لأني أحد الذين هم فوق."" وتكشف هذه الشذرة التي اقتبسها إبيفانيوس من إنجيل فيلبس عن ميل قوي للاتجاه النسكي الغنوسي الذي يزعم أنه يجب على

الشرارات الإلهية المبعثرة في العالم أن تتحد وأن تتخلص من تأثير المادة. ويبدو أن الكتاب القبطي المعروف باسم "بيستيس صوفيا" (Pistis Sophia)[١٢]، كان يشير إلى إنجيل فيلبس عندما ذكر أن فيلبس الرسول قد دون تعاليم سرية علَّمها الرب لتلاميذه بعد قيامته، ومن هذا يمكننا أن نستنتج أن هذا الإنجيل كان موجودًا في القرن الثالث الميلادي.

١١. إنجيل متياس

يذكر أوريجينوس - في عظته الأولى على إنجيل لوقا - أن "إنجيل متياس" كان معروفًا في زمانه. ويظن كل من (M. R. James) و (O. Bardenhewer) أن العمل الذي ذكره كليمندس السكندري باسم "تقاليد متياس" ربما يكون هو هذا الإنجيل نفسه، لكن هناك آخرين، مثل (O. Stählin) و (J. Tixeront)، يشكُّون في صحة هذا الأمر. أما الفقرات التي كتبها كليمندس - ذاكرًا فيها "تقاليد متياس" - فهي التالية:

"إن بداية معرفة الحق هي أن يشك المرء في الأشياء، وذلك كما يقول أفلاطون في محاورة ثياتيتوس (Theaetetus). وها هو متياس ينصحنا قائلًا: "شك في الأشياء التي أمامك، جاعلًا من هذا الأمر الخطوة الأولى نحو معرفة أعمق" (strom. 2: 9: 45)

"إن هؤلاء الغنوسيين الملتفين حول باسيليدس يقولون إن متياس قد علَّمهم قائلًا: "يجب علينا أن نحارب ضد الجسد ونقمعه، فلا نسلمه أبدًا للمتع الفاحشة، لكن يجب علينا أن نجعل الروح ينمو من خلال الإيمان والمعرفة." (strom 3: 4: 26)

---

[١٢] هو مخطوط غنوسي آخر وجد خارج مجموعة نجع حمادي يرجع تاريخه للقرن الرابع الميلادي، وهو يتضمّن مجموعة من الحوارات بين السيد المسيح وتلاميذه من الرجال والنساء. [المراجع]

"يقولون إن متياس الرسول قال في "التقاليد": "إنه في كل مرة يخطئ جار الإنسان المسيحي، فإن المسيحي أيضًا يكون قد أخطأ؛ لأنه لو كان المسيحي قد سلك بحسب ما توصي به الكلمة، لكان الجار أيضًا قد شعر بالخجل من أسلوب حياته، وما كان قد أخطأ."" (strom. 7: 13: 82)

وسواء كانت هذه الفقرات من "تقاليد متياس" تمثل جزءًا من إنجيل متياس أو لم تكن، فلا بد من أن هذا الأخير قد كُتب قبل زمن أوريجينوس.

١٢. الإنجيل بحسب برنابا

لم يبقَ لدينا أيُّ شيء من هذا الكتاب، لكننا قد عرفناه عن طريق "المرسوم الجلاسياني"، الذي يعود إلى القرن السادس الميلادي والذي يذكره من ضمن كتب الأبوكريفا؛ كما أنه مذكور أيضًا في "قائمة الستين كتابًا" اليونانية التي تعود إلى القرن السابع أو الثامن. غير أن هناك عملًا مختلفا تمامًا معروف باسم "إنجيل برنابا الإيطالي" نشره كل من (Lonsdale) و (Laura Ragg) عام ١٩٠٧، وقد كتب هذا الأخير مسيحي ارتد إلى الإسلام في القرن الرابع عشر الميلادي، وهو يهدف في الأساس إلى إثبات أن محمدًا هو المسيا، وأن الإسلام هو الدين الوحيد الصحيح.

١٣. إنجيل برثلماوس

ذكر جيروم هذا الإنجيل في مقدمة تفسيره لإنجيل متى، وقد جاء ذكره أيضًا في "المرسوم الجلاسياني". وهو نفسه، على الأرجح، العمل المعروف باسم "أسئلة برثلماوس" والذي نعرف أنه قد كُتب أصلًا باللغة اليونانية. وإلى جانب مخطوطتين يونانيتين، الأولى في فيينا والأخرى في أورشليم، لدينا أيضًا شذرات من "أسئلة برثولماوس" في

ترجمات سلافية وقبطية ولاتينية. وهو يحتوي - في شكل أجوبة على أسئلة برثلماوس - على إعلانات أعطاها الرب بعد قيامته، وكذلك على إعلانات أعطيت بواسطة مريم العذراء، بل إنه حتى الشيطان نفسه يظهر ويجيب على أسئلة برثلماوس بخصوص الخطية وسقوط الملائكة. كما أن "نزول المسيح إلى الجحيم" موصوف في هذا العمل بالتفصيل.

١٤. أناجيل أبوكريفية أخرى

كان من عادة الهراطقة، وخاصة الغنوسيين، أن يكتبوا أناجيلَ بهدف تدعيم تعاليمهم الخاصة، لذا كان هناك عدد كبير من هذه الأناجيل الأبوكريفية، معظمها معروف لدينا بالاسم فقط، ونذكر منها على سبيل المثال لا الحصر:

(أ) إنجيل أندراوس: من المرجح أن كاتبه كان ذا أصل غنوسي، ويبدو أن القديس أغسطينوس يشير إليه في: (Contra Adversarios Legis et Prophetarum, 1: 20)

(ب) إنجيل يهوذا الأسخريوطي: ذلك الذي كان أعضاء طائفة القايينيين[١٣] (Cainites) الغنوسية يستعملونه.

(ج) إنجيل تداوس: وهو مذكور في المرسوم الجلاسياني .

(د) إنجيل حواء: يذكر إبيفانيوس أنه كان متداولاً بين أعضاء

---

[١٣] هم طائفة غنوسية كانت مزدهرة في القرن الثاني الميلادي وخصوصًا في المنطقة الشرقية من الإمبراطورية الرومانية، كانت رؤيتهم ليهوه أنه شرير لأنه صمم العالم على نحو معادٍ للخير، حتى يمنع العنصر الإلهي في الإنسان من الاتحاد بالإله الكامل غير المعروف، وكانوا يمجدون الشخصيات الكتابية التي رُفضت في العهد القديم مثل قايين وعيسو وغيرهم من الذين اعتقدوا بأنهم كانوا يحملون معرفة باطنية مختلفة، ويقولون إن هذه الشخصيات عوقبت بواسطة إله غيور وشرير، ويطلق على القايينيين أحيانًا لقب "الغنوسيين المستبيحين"، وذلك لإيمانهم بأن الخلاص والكمال الحقيقي، يأتي فقط عن طريق كسر كل الوصايا الكتابية في فترة حياة واحدة فقط، أي يجب على الغنوسي الذي يريد الخلاص أن يكسر كل الوصايا أثناء حياته. [المراجع]

طائفة البوربوريين[14] (Borborites)، وهي طائفة أوفيتية[15] غنوسية.

وبعض هذه الأناجيل يحمل أسماء هراطقة مشهورين مثل:

(هـ) الإنجيل بحسب باسيليدس: يقول أوريجانوس إن هذا الهرطوقي قد "بلغ من الوقاحة" حتى إنه كتب إنجيلاً. وقد ذكر هذا العمل كل من أمبروسيوس وجيروم، ومن الممكن أن يكون باسيليدس قد قام بإعادة صياغة للأناجيل القانونية حتى يجعلها مؤيدة للتعاليم الغنوسية.

(و) إنجيل كيرنثوس: ذلك الذي ذكره إبيفانيوس.

(ز) إنجيل فالنتينوس: وترتليانوس هو مصدر معلوماتنا عن هذا العمل.

(ح) إنجيل أبيلِس (Apelles)، الذي أشار إليه كل من جيروم وإبيفانيوس.

والسمة المشتركة بين هذ الأناجيل جميعًا هي أنها تتعامل مع محتوى الأسفار القانونية بأسلوب قاسٍ وملتوٍ؛ فالروايات الإنجيلية القانونية تُستعمل فيها كإطار للاستعلانات الغنوسية؛

---

[14] كان البوربوريون طائفة غنوسية موغلة في القذارة والشر بشكل غير طبيعي، وكلمة "بوربوري" مأخوذة من الكلمة اليونانية "بوربوروس" والتي تعني "وحل"؛ لذا يمكن أن تترجم كلمة "البوربوريين" إلى "القذرين". وكانت عقائدهم تتضمن ممارسة الشذوذ الجنسي بالإضافة إلى أمور أخرى غاية في القذارة. وبما أن كل ما نعرفه عن هؤلاء البوربوريين قد أتى من أعدائهم، لذلك لا يمكننا أن نكون متأكدين ما إذا كانت هذه الاتهامات صحيحة أم مبالغًا فيها. [المراجع]

[15] الأوفيتي هو عضو طائفة من ضمن عدة طوائف غنوسية ازدهرت في الإمبراطورية الرومانية في القرن الثاني الميلادي ولعدة قرون لاحقة. اندرج تحت اسم "الأوفيتيين" عدة طوائف غنوسية مثل الناسيين والقايينيين، وقد اختلفت عقائد هذه الطوائف عن بعضها البعض من أوجه كثيرة، لكنها جميعًا تمحورت حول نظرية لاهوتية ثنائية وضعت كائنًا أعلى ذا طبيعة روحية محضة - وهو مصدر العملية الكونية والخير الأسمى - على طرف النقيض مع عالمٍ مادي فوضوي وشرير. بالنسبة إلى الأوفيتيين، كانت معضلة الإنسان نتيجة كونه خليطًا من هذه العناصر الروحية والمادية. فقط المعرفة – المعرفة الباطنية الخير والشر – هي التي تستطيع أن تخلص الإنسان من قيود المادة وتجعله على دراية بهذا الإله غير المعروف المصدر الحقيقي لكل وجود. [المراجع]

تلك التي يعلنها الرب أو مريم في حوارات مع تلاميذ يسوع بعد قيامته. أما فيما يتعلق بالتأملات الكونية التي تحتوي عليها، فهذه الأناجيل ذات طابع رؤيوي، ولهذا السبب سُميت بـ "الأناجيل الرؤيوية" (Gospel-Apocalpses)

ثالثًا: أسفار أعمال الرسل الأبوكريفية

تشترك أسفار الأعمال الأبوكريفية مع الأناجيل الأبوكريفية في كونها تزود القارئ بالمعلومات الغائبة عن العهد الجديد، فتمامًا مثل الأناجيل ـ الأبوكريفية ـ التي تؤلف مادة قصصية لكي تملأ الفراغات المتروكة في حياة يسوع وعائلته، هكذا أعمال الرسل الأبوكريفية تحكي عن حياة الرسل وموتهم بطريقة تذكرنا بالقصص الرومانسية الوثنية.

ومن الواضح أن قصد ابتداع أدب شعبي يحل محل الروايات الوثنية الإيروتيكية[16] كان له دور هام في تكوّن هذه الأعمال الأبوكريفية، فهي تزخر بالمغامرات ووصف البلاد الأجنبية والشعوب الغريبة؛ ويمر أبطالها بكل أنواع المخاطر، بل يمكننا أن نرى أن تأثير القصص الخرافية المنتشرة والفولكلور والأساطير عليها يفوق تأثيرها على الأناجيل الأبوكريفية. لكن أحيانًا، تظهر بعض التقاليد الصحيحة تاريخيًّا تحت كل هذا الكم من القصص المعجزية الخيالية، وذلك مثلًا عندما يذكر سفر "أعمال بطرس وبولس" استشهاد الرسولين في روما، وأيضًا عندما يذكر سفر "أعمال يوحنا" أمر إقامة يوحنا في مدينة أفسس.

وبالرغم من أن معظم هذه الأسفار تُظهر ميولًا هرطوقية، إلا أنها ذات أهمية قصوى لكل من تاريخ الكنيسة وتاريخ الثقافة؛ فهي

[16] هذا النوع من الأدب كان منتشرًا مثل الأدب التراجيدي أو الكوميدي، ويرجع تسميته عند اليونانيين إلى الإله إيروس إله الحب والشهوة والغرائز الجنسية. [المراجع]

تلقي بأضواء كثيرة على تاريخ العبادة المسيحية في القرنين الثاني والثالث، وتصف الشكل الأول لخدمات العبادة الدينية التي كانت تقام في المنازل، كما أنها تضم الترانيم والصلوات التي تُشكل بداية الشعر المسيحي. هذا بالإضافة إلى أن هذه الأسفار تعكس الشكل النسكي الخاص بالطوائف الهرطوقية المنتشرة، وتظهر أيضًا محاولات التوفيق التي كانت تتم داخل الدوائر الغنوسية بين المعتقدات المسيحية والأفكار والخرافات الوثنية. ويقول (M. R. James): "يمكننا أن نجد ضمن الصلوات والأحاديث المنسوبة إلى الرسل في أسفار الأعمال المنحولة بعض الأقوال المميزة بل والجميلة؛ كما أن الكثير من هذه القصص المذكورة بها جديرة بالذكر، ومليئة بالخيال، وقد جعلتها عبقرية فناني العصور الوسطى مُبجلة لدينا ومألوفة لنا. لكن، لم يكن مؤلفو هذه الأعمال يتكلمون بلهجة بولس أو يوحنا؛ أو ببساطة الأناجيل الثلاثة الأولى، لذا لن نظلمهم إن قلنا إنهم عندما يحاولون أن ينتحلوا لهجة الرسل فإنهم يبدون مصطنعين، أو إنهم عندما يحاولون أن يكتبوا مثل الأناجيل فإنهم يصبحون مملّين. واختصارًا، يمكننا أن نقول إن دراسة مثل هذا النوع من الأدب دراسة دقيقة، سواء أ كانت مجملة أم مُفصلة، سوف تعود بالمزيد من الاحترام للوعي الذي كانت تمتلكه الكنيسة الجامعة، والحكمة التي لعلماء الإسكندرية، وأنطاكيا، وروما، فهم كانوا - بلا أدنى شك - صيارفة متمرسين، لقد امتحنوا كل شيء وتمسكوا بالحسن."

والمؤلفون الحقيقيون لهذه الأسفار غير معروفين، لكن بداية من القرن الخامس الميلادي ذُكر شخص يدعى "لوكيوس" باعتباره مؤلف أعمال الرسل الأبوكريفية الهرطوقية، فيذكر فوتيوس في (Bibl. cod. 114)، رجلًا يدعى "لوكيوس خارينوس" باعتباره كاتب

مجموعة أعمال بطرس، وبولس، وأندراوس، وتوما، ويوحنا. وقد اعتُبر لوكيوس في البداية أنه مؤلف "أعمال يوحنا" فقط؛ إلا أنه لاحقًا نُسبت إليه كل أسفار الأعمال الهرطوقية. ولمحاولة منع انتشار هذه الأسفار المنحولة وتعاليمها الهرطوقية، قام مؤلفون مستقيمو العقيدة بإعادة كتابة بعضها، وهكذا عوضوا النقص الكائن في الروايات القانونية المتعلقة برحلات الرسل التبشيرية. ولقد اعتمد كثير من فصول كتاب أعياد الرسل الخاص بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية على هذه الأعمال.

١. أعمال بولس (Πράξεις Παύλου)

علق ترتليان في بحثه "عن المعمودية" (الفصل ١٧) قائلًا: "ولكن الكتابات المنسوبة خطأ إلى بولس تؤيد حجتها بمثال تكلا، وذلك بوصفه أنه يعطي رخصة للمرأة كي تُعلم وتُعمد. ولكن ليعلم الجميع أن هذا القس الذي ألف هذه الكتابات في آسيا - كما لو كان يزيد بولس من عنده شهرة على شهرته - قد عُزل من رتبته بعد أن تمت إدانته وإعترف أنه هو من فعل هذا محبة منه في بولس". ويبدو واضحًا من هذه الكلمات أن هناك كتابًا اسمه "أعمال بولس" كان متداولًا بين الناس قبل زمن ترتليان، وكان مؤلفه كاهنًا من آسيا الصغرى قد أوقف عن خدمته الكهنوتية قبل سنة ١٩٠م ولا شك. لكن لم يكن من الممكن لنا أن نحدد المحتوى الكامل لهذا الكتاب إلا حينما نشر (C. Shmidt) سنة ١٩٠٤ شذرات من ترجمة قبطية له كانت موجودة في بردية بجامعة هايدلبرج (heidelberg).

ولقد أثبتت هذه النسخة القبطية على وجه الخصوص أن هناك ثلاثة نصوص، كانت معروفة لنا منذ وقت طويل باعتبارها كتبًا مستقلة، هي في الأصل وببساطة، عبارة عن أجزاء من "أعمال بولس".

وهذه النصوص الثلاثة هي: (أ) أعمال بولس وتكلا؛ (ب) المراسلات بين القديس بولس وأهل كورنثوس؛ (ج) استشهاد بولس

أولًا: الكتاب اليوناني المعروف باسم "أعمال بولس وتكلا" (Πράξεις Παύλου καὶ Θέκλης) يطلق القديس جيروم، في (de vir.ill. 7)، على هذا الكتاب عنوان (Periodi Pauli et Theclae)، وهو يضم قصة "تكلا": الفتاة اليونانية من مدينة إيقونية والتي تحولت إلى المسيحية بكرازة بولس. وتترك تكلا خطيبها وتتبع الرسول لتساعده في عمله الكرازي، ثم تهرب من الاضطهاد والموت بطريقة معجزية، وأخيرًا تعتزل العمل الكرازي وتستقر في مدينة سلوقية[17]. وتحمل القصص المروية في هذا العمل كل سمات القصص الخيالية، وتبدو بلا أي أساس تاريخي. إلا أنه، بالرغم من ذلك، أصبح تكريم القديسة تكلا ذا شعبية كبيرة وانتشر في الشرق والغرب، بل إنه في الحقيقة، قد ورد اسمها في الصلوات المقدمة لأجل أرواح المنتقلين (Proficiscere) في الطقس الروماني. ولا يمكننا على وجه التأكيد أن نعرف ما إذا كان هذا الكتاب الأبوكريفي قد كُتب ليعطي تبريرًا لتكريمها، أم أن القصة لها نواة تاريخية. ولقد حُفظ النص اليوناني الأصلي لهذا الكتاب في عدد من المخطوطات، كما أنه قد بقى لدينا خمس مخطوطات لاتينية له، بالإضافة إلى عدد كبير من الترجمات إلى اللغات الشرقية.

وكان لمحتوى هذه الرواية ولا يزال تأثير كبير على الفن والأدب المسيحي، فلقد أصبح وصف بولس الذي ورد في الفصل الثالث هو النموذج الذي على أساسه رُسمت صورته منذ زمن مبكر: "ورأى بولس

---

[17] مدينة سلوقية (تل عمر) Selucia قد بنيت من قبل القائد سلوقس الذي حكم بلاد بابل بعد وفاة الاسكندر الكبير وذلك في الاعوام ٣٢١ ـ ٣٠٥ ق.م. وفي عام ٣٠٥ اعلن نفسه ملكا علي إيران والعراق وسوريا العليا وأمر بإنشاء عاصمة له في العراق فبنيت مدينة سلوقية. [المراجع]

قادمًا، إنه رجل صغير الحجم، ذو رأس أصلع ورجلين معوجتين، قوي، يملك حاجبين ملتصقين، وأنفا معقوفا إلى حد ما، مملوءًا جمالاً، يظهرأحيانًا كإنسان وأحيانًا يكون له وجه ملاك".

ثانيًا: المراسلات بين القديس بولس وأهل كورنثوس، وهي تشكل جزءًا آخر من "أعمال بولس"؛ وتشمل رد أهل كورنثوس على رسالته الثانية، ورسالته الثالثة إليهم.

ثالثًا: وبالإضافة إلى ما سبق، تشتمل أعمال بولس على "استشهاد بولس" أو "آلام بولس" (Passio Pauli). ولقد حُفظ هذا النص في مخطوطتين يونانيتين وترجمة لاتينية غير كاملة، وكذلك في ترجمات سريانية، وقبطية، وإثيوبية، وسلافية.

ومحتوى هذا النص أسطوري، وهو يتناول كرازة بولس، وعمله الكرازي في مدينة روما، واضطهاد نيرون، وإعدام الرسول بولس. ولقد أثرت تفاصيل عملية إعدام الرسول، المذكورة في هذا العمل، على كل من الفن والليتورجيا المسيحية بشدة: "ثم وقف بولس ووجهه متجه نحو الشرق ورفع يديه نحو السماء وصلى لوقت طويل. وفي أثناء صلاته، تحاور مع الآباء باللغة العبرية، ثم مد عنقه صامتًا، وعندما قطع الجندي المكلف بالإعدام رأس بولس، تدفق اللبن على عباءته".

وبعد موته، يظهر بولس للإمبراطور ويتنبأ له بالدينونة الآتية عليه. أما فكرة "المسيح الملك" و"جنود المسيح" فتظهر بوضوح شديد في كل أجزاء هذا العمل؛ فيطلق على المسيح هنا "الملك الأبدي" و"ملك الدهور"، والمسيحيون هم "جنود الملك العظيم". كما أن الصراع ما بين عبادة المسيح وعبادة الإمبراطور مصور هنا بوضوح.

وقد أثبت الاكتشاف الحديث لجزء كبير من هذا العمل في نصه اليوناني الأصلي أن استنتاج (C. Shmidt) بخصوص الشكل الأصلي لسفر "أعمال بولس" كان صحيحًا. ولقد زودتنا إحدى عشرة صفحة

من البردي. كُتبت حوالى ٣٠٠ ميلادية وموجودة الآن في هامبورج. بجزء كبير من النص الذي كان مفقودًا.

٢. أعمال بطرس

كتبت "أعمال بطرس" سنة ١٩٠م، ويبدو أن الكاتب كان يعيش في سوريا أو فلسطين وليس في روما. ونحن لا نمتلك النص الكامل، ولكننا استعدنا ثلثي النص من مصادر مختلفة. ولدينا الجزء الرئيس من "أعمال بطرس" في ترجمة لاتينية وجدت في مخطوطة بمدينة "فيرسيلي" (Actus Vercellenses). وتورد هذه الترجمة المعنونة بـ "Actus Petri cum Simone" الأحداث التالية:

(أ) ترك بولس للمسيحيين الرومانيين واتجاهه إلى أسبانيا.

(ب) مجيء سيمون الساحر إلى روما وخداعه للمسيحيين بمعجزات ظاهرية.

(ج) سفر بطرس إلى روما وانتصاره على الساحر الذي يلقى مصرعه أثناء محاولة منه للطيران منطلقًا من المنتدى الروماني إلى السماء. ثم تُختتم هذه الوثيقة برواية قصة استشهاد بطرس.

وفي سبيل تحديد الوسط الفكري الذي ينتمي إليه المؤلف، يصبح من المهم أن نلاحظ أنه في الفصل الثاني من العمل يذكر أن بولس قد احتفل بالإفخارستيا بخبز وماء: "ثم أحضروا إلى بولس خبزا وماء للتقدمة، حتى يصلي ويوزعهما على الجميع." وتشير هذه الحقيقة إلى أن الكاتب يعتنق آراء دوسيتية (docetic). ويمكننا أن نرى التأثير الهرطوقي نفسه في عظة بطرس ضد الزواج، وإقناعه للزوجات بأن يتركن أزواجهن.

ولدينا أيضًا النص اليوناني الأصلي لخبر "استشهاد القديس بطرس" (Μαρτύριον τοῦ ἁγίου ἀποστόλου Πέτρου) الذي

يشكل الجزء الثالث من الـ (Vercellenses Actus). وهو يضم قصة "يا رب، إلى أين تذهب؟" الشهيرة، ففي حين كان بطرس يشعر أنه مرغم على ترك مدينة روما، تقابل مع يسوع: "وعندما رآه، قال له: "يا رب، إلى أين تذهب؟" فأجابه الرب قائلًا: "إني ذاهب إلى روما لأصلب." فقال له بطرس: "يا رب، هل ستصلب ثانية؟" فأجابه قائلًا: "نعم يا بطرس، سأصلب ثانية." فعاد بطرس إلى نفسه، وبعد أن رأى الرب صاعدًا إلى السماء، عاد إلى روما مبتهجًا وممجدًا الرب، لأنه قال: "إني سوف أصلب"، وهو الأمر الذي كان مزمعًا أن يحدث لبطرس." (Ch. 3, p. 333 James). ثم تستمر القصة حتى تصل إلى حكم الوالي أغريباس على بطرس بالموت. وقد صُلب بطرس منكس الرأس بناء على طلبه. وقبيل موته، يعظ بطرس عظة طويلة وهو على الصليب تُظهر معانيها الرمزية - مرة أخرى - تأثيرًا غنوسيًّا.

ولا تنتمي القصة المعنونة بـ Martyrium beati Petri Apostoli a Lino conscriptum" إلى نفس المؤلف، فلقد كُتبت باللغة اللاتينية في القرن السادس الميلادي على الأرجح، وبالتالي لا يمكن أن يكون كاتبها هو لينوس الخليفة الأول لبطرس، ذاك الذي تُنسب إليه كتابتها. كما أن القصة أسطورية تمامًا، وهي تتبع تفاصيل خبر الاستشهاد الأصلي كما ورد في الـ (Actus Vercellense) لكنها تضيف إليه بعض التفاصيل الأخرى، مثل اسمي سجاني بطرس: "بروسيسوس" (Processus) و"مارتينيان" (Martinian).

٣. أعمال بطرس وبولس

يختلف كتاب "أعمال بطرس وبولس" (Πράξεις τῶν ἁγίων ἀποστόλων Πέτρου καὶ Παύλου) تمامًا عن كل من "أعمال بولس" و"أعمال بطرس" اللذين ذكرناهما توًّا، فهو يشدد على العلاقة

الحميمة والرفقة التي كانت بين الرسولين. ويبدأ النص بذكر رحلة بولس من جزيرة (Gaudomelet) إلى روما، ثم يسرد الأعمال الرسولية التي قام بها الرسولان، ثم استشهادهما في هذه المدينة. ومن الواضح أن الكاتب قد استخدم سفر أعمال الرسل القانوني كأساس لوصفه لرحلة بولس، ومن الممكن أن يكون المؤلف قد كتب هذا العمل بغرض أن يحل محل أسفار أعمال الرسل الأبوكريفية. ويُحتمل أن يكون هذا العمل قد كُتب في القرن الثالث الميلادي، كما أنه نادرًا ما يُظهر أي علامات تدل على تأثره بأي هرطقة. والعمل متوفر لدينا في شذرات لاتينية ويونانية.

٤. أعمال يوحنا

إن كتاب "أعمال يوحنا" هو أقدم أسفار أعمال الرسل الأبوكريفية التي في حوزتنا. ولقد كُتب في آسيا الصغرى في الفترة ما بين ١٥٠م - ١٨٠م. وبالرغم من أنه لم يبقَ لدينا منه أي نص كامل، إلا أن بحوزتنا جزءًا كبيرًا من الأصل اليوناني الذي تُكمل ترجمة لاتينية عددًا من الأحداث الواردة به. ويزعم الكتاب أنه يعطينا رواية شاهد عيان على رحلات يوحنا التبشيرية في آسيا الصغرى، وهو يروي لنا معجزاته، وعظاته، وموته.

وتُظهر عظات الرسول - المذكورة في هذا الكتاب - ميولًا دوسيتية لا تخطئها عين، خاصة عندما تأتي على وصف يسوع وجسده اللامادي، فهو مثلًا يقول في الفصل (٩٣): "أحيانًا عندما كنت أمسك به، كانت يدي تصطدم بمادة وجسم صلب. وأحيانًا أخرى عندما كنت ألمسه، يصبح جسده غير ماديٍّ، كما لو لم يكن موجودًا على الإطلاق." وكذلك صُبغت الترتيلة التي رتلها يسوع للآب مع رسله قبل أن يذهب للموت بصبغة غنوسية في تعبيراتها وتكوينها.

ويظهر الكاتب ضعفًا يتمثل في القصص الغريبة، مثل قصة "دروسيانا" (Druciana)، والحوادث المضحكة.

أما بالنسبة للقيم الأخلاقية التي يكشف عنها كتاب أعمال يوحنا فهي نفسها القيم الأخلاقية التي للفلسفة الشعبية الشائعة. ومع ذلك، فإن للكتاب قيمة كبيرة فيما يتعلق بالتاريخ المسيحي، فهو، على سبيل المثال، أقدم مصدر يسجل لنا الاحتفال بالإفخارستيا من أجل الموتى: "وفي اليوم التالي، ذهب يوحنا إلى الضريح في الفجر ومعه أندرونيكوس والإخوة، فاليوم هو اليوم الثالث من وفاة دروسينا حيث يجب علينا أن نكسر الخبز هناك." (Ch. 72) ولقد جاء في الفصل (٨٥) نص الصلاة الإفخارستية التي استخدمها الرسول في هذه الخدمة الجنائزية: "وبعدما قال هذا، أخذ يوحنا الخبز وقدمه في الضريح ليكسره ثم قال: "نحن نبارك اسمك، يا من هديتنا من الضلال والخداع القاسي. نحن نمجدك يا من أظهرت أمام أعيننا ما رأيناه، نحن نشهد للطفك المحب، ذاك الذي ظهر بطرق كثيرة، نحن نمجد اسمك الرحيم يا رب ذاك الذي أدانهم، هؤلاء المُدانين منك، نحن نشكرك، يا رب يسوع المسيح، لأننا قد قنعنا بنعمتك التي لا تتغير، نحن نشكرك، يا من احتجت أن تأخذ طبيعتنا لتخلصها، نحن نشكرك يا من أعطيتنا هذا الإيمان الأكيد، لأنك أنت الإله وحدك، الآن وإلى الأبد، نحن خدامك نشكرك أيها القدوس، نحن من اجتمعنا بنية صالحة، ولقد اجتمعنا من كل أرجاء العالم."

٥. أعمال أندراوس

ذكر يوسابيوس أعمال أندراوس في (Hist. eccl. 3: 25: 6) إلى جانب أعمال يوحنا باعتبارهما كتابين وضعهما الهراطقة قائلًا: "لم يعتقد أي شخص ينتمي إلى التعاليم الأورثوذكسية أنه من الصحيح

أن يشير إلى أي من هـذه الكتب في كتاباته، علاوة على ذلك، يختلف أسلوب كتابة هذه الكتب عن الأسلوب الرسولي، كما أن الآراء والميول العقائدية التي تحتوي عليها غير متناغمة بشكل كبير مع الأورثوذكسية الحقيقية، وتُظهر بوضوح أنها من تزييف الهراطقة."

ويُعتقد أن كاتب كتاب "أعمال أندراوس" هو "لوكيوس خارينوس"، الذي كتبه حوالى سنة ٢٦٠م. ولا يوجد اليوم إلا بعض الشذرات القليلة التي تحتوي على الأحداث التالية:

(أ) قصة أندراوس ومتياس عندما كانا بين آكلي لحوم البشر المتواجدين عند البحر الميت. ونحن نمتلك نص هذه القصة في ترجمات لاتينية، وسريانية، وقبطية، وأرمنية، وكذلك في القصيدة الأنجلوسكسونية "أندرياس" المنسوبة إلى "ساينولف" (Cynewolf).

(ب) قصة بطرس وأندراوس.

(ج) قصة استشهاد أندراوس في مدينة "بترا" (Patrai) بمقاطعة أخائية، تلك التي كُتبت في وقت ما بعد سنة ٤٠٠م. وتأخذ هذه الوثيقة شكل رسالة دورية كتبها كهنة وشمامسة أخائية عن استشهاد أندراوس. والرسالة موجودة باليونانية واللاتينية، ويبدو أنه لا علاقة بينها وبين أعمال أندراوس الغنوسية التي أدانها يوسابيوس.

(د) هناك شذرة أخرى محفوظة في المخطوطة الفاتيكانية الإغريقية (Codex Vaticanus graec. 808) تحكي عن الآلام التي عاناها أندراوس في أخائية، والحوارات التي أجراها في السجن في مدينة بترا.

(هـ) رواية عن استشهاد القديس أندراوس وصلت إلينا في عدة نسخ منقحة.

وهناك شيء واحد مشترك بين هذه القصص جميعًا، وهو أن أندراوس قبل موته يتوجه إلى الصليب الذي كان مزمعًا أن يموت عليه بعظة طويلة تُذكرنا بعظة مُشابهة في إنجيل بطرس، كذلك

أيضًا يوصي الرسول في أعمال أندراوس - الزوجات - بترك أزواجهن، الأمر الذي يقوده إلى خلافات مشابهة مع الأزواج ومع السلطات الوثنية، مما يؤدي أخيرًا إلى موت الرسول.

٦. أعمال توما

أعمال توما هو الكتاب الوحيد من كتب أعمال الرسل الأبوكريفية الذي وجدَ كاملًا، وقد كُتب بالسريانية في النصف الأول من القرن الثالث. ومن المرجح جدًّا أن مؤلفه كان ينتمي إلى شيعة الบارديصانيين[١٨] في مدينة إديسا. وقد تُرجم هذا الكتاب بعد كتابته بفترة قصيرة إلى اللغة اليونانية، ونحن لدينا من هذه الترجمة عدة مخطوطات. كما أنه موجود أيضًا في ترجمات أرمنية، وأثيوبية، وترجمتين لاتينيتين مختلفتين.

ويصور الكتاب توما على أنه مبشر الهند ورسولها. وهو يسجل مغامراته وخبراته في رحلته إلى هذه البلد بالتفصيل. وقد آمن الملك جندافور (Gundafor) على يد توما. ثم إستشهد توما بعد أن أجرى معجزات كثيرة.

ويتألف الكتاب كله من أربعة عشر عملًا، وبالرغم من أن وجود

---

[١٨] نسبة إلى برديصان؛ وهو كاتب سرياني وشاعر موهوب يعتبره البعض مبدع الأدب المسيحي السرياني. وتغنى السريان بشعره وبسببه احتلت الرُّها مركز الصدارة في الأدب السرياني. وُلد في ١١ تموز سنة ١٥٤ م. من أبوين وثنيين. نشأ برديصان في صغره على الديانة الوثنية وتعلم أدبها على يدي الكاهن الأكبر لمعبد منبج، ولما تولى أبجر التاسع رفيقه في الصبا عرش الرُّها عام ١٧٩ م عاد برديصان إلى الرُّها، وهناك التقى مع بعض الذين اعتنقوا الإيمان المسيحي فشرحوا له أسس الدين المسيحي، فقبل الإيمان في شبابه على يدي هسبس أسقف الرها. وبعد أن تعمق في العلوم الدينية سيم شماسًا وربما كاهنًا. وكتب برديصان في بادئ الأمر مقالات ضد الهرطقات، لكنه انجرف فيما بعد في معتقدات مرقيون وفالنتينوس. لهذا حذر رجال الكنيسة المؤمنين من تعاليمه التي حسبوها سمًّا في الدسم. وكان برديصان آخر الغنوسيين من السريان، وقد بقى لفرقته أتباع حتى القرن الثامن كما يقول يعقوب الرهاوي. وقد نظم مائة وخمسين نشيدًا على طريقة مزامير داود النبي وضع فيها أفكاره الغنوسية، وقد بذل القديس أفرام السرياني جهدًا عظيمًا في تأليف أناشيد يقضي بها على أناشيد برديصان، كما كان يعدم كل ما تصل إليه من كتبه. [المراجع]

ملك هندي في القرن الأول الميلادي باسم "جندافور" قد تم تأكيده تاريخيًّا، إلا أن كل المحاولات التي بذلت حتى الآن لتوثيق قصة كرازة توما في الهند قد فشلت.

ويكشف الكتاب بوضوح عن أصله الغنوسي وميله الجزئي إلى المانوية؛ فاتجاهاته النسكية تُماثل تلك التي في "أعمال أندراوس" و"أعمال بطرس"؛ الزواج مرفوض، كما يتم إقناع الزوجات فيه بترك أزواجهن. كذلك يحتوي العمل على عدة تراتيل ليتورجية على قدر كبير من الجمال، أكثرها لفتًا للأنظار هي الترتيلة المُسماة بـ "النفس" أو "الخلاص"، تلك التي تعود على الأرجح إلى زمن يسبق زمن كتابة الأعمال والتي يبدو أنها قد أقحمت في سياق الرواية. وتُصور هذه الترتيلة المسيح باعتباره ابن الملك، ذاك الذي يُبعث من بلده في الشرق إلى مصر في الغرب لكي يهزم التنين ويفوز باللؤلؤة، ثم يعود إلى نور بلده بعد أن يتم له ذلك. وهكذا تكون البلد التي في الشرق هي السماء أو الفردوس الذي نزل منه المسيح إلى العالم الخاطئ ليخلص النفس الواقعة في شرك المادة.

٧. أعمال تداوس

يوحي كلام يوسابيوس القيصري في كتابه "تاريخ الكنيسة" (١ : ١٣) بأنه كان يعرف "أعمال تداوس" التي كُتبت في سوريا. وبحسب يوسابيوس، تحكي هذه الأعمال أن الملك أبجر، ملك أديسا، عندما سمع عن يسوع ومعجزاته، أرسل إليه طالبًا منه أن يأتي ويشفيه من مرضه الصعب. لكن يسوع لم يجبه إلى طلبه، بل أرسل إليه رسالة وعده فيها أن يرسل إليه أحد تلاميذه. وفعلًا، بعد قيامة المسيح، حرك الله توما الرسول ليُرسل تداوس، أحد رسل الرب السبعين، إلى أديسا، ثم شُفى الملك على يد تداوس، وتحولت أديسا

كلها إلى المسيحية.

ولقد ترجم يوسابيوس القيصري المراسلات بين يسوع والملك أبجر من السريانية إلى اليونانية، وهو يخبرنا أنه قد أخذ النص الذي ترجمه من سجلات أديسا، وها هو نص كلامه: "هناك أيضًا دليل وثائقي على صحة هذه الأمور مأخوذ من سجلات أديسا التي كانت حينئذ مدينة كبرى. فعلى الأقل يمكن للمرء أن يجد تلك الأمور أيضًا محفوظة منذ تلك الأيام إلى يومنا هذا في السجلات العامة هناك، تلك السجلات التي تحتوي الأمور التي حدثت في الماضي وفي أيام أبجر. لكن، لا يوجد هناك ما يعادل سماع الرسائل نفسها، تلك التي قمنا باستخراجها من السجلات. ولقد نصت الرسائل على التالي بعدما ترجمتها من السريانية حرفيًا: "من أبجر أوخاما الملك إلى يسوع المخلص الصالح الذي ظهر في ناحية أورشليم، تحية. لقد سمعت عنك وعما تجريه من أعمال شفاء، وكيف أنك تتممها بدون أية أدوية أو أعشاب. لأنك، كما تقول الأخبار، ترد للعمي أبصارهم، وتجعل المقعدين يمشون، وتطهر البرص، وتطرد الأرواح الشريرة والشياطين، وتشفي هؤلاء الذين عذبتهم الأمراض الطويلة، وتقيم الموتى. وعندما سمعت كل هذه الأشياء عنك، قررت أمرا من اثنين: إما أنك الله وقد نزلت من السماء لتصنع هذه الأمور، أو أنك ابن الله إذ تصنع هذه الأمور. لهذا السبب، كتبت أستعطفك لكي تسرع إلي وتشفيني من الآلام التي أعانيها. علاوة على ذلك، سمعت أن اليهود يستهزئون بك ويودون أن يؤذوك. ولكنني لدي مدينة صغيرة جدًا وجليلة، وهي تتسع لكلينا"، وقد رد يسوع على الملك أبجر على يد الساعي أنانياس: "مبارك أنت يا من آمنت بي دون أن تراني، لأنه مكتوب عني أن هؤلاء الذين سيرونني لن يؤمنون بي، وهؤلاء الذين لم يروني سوف يؤمنون ويحيون. والآن بشأن الأمر الذي كتبت لي بسببه، وهو أن آتي إليك،

فلا بد لي أولًا أن أكمل هنا كل الأمور التي قد أُرسلت لأكملها، وبعد هذا سوف أصعد إلى الذي أرسلني، وبعد أن أصعد سوف أرسل إليك واحدًا من تلاميذي ليشفيك من آلامك وليمنحك الحياة أنت ومن معك."

وانتشرت تلك الرسائل بين يسوع والملك أبجر في كل أنحاء الشرق، ثم وصلت إلى الغرب عن طريق الترجمة التي قام بها "روفينوس" لكتاب يوسابيوس "تاريخ الكنيسة"، ولقد جلس الملك "أبجر أوخاما" على عرش المملكة من ٤م إلى ٧م، ثم من ١٣م إلى ٥٠ م. لكن، بالرغم من ذلك كله، ليست لهذه الرسائل وجود موثق، فقد نفى أغسطينوس، في (Cont. Faust. 28: 4; Consens. Ev. 1: 7: 11)، وجود أي رسائل أصيلة بقلم يسوع، كما أن المرسوم الجلاسياني قد ذكر الرسائل محل النقاش بوصفها أبوكريفية. وهكذا لم تكن "أعمال تداوس" سوى أساطير محلية كُتبت في القرن الثالث الميلادي.

ويوجد لدينا شكل آخر من هذه الأعمال مكتوب باللغة السريانية، وهو ذلك العمل المدعو باسم "تعاليم آداي" (Doctrina Addei)، الذي نُشر عام ١٨٧٦م. ويكاد محتوى هذا العمل يكون هو نفسه محتوى "أعمال تداوس" كما سجله يوسابيوس، لكنه يورد تفصيلة واحدة جديدة، وهي أن "أنانياس"، الذي حمل رسالة الملك أبجر إلى يسوع، رسم صورة ليسوع ثم حملها إلى مليكه، وهكذا يضعها الملك أبجر في مكان شريف بالقصر. غير أن "تعاليم آداي" لا تذكر أمر الرسالة التي كتبها يسوع إلى الملك أبجر، فقد أرسل يسوع رده على رسالة الملك أبجر شفهيًا على لسان أنانياس. وربما كان الكاتب على معرفة بما قاله أغسطينوس بشأن هذه الرسائل ومن المرجح أن تكون "تعاليم آداي" قد كُتبت في حوالى عام ٤٠٠م، كما أنه لدينا ترجمة أرمنية لها وأخرى يونانية إلى جانب الأصل

السرياني.

وبالإضافة إلى أسفار الأعمال التي تناولناها، لا تزال هناك أسفار أخرى. وتنتمي معظم هذه الأسفار إلى القرنين الرابع والخامس الميلاديين، بل ويعود بعضها إلى تاريخ متأخر عن هذا. وربما يكفي في هذا الصدد أن نذكر كتاب "أعمال متى" الذي لم يبقَ منه إلا الجزء الأخير فقط، كذلك "أعمال فيليبس" و"أعمال برثلماوس". أما بالنسبة للأسفار المنسوبة إلى تلاميذ الرسل أو رفقائهم، فلدينا "أعمال برنابا الأبوكريفية" و"أعمال تيموثاوس الأبوكريفية" و"أعمال مرقس الأبوكريفية".

رابعًا: أسفار الرؤيا الأبوكريفية

هناك أيضًا، على غرار سفر "رؤيا القديس يوحنا" القانوني، أسفار رؤيوية أبوكريفية منسوبة إلى رسل آخرين. وبالرغم من أنه كان من المفترض أن يكون الأسلوب الأدبي الرؤيوي، أو أسلوب سفر الرؤيا، جذابًا على نحو خاص لكُتاب الأساطير الشعرية والروايات التهذيبية، إلا أن عدد الأسفار الرؤيوية الأبوكريفية محدود للغاية.

١. رؤيا بطرس

أهم هذه الأسفار هو "رؤيا بطرس" الذي كتب في الفترة ما بين (١٢٥م - ١٥٠م). وقد شغل هذا السفر مكانة كبيرة عند الكُتاب الكنسيين القدامى؛ فكليمندس السكندري، في: (Eus. Hist. eccl. 6: 14: 1)، يعتبره سفرًا قانونيًا، كما أنه يظهر في أقدم قائمة بأسفار العهد الجديد القانونية في الوثيقة الموراتورية، لكن مع إضافة تقول: "البعض لا يحبذون قراءته في الكنيسة".

ولقد قال يوسابيوس في كتابه "تاريخ الكنيسة" (Hist.eccl. 3: 3: 2) : "نحن لا نعرف شيئًا على الإطلاق في تقليد الكنيسة الجامعة

عن ذلك السفر المسمى بـ "رؤيا القديس بطرس"، لأنه لا يوجد كاتب أرثوذكسي واحد سواء في الماضي أو في إيامنا هذه قد استخدم الشهادات التي به." وكذلك رفض القديس جيروم، في (.De vir. Ill I)، هذا العمل باعتباره سفرا غير قانوني، لكن المؤرخ الكنسي "سوزومين" (٧: ١٩) يشير، في القرن الخامس الميلادي، إلى أن هذا السفر كان لا يزال مستخدمًا في ليتورجية يوم جمعة الصلبوت في بعض كنائس فلسطين. وقد تم العثور على شذرة كبيرة من هذا السفر في مدينة إخميم في الفترة ما بين (١٨٨٦ - ١٨٨٧م)، أما النص الكامل فقد اكتُشف عام ١٩١٠م في ترجمة إثيوبية. ويتكون محتوى السفر في معظمه من رؤى تصور جمال السماء وقبح الجحيم، فالكاتب يرسم صورة مفصلة عن فظاعة العقوبات المعرض لها الخطاة من الرجال والنساء بحسب ما تستحقه جرائمهم. ولقد أظهرت أفكار الكاتب وتصوراته تأثره بالإسخاتولوجيا الأورفية[١٩] -

---

[١٩] ترجع تسميتها إلى أسطورة أورفيوس. وأورفيوس في الأسطورة كان معروفا ببراعته في الموسيقى إلى جانب إتقانه فنون السحر والحكمة. وكان عزفه يفتن الحيوانات وغيرها من الكائنات. وقد أحب أورفيوس يوروديكى وتزوجها لكنها سرعان ما ماتت بلدغة ثعبان. وقد اعتبر أورفيوس أن ما حدث لحبيبته لم يكن عدلا، فقرّر الذهاب إلى العالم السفلي وإعادتها إلى الحياة. وكان سلاحه في تلك المغامرة هو موسيقاه التي سحر بها الأشباح وآلهة الموت. لكن أثناء عودته هو وحبيبته إلى عالم الأحياء التفت أورفيوس وراءه ليتحقق من أن يوروديكى تقتفي أثره، وكان في ذلك إخلال بالعهد الذي قطعه للإله هاديس، الأمر الذي دفع الأشباح إلى اختطاف يوروديكى وإعادتها ثانية إلى عالم الأموات. ومنذ ذلك الحين تحوّلت قصة هبوط أورفيوس إلى العالم السفلي إلى فكرة ترمز للعاشق الذي يحاول استعادة حبيبته وتخليصها من براثن الهلاك لكنه يفقدها ويفقد نفسه في النهاية نتيجة تسرّعه وحرصه المفرط. وقد ظهرت المجتمعات الأولى التي تدين بالأورفية في بلاد أتيكا ثم انتشرت في بلاد الإغريق كلها حتى جنوبي إيطاليا وصقلية. والمفهوم الأساسي للأورفية قائم على مبدأ الاثنينية، حيث تنادي بخلود الروح وسموها، وفناء الجسد ودنوه، فالروح ذات طبيعة خالدة مقدسة وتحيا حياة حقيقية بعد فناء الجسد، ولكي تحقق الروح حريتها عليها أن تدخل في دورات من التقمص والحلول في أجساد مختلفة وفقًا لاستحقاقها، ومن هنا كان الاعتقاد بالعقاب والثواب بعد الموت، وكذلك الاعتقاد بالخطيئة والحاجة إلى التكفير، وأن كل فرد يمتلك عينة من قوة الحياة تنتقل منه عند الوفاة إلى شخص آخر في دورة جديدة بين الموت والولادة. ولما كانت الروح سجينة الجسد فهي تحتاج إلى حياة نقية من الزهد والتقشف مع تحريم أكل الأغذية الحيوانية ولبس الصوف وشرب الخمر والنشاط الجنسي إلا من أجل

الفيثاغورية[٢٠] والأديان الشرقية، وربما سيكفي - للتدليل على هذه النقطة - هو أن ننظر إلى الفقرات التالية: "ثم رأيت موضعا آخر قذرًا جدًا يُقابل ذلك الموضع؛ لقد كان هذا موضعًا للعقاب. وهكذا كان الخطاة يُعاقبون، وكان الملائكة الذين يعاقبونهم يلتحفون بملابس سوداء بما يتناسب مع هواء المكان، وعُلق بعض هؤلاء من ألسنتهم، لأنهم كانوا قد نطقوا بالتجديف على طريق البر، وتحتهم كانت هناك نار تتلظى وتعذبهم. وكانت هناك بحيرة عظيمة مليئة بالطين المشتعل، وقد جلس فيها بعضٌ من الرجال الذين انحرفوا عن طريق البر؛ وقد سُلِّطت عليهم ملائكة العذاب. وكان هناك آخرون أيضًا، نسوة معلقات من شعورهن فوق الطين الذي يغلي؛ هؤلاء من كن يتزين لارتكاب الزنى. أما الرجال الذين كانوا مرتبطين بهن في نجاسة الزنى، فقد علقوا من أرجلهم في حين تدلت رؤوسهم في الطين، وهم يقولون: "لم نصدق أنه ينبغي علينا أن نأتي لهذا المكان." ثم رأيت القتلة، وهؤلاء الذين كانوا يوافقونهم، في مكان ضيق مليء بالزواحف الشريرة، وقد كانت هذه الوحوش تؤذيهم. وهكذا كانوا يتقلبون في هذا العذاب، ولقد سُلطت عليهم ديدان كمثل سُحُب

الإنجاب، ويبدو ذلك جليًا في الشعائر التي تمارس إحياء لموت أورفيوس وولادته مجددًا. [المراجع]

[٢٠] ولد هذا المفكر حوالى عام ٥٨٠ ق.م في جزيرة ساموس في بحر إيجه، باليونان، وحين بلغ السادسة عشرة من عمره بدأ يظهر نبوغه. وأسس فيثاغورس مدرسته حوالى ٥٢٩ ق.م في كروتونا، وكانت مدرسته أقرب لأن تكون فرقة دينية من أن تكون مدرسة بالمفهوم الصحيح للكلمة. كان أعضاؤها يتعارفون بإشارة سرية، ويتشاركون في تملك جميع الأشياء، كما تعاهدوا على أن يعاون بعضهم بعضًا. كان مولعًا بالرياضة وله نظرية شهيرة باسمه. ولم يكن فيثاغورس مولعًا بالأعداد والهندسة فحسب وإنما بالعلوم الأخرى المعروفة، فضلًا عن شغفه بعلوم الدين. وكانت دروس فيثاغورس تتناول درجات الحكمة الأربع: الحساب، الهندسة، الموسيقى، الفلك، وواجبات الإنسان نحو الآخرين، والدين ، وكان يفرض على طلابه ممارسة فضائل المروءة والتقوى والطاعة والإخلاص، أي كل ما كان ينادي به المجتمع الإغريقي المثالي. الحياة النقية في رأي فيثاغورس، تعني حياة التقشف. وكانت الموسيقى لدى فيثاغورس ذات أهمية بالغة. وكان تدريس فيثاغورس خليطًا من التصوف والتحليل العقلي. [المراجع]

الظلام في كثرتها ذلك في حين وقفت أنفس المقتولين تنظر إلى عذاب هؤلاء القتلة وهي تقول: "عادل هو حكمك يا رب." وقريب من هذا الموضع، رأيت مكانًا ضيقًا آخر حيث كانت تنحدر مخرجات وأقذار هؤلاء الذين كانوا تحت العذاب حتى صار هناك ما هو أشبه ببحيرة. وهناك، جلست بعض النساء مغمورات في هذا السائل حتى أعناقهن. وفي مقابلهن، جلس الكثير من الأطفال الذين ولدوا قبل ميعادهم يبكون، وقد خرجت من أعينهم أشعة من نار تضرب أولئك النسوة في أعينهن. هؤلاء هن من حملن من زواج (؟) ثم أجهضن أجنتهن."

٢. رؤيا بولس

كانت هناك عدة أسفار رؤيوية ظهرت تحت اسم الرسول بولس. وقد ذكر إبيفانيوس سفرًا غنوسيًّا بعنوان "صعود بولس" في (Haer. 38: 2)، ولكن لم يبقَ لدينا منه أي شيء. إلا إنه يوجد لدينا نص لعمل بعنوان "رؤيا بولس" في ترجمات مختلفة. وقد كُتب هذا النص باليونانية في الفترة ما بين (٢٤٠م إلى ٢٥٠م) في مصر على الأرجح. وربما سيفسر هذا سبب كونه معروفًا لأوريجينوس. ولم يبقَ لدينا أي شيء من النص الأصلي، غير أننا نملك نصًّا يونانيًّا مُنقحًا يعود إلى الفترة ما بين (٣٨٠م و ٣٨٨ م). وفي مقدمة هذه النسخة - المنقحة - يخبرنا المُقدم أن هذه الرؤيا قد وجدت أسفل منزل القديس بولس في مدينة طرسوس في فترة قنصلية "ثيودوسيوس" و"جراتيانوس".

وكان المؤرخ الكنسي "سوزومين"، الذي عاش في القرن الخامس الميلادي، على معرفة بهذا النص الأبوكريفي، لأنه يقول في كتابه "التاريخ الكنسي" (٧، ١٩): "ولا يزال معظم الرهبان يبجلون هذا العمل المعنون بـ "رؤيا بولس" الذي لم يره أحد من القدماء قط. كما أن هناك بعض الأشخاص يؤكدون أنه قد عُثر على هذا السفر

بإرشاد إلهي أثناء فترة حكم "ثيودوسيوس" في صندوق رخامي مدفون تحت التراب في بيت بولس بمدينة طرسوس كيليكية، إلا أن كاهنًا كيليكيًّا من كنيسة طرسوس أخبرني أن هذا كذب. ولقد كان هذا الكاهن رجلًا دل شعره الأشيب على كبر سنه، وقد قال لي إن مثل هذا الحدث غير معروف لديهم، وتساءل عما إذا كان الهراطقة هم من اخترعوا هذه القصة."

وإلى جانب النص اليوناني، لدينا ترجمات سريانية، وقبطية، وإثيوبية، ولاتينية. كما أن الترجمة اللاتينية، التي ترجع إلى عام ٥٠٠م، والتي نملكها في أكثر من عدد من التنقيحات، تتفوق على كل المصادر الأخرى في درجة موثوقيتها بل وتتفوق حتى على النص اليوناني المُنقح. وقد عُنونت الرؤيا في معظم المخطوطات اللاتينية بالعنوان: (Visio Pauli) أي "رؤيا بولس"، وهو الوصف الأفضل لمحتواها، لأن الكاتب يعتزم فيها أن يخبرنا عما رآه بولس في الرؤيا التي ذكرها في رسالته الثانية إلى أهل كورنثوس (١٢ : ٢).

وقد جاء فيها أن الرسول قد قبل من المسيح مهمة الكرازة بالتوبة للجنس البشري، وترفع الخليقة كلها، الشمس، والقمر، والنجوم، والمياه، والبحر، واليابسة، دعواها ضد الإنسان قائلة: "آه يا أيها السيد الرب القدير، لقد دنَّس بنو البشر اسمك القدوس." ثم يقود أحد الملائكة الرسول بولس إلى موضع الأرواح البارة؛ أرض الصديقين المشرقة، وإلى بحيرة "أخيروسا" (Acherusa) التي منها تظهر مدينة المسيح الذهبية. وبعد أن يريه الملاك تلك المدينة بالتفصيل، يأخذه الملاك إلى "نهر النار" حيث تتعذب أرواح الأشرار والخطاة. ويشبه هذا الجزء سفر "أعمال بطرس" من حيث الوصف الذي يعطيه لعذابات الجحيم، لكنه يتعدى وصف ذلك الأخير ويزيد عليه، فيورد من ضمن المحكوم عليهم رتب الإكليروس المختلفة: الأساقفة، والكهنة،

والشمامسة، وكذلك الأنواع المختلفة من الهراطقة.

والكاتب شاعر يمتلك موهبة كبيرة وقدرة على التخيل، فلا عجب إذن أنه كان لكتابه تأثير هائل في العصور الوسطى، فيشير "دانتي" إليه عندما يذكر زيارة "الوعاء المختار" إلى الجحيم في النشيد رقم (٢ : ٢٨) من الـ "Inferno" (الجحيم). أما الذي يذكره الكاتب عن الملائكة في هذا الكتاب فمثير للاهتمام. ففكرة "الملاك الحارس" مُعبر عنها هنا بوضوح: "هكذا، عند غروب الشمس، وفي الساعة الأولى من الليل، في نفس الساعة، يذهب ملاك كل شخص، كل رجل وامرأة، ذاك الذي يحميهم ويحرسهم لأنهم صورة الله. وأيضًا في ساعة دخول النهار، التي هي الساعة الثانية عشرة من الليل، يذهب ملائكة الرجال والنساء جميعهم. لكي تمثُل أمام الله، وتعرض عليه الأعمال التي عملها كل إنسان، سواء كانت صالحة أو شريرة. (James 528) فوظيفة الملائكة هي أن تعمل كمرشدة وحارسة للنفوس، خاصة عند صعودها من الأرض إلى السماء بعد الموت. كما أن مهام الملاك ميخائيل كمرشد تذكرنا بالصلاة التي تتلى عند جمع الصدقات من المصلين أثناء القداس الذي يقام من أجل راحة نفس الميت والمذكورة في كتاب القداس الخاص بالكنيسة الكاثوليكية الرومانية: "ثم جاء صوت الله قائلًا: كما أن تلك النفس لم تحزني، أنا أيضًا لن أحزنها.. سلموها إذن إلى ميخائيل، ملاك العهد، واسمحوا له أن يقودها إلى فردوس الفرح، حتى تصبح وارثة مع القديسين." (James 532). أما النظير المقابل لميخائيل كمرشد للنفوس فهو "تارتاروس" (Tartarus) (فصل ١٨): "ثم سمعت صوتًا يقول: سلموا النفس لتارتاروس، وعليه أن يهبط بها إلى الجحيم." (James 535)

علاوة على ذلك، نجد أنه من المثير للاهتمام أننا نتقابل هنا مع

فكرة تخفيف عقوبة المعذبين في الجحيم في يوم الأحد: "والآن، ولأجل ميخائيل رئيس ملائكة عهدي والملائكة الذين معه، ولأجل بولس حبيبي الأثير، ولأجل إخوتكم الذين في العالم الذين يقدمون القرابين، ولأجل أولادكم لأن فيهم وصاياي، وبالأكثر لأجل صلاحي، سوف أمنحكم جميعًا وإلى الأبد، يا أيها المعذبون في الجحيم، راحة لمدة يوم وليلة، - وذلك - في اليوم الذي قمت فيه من بين الأموات."

٣. رؤيا إستيفانوس

أدان "المرسوم الجلاسياني" سفر "رؤيا بولس" مع سفرين رؤيويين آخرين، هما "رؤيا إستيفانوس" و"رؤيا يوحنا". أما بخصوص "رؤيا إستيفانوس" فلا توجد لدينا أية معلومات، ومن الممكن أن يكون المرسوم الجلاسياني هنا يقصد قصة العثور على رفات القديس إستيفانوس وإعادة اكتشافه التي ألفها القس "لوقيان" اليوناني حوالى عام ٤١٥م.

٤. رؤيا توما

كُتب سفر "رؤيا توما" سنة ٤٠٠م باليونانية أو باللاتينية، ويعتنق كاتبه آراء غنوسية مانوية. ولم يكن هذا العمل قد اكتُشف حتى عام ١٩٠٧م حينما عثر عليه في مخطوطة بمدينة "ميونخ"، وفيها نجد أن هذه الرؤيا تأتي تحت العنوان: "Christi ad Thomam Discipulum Epistola Domini Nostri Jesu"، وأيضًا نمتلك ترجمة إنجليزية قديمة لهذه الرؤيا في عظة مسجلة في مخطوطة (أنجلو - ساكسونية) بمدينة "فيرسيلي"، وهناك إشارات إلى أن اللغة الأصلية التي كُتبت بها هذه الرؤيا من المحتمل أن تكون اليونانية.

ويتألف محتوى هذا السفر من عدة إعلانات أعطاها الرب للرسول توما تتعلق بما سيحدث في الأيام الأخيرة، وعلامات نهاية العالم

الوشيكة تمتد هنا على فترة طولها سبعة أيام. ولقد استخدم أتباع "بريسكيليان"[٢١] هذا السفر، كما أنه كان معروفًا في إنجلترا في القرن التاسع الميلادي على أقل تقدير.

٥. رؤيا القديس يوحنا

حتى الرسول يوحنا صاحب سفر الرؤيا القانوني نُسبت إليه عدة أسفار رؤيوية. ولقد قام كل من (C . Tischendorf) و (A. Birch) بنشر إحداها، وهو يحتوي على سلسلة من الأسئلة والأجوبة التي تتعلق بنهاية العالم، ووصف لضد المسيح كثيرًا ما يحذو حذو سفر الرؤيا القانوني. وهناك سفر آخر باسم "رؤيا القديس يوحنا" قام بتحريره (F. Nau) من مخطوطة بمدينة باريس (Paris. graec. 947)، وهنا يوجه القديس يوحنا أسئلة للرب تتعلق بالاحتفال بيوم الأحد، والصوم، والعبادة، وتعاليم الكنيسة.

٦. رؤيا العذراء

يعود تاريخ كتابة سفر "رؤيا العذراء" إلى حقبة متأخرة، وفيه تتلقى العذراء استعلانات بخصوص عذابات الجحيم وتتشفع من أجل المحكوم عليهم بالعذاب. ولدينا منه عدة نصوص باقية باللغتين اليونانية والإثيوبية قام بنشرها كل من: (C. Tischendorf)

---

[٢١] كان بريسكيليان علمانيًا؛ وبدأ ينادي في أسبانيا حوالى عام (٣٧٠-٣٧٥م) بعقيدة نسكية عنيفة، وامتد نشاطه حتى جنوب فرنسا، وتبعته جماعة سُميت بالبريسكيليانيين، وهي تنتمي إلى الغنوسية؛ وكانت تعتقد بأن هناك فرقًا بين إله العهد القديم وإله العهد الجديد، وتعتقد بالنظرة الثنائية (الخير والشر)؛ وأن جسد السيد المسيح ليس حقيقيًا، وقد نبعت أفكارهم النسكية العنيفة نيجة إيمانهم بأن المادة شر بطبيعتها، وقد حرموا الزواج، وكانوا يمارسون السحر ويهتمون بالفلك، وقد أدينت تعاليم بريسكيليان في مجمع ساراجوسا وحُكِم عليه وعلى قادة جماعته بالقطع من الشركة، ولكن الإمبراطور جراتيان أصدر مرسومًا بإعادتهم إلى كنائسهم وكراسيهم، وقد حكم على بريسكيليان بالموت بواسطة مجلس كنسي إمبراطوري في تريف حوالى عام (٤٨٣م)، وهو يعد أول هرطوقي حكم عليه بالموت. وأدينت البريسكيليانية في مجمع توليدو (٤٤٧م)، وعدة مجامع أخرى آخرها كان مجمع براجا عام (٥٦٣م). [المراجع]

و (A. Vasiliev) و (M. Chaine) و (M. R. James).

خامسًا: رسائل الرسل الأبوكريفية

١. رسالة الرسل

إن "رسالة الرسل" هي أهم الرسائل الأبوكريفية وأقيمها من الناحية التاريخية، وقد نشرت لأول مرة عام ١٩١٩م. وكُتبت هذه الرسالة الموجهة إلى "الكنائس شرقًا وغربًا، شمالاً وجنوبًا" في آسيا الصغرى أو مصر. وبحسب (C. Schmidt)، يعود تاريخ كتابة هذه الرسالة إلى الفترة ما بين ١٦٠م إلى ١٧٠م، ولكن (A. Ehrhard) يرجعها إلى الفترة ما بين ١٣٠م إلى ١٤٠م، إلا أن الدلائل الموجودة بالنص تُشير إلى أنها قد كُتبت في الفترة ما بين ١٤٠م إلى ١٦٠م. ولم يبقَ لدينا أي شيء من النص اليوناني الأصلي، ولكننا نمتلك جزءًا من ترجمة قبطية اكتشفت عام ١٨٩٥م في القاهرة، وترجمة إثيوبية كاملة نشرت عام ١٩١٣م، ولدينا أيضًا بعض الشذرات من ترجمة لاتينية. ولقد قام (C. Shmidt) عام ١٩١٩م بتحرير نسخة نقدية من هذه الرسالة مُستخدمًا هذه المصادر.

ويتألف الجزء الرئيس من هذه الرسالة من إعلانات يكشفها الرب لتلاميذه بعد قيامته. وتشتمل المقدمة على اعتراف بالمسيح وملخص لمعجزاته، والخاتمة عبارة عن وصف للصعود. وتقتصر الصيغة الرسائلية على الجزء الأول فقط؛ لهذا يُعتبر العمل بأكمله عملاً رؤيويًا أكثر منه رسالة، إنه نموذج للأدب الديني الشعبي غير الرسمي. ويبني المؤلف أفكاره في الأساس على العهد الجديد، فلغته ومفاهيمه متأثرة بإنجيل القديس يوحنا، كما أن روايته لحادثة القيامة مجمَّعة من روايات الأناجيل الأربعة القانونية، وإضافة إلى هذه المصادر، استخدم المؤلف "رؤيا بطرس"، و "رسالة برنابا" و "راعي هرماس".

ومن جهة الفكر اللاهوتي للرسالة، فالرسالة واضحة جدًا في شأن طبيعتي المسيح[٢٢]، فالمسيح فيها يقول عن نفسه: "أنا غير مولود و لكني ولدت من الجنس البشري، أنا عديم الجسد ولكني ولدت في الجسد." (فصل ٢١) كما أنها تذكر أيضًا عقيدة تجسد الكلمة بكل وضوح: "نحن نؤمن بالرب الإله ابن الله، وأنه هو الكلمة الذي صار جسدًا. ونؤمن أنه أخذ جسدًا من العذراء مريم مولودًا من الروح القدس، لا بمشيئة جسد، لكن بمشيئة الله. ونؤمن أنه قد قُمط في لفائف بمدينة بيت لحم، وظهر للناس وكبر حتى بلغ سن الرشد." (فصل ٣) غير أنه، في فقرة أخرى، يأتي ذكر الملاك جبرائيل باعتباره تشخيصًا للوغوس، فالرسالة تقدمه وهو يقول: "في ذلك اليوم الذي أخذت فيه شكل الملاك جبرائيل، ظهرت لمريم وتكلمت معها. وقد قبلني قلبها، وآمنت، ثم شكلت نفسي ودخلت إلى جسدها. لقد صرت جسدًا لأني أنا وحدي كنت خادما لنفسي في ذلك الأمر الذي استرعى انتباه مريم، عند الظهور في هيئة ملاك."

ومن ناحية أخرى، تساوي الرسالة بين ألوهية اللوجوس وألوهية الآب: "فقلنا له: يا رب، هل من الممكن أن تكون هنا وهناك في الوقت نفسه؟ لكنه أجابنا قائلًا: أنا كلي في الآب والآب فيَّ، لأنني أشبهه في الشكل، والقدرة، والملء، والنور، والقياس الكامل، والصوت. أنا هو الكلمة."

وبالرغم من وجود بعض طرق التفكير الغنوسية بالرسالة، إلا أن بها ميلًا واضحًا مضادًا للغنوسية. فبداية، تشير الرسالة إلى سيمون (الساحر) و كيرنثوس باعتبارهما "الرسولين الكاذبين اللذين كُتب عنهما أنه لا ينبغي لإنسان أن يتعلق بهما، لأن بهما يكمن الخداع

[٢٢] مرة أخرى يظهر هنا تأثر المؤلف بخلفيته الكاثوليكية الخلقيدونية والتي يقحمها في الحديث كلما تهيأت له الفرصة لذلك، فالنص الذي أورده هنا لا يتحدث عن طبيعتين للمسيح ولكنه يتحدث عن أقنوم الابن قبل التجسد وفي التجسد. [المراجع]

الذي به يقودان الإنسان إلى التهلكة". ويمكننا أن نرى نفس هذا الميل المضاد للغنوسية في تشديد الكاتب على عقيدة قيامة الأجساد. وتُطلق الرسالة على القيامة اسم "الولادة الثانية" و"الثوب الذي لن يبلى". (فصل ٢١) كما أنه كلما جاء الحديث عن نهاية العالم، لا تشير الرسالة أدنى إشارة إلى وجهة النظر الألفية (الاعتقاد بالملك الألفي)، وقد ورد في الوصف المعطى فيها ليوم الدينونة أن الجسد سيُدان مع النفس والروح، ثم سينقسم الجنس البشري بعد هذا إلى قسمين "سينال القسم الأول الراحة في السماء، وسيُعاقب من ينتمون إلى القسم الثاني إلى الأبد إلا أنهم سيبقون أحياء." (فصل ٢٢)

والرسالة مهمة أيضًا بالنسبة لتاريخ الليتورجيا، فهي تحتوي على قانون إيمان قصير يذكر، إلى جانب الأقانيم الإلهية الثلاثة، كلٍّ من الكنيسة المقدسة والمعمودية التي تعطى لمغفرة الخطايا باعتبارهما بندين من بنود الإيمان (فصل ٥). كذلك تُعتبر المعمودية بمثابة شرط لنوال الخلاص، فلا يمكن لأحد أن يكون في غنى منها، لهذا نزل المسيح إلى الجحيم ليعمد الأبرار والأنبياء: "ثم سكبت عليهم بيدي اليمنى ماء الحياة والغفران والخلاص من كل شر، بالضبط كما فعلت معكم أنتم ومع هؤلاء الذين آمنوا بي." (فصل ٢٧) وهنا يظهر الكاتب أنه على معرفة بسفر "راعي هرماس" الذي يحتوي على نفس التفسير لسبب نزول المسيح إلى الجحيم. ومن ناحية أخرى، ليست المعمودية وحدها بكافية للخلاص: "لكن أي إنسان يؤمن بي ولكنه لا يحفظ وصاياي، فلن ينتفع شيئًا من هذا بالرغم من اعترافه باسمي، لكنه يركض في سباق لا طائل منه. لأن مثل هؤلاء سيجدون أنفسهم في خسارة وخراب." (فصل ٢٧)

ويطلق على الاحتفال بالإفخارستيا في تلك الرسالة اسم "البصخة"، وهو يرد هنا باعتباره تذكارًا لموت يسوع. كما أنه لا تزال وليمة

الأغابي والإفخارستيا تُقامان معًا، وها هو نص هذه الفقرة القيمة (فصل ١٥): "لكنكم تتذكرون موتي. والآن عندما تحل البصخة، سوف يُلقى واحد منكم في السجن لأجل اسمي، وسوف يكون في حزن وضيق لأنكم تقيمون البصخة بينما هو في السجن منفصل عنكم... وسوف أرسل قوتي في هيئة ملاكي جبرائيل وستنفتح أبواب السجن، وسيخرج منه ويسهر الليل معكم حتى يصيح الديك. وعندما تُكملون التذكار الذي تصنعون لي، ومائدة الأغابي، سوف يُطرح مرة أخرى في السجن ليشهد لي وذلك إلى أن يحين الوقت ليخرج من هناك ويكرز بما قد سلمته إليكم. فقلنا له: يا رب، هل سيلزم حينئذ أن نأخذ الكأس ونشرب منه؟ فقال لنا: نعم، إنه أمر لازم حتى يأتي اليوم الذي سآتي فيه ثانية مع هؤلاء الذين قُتلوا لأجلي."

٢. رسائل بولس الأبوكريفية

جاء في رسائل القديس بولس القانونية ذكر عدة رسائل لم ترد في قائمة أسفار العهد الجديد القانونية، ومن الواضح أنها قد فُقدت، لذا ظهرت الرسائل الأبوكريفية المنسوبة إلى القديس بولس لتحل محلها.

(أ) يشير القديس بولس في رسالته إلى أهل كولوسي (٤ : ١٦) إلى رسالة كان قد كتبها إلى اللاودكيين، وهذه الإشارة قد أتاحت الفرصة لتظهر "الرسالة إلى اللاودكيين الأبوكريفية". ويقلد محتوى هذه الرسالة رسائل القديس بولس الأصلية وينتحل أسلوبها، خاصة الرسالة إلى أهل فيلبي، فبعد أن يعرب الكاتب عن فرحه بإيمان اللاودكيين وفضائلهم، يحذرهم من الهراطقة، ويحضهم على أن يظلوا مخلصين للعقيدة المسيحية والمفهوم المسيحي للحياة كما علمهم الرسول. وتزعم الرسالة أنها قد كُتبت من السجن، ولا يمكننا أن نحدد تاريخ كتابتها من محتواها. وصحيح أن الوثيقة

الموراتورية تذكر رسالة إلى اللاودكيين باعتبارها رسالة منحولة قد زيفت لتدعم هرطقة ماركيون، لكن رأي هرناك القائل بأن هذه هي نفسها "الرسالة إلى اللاودكيين الأبوكريفية" التي بين أيدينا اليوم لم يلق قبولاً من الدارسين. وبالرغم من أن هناك احتمالاً أن تكون هذه الرسالة قد كُتبت باليونانية، إلا أنه ليس لدينا لها حتى الآن إلا نص لاتيني، أما أقدم مخطوطة لها في حوزتنا فهي مخطوطة (Codex fuldensis) المملوكة للأسقف فيكتور أسقف "كابوا" (Capua)، والتي كُتبت عام ٥٤٦م. ولا يعود زمن كتابة هذه الرسالة إلى ما قبل القرن الرابع الميلادي، لأن الكتاب الكنسيين بدأوا يذكرونها منذ ذاك الوقت فصاعدًا. ولقد اعتمد كل ما في حوزتنا من ترجمات لهذه الرسالة على النص اللاتيني، كما أنها قد أُدخلت في عدد من الكتب المقدسة المكتوبة في إنجلترا.

(ب) تذكر الوثيقة الموراتورية إلى جانب "الرسالة إلى اللاودكيين" رسالة ماركيونية بعنوان "الرسالة إلى السكندريين" وقد فُقدت.

(ج) وردت في السفر المعروف بـ "أعمال بولس الأبوكريفية" رسالة بعنوان "الرسالة الثالثة إلى أهل كورنثوس". ومن المفترض أن تلك الرسالة قد كُتبت كرد على رسالة أرسلها أهل كورنثوس إلى بولس يبلغونه فيها بأمر شخصين هرطوقيين، هما سيمون وكليوبيس، هذان اللذان يحاولان أن "يقلبا الإيمان" بالتعاليم التالية: "إنهما يقولان إنه ينبغي علينا ألا نستخدم ـ كتابات ـ الأنبياء، وإن الله ليس بقدير، وإنه لا توجد قيامة للجسد، وإن الله لم يخلق الإنسان، وإن المسيح لم يأت في الجسد، وإنه لم يولد من مريم، وإن العالم ليس من الله بل من الملائكة." (James 289) إذًا، سيكون محتوى إجابة بولس على هذه الأسئلة على قدر كبير من الأهمية، لأنها تتناول مواضيع مثل خلق العالم والجنس البشري، وخالقهما، والتجسد، وقيامة الأجساد.

ولقد وجدت كل من الرسالة التي أرسلها أهل كورنثوس إلى بولس، والرسالة التي رد فيها بولس عليهم من سجنه في فيلبي، مكانًا في المجموعة السريانية للرسائل البولسية، كما أنه كان هناك زمن اعتُبرت فيه هاتان الرسالتان موضعًا للثقة وذلك في الكنيسة الأرمنية والكنيسة السريانية. كما يوجد أيضًا ترجمة لاتينية لهما تعود إلى فترة مبكرة كالقرن الثالث الميلادي.

(د) المراسلات بين بولس وسينيكا: هي مجموعة مكونة من ثماني رسائل أرسلها الفيلسوف الروماني "سينيكا" إلى القديس بولس بالإضافة إلى ستة ردود قصيرة من الرسول عليها، ولقد كُتبت باللاتينية ليس بعد القرن الثالث الميلادي. ويشهد القديس جيروم، في (de vir. Illus. 12)، أن تلك الرسائل كان "الكثيرون يقرأونها". ويكتُب سينيكا إلى الرسول ليخبره أن محتوى رسائله قد أثَّرت فيه كثيرًا: "لأن الروح القدس، الذي فيك والذي يعلوك، هو الذي ينطق بهذه الأفكار السامية والمثيرة للإعجاب." لكن الفيلسوف لا يعجبه الأسلوب الأدبي الرديء الذي كتب به بولس رسائله، لذا نصحه قائلًا: "لذلك، سوف ألفت انتباهك إلى بعض النقاط الأخرى، حتى لا تفتقد عظمة الأفكار إلى براعة الأسلوب الأدبي." (Ep. 7). ومن الواضح أن هذه المراسلات قد لُفقت بهدف معين، فالكاتب كان يريد أن تُقرأ رسائل بولس الأصيلة في الدوائر الاجتماعية الرومانية بغض النظر عن عيوبها الأدبية، "لأن الآلهة دائمًا ما تتكلم بأفواه البسطاء، لا بأفواه هؤلاء الذين يحاولون بخداع أن يعرضوا علينا ما يمكنهم أن يفعلوه مستخدمين معرفتهم."

٣. الرسائل الأبوكريفية المنسوبة لتلاميذ بولس

(أ) رسالة برنابا (وقد تحدثنا عنها سابقًا)

(ب) النص المعروف بـ "Epistola titi Discipuli Pauli, de Dispositione Sanctimonii"، ولقد نشر (De Bruyne) هذا النص الأبوكريفي اللاتيني لأول مرة عام ١٩٢٥، وهو ليس برسالة لكنه عبارة عن خطبة عن البتولية موجهة إلى النساك من الجنسين. وهي تُقاوم مساوئ الحياة المُشتركة بين النُساك من الجنسين تحت سقف واحد. ولهذه الخطبة علاقة قريبة بالكتاب المنحول المنسوب إلى كبريانوس والمُعنون بـ "de singularitate clericorum"، والذي استخدمه الكاتب. ولقد نشأ هذا النص، على الأرجح، في دوائر البريسكيليانيين بأسبانيا، ويبدو أن لغته الأصلية كانت اليونانية.

الفصل الرابع

بدايات الشعر المسيحي

١. الترانيم المسيحية الأولى

كانت الترانيم واحدة من أهم عناصر العبادة المسيحية منذ بدايتها، فقد لعبت المزامير وتراتيل العهد القديم في الترجمة السبعينية دورًا هامًا في الليتورجية المسيحية المبكرة. ولكن المسيحيين أيضًا قد صاغوا منذ وقت مبكر تراتيل مماثلة من تأليفهم، فيذكر بولس الرسول في (كو ٣: ١٦) المزامير والتسابيح والأغاني الروحية.

ويحتوي العهد الجديد على عدد من هذه التراتيل، منها على سبيل المثال: تسبحة "تعظم نفسي الرب" (لو ١: ٤٦)؛ وتسبحة "مبارك الرب إله إسرائيل" (لو ١: ٦٨)؛ وتسبحة "المجد لله في الأعالي" (لو ٢: ١٤)؛ وتسبحة "الآن تطلق عبدك بسلام" (لو ٢: ٢٩)، تلك التي لا تزال مستخدمة في عبادة الكنيسة. وكذلك يتكلم سفر رؤيا يوحنا اللاهوتي عن "ترنيمة جديدة" (رؤ ٥: ٩) يرنمها الأبرار في تمجيد الحمل، ومن الممكن هنا أن يكون الكاتب قد استوحى هذا من العبادة الكنسية في زمانه، فإن كان هذا صحيحًا، فهو إذن يمثل العبادة السمائية باعتبارها صدى العبادة الليتورجية هنا على الأرض. وبالإضافة إلى هذه "الترنيمة الجديدة" هناك عدة تراتيل قصيرة في هذا السفر تعطينا فكرة عن طبيعة التراتيل المسيحية المبكرة ومحتواها (رؤ ١: ٤ ـ ٧، ٨ ـ ١١.. إلخ). وبالطبع لم تكن هذه التراتيل تنتمي إلى ما يعتبره اليونانيون شعرًا، حيث إنها لا تتبع وزنا شعريًا منتظمًا. ولقد كُتبت تلك الترانيم بلغة احتفالية فخيمة وجُمل متوازية، لكنها مع ذلك كانت نثرية. إلا أنه في القرن الثاني الميلادي، قام الغنوسيون، الذين كانوا على اتصال بالأدب الهيلّيني، بتأليف عدد ضخم من التراتيل الموزونة شعريًا لينشروا عقائدهم الخاصة. ونجد الكثير من تلك التراتيل في أسفار أعمال الرسل الأبوكريفية، نذكر منها على

سبيل المثال الترتيلتين اللتين ذكرناهما من قبل: ترتيلة "النفس" التي وردت في "أعمال توما" والترتيلة التي رتلها المسيح مع رسله في "أعمال يوحنا"، أما أفضل مثال على هذه التراتيل الغنوسية فهي ترتيلة جماعة "الناسيين" (The Naassenes) التي سجلها هيبوليتوس في (philos. 5: 10: 2).

ولم تكن مجرد محض صدفة أن يقوم كليمندس السكندري، الذي حاول التوفيق بين المسيحية والثقافة اليونانية وناضل في سبيل غنوسية[1] صحيحة، بتأليف ترتيلة موزونة تكريمًا للمسيح. ويمكننا أن نجد تلك الترتيلة الموجهة إلى المسيح المخلص في خاتمة كتابه "المُربي"، وكليمندس يمجد المسيح هنا باعتباره: "ملك القديسين، كلمة الآب القدير، الرب الأعلى، رأس الحكمة ورئيسها، المعزي من كل حزن، ملك كل زمان ومكان، يسوع، مخلص جنسنا." (ANF 11: 296)

وتعود ترتيلة المساء الشهيرة (ΦΩΣ ΙΛΑΡΟΝ)، "أيها النور البهي" التي لا تزال مستخدمة في الخدمة المسائية، وليتورجية "القداسات السابق تقديسها"[2] بالكنيسة اليونانية، إلى القرن الثاني الميلادي: "أيها النور البهي، الذي للمجد المقدس الذي للآب الأبدي، يا يسوع المسيح، ها بعد أن بلغنا وقت غروب الشمس، ونظرنا أنوار المساء، نمجد الآب والابن، وروح الله القدوس، ينبغي علينا أن نمجدك، في كل الأوقات بترانيم مقدسة، يا ابن الله معطي الحياة لهذا يمجدك العالم." (ANF 2: 298)

---

[1] كلمة "غنوسية" هنا لا تعني الهرطقة الغنوسية ولكنها تأتي بمعناها اللغوي أي "المعرفة" الصحيحة. [المراجع]

[2] هي خدمة تناول القدسات التي تم تقديسها وتكريسها في قداس سابق عند الكنيسة البيزنطية، لأن هناك بعض الأيام المحددة يرون أنه لا يجب ليتورجيًا أن يتم فيها إقامة قداس. [المراجع]

وفي عام ١٩٢٢م عُثر في "أوكسيرنخوس"[٣] (Oxyrhynchos) على شذرة تحتوي على ترتيلة مسيحية والعلامات الموسيقية الخاصة بها (Oxyrh. Pap. Vol. XV, no. 1786). ويبدو أن تلك الترتيلة تعود إلى نهاية القرن الثالث الميلادي، ولم يبق منها إلا كلمات قليلة هي: "لا يجدر بكل مخلوقات الله المجيدة أن تبقى صامتة وأن تغلبها النجوم اللامعة ... ينبغي على مياة الجداول ذات الحفيف أن تُمجد الآب والابن والروح القدس."

ويذكر يوسابيوس القيصري في كتابه "تاريخ الكنيسة" (٧: ٣٠: ١٠) أن بولس الساموساطي[٤] قد اتُّهِمَ بأنه قد أبطل التراتيل الموجهة ليسوع المسيح بحجة أنها حديثة وأن مؤلفيها رجال حديثون. وقد كانت هناك تراتيل أكثر وأكثر تُرتل حتى في المنازل لكي تحل محل التراتيل الموجهة إلى الآلهة الوثنية. وهكذا لعبت التراتيل دورًا مهمًا ليس فقط في تطور الليتورجيا المسيحية، ولكن أيضًا في تطعيم الثقافة المحيطة بأفكار مسيحية.

٢. أناشيد سليمان

تُعد هذه الأناشيد أهم اكتشاف في مجال الأدب المسيحي المبكر منذ اكتشاف الديداخي. ولقد عثر عليها "ريندل هاريس" (Rendel

---

[٣] تقع آثار هذه المدينة غرب مجرى نهر النيل، على مسافة نحو مائة وستين كيلومترًا من جنوب غرب القاهرة بمصر العليا، على قناة يوسف المعروفة باسم (بحر يوسف) بالقرب من مدينة البهنسا الحالية. انظر الأب بولا ساويرس، التاريخ الرهباني في أواخر القرن الرابع الميلادي، مركز باناريون للتراث الآبائي، ٢٠١٣م. ص١٠٦، ٢١٧. [المراجع]

[٤] أصبح أسقفًا لأنطاكية سنة ٢٦٠م عن طريق المكر والدهاء، لم يكن له استقامة الفكر والإيمان. ادعى بولس الساموساطي بأن العذراء ولدت يسوع الإنسان ثم حلَّ عليه كلمة الله عند ولادته فصار إلهًا وعند آلامه فارقه كلمة الله. ونادى بأن للمسيح أقنومين، وهو يمثل ابنين لله، أحدهما بالطبيعة (كلمة الله) والآخر بالتبني (يسوع). وأنكر بولس الساموساطي أقنومية شخص اللوغوس وشخص الروح القدس في الثالوث القدوس إنما هما مجرد قوى من قوى الله مثل قوى العقل والفكر بالنسبة للإنسان. وبسبب انحرافاته الإيمانية عُقِد له مجمع في أنطاكية سنة ٢٦٨م أو ٢٦٩م وحكم بإدانته. [المراجع]

Harres) أثناء بحثه في مخطوطة سريانية عام ١٩٠٥م. وبالرغم من أنها قد نُشرت منذ وقت طويل (عام ١٩٠٩م)، إلا أنها منذ ذلك الحين لم تستطع كل المحاولات التي بُذلت تحديد هويتها بدقة. صحيح أن بعض هذه الأناشيد الإثنين والأربعين تُفصح عن أفكار غنوسية[٥]؛ إلا أنه لا يمكننا أن نصفها، ونحن متأكدون تمامًا، بأنها "كتاب التراتيل الخاص بالجماعات الغنوسية"، حيث إنها تفتقد إلى الثنائية الغنوسية[٦]. أما الأمر الذي يصعب الدفاع عنه بالأكثر، فهي الفكرة القائلة بأن هذه الأناشيد في شكلها الأصلي هي يهودية صرفة ولكنَّ هناك شخصًا مسيحيًا قد ألحق بها الكثير من الإضافات حوالى عام ١٠٠م. ولقد أعطى ـ المؤمنون بهذه الفكرة ـ سببين لاعتبار أناشيد سليمان أناشيد يهودية:

(أ) في المخطوطة التي لدينا، وجدت هذه الأناشيد في تجاور مع "مزامير سليمان" (Psalms of Solomon) التي تعج قطعًا بالأفكار اليهودية.

(ب) البرهان الثاني لغوي، فمؤلف "أناشيد سليمان" يستخدم أسلوبًا مميزًا يذكرنا بقوة بالعهد القديم؛ فالجمل المتوازية، والأمثال، والرموز مُستخدمة بكثرة. لكن هذه الصفات يمكنها أن تفسَّر بسهولة على أساس الحقيقة القائلة بأنه من الواضح أن المؤلف قصد أن يقلد أسلوب المزامير ولغتها.

أما وحدة الأسلوب الأدبي التي تُظهرها تلك الأناشيد فهي برهان قاطع ضد أي فرضية بأنها ذات أصل يهودي مع إضافات مسيحية؛ إذ لا بد أن تكون من عمل مؤلف واحد بالرغم من أننا نجهل هويته. ولقد رُفضت الفكرة التي ترجح بارديصان كمؤلف،

---

[٥] انظر نشيد ١٩ ونشيد ٣٥.

[٦] أنظر نشيد ٧: ٢٠؛ ١٦: ١٠.

كذلك لا يمكننا أن ننسب تلك الأناشيد لإفراهاط الفارسي[7] أو إفرام السرياني[8]؛ هذا بالإضافة إلى أن التلميحات الكثيرة إلى عقيدة المعمودية وطقوسها لا يمكننا بسهولة أن تثبت أنها كانت ترانيمَ للمعمدين. وكذلك لا توجد أسباب مقنعة تجعلنا نفترض أن تلك الأناشيد تعود إلى أصل مونتاني، فهي على الأرجح تُعبر حقيقة عن إيمان المسيحية الشرقية وآمالها. وهذا لا ينفي احتمالية أن تكون العناصر الأسطورية والفلسفة اليونانية قد أثرت على المؤلف إلى حد ما. وهناك إشارات قوية تدل على أن هذه الأناشيد قد كُتبت في القرن

---

[7] وُلد في أواخر القرن الثالث أو بداية القرن الرابع الميلادي ببلاد فارس، وكان والداه من سلالة المجوس عبدة الأوثان، أما هو فمنذ صبوته لم يسترح لفكر آبائه وحياتهم المملوءة بالرجاسات. والتقى وهو في سن الرشد ببعض المسيحيين، وتلامس مع محبتهم ووداعتهم وعفتهم فسألهم عن إيمانهم، فتحدثوا معه عن محبة الله الفائقة وعمله الخلاصي فقبل الإيمان بفرحٍ شديدٍ واعتمد. وقد دُعي يعقوب إما في عماده أو رهبنته أو سيامته أسقفًا، مما سبب خلطًا بينه وبين يعقوب من نصيبين المتوفى سنة ٣٣٨م. ورأى أفراهاط أن يترك بلده ويذهب إلى أديسا (الرُها) فيما بين النهرين ليتشدد بإيمان المسيحيين هناك. وإذ كان يميل لحياة الوحدة سكن في مكان قريب من المدينة، يمارس حياة العبادة النسكية، ففاحت فيه رائحة المسيح الذكية وجاء الكثيرون يسترشدون به ويطلبون صلواته. بعد فترةٍ ذهب إلى أنطاكية وقاوم الأريوسية. ويبدو أنه كان أسقفًا، كما يظهر من حديثه الذي وجهه إلى الرعاة (مقال ١٤)، وعرضه للإيمان في مقالاته كما كان يفعل الأساقفة في ذلك الحين. وقد عاصر بعض الاضطهادات الشديدة في عصر أنثيموس والي أنطاكية، والملك فالنس، وتنيح عام ٣٤٥م، وتعيد له الكنيسة اليونانية في ٢٩يناير، والكنيسة اللاتينية في ٧ إبريل (انظر القمص تادرس يعقوب ملطي، القديس آفرهاط. كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس باسبورتنج، ٢٠٠٣). [المراجع]

[8] وُلد حوالى عام ٣٠٦ م. في مدينة نصيبين إحدى بلاد ما بين النهرين من أبوين مسيحيين. وقد التصق بالقديس مار يعقوب أسقف نصيبين، ويقال إنه صحبه معه في مجمع نيقية عام ٣٢٥م. وبعد موت مار يعقوب بقي مار إفرام ملتصقًا بثلاثة الأساقفة خلفائه على الكرسي، ربما كرئيس للمدرسة التابعة للكرسي. وقد تظاهر بالجنون في بعض الأوقات ليهرب من الأسقفية حينما حاول القديس باسيليوس سيامته أسقفًا على أحد أقاليم إيبارشيته. وكانت دموعه لم تجف قط حتى حسبها القديس غريغوريوس أسقف نيصص ظاهرة طبيعية كما لا يتوقف التنفس في حياة الإنسان. وكانت محبته الفائقة للفقراء وحنوه وشبعه الروحي يعطي لشخصيته جاذبية عجيبة، حتى قال القديس غريغوريوس النيصي عنه إنه شابه الملائكة الذين بلا جسم مادي وبلا همّ في حياتهم! وقد أغنى المكتبة المسيحية بكتاباته المنظومة شعرًا وأيضًا المنثورة، وهي لا تقل عن ثلاثة ملايين من الأسطر، ضمت شرحًا للأسفار المقدسة كلها، وموضوعات الجدل الديني، وبعض مقالات ورسائل مع ميامر وتسابيح، وقد فقد بعضها. [المراجع]

الثاني الميلادي، في النصف الأول منه على الأرجح، ولغتها الأصلية هي بالتأكيد اليونانية، لا العبرية ولا الآرامية، ولا السريانية. وقد اكتشف "بوركيت" (Burkitt) مخطوطة أخرى لهذه الأناشيد تعود إلى القرن العاشر الميلادي ضمن المجموعة النيترية (Nitrian Collection) الموجودة بالمتحف البريطاني (Add .14538). وتحتوي هذه الوثيقة على قدر من تلك الأناشيد أقل من الموجود بالمخطوطة التي نشرها "ريندل هاريس"، فهي تحتوي على أناشيد سليمان بداية من النشيد (١٧ : ٧) إلى النهاية. ولقد كان كل ما نعرفه عن أناشيد سليمان حتى العام ١٩٠٩ ، هو التالي:

(أ) يقتبس لاكتانتيوس[٩] في (Instit IV, 12,3) اقتباسًا واحدًا منها هو (نشيد ١٩ ، ٦) .

(ب) ذُكر في النص المنحول باسم أثناسيوس "Synopsis Sacrae Scripturae" ملخص الكتاب المقدس، وهو عبارة عن قائمة بالأسفار المقدسة تعود للقرن السادس الميلادي مع سرد لأسفار العهد القديم القانونية، وفيها نقرأ التالي: "هناك أيضًا أسفار أخرى تنتمي للعهد القديم، وهي لا تُعتبر قانونية ولكنها تُقرأ للموعوظين ... المكابيين ... مزامير سليمان وتراتيله .. [قصة] سوسنة".

(ج) كذلك هناك قائمة بالأسفار الكتابية في ـ العمل المعنون بـ "The Stichometry" لمؤلفه "نيكيفوروس" (Nicephorous)، تعود في شكلها الحالي إلى حوالى عام ٨٥٠م، ونجد "أناشيد سليمان" واردة بها على نحو مماثل.

---

٩ تحدث عنه جيروم في كتابه "مشاهير الرجال"، وذكر أن أفريقيا لم تكن فقط مهد تدريبه في علوم البلاغة، بل كانت أيضًا مكان ميلاد أول أعماله - والتي فُقدت- وهى "الوليمة والتي كتبها عندما كان شابًا صغيرًا. وله أيضًا عدة كتابات منها (صنعة الله، والمخلص، والمضطهدون، القوانين الإلهية، غضب الله...). [المراجع]

(د) تستشهد المقالة الغنوسية "Pistis Sophia"[١٠] بالنص الكامل لخمسة من هذه الأناشيد. ويبدو أن الترجمة القبطية التي نجدها لهذا العمل، والترجمة السريانية التي نجدها في مخطوطة هاريس وبوركيت، تعتمدان على النص اليوناني الأصلي الذي فُقد.

محتوى أناشيد سليمان

تتسم هذه الأناشيد بالروح الصوفية السامية ويبدو أنها متأثرة بإنجيل القديس يوحنا. ومعظمها يحتوي على تسابيح عامة موجهة لله بلا أي وجود لأفكار لاهوتية أو جدلية. ومع ذلك، يحتوي بعضها على موضوعات عقائدية، مثل التجسد، النزول إلى الجحيم، وامتيازات النعمة الإلهية. فعلى سبيل المثال؛ يصف النشيد السابع التجسد: "مثل اندفاع الغضب على الإثم، هكذا يكون أيضًا اندفاع الفرح نحو المحبوب، أنه يأتي بثماره بلا أي عائق: إن فرحي هو الرب واندفاعي هو نحوه، هذا الطريق الذي أسلكه هو بلا عيب، لأن لي معينًا، هو الرب، لقد عرفني بنفسه بلا أي حفيظة وببساطته؛ إن لطفه جعل عظمته تتضع، لقد أصبح مثلي، حتى أقبله، لقد حُسب كمثيل لي، حتى ألبسه، ولم أرتعد حينما رأيته، لأنه كان كريمًا نحوي، لقد أصبح في مثل طبيعتي لكي أعرفه، وفي مثل شكلي، لكي لا أرتد عنه، أبو المعرفة هو كلمة المعرفة، إنه من خلق الحكمة، هو أحكم من خلائقه، وهو من خلقني، عندما لم أكن بعد، وعرف ما الذي علي أن أفعله، حينما أتيت إلى وجود لهذا رثى لحالي، في نعمته الغنية، ومنحني أن أطلب منه، وأن أنال - نصيبًا - من ذبيحته، لأنه هو غير الفاسد، ملء الدهور وأبوها."

والنشيد رقم ١٩ عبارة عن ترنيمة تُمجد الحبل العذراوي.

---

[١٠] مخطوط غنوسي وجد خارج مجموعة نجع حمادي يرجع تاريخه للقرن الرابع الميلادي، وهو يتضمّن مجموعة من الحوارات بين المسيح وتلاميذه من الرجال والنساء . [المراجع]

وبالضبط كما في سفر "صعود إشعياء"[11] (XI, 14)، يشدد المزمور على أن الحبل العذري كان بلا ألم، وذلك في مقابلة واضحة مع حبل حواء: "لقد أمسك رحمُ العذراء به، وحبلت وولدت، وأصبحت العذراء أمًّا بمراحم عظيمة، تمخضت فولدت ابنًا بلا ألم، وهذا لم يحدث من فراغ، ولم تطلب قابلة لأنه هو من ساعدها لتلد. لقد ولدت كما لو كانت رجلا، بإرادتها الخاصة، ولدته جهارًا، ونالته بقوة عظيمة وأحبته في خلاص، وحرسته في لطف، وبينته في عظمة هليلويا."

ويُرنم النشيد رقم ١٢ عن اللوجوس: "لقد ملأني بكلمات الحق، حتى أبشر بالحق نفسه، ومثل فيضان الماء فاض الحق من فمي، فأظهرت شفتاي ثماره، لقد جعل معرفته تفيض بداخلي، لأن فم الرب هو "الكلمة" الحقيقي، وباب ضيائه، وقد أعطاه (الآب) العلي إلى عوالمه، تلك التي تُفسر جماله، وتُكرر التسبيح له، وتعترف بمشورته، وتُبشر بأفكاره، وتُهذب خدامه. فَرقَّة "الكلمة" لا يمكن أن توصف، فكمثل نطقه هكذا رقته وسرعته في الاستجابة، وامتداده ليس له نهاية أو حد، وهو لا يفشل أبدًا بل يبقى قائمًا على الدوام. وسر تنازله يعسر فهمه، وطريقه تحيطه الغيوم. وكما أن عمله لا ينقطع فهكذا آخرته تدوم. وهو النور وفجر الفكر، وبه تتكلم العوالم مع بعضها البعض، [تكلموا] في "الكلمة" هؤلاء الذين كانوا صامتين، ومنه خرج الحب والتناغم. وكلم الواحد منهم الآخر فيما يخصهم، ونطق بما أعطاهم "الكلمة"، وعرفوا ذاك الذي صنعهم، بسبب أنهم كانوا متناغمين، لأن فم العلي قد تكلم

[11] هذا سفر من الأسفار المنحولة نتج عن مزج ثلاثة كتب معًا وهي: (١) استشهاد إشعياء وهو من أصل يهودي ويرجَّح أنه كتب باللغة الآرامية في القرن الأول قبل الميلاد (٢) وصية حزقيا (٣) رؤيا إشعياء. وهذان الأخيران يرجعان إلى أصل مسيحي وقد كتبا باللغة اليونانية في القرن الثاني للميلاد. والسفر بأكمله موجود الآن في الترجمة الحبشية وتوجد كذلك أجزاء منه في اليونانية واللاتينية. [المراجع]

إليهم، وبواسطته أسرع التفسير إليهم، لأن مكان سكنى "الكلمة" هو الإنسان، وحقه هو المحبة، مباركون هم هؤلاء الذين بواسطته فهموا كل شيء، وعرفوا الرب في حقه. هليلويا".

ويعطي النشيد رقم ٢٨ وصفًا شعريًّا لآلام المسيح يذكّرنا في بعض المواضع بلغة الكتاب المقدس: "لقد تعجب مني هؤلاء الذين نظروني، لأني كنت مضطهَدًا وظنوا إني قد ابتُلعت، لأني قد بدوت لهم كواحد من الهالكين، وقد صار لي ضيقي خلاصًا، لقد صرت محل استهجانهم، لأنه لم يكن في حسد، ولأني صنعت الخير لكل إنسان، صرت مكروهًا واكتنفوني كمثل كلاب غاضبة، تهاجم سيدها بجهل، ففكرهم فاسد وفهمهم مُنحرف، لكني كنت أحمل المياه في يدي اليمنى واحتملت مرارتهم بحلاوتي، ولم أهلك لأني لم أكن أخًا لهم، ولم يكن ميلادي مثل ميلادهم، سعوا إلى موتي لكنهم لم يجدوه، لأني كنت أقدم مما تصل إليه ذاكرتهم، باطلًا ألقوا علي قرعة باطلًا طلب هؤلاء الذين كانوا خلفي، أن يدمروا ذكرى ذاك الذي كان قبلهم، لأنه لا شيء يتقدم على فكر العلي، وقلبه يسمو على كل حكمة. هليلويا".

ويدور النشيد رقم ٤٢ عن موضوع قيامة المسيح والانتصار الذي أحرزه في الجحيم. ولقد كانت صرخات الأرواح التي في العالم السفلي إلى المخلص ليخلصهم من الموت والظلمة، تلك التي جاء ذكرها في نهاية النشيد، ملفتة للنظر على نحو خاص. "لقد بسطت يديّ واقتربت من ربي، لأن بسط يديّ هو علامته التي نصبها في طريق الصدّيق، أصبحت بلا اعتبار عند هؤلاء الذين لم يتمسكوا بي، وسأبقى مع هؤلاء الذين يحبونني، كل مضطهدي قد ماتوا، وطلبني هؤلاء الذين وضعوا رجاءهم فيّ لأني حي، لقد قمت وها أنا معهم، وسأتكلم بأفواههم، لأنهم قد نبذوا هؤلاء الذين اضطهدوهم،

وحمّلتهم نير محبتي، ومثل ذراع العريس على العروس، هكذا كان نيري على هؤلاء الذين يعرفونني، ومثل الفراش المبسوط في بيت العريس والعروس، هكذا أيضًا حبي [مبسوط] على المؤمنين بي، ولم أُرفض رغم أني قد حُسبت كذلك، لم أهلك رغم أنهم دبروا هذا ضدي، لقد نظرني الجحيم وصار بائسًا، ولقد لفظني الموت والكثيرون معي، لقد كنت له مرًّا وحنظلاً، فنزلت معه إلى أعمق أعماقه، و أفلتُّ رجلي ورأسي، لأنه لم يقدر أن يتحمل وجهي، وجمعت جماعة من الرجال الأحياء من بين رجاله الأموات، وتكلمت معهم بشفاه حية، لأن كلمتي ليست باطلة، وقد هرع إلي هؤلاء الذين ماتوا، وصرخوا قائلين: يا ابن الله ارحمنا، واصنع معنا حسب لطفك وافتدينا من قيود الظلمة، وافتح لنا الباب الذي من خلاله نأتي إليك اسمح لنا أيضًا أن نخلُص معك، فسمعت صوتهم، وختمت باسمي على رؤوسهم، لأنهم رجال أحرار وهم لي. هليلويا."

٣. النبؤات المسيحية السيبلية

كان هناك تحت الاسم الخيالي "سيبل" (Sibyl) أربعة عشر كتابًا من الشعر التعليمي المكتوب بطريقة السُداسيات، كُتبت معظمها في القرن الثاني الميلادي. وكان مؤلفو هذه الكتب مسيحيين شرقيين استخدموا الكتابات اليهودية كمادة رئيسة، حيث تبنى اليهود الهيلّينيون[١٢] منذ وقت مبكر كالقرن الثاني قبل

[١٢] اليهودية الهيلينية هي شكل من أشكال اليهودية التي ظهرت بعد العودة من السبي. وقد جمعت اليهودية الهيلّينية التقليد الديني اليهودي مع عناصر من الثقافة اليونانية، وقد كانت الإسكندرية وأنطاكيا المركزين الرئيسين لليهودية الهيلينية، وكذلك أيضًا وجدت اليهودية الهيلينية في أورشليم أثناء فترة الهيكل الثاني، حيث كان هناك صراع بين "اليهود الهلّينيين" الصدوقيين و"اليهود التقليديين" الفريسيين. وقد أثرت الهيلّينية على الإيمان اليهودي ولا سيما على طائفة الصدوقيين، فمثلًا نجد أنهم لا يؤمنون بالقيامة ولا يؤمنون بالعهد القديم كله فالتوراة هي فقط الكتاب المعتمد لديهم. وتعتبر الترجمة السبعينية لنصوص العهد القديم العبرانية والآرامية إلى اللغة اليونانية هي أبرز إنتاج أدبي ظهر نتيجة الاتصال بين يهودية

الميلاد، فكرة "السيبلة" أو "العرافة" الوثنية، وذلك بهدف الدعاية للديانة اليهودية في الدوائر الوثنية. ومن الممكن أن يكون هؤلاء اليهود قد أدخلوا نبؤات وثنية مثل "أقوال عرافة إيريثريا"[١٣] (Sayings of the Sibyl of Erythraea) إلى كتابتهم. وقد قادت هذه الرغبة نفسها في الدعاية للمسيحية الكُتاب المسيحيين ليكتبوا تلك النبؤات السيبلية التي ترجع للقرن الثاني الميلادي.

والعمل في شكله الحالي عبارة عن تجميع لخليط من المواد الوثنية، واليهودية، والمسيحية ذات السمات التاريخية والسياسية والدينية. ويعود الكتاب السادس والسابع وأجزاء كبيرة من الكتاب الثامن إلى أصل مسيحي صرف؛ ومن المُرجح أيضًا أن يكون الأمر نفسه صحيحًا بالنسبة للكتاب الثالث عشر والكتاب الرابع عشر. كما يبدو أن الكتب الأول والثاني والخامس تعود إلى أصول يهودية، لكنها تحتوي على إضافات مسيحية، ولم يُكتشف الكتابان التاسع والعاشر حتى الآن. وقد اكتشف الكاردينال (A. Mai) الكتابين الحادي عشر والرابع عشر عام ١٨١٧م. ويحتوي الكتاب السادس على ترنيمة تكريم للمسيح، وقد وردت بها نبوءات عن المعجزات المذكورة في الأناجيل القانونية وكأنها ستحدث في المستقبل، وفي النهاية تُعلن الترنيمة عن صعود صليب المخلص إلى السماء. ويتنبأ الكتاب السابع - المكون من ١٦٢ عددًا - بالنوائب والمصائب ضد الأمم والمدن الوثنية ويعطي صورة عن النهاية للزمن برمته. ومحتوى الكتاب الثامن إسخاتولوجي (أخروي) ويمتلئ الجزء

الهيكل الثاني والثقافة اليونانية. وقد بدأ انحصار اليهودية الهيلينية في القرن الثاني الميلادي لأسباب ظلت إلى الوقت الحالي غير مفهومة بالكامل، وربما لأنها أخيرا قد تم تهميشها، أو امتصاصها جزئيًا. [المراجع]

١٣ هي أقوال عرافة إيريترية كانت تعيش في بلدة إيونيا مقابل إقليم خيوس، وتنبأت بأن اليونانيين سيهزمون الطرواديين وسيدمرون مدينة طروادة، وتنبأت أيضًا بأن هوميروس سيكتب أشعاره. [المراجع]

الأول منه - من العدد ١ إلى ٢١٦ - بالكراهية واللعنات الموجهة ضد مدينة روما، كما أنه يشير إلى هادريان (الإمبراطور) وخُلفائه الثلاثة: بيوس (Pius)، ولوسيوس فيروس (Lucius Verus)، وماركوس (Marcus). وهذا يثبت أنه ولا بد من أن هذا الجزء قد كُتب قبل عام ١٨٠م، بواسطة كاتب يهودي على الأرجح. أما باقي الكتاب فذو طابع مسيحي، ويمكننا أن نجد هنا الشعار الشهير Ἰησοῦς Χριστός Θεοῦ Υἱὸς Σωτὴρ Σταυρός"[١٤] - يسوع المسيح ابن الله المخلص - الذي يشير إليه كل من قسطنطين (Ad Coetum Sanctorum: 18) وأغسطينوس (De Civ. Dei, 18: 23). وبعد الوصف الإسخاتولوجي، تأتي فقرات تتكلم عن طبيعة الله والمسيح، والميلاد العذراوي، وعبادة المسيحيين.

ويبدو أن المسيحيين قد استخدموا "العرافة السيبلية" تلك في وقت مبكر كالقرن الثاني الميلادي، لأن كيلسوس (Celsus)، في حوالى عام ١٧٧ - ١٧٨م، تكبد الكثير من المشقة ليبيّن أن المسيحيين قد دسوا في هذه النبوءات ما ليس منها[١٥]، ويرفض لاكتانتيوس الذي عاش في القرن الرابع الميلادي هذه الفكرة، وهو يقتبس بعضًا من أقوال الكُتاب المسيحيين باعتبارها من نبوءات عرافة إيريثريا، ويضعها على قدم المساواة مع أقوال أنبياء العهد القديم.

وقد كانت لهذه النبوءات السيبلية مكانة كبيرة في القرون الوسطى، فتأثر بها لاهوتيون مثل توما الأكويني (Thomas Aquinas)، وشعراء مثل دانتي وكالديرون (Calderon)، كما أن فنانين مثل رافايل (Raffael) ومايكل أنجلو (Michael Angelo)

---

[١٤] ترد كلمة: "Σταυρός" هنا عند كوستن في هذا النص، في حين لا ترد في نصوص أخرى.

[١٥] انظر كتاب العلامة أوريجانوس في الرد على كيلسوس (فصل ٧: ٥٣).

فنان كنيسة سيستين[16] قد استوحوا محتوياتها في فنهم. وقد استشهدت الترتيلة المعروفة باسم (Dies Irae) بالأقوال السيبلية جنبًا إلى جنب مع أقوال النبي داود، وذلك في معرض وصفها ليوم الدينونة.

٤. أقوال سيكستوس

إن ما يُعرف "بأقوال سيكستوس" هي مجموعة من الجمل الأخلاقية الوثنية والقوانين الحياتية المنسوبة إلى الفيلسوف الفيثاغوري سيكستوس (Sextus)، وقد قام كاتب مسيحي (من الإسكندرية؟) بتنقيحها في القرن الثاني الميلادي.

وكان أوريجينوس هو أول من ذكر هذه الأقوال، ففي كتابه "ضد كيلسوس" (٨: ٣٠) يذكر: "قول جميل مذكور في كتابات سيكستوس معروف لمعظم المسيحيين هو "إن أكل لحوم الحيوانات أمر لا يستحق الالتفات إليه؛ ولكن اجتنابه أكثر اتفاقًا مع العقل."

ولقد ترجم روفينوس ٤٥١ قولاً من هذه الأقوال من اليونانية إلى اللاتينية. ويقول روفينوس في مقدمة ترجمته اللاتينية إن الفيلسوف الفيثاغوري سيكستوس هو نفسه الأسقف الروماني والشهيد سكيستوس الثاني (٢٥٧م - ٢٥٨م) وذلك بلا أي دليل يؤكد قوله هذا، ولكن جيروم قد أبدى اعتراضه بشدة على هذا الخطأ الفادح[17].

وكان للأفكار الأفلاطونية الخاصة بالتنقية والاستنارة والتأليه وكذلك المفهوم الأفلاطوني عن الله، تأثيرها على غالبية تلك الأقوال، فكان هناك نصح بالاعتدال في الطعام والشراب والنوم؛ والزواج ليس بمستحب. والحقيقة أن الكثير من تلك الأقوال يذكرنا

---

[16] هي أكبر كنيسة موجودة في الفاتيكان. وتشتهر الكنيسة بمعمارها الفريد، وتشتهر أيضا بلوحاتها الجدارية التي رسمت بأيدي كبار فناني عصر النهضة. [المراجع]

[17] Comm. in. Ez. Ad 18: 5ff., Comm. in. Jr. ad 22: 24ff., Ep. 133, ad Ctesiph., 3.

بفلسفة الحياة عند كليمندس، ومن المحتمل أن يكون هو المؤلف المسيحي الذي قام بمراجعة تلك الأقوال.

٥. الشعر المسيحي على شواهد القبور

استُخدم الشعر المسيحي أيضًا منذ وقت مبكر في نقوش شواهد القبور، ولدينا منها اثنان مميزتان بسبب قدمهما وأهميتهما.

نقش أبيركيوس

إن نقش قبر "أبيركيوس" هو سيد النقوش المسيحية المبكرة قاطبة، ولقد اكتشف العالم الأثري راماسي (W. Ramasay)، من جامعة "أبردين" (Aberdeen) باسكتلندا، شذرتين من هذا النقش عام ١٨٨٣م، وذلك بالقرب من مدينة "هيرابوليس" بمقاطعة "فيرجيا سالوتاريس"، وهما الآن في متحف "لاتيران" (Lateran Museum). وكان راماسي قد اكتشف نقوش قبر "ألكسندر" المسيحية، التي ترجع لحوالى عام ٢١٦م، قبل عام واحد من اكتشافه لنقوش أبيركيوس، ولم تكن هذه سوى تقليد لنقوش أبريكوس. وبمساعدة نقوش قبر ألكسندر، وسيرة أبيركيوس اليونانية التي ترجع للقرن الرابع والتي نشرها (Boissonade) عام ١٨٣٨م، أصبح من الممكن استعادة النص الكامل للنقش.

ويتكون النقش من ٢٢ بيتًا من الشعر المقفى، و٢٠ سداسية. أما بالنسبة لمحتواه، فهو عبارة عن مُلخص لحياة أبيركيوس وأعماله. وقد كُتب النص في نهاية القرن الثاني الميلادي، بالتأكيد قبل عام ٢١٦م؛ وهو التاريخ الذي كُتبت فيه نقوش قبر ألكسندر. أما كاتب هذا النقش فهو أبيركيوس أسقف هيرابوليس، وقد كتبه وهو في الثانية والسبعين من عمره، ولقد كانت أعظم أحداث حياته هي سفره إلى مدينة روما، تلك الرحلة التي يحكي لنا عنها في

نقشه. وقد كُتب النقش بأسلوب صوفي رمزي، بحسب ما تقتضي قواعد السرية، وذلك بهدف إخفاء طبيعتها المسيحية عن أعين غير المسيحيين. ولقد كان أسلوب هذه النقوش الرمزي سببًا في الخلاف الحاد الذي تبع اكتشاف هذا الأثر، فقد حاول عدة علماء، مثل (G. Ficker) و (A. Dieterich)، أن يثبتوا أن أبيركيوس لم يكن مسيحيًّا، بل عابدًا للإلهة الفيريجية "سيبيل"[18] Cybele،أما (A. Harnack) فقد لقّبه بـ "الجامع بين مختلف الديانات". وبالرغم من ذلك، استطاع (De Rossi) و (Duchesne) و (Cumont) و (Dölger) و (Abel) أن يثبتوا أن كلًّا من محتوى هذا النقش ولغته تثبت بلا أي شك أنه يعود إلى أصل مسيحي.

وترجمة النص هي كالتالي: "١. قمت أنا، مواطن المدينة العظيمة، ببناء هذا القبر؛ ٢. في حياتي، حتى يكون لجسدي هنا مكان لراحته؛ ٣. أبيركيوس هو اسمي، وأنا تلميذ للراعي الطاهر؛ ٤. إنه يطعم قطعانه من الخراف على الجبال والسهول؛ ٥. إنه هو من يمتلك عيونًا عظيمة تراقب جميع الجوانب؛ ٦. لقد علَّمني... الكتابات الصحيحة؛ ٧. لقد أرسلني إلى روما لأنظر المملكة؛ ٨. ولأرى ملكة ذات معطف ذهبي وحذاء ذهبي؛ ٩. هناك رأيت قومًا يحملون ختمًا جليلًا؛ ١٠. ورأيت سهل سوريا والمدن كلها حتى نصيبين؛ ١١. وبعد أن عبرت نهر الفرات، وكل مكان لي فيه رفقاء؛ ١٢. واصطحبت بولس كمرافق، يقودنا الإيمان في كل مكان؛ ١٣. ووضعت أمامي كطعام، السمكة التي من النبع؛ ١٤.

---

[18] سيبيل هي إلهة الطبيعة والخصب. ولأنها كانت راعية الجبال والحصون، لذلك كان تاجها مصممًا على شكل سور مدينة. وكانت عبادة سيبيل يقودها كهنة خصيان يطلق عليهم اسم "الكوريبانتيون" Corybantes، وقد كان هؤلاء يقودون عبدة سيبيل في طقوس ماجنة مصحوبة بصرخات وموسيقى محمومة من آلات موسيقية مثل المزمار والطبل والصنوج. [المراجع]

إنها قوية وطاهرة، تلك (السمكة) التي أمسكت بها العذراء التي بلا عيب؛ ١٥. وأعطيتها للأصدقاء ليأكلوا منها دائمًا؛ ١٦. وبعد أن أحضرت نبيذًا حلوًا وقدمت كأسًا ممزوجةً مع خبز؛ ١٧. أمرت أنا أبيركيوس أن تُنقش هذه الكلمات بينما أنا واقف على مقربة؛ ١٨. في الحقيقة، لقد كنت في الثانية والسبعين من عمري؛ ١٩. ليصلي من أجل أبيركيوس كل من يفهم ويصدق هذا؛ ٢٠. لكن لا ينبغي لإنسان أن يبني قبرًا آخر فوق قبري؛ ٢١. وإذا فعل أحد هذا، عليه أن يدفع لخزينة الدولة الرومانية مائتي قطعة ذهبية؛ ٢٢. وأن يدفع لمدينتي الحبيبة هيرابوليس ألف قطعة ذهبية."

والأهمية اللاهوتية لهذا النص بادية الوضوح، فالنقش يُعد أقدم شاهد حجري يذكر الإفخارستيا. كما أن الراعي الطاهر الذي يدعو أبيركيوس نفسه هنا تلميذًا له هو المسيح، وقد أرسله إلى روما ليرى الكنيسة "الملكة ذات المعطف الذهبي والحذاء الذهبي" والمسيحيين "الشعب ذو الختم الجليل"، وقد كان مصطلح "ختم" (σφραγίς) كإشارة إلى المعمودية، مشهورًا في القرن الثاني الميلادي. ويلتقي أبيركيوس، أثناء رحلته إلى روما، بشركاء له في الإيمان يقدمون له الإفخارستيا تحت الشكلين: الخبز والخمر. والسمكة القوية والطاهرة التي من النبع هي المسيح، والذي يدل عليه الشعار (ΙΧΘΥΣ) كما أن العذراء التي بلا عيب التي أمسكت بالسمكة، حسب لغة ذلك العصر، هي العذراء مريم التي حبلت بالمخلص.

نقش بيكتوريوس

وجِد نقش "بيكتوريوس" (Pectorius) عام ١٨٣٠م في سبع شذرات بمقبرة مسيحية قديمة ليست بعيدة عن مدينة (Autun) بجنوب فرنسا. وقد كان الكاردينال (J. P. Pitra) هو أول من نشره، وأرجعه

مع (G. B. De Rossi) إلى بداية القرن الثاني الميلادي، وذلك في حين ظن (E. Le Blant) و (J. Wilpert) أنه يعود إلى نهاية القرن الثالث الميلادي، فتكوينه وشكل الحروف المكتوب بها يشير إلى الفترة ما بين ٣٥٠م - ٤٠٠م، لكن الأسلوب الإنشائي الذي كُتب به يشبه بالضبط الأسلوب الإنشائي الذي كُتب به نقش أبيركيوس من نهاية القرن الثاني الميلادي.

والنقش عبارة عن قصيدة شعرية جميلة مكونة من ثلاثة دوابيت وخمس سُداسيات، وقد ارتبطت الأبيات الخمسة الأولى منها معًا بواسطة الشعار (ΙΧΘΥΣ) أما بالنسبة لمحتوى القصيدة، فهي مكونة من قسمين: القسم الأول يضم الأبيات من الأول إلى السابع، وهو ذو طابع تعليمي ويخاطب القارئ. تُسمى المعمودية فيه "نبع الماء الإلهي الخالد"، ويُشار إلى الإفخارستيا هنا باعتبارها "الطعام الحلو كالعسل الذي لمُخلص القديسين". كما أن الطقس المسيحي القديم الخاص بتناول الإفخارستيا باليد يُفسر كلمات القصيدة القائلة: "حاملًا السمكة في يديك"، ويُلقب المسيح هنا بـ "النور - الذي ينير - للموتى." أما القسم الثاني، الذي يضم آخر أربعة أبيات، فهو شخصي أكثر، فهنا يصلي بيكتوريوس من أجل والدته، ويسأل أبويه الراحلين وإخوته أن يذكروه "في سلام السمكة". ومن الممكن جدًا أن يكون القسم الأول مقتبس من قصيدة شعرية أقدم بكثير، وهذا سيفسر سبب تشابه لغة هذا النقش مع لغة نقش أبيركيوس.

أما نص النقش فهو كما يلي: "أنت الابن الإلهي للسمكة السماوية، احفظ روحك طاهرة بين الفانين، لأنك قد نلت ما هو خالد، نبع الماء الإلهي، يا صديقي، انعش روحك بماء الحكمة الغنية الذي ينبُع أبدًا، خذ من مخلص القديسين طعامًا حلوًا كالعسل، كل بفرح وشهية، حاملًا السمكة في يدك، أصلي أن تُمنح

السمكة، والرب، والمخلص طعامًا لك لترقد أمي في سلام، لذا أصلي إليك يا من هو النور الذي ينير للموتى يا أبي أشانديوس، حبيب قلبي مع أمي الحلوة وإخوتي، اذكروا بيكتوريوس خاصتكم في سلام السمكة."

الفصل الخامس

أعمال الشهداء الأولى

من أقيم مصادر المعلومات التي لدينا عن عصر الاضطهاد هي تلك الروايات التي تتحدث عن الآلام التي جازها الشهداء؛ والتي كانت تُقرأ للجماعات المسيحية في أثناء الخدمة الليتورجية التي تُقام في الذكرى السنوية لاستشهاد الشهيد. وتنقسم تلك الروايات من وجهة النظر التاريخية إلى ثلاث مجموعات:

١. المجموعة الأولى: وتتكون من محاضر المحاكمات الرسمية، وهي لا تحتوي على أي شيء سوى الأسئلة التي وجهتها السُلطات إلى الشهداء، وإجاباتهم عليها كما سُجلت بواسطة الموثقين القانونيين أو كُتاب المحكمة، وكذلك الأحكام التي نُطقت ضدهم. وقد كانت هذه الوثائق تُحفظ في الأرشيف العام، وأحيانًا كان المسيحيون ينجحون في الحصول على نسخ منها. ويجب أن يكون العنوان "أعمال الشهداء" مقصورًا على هذه المجموعة لا غيرها، لأنه هنا فقط توجد مصادر تاريخية مباشرة وموثوق منها، وترد المعلومات ببساطة وبتجرد.

٢. المجموعة الثانية: وتضم شهادات شهود العيان أو المُعاصرين، ويُطلق على هذه الروايات عنوان "روايات الآلام" (Passiones) أو "روايات الاستشهاد" (Martyria).

٣. المجموعة الثالثة وتحتوي على الأساطير التي تدور حول الشهداء والتي أُلفت لغرض تهذيبي وتعليمي بعد وقت طويل من حادثة الاستشهاد. وفي بعض الأحيان تكون هذه الأساطير عبارة عن خليط رائع من بعض الحقائق ومحتوى أسطوري صرف، والبعض الآخر ما هو إلا خيال بدون أي أساس تاريخي.

أولًا: ينتمي إلى المجموعة الأولى[١] كل من التالي:

١. أعمال القديس يوستينوس ورُفقائه: ولهذه الأعمال قيمة

---

[١] هي التي تحتوي على محاضر وأحكام المحاكمات الرسمية للشهداء كما سجلت بواسطة الموثقين القانونيين.

كبيرة، لأنها تحتوي على محضر جلسة المحكمة الرسمية التي أقيمت ضد أهم المدافعين اليونانيين، الفيلسوف يوستينوس الشهير. وكان يوستينوس قد أُلقي في السجن ومعه ستة مسيحيين آخرين بأمر من الحاكم الروماني (Q. Junius Rusticus) في عهد الإمبراطور "ماركوس أوريليوس أنطونينوس" الفيلسوف الرواقي. وتتكون "أعمال يوستينوس ورُفقائه" من مقدمة مختصرة جدًّا، يتبعها التحقيق مع الشهيد ورفقائه ثم الحكم الذي حكم به عليهم، ثم خاتمة قصيرة. ولقد كان منطوق الحكم الذي نطق به الوالي الروماني هو التالي: "ليُجلد هؤلاء الذين لا يضحون للآلهة ولا ينصاعون لأمر الإمبراطور، وليُساقوا لتُقطع رؤوسهم وفقًا للقانون". وقد استشهد القديس يوستينوس ورفقاؤه في مدينة روما عام ١٦٥م على أرجح الأقوال.

٢. أعمال شهداء سيليوم[٢] في أفريقيا: وهي تشكل أقدم وثيقة في تاريخ الكنيسة الأفريقية، وهي في الوقت نفسه أقدم وثيقة مسيحية لدينا باللغة اللاتينية من شمال أفريقيا. أما من حيث المحتوى، فهي عبارة عن المحضر الرسمي لجلسة مُحاكمة كل من "نامفانو الذي من مادورا" (Namphano of Madaura) و"ميجن" (Miggin) و"سانام" (Sanam) وستة مسيحيين آخرين من "نوميديا"[٣] (Numidi)، حُكم عليهم بالموت بواسطة القُنصل "ساتورنينوس" (Saturninus)، وقُطعت رؤوسهم بتاريخ ١٧ يوليو عام ١٨٠م. وبالإضافة إلى الأصل اللاتيني، لدينا ترجمة يونانية لهذه الأعمال.

٣. الأعمال الحكومية للقديس كبريانوس أسقف قرطاج: الذي استُشهد يوم ١٤ سبتمبر ٢٥٨م. وهي تعتمد على تقارير رسمية رُبطت

---

[٢] قرية صغيرة في نواحي قرطاج بشمال أفريقيا. [المراجع]

[٣] تقع شمال الجزائر الحالية. [المراجع]

معًا بعبارت قليلة من قلم المحرر. وهي تتكون من ثلاث وثائق منفصلة تحتوي على: (أ) المحاكمة الأولى التي حكمت بنفي كبريانوس إلى (Curubis). (ب) القبض عليه والمحاكمة الثانية، ثم: (ج) عملية الإعدام. ولقد كانت شهادة القديس كبريانوس في عهد الإمبراطورين "فاليريان" (Valerian) و "جالينوس" (Gallienus)

ثانيًا: ينتمي إلى المجموعة الثانية[4] كل من التالي:

١. شهادة بوليكاربوس: وهي تعود إلى سنة ١٥٦م.

٢. رسالة كنائس فيينا وليون إلى كنائس آسيا وفريجية: وتعطي تلك الرسالة تقريرًا مؤثرًا عن آلام الشهداء الذين ماتوا في الاضطهاد العنيف الذي وقع على كنيسة ليون عام ١٧٧م أو ١٧٨م، والذي سجله يوسابيوس القيصري في (Hist. eccl. 5,1: 1 - 2,8). وتُعد تلك الرسالة واحدة من أكثر الوثائق التي تتكلم عن الاضطهادات إثارة للاهتمام، وهي لا تخفي أمر ارتداد بعض أعضاء الجماعة. ونجد من ضمن الشهداء الشجعان الأسقف "فوتينوس" (Photinus)، ذاك الذي "كان يتنفس بصعوبة لكونه تجاوز التسعين من عمره ومريضًا جدًا، لكنه قد تقوى بحماس الروح الذي استمده من رغبته الملتهبة في الاستشهاد"؛ و"بلاندينا" (Blandina) الجديرة بالإعجاب، والتي كانت جارية ضعيفة ورقيقة عززت من شجاعة إخوتها بمثالها وكلامها؛ و"ماتوروس" (Maturus)، الذي كان مؤمنًا جديدًا ذا شجاعة مذهلة؛ و"سانكتوس" (Sanctus) الشماس من فيينا؛ و"أليكساندر" (Alexander) الطبيب؛ و"بونتيكوس" (Ponticus) الذي كان صبيًا في الخامسة عشرة من العمر.

وتقول الرسالة عن بلاندينا: "إن المباركة بلاندينا، التي كانت

---

[4] وهي المجموعة التي تحتوي على شهادات شهود العيان أو المعاصرين.

آخرهم جميعًا، وشجعت أولادها مثل أم نبيلة وأرسلتهم قبلها إلى الملك متوجين بالمجد، قد عادت لتخوض بنفسها كل المعارك التي خاضها أولادها، مسرعة إليهم، مبتهجة ومنتصرة في رحيلها كما لو كانت مدعوة إلى عشاء عُرس لا إلى الطرح للوحوش المفترسة. وبعد الجلد، وبعد الوحوش المفترسة، وبعد الحريق، طُرحت أخيرًا في شبكة وأُلقيت أمام ثور. وبعد أن ظل الوحش يتقاذفها لوقت طويل وهي غير مدركة لما يحدث بسبب رجائها، وتمسُّكها بما تؤمن به، وشركتها مع المسيح، فاضت روحها أيضًا. إن الوثنيين أنفسهم يعترفون أنهم لم يروا قط امرأة تحملت آلامًا كثيرة هكذا أو عظيمة هكذا."

٣. آلام بيربتوا وفيليسيتاس: ويروي هذا العمل قصة استشهاد ثلاثة موعوظين هم: "ساتوروس" (Saturus)، و"ساتورنينوس" (Saturninus)، و"ريفوكاتوس" (Revocatus)، وشابتين هما: "فيبيا بيربتوا" (Vibia Perpetua) ذات الاثنين والعشرين عامًا، والتي كانت "ذات نسب عريق، مُتعلمة جيدًا، متزوجة زيجة كريمة، لديها أب وأم وأخان واحد منهما موعوظ مثلها، وابن رضيع على ثديها"، وجاريتها "فيليسيتاس" (Filicitas) التي كانت حبلى وقت القبض عليها ثم ولدت بنتًا قبل أن تموت في حلبة المصارعين بوقت قصير. وقد إستُشهدوا جميعًا في يوم ٧ مارس ٢٠٢م بمدينة قرطاج.

وتُعد هذه الرواية واحدة من أجمل قطع الأدب المسيحي المبكر، كما أنها فريدة من حيث تأليفها، ذلك لأن الجزء الأكبر من الرواية (من الفصل ٣ إلى الفصل ١٠) هو من مُذكرات بيربتوا اليومية: "من الآن فلاحقًا ستروي هي نفسها قصة استشهادها وفقًا لما تركته هي مكتوبًا بخط يدها وبحسب أفكارها." (فصل ٢) وكتب ستاوروس (أو ستافروس) الفصول من ١١ إلى ١٣.

وهناك سبب يجعلنا نصدق أن كاتب الفصول الأخرى ومُحرر

العمل كله لم يكن إلا ترتليانوس الذي كان مُعاصرًا لبيربتوا وأعظم كاتب في الكنيسة الأفريقية في ذلك الوقت، فتشابه العبارات وبناء الجُمل والكلمات بين عملي ترتليانوس: (Ad Martyres) و (De patientia)، و"آلام بيربتوا وفيليسيتاس" مُلفت للنظر. وقد كان الناس في زمن القديس أغسطينوس لا يزالون يكنون احترامًا كبيرًا لهذا العمل، حتى إن أغسطينوس كان مضطرًّا لتحذير مستمعيه ألا يضعوا هذا الكتاب على قدم المساواة مع الأسفار القانونية.

والعمل موجود في نص يوناني وآخر لاتيني، ويبدو أن النص اللاتيني هو الأصلي، لأنه يوجد بالنص اليوناني فقرات مُحرفة وخاتمته مشوهة. ويعتقد (C. Van Beek) أن المؤلف الذي حرر قصة الآلام في اللاتينية هو نفسه الذي حررها في اليونانية، ولكن الفقرات (٢١ : ٢) و (١٦: ٣) تُثبت أنه لا بد من أن يكون النص اللاتيني هو الأصلي، وأن النص اليوناني ما هو إلا ترجمة لاحقة له، لأن اللعب بالكلمات الموجود في هذه الفقرات لا يمكن فهمه إلا في اللاتينية.

ولمحتوى هذا العمل أهمية كبيرة في تاريخ الفكر المسيحي، خاصة أن الرؤى التي رأتها بيربتوا أثناء فترة سجنها ودونتها لها قيمة كبيرة في معرفة الأفكار الإسخاتولوجية التي اعتقد بها المسيحيون الأوائل، وتضرب رؤيا "دينوكراتس" (Dinocrates)، ورؤيا "السلم والتنين" أمثلة مدهشة على ذلك. وقد أطلق هذا العمل على الاستشهاد اسم "المعمودية الثانية" مرتين (١٨ : ٣ و ٢١ : ٢)، وكذلك تظهر طقوس التناول في الرؤيا التي رأتها بيربتوا عن الراعي الصالح.

٤. أعمال القديسين كربوس وبابيلوس واغاثونيس: وهي رواية أصيلة من قلم شاهد عيان على استشهاد "كربوس" (Carpus) و"بابيلوس" (Papylus) اللذين ماتا مشدودين إلى وتد في مسرح مدينة

برغامس المدرج، واستشهاد اغاثونيس (Agathonice) التي كانت امرأة مسيحية ألقت بنفسها في النار. ويبدو أن العمل في صورته الحالية غير كامل، فالجزء الذي ذُكر فيه صدور الحكم على أغاثونيس - كالشخصين الآخرين - مفقود، وذلك جعل أغاثونيس تبدو كما لو كانت قد ماتت منتحرة. وقد استُشهد الثلاثة في عهد الإمبراطورين "ماركوس أوريليوس" و"لوسيوس فيروس" (١٦١م - ١٦٩م). وقد كان هذا العمل لا يزال متداولاً في زمن يوسابيوس القيصري[5].

٥. أعمال أبوللونيوس: ويعطي يوسابيوس القيصري في كتابه (Eccl. Hist. 5: 21: 2 - 5) ملخصًا لهذا الكتاب الذي ذكره ضمن ما جمعه من روايات الاستشهاد القديمة. وقد كان أبوللونيوس (Apollonius) فيلسوفًا متعلمًا حوكم بواسطة بيرينيس (Perennis) حاكم دار الولاية بروما وقُطعت رأسه في عهد الإمبراطور كومودوس (Commodus) (١٨٠م - ١٨٥م).

وتُشبه الخُطب التي دافع بها أبوللونيوس عن إيمانه أمام بيرينيس كتابات المُدافعين في الحجج التي توردها، وهي في الغالب تعتمد على الإجابات التي أعطاها الفيلسوف فى أعمال الولاية الرسمية. ويطلق (A. Harnack) على هذه الخُطب "أبرز دفاع عن المسيحية وصلنا من العصور القديمة".

وقد نُشرت ترجمتان لهذا العمل، واحدة أرمينية نشرها كونيبير (Conybeare) عام ١٨٩٣م، والثانية يونانية نشرها البولانديستيون[6] (The Bollandists) عام ١٨٩٥م.

---

[5] Hist. eccl. 4, 15, 48.

[6] البولانديستيون هم مجموعة من الرهبان اليسوعيين المقيمين في بلجيكا، وقد سموا باسم قائدهم "جان بولاند"، وهو راهب يسوعي عاش في القرن السابع عشر. وقد كلف الكرسي الرسولي البولانديستيين بمهمة جمع وتأليف مؤلف رسمي معتمد يضم سير القديسين ، وهو ذلك المسمى بـ " Acta Sanctorum " [المراجع]

ثالثًا: ينتمي إلى المجموعة الثالثة[٧] كل من التالي:

١. أعمال الشهداء الرومانيين: القديسة أجنس (Agnes)، والقديسة سيسيليا (Cecilia)، والقديسة فيليسيتاس (Filicitas) وأولادها السبعة، والقديس هيبوليتس، والقديس لورانس (Lorance)، والقديس سيكتوس، والقديس سباستيان (Sebastian)، والقديسون يوحنا، وبولس، وكوزماس (Cosma)، ودميان (Damian)؛ وأيضًا استشهاد القديس كليمندس واستشهاد القديس إغناطيوس. ولكن هذه الأعمال لا تُثبت بأي شكل من الأشكال وجود هؤلاء الشهداء من عدمه، لكنها تعني فقط أن هذه الوثائق لا يمكن استخدامها كمصادر تاريخية.

٢. المجموعات: لقد جمع يوسابيوس مجموعة من أعمال الشهداء في كتابه المعنون بـ"حول الشهداء القدامى" (On the Ancient Martyrs)، وقد فُقد هذا المرجع المهم للأسف، لكن يوسابيوس لخص معظم هذه الأعمال في كتابه "تاريخ الكنيسة". ومن ناحية أخرى، لدينا مقالته عن شهداء فلسطين، وهو تقرير عن ضحايا الاضطهادات التي وقعت بداية من سنة ٣٠٣م إلى ٣١١م، تلك التي كان شاهدًا عليها باعتباره أسقفًا لقيصرية.

٣. جمع كاتب مجهول أعمال الشهداء الفُرس الذين قُتلوا في عهد سابور الثاني (Sabor II) (٣٣٩م - ٣٧٩م)، وهي موجودة لدينا باللغة السريانية التي كُتبت بها. ولقد وردت المحاكمات ومحاضر التحقيقات هنا بطريقة تشبه تقارير أعمال الشهداء الأصيلة، أما "الأعمال السريانية لشهداء إديسا" فعبارة عن أساطير.

---

[٧] تحتوي على الأساطير التي تدور حول الشهداء.

الفصل السادس

المدافعون اليونانيون

كانت كتابات الآباء الرسوليين والكتابات المسيحية المبكرة موجهة لإرشاد وتثقيف المؤمنين، إلا أنه مع المدافعين اليونانيين توجَّهت الكتابات الكنسية إلى العالم الخارجي لأول مرة، ودخلت إلى ميدان الثقافة والعلم. ففي مواجهة السلوك العدواني الذي انتهجته الوثنية ضد المسيحية، استُبدلت العظات الكرازية التي في بعض الأحيان فقط تكون دفاعية، بالشروحات التي يغلب عليها الطابع الدفاعي، تلك التي تُعطي لكتابات القرن الثاني طابعها المميز. ولم يقتصر السلوك العدواني ضد المسيحية على مجرد شائعات قبيحة انتشرت وسط العامة، بل امتد الأمر إلى اعتبار الدولة الرومانية اعتناق المسيحية بمثابة جريمة كبرى ضد العبادة الرسمية وعظمة الإمبراطور. بل حتى آراء العلماء المستنيرة، ومعظم آراء الطبقات المثقفة في المجتمع قد أدانت الدين الجديد باعتباره خطرًا متزايدًا على السيادة الرومانية العالمية. ويمكننا أن نذكر من ضمن خصوم المسيحية البارزين في القرن الثاني الميلادي الكاتب الساخر لوسيان الساموساطي (Lucian of Samosata)، الذي سخر في عمله "موت برغرينوس" (De Morte Peregrini) الذي كتبه عام ١٧٠م، من المؤمنين المسيحيين بسبب محبتهم الأخوية لبعضهم البعض واستهانتهم بالموت. وكذلك فعل الفيلسوف فرونتو السيرتي (Fronto of Cirta)، مُعلم الإمبراطور ماركوس أوريليوس، في كتابه الخطب (Oration). وعلى رأسهم جميعًا نجد الفيلسوف الأفلاطوني كيلسوس الذي أصدر كتابه الهجومي على المسيحية "حوار الحق" (Ἀληθὴς Λόγος) عام ١٧٨م. وتُمكننا المقتطفات الكثيرة من هذا العمل الأخير، والتي حُفظت لنا في رد أوريجينوس عليه، من أن نُقدر كيف كان مؤلفه خصمًا خطيرًا وداهية، فبالنسبة لكيلسوس لم تكن المسيحية سوى خليط من الخرافات والتعصُّب.

ولم يكن من الممكن لمثل هذه الإهانات الموجهة إلى حالة أخذت تُصبح بالتدريج عاملًا مؤثرًا في التاريخ وتجذب يوميًا إليها رجالا معروفين بثقافتهم أن تمُر بصمت. وهكذا، وضع المدافعون نصب أعينهم ثلاث مهام:

١. تحدوا الافتراءات الشائعة واهتموا على وجه الخصوص بالرد على الاتهام القائل بأن الكنيسة خطر على الدولة. وبالإشارة إلى الحياة الجادة، والعفيفة، والمشرفة التي يحياها إخوتهم في الإيمان، أصروا على أن الإيمان بمثابة قوة مسيطرة لازمة للحفاظ على بقاء ورخاء العالم، لا شخص بعينه أو دولة بعينها، بل الحضارة نفسها.

٢. كشفوا سخافة ولاأخلاقية العبادة الوثنية وأساطير آلهتها، وفي الوقت نفسه أظهروا أن المسيحي وحده يمتلك فهمًا صحيحًا لله وللكون، ومن هنا انطلقوا مدافعين عن العقائد التي تتكلم عن وحدانية الله، ألوهية المسيح و قيامة الجسد.

٣. لم يكتفوا بالرد على حجج الفلاسفة، بل استمروا ليظهروا أن هذه الفلسفة، ولأنها تعتمد على المنطق البشري فقط، لا تبلغ الحقيقة قط، أو بلغت حقيقة ناقصة ومختلطة بالكثير من الأخطاء أو مثل "بيض الشياطين" (spawn of the demons). وقد أكد المدافعون على أن المسيحية تمتلك الحق المطلق، حيث إن اللوغوس، الحكمة الإلهية نفسها، قد نزلت على الأرض في يسوع المسيح، ولذلك تتفوق المسيحية على الفلسفة اليونانية بما لا يُقاس، فهي، في الحقيقة، "الفلسفة الإلهية".

وقد أرسى المُدافعون أسس "علم اللاهوت" في أثناء شرحهم هذا للإيمان، وبهذا أصبحوا أول معلمين للاهوت في الكنيسة، وهي حقيقة تؤكد أهميتهم. ونحن، بالطبع، نجد في كتابتهم مجرد بدايات لدراسة منتظمة للعقائد اللاهوتية، وذلك لأنهم لم يقصدوا

في الأساس إلى تنظيم العقائد اللاهوتية تنظيمًا علميًا ولا حاولوا أن يضعوا جسم الإعلان الإلهي برمته تحت عدستهم، إلا أن وصف مجهودات المدافعين بأنها كانت عملية "تهلّن"[1] (Hellenization) للمسيحية فهو أمر خاطئ. ومن المتوقع بالطبع أن تؤثر طريقة التفكير، التي تأصلت فيهم بشدة قبل أن يتحولوا إلى المسيحية، على رؤيتهم الدينية؛ فالمدافعون اليونانيون هم أبناء عصرهم، وهذا يظهر على وجه الخصوص في المصطلحات التي استعانوا بها وطريقتهم في شرح العقيدة، كما يظهر أيضًا في الشكل الذي تأخذه كتابتهم ـ وهو في أغلب الأحيان عبارة عن معالجة جدلية أو حوارية مُصاغة وفقًا لمعايير البلاغة اليونانية. لكن بالرغم من هذا، كان تأثر التعاليم اللاهوتية للآباء المدافعين بالفلسفة الوثنية أقل بكثير مما يزعمه البعض أحيانًا، فلقد تأثرت بها فقط في التفاصيل الصغيرة، ونحن هنا يمكننا أن نتكلم عن "مسحنة للهيلّينية"، لكن لا يمكننا أن نتكلم عن "تهلّن للمسيحية"، خاصة إذا كنا بصدد تقييم الإنجاز الفكري الذي للآباء المدافعين بكل ما فيه[2].

ولم يواجه هؤلاء الكتّاب، في دفاعهم عن دينهم، اليهود والوثنيين فقط، فمعظمهم قد كتبوا أيضًا مقالات ضد الهراطقة، لكنها فُقدت للأسف الشديد. وقد كانت هذه المقالات لتصبح ذات قيمة لا

[1] أي رؤية وشرح الإيمان المسيحي من منظور الثقافة والفلسفة اليونانية. [المراجع]

[2] إن النقطة التي يجب أيضًا أخذها في الاعتبار عند التعامل مع كتابات آباء القرنين الثاني والثالث هي أن الشرح اللاهوتي للإيمان الذي قدمه هؤلاء الآباء كان لا يزال في مهده، كما أن التعبيرات اللاهوتية لم تكن قد صيغت بشكل محدد بعد، ولم يكونوا فيما ذكروه من أمور لاهوتية يعارضون فكرًا لاهوتيًا مستقرًا من قبل في الكنيسة بل كانوا يقدّمون محاولة جادة رائدة ـ وإن كانت غير مكتملة ـ لشرح الإيمان، وفي هذا تكمن عظمتهم. لذا فنحن عندما نقرأ تعاليمهم وكتاباتهم يجب أن نتعامل مع أفكارهم بطريقة تتناسب مع الظروف والملابسات الخاصة بزمنهم والتي تختلف عن الطريقة التي يجب أن نتعامل بها مع تعاليم الآباء الذين جاءوا بعدهم، مثل القديس أثناسيوس والقديس كيرلس. وفي الحقيقة يكون من الخطأ بل ومن الظلم أن نقوم بتقييم الفكر اللاهوتي لأولئك الآباء على خلفية الفكر اللاهوتي الذي استقر في الكنيسة في القرن الرابع. [المراجع]

تُقدر بثمن في سبيل الفهم الكامل للتعاليم اللاهوتية للآباء المُدافعين. إذًا، ينبغي علينا في تناولنا لكتاباتهم الباقية أن نتسلح بالحذر الواجب[٣]. وبرغم أن توافق تلك الكتابات مع مُثُل الكنيسة الجامعة وفكرها هي أقل من المتوقع، إلا أنه لا ينبغي تفسير النُدرة النسبية لمثل هذا التوافق على أنه ميل إلى العقلانية (rationalsim)، فنحن لا يمكننا بأي حال من الأحوال أن نكون متأكدين أن قُراء هذه الكتابات الدفاعية كانوا متعاطفين بشكل كاف مع وجهة نظر الكنيسة الجامعة أو أنهم كانوا يفهمونها بشكل واف. لقد كانت مواطن الضعف عند القُراء هي السبب الرئيس الذي جعل موضوعات مثل "شخص المُخلص" أو "فاعلية النعمة" تتراجع إلى خلفية المشهد. وتُصور المسيحية في هذه الكتابات بشكل أساسي، وإن لم يكن بشكل حصري، على أنها دين الحق، ومن ثم، نادرًا ما تؤكد صحة ادعاءاتها بإيراد معجزات المسيح كبُرهان، في حين لا تفتأ تُكرر أن قدم الديانة المسيحية دليل على مصداقيتها. وتظهر الكنيسة هنا لا باعتبارها مؤسسة حديثة أو جديدة، فالعهد الجديد مُرتبط بالعهد القديم باتحاد داخلي، بعلاقة فطرية مؤسسة على النبوءات التي تنبأت بالمخلِّص القادم. وبما أن موسى قد عاش قبل المفكرين والفلاسفة اليونانيين بزمن طويل، فإن المسيحية إذن أقدم من كل الديانات والفلسفات وأعظمها.

وربما يكون الآباء المُدافعون قد وصلوا إلى أسمى مكانة لهم في نظرنا عندما أظهروا أنفسهم كأبطال لحرية الضمير باعتبارها أصل ومصدر الدين الحقيقي برمته، وباعتبارها عنصرًا لا يمكن للدين أن يعيش بدونه.

---

[٣] هذه أيضًا نقطة تضاف إلى ما ذكرناه في الحاشية السابقة عن أسباب وضرورة توخي الحذر عند تعاملنا وتقييمنا للفكر اللاهوتي لآباء القرنين الثاني والثالث. [المراجع]

كيف وصلت الكتابات إلينا

يمكننا أن نجد معظم أعمال المُدافعين اليونانيين في مخطوطة "أريثاس" (Arethas) الموجودة بالمكتبة الوطنية (Codex Parisinus Gr. 451)، وهي التي نُسخت بناء على طلب أريثاس أسقف قيصرية عام ٩١٤م، وقد رتبت لتحوي الكتابات الدفاعية المسيحية منذ العصر المبكر للمسيحية حتى أيام يوسابيوس. لكنها لا تحتوي على كتابات القديس يوستينوس، ولا ثلاثة كتب التي كتبها ثيوفيلوس المعروفة باسم (Ad Autolycum)، ولا (Irrisio) لهيرمياس (Hermias)، ولا الرسالة إلى ديوجنيتوس.

كوادراتس

كوادراتس (Quadratus) هو أقدم المدافعين المسيحيين، ونحن ندين ليوسابيوس القيصري بكل ما نعرفه عنه، فهو يقول بشأنه في كتابه "تاريخ الكنيسة" (٤ : ٣ : ١ ـ ٢): "بعد أن ملك تراجان لمدة تسع عشرة سنة ونصف، خلفه إيليوس هدريان على العرش، وإليه وجه كوادراتس مقالته مدافعًا عن ديانتنا، لأن بعض الأشرار حاولوا مضايقة المسيحيين. ولا يزال هذا الدفاع موجودًا عند بعض الإخوة، ولدينا منه نسخة خاصة بنا. ومن خلاله يمكننا أن نرى دليلًا قويًّا على ذكاء كوادراتس وأورثوذكسيته الرسولية. ويدلل كوادراتس على الزمن المبكر الذي عاش فيه بما قاله هو نفسه بكلماته: "لكن أعمال مخلصنا كانت حاضرة، لأنها كانت حقيقية، فهؤلاء الذين شفوا، والذين قاموا من الموت، لم يشاهدهم الناس فقط وقت شفائهم أو قيامتهم، بل كانوا حاضرين دائمًا، وليس فقط أثناء حياة المخلص، بل حتى بعد ذهابه عاشوا فترة طويلة حتى إن بعضهم كان عائشًا حتى يومنا هذا".

وهذه الكلمات التي اقتبسها يوسابيوس منسوبةً إلى كوادراتس هي الشذرة الوحيدة التي وصلت إلينا من دفاعه. أما بالنسبة لافتراض هاريس (Harris)، والذي يقول بأن كلًّا من كتابات كليمندس المنحولة، وأعمال القديسة "كاترين السينائية" (Cathrine of Sinai)، وتاريخ "يوحنا مالالاس" (John Malalas)، ورواية "برلعام ويوآصاف" (Barlaam and Joasaf) قد تخللتها شذرات من دفاع كوادراتس، فقد ثبت خطؤه.

وتبعًا لأرجح الأقوال، قدم كوادراتس دفاعه إلى الإمبراطور هادريان أثناء فترة إقامته في أسيا الصغرى بين عامي ١٢٣م و ١٢٤م أو في عام ١٢٩م. ومن الصعب أن نُثبت أن كوادراتس هو نفسه النبي وتلميذ الرسل الذي ذكره يوسابيوس في: (Hist. Eccles. 3: 37: 1; 5: 17: 2)، كما أن الخلط بينه وبين الأسقف كوادراتس الأثيني الذي عاش في عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس، كما فعل القديس جيروم في (Vir. Ill. 19; Ep 70, 4)، هو أمر بادي الخطأ.

أرستيدس الأثيني

إن أقدم دفاع حُفظ لنا هو ذلك الذي كتبه أرستيدس (Aristides) الأثيني. ولقد أتبع يوسابيوس الملاحظات التي أوردها بشأن كوادراتوس بالكلام التالي: "أرستيدس أيضًا، وهو رجل إيمان ومُخلص لديانتنا، قد ترك مثل كوادراتس دفاعًا عن الإيمان وجهه إلى هادريان، وقد حُفظت كتاباته أيضًا بواسطة الكثيرين." (Eccles. Hist. 4: 3: 2). ومن فقرة أخرى ليوسابيوس نعرف أن أرستيدس كان فيلسوفًا من مدينة أثينا.

وقد اعتُبر عمل أرستيدس لوقت طويل في حكم المفقود،

لكن العلماء قد فوجئوا بأن "رهبان سان لازارو الميخيتاريين"[٤] (Mechitarists) نشروا عام ١٨٧٨م مخطوطًا يعود إلى القرن العاشر الميلادي، وهو عبارة عن شذرة أرمينية من عمل دفاعي يحمل العنوان التالي: "إلى الإمبراطور أدريانوس قيصر من الفيلسوف الأثيني أرستيدس". ولقد قبل معظم العلماء هذه الشذرة باعتبار بقايا ترجمة أرمينية لدفاع أرستيدس الذي ذكره يوسابيوس، وقُدر لهذا الرأي أن يحظى بالكثير من التأييد. وفي عام ١٨٨٩م، عثر العالم الأمريكي راندل هاريس على ترجمة سريانية كاملة لدفاع أرستيدس في دير القديسة كاترين بجبل سيناء. وقد ساعدت هذه الترجمة السريانية العالم (J. A. Robinson) على أن يُثبت أن النص اليوناني للدفاع ليس فقط موجودًا، بل أنه قد حُرر في بعض الأحيان ليأخذ شكل رواية دينية تدور حول "برلعام" و"يوآصاف". ومؤلف هذه الرواية، وهو راهب من دير القديس سابا بفلسطين في القرن السابع الميلادي، يقدم دفاع أرستيدس باعتباره من قلم فيلسوف وثني يدافع عن المسيحية. ووصلنا النص في ثلاثة أشكال، وقد كُتبت رواية برلعام ويوآصاف، تلك التي نملكها باللغة اليونانية، حوالى عام ٦٣٠م. وكُتب مخطوط دير القديسة كاترين، الذي يحوي الترجمة السريانية، في وقت ما بين القرن السادس والقرن السابع الميلادي على أرجح التقديرات، لكن الترجمة نفسها تعود إلى حوالى عام ٣٥٠م، ولم تكن الترجمة الأرمينية حينها قد اكتملت. كذلك نُشر مؤخرًا جزآن كبيران من النص اليوناني الأصلي - الفصل الخامس والسادس والفصل ١٥ : ٦ - ١٦ : ١ من بردية المتحف البريطاني. ويمكننا أن نعيد تكوين النص الأصلي

---

[٤] هم جماعة رهبان بينديكتين ينتمون إلى "الكنيسة الكاثوليكية الأرمينية" تأسست عام ١٧١٧م. وقد اشتهروا بسلسلة المنشورات العلمية من الإصدارات الأرمينية القديمة، والنصوص اليونانية القديمة والمفقودة، وأبحاثهم في اللغة الأرمينية الكلاسيكية والحديثة. [المراجع]

في خطوطه الرئيسية بمساعدة كل هذه المواد.

المحتوى

المقدمة تصفُ الله مستخدمةً لغةً رواقية[٥] متطورة، وتخبرنا أيضًا بأن أرستيدس قد توصل إلى معرفة خالق وحافظ العالم من خلال تأمله في العالم وما فيه من تناغم. وبالرغم من أن كل التأملات والجدالات التي تدور حول الله هي ذات قيمة قليلة، إلا أنه من الممكن من خلالها على الأقل تحديد إلى حد ما بعض الصفات الإلهية سلبيًّا[٦]. ويقول الكاتب إن المفهوم الواحد الحقيقي الوحيد، الذي تم اقتناؤه، سيعمل كوسيلة اختبار لصحة الديانات القديمة. وهو يقسم الجنس البشري إلى أربعة أقسام من جهة الديانة: البرابرة، واليونانيين، واليهود، والمسيحيين. ولقد عَبَد البرابرة العناصر الأربعة؛ لكن السماء، والأرض، والماء، والنار، والرياح، والشمس، والقمر وأخيرًا الإنسان، ما هم جميعًا إلا خليقة الله، ومن ثم، لم يكن لهم أبدًا الحق في الإكرام كآلهة. واليونانيون يعبدون آلهة، تلك التي بضعفها وتصرفاتها الشائنة تُثبت إنها قد تكون أي شيء غير أن تكون آلهة. واليهود يستحقون الاحترام بسبب المفهوم الأنقى عن الطبيعة الإلهية، وأيضًا بسبب معاييرهم الأخلاقية الأسمى،

---

[٥] أي تشبه فلسفة المدرسة الرواقية، وهي مدرسة فلسفية والتي تعتمد على تعاليم زينون الرواقي (٣٣٣ ق.م. - ٢٦٤ ق.م.) واعتقد الفلاسفة الرواقيون أن لكل الناس إدراكًا داخل أنفسهم، يربط كل واحد بكل الناس الآخرين وبالحق - الإله الذي يتحكم في العالم. أدى هذا الاعتقاد إلى قاعدة نظرية للكون، وهي فكرة أن الناس هم مواطنو العالم، وليسوا مواطني بلد واحد، أو منطقة معينة. قادت هذه النظرة أيضًا إلى الإيمان بقانون طبيعي يعلو على القانون المدني ويعطي معيارًا تقوّم به قوانين الإنسان. ورأى الرواقيون أن الناس يحققون أعظم خير لأنفسهم، ويبلغون السعادة باتباع الحق، وبتحرير أنفسهم من الانفعالات، وبالتركيز فقط على أشياء بوسعهم السيطرة عليها. وكان للفلاسفة الرواقيين أكبر الأثر في القانون والأخلاق والنظرية السياسية. على أنهم وضعوا أيضًا نظريات مهمة في المنطق، والمعرفة، والفلسفة الطبيعية. [المراجع]

[٦] التعاليم اللاهوتية السلبية، أي التي تستخدم أسلوب النفي وهي مجرد نفي لما هو بشري مثل "غير المائت، غير المحدود، غير المدرك، ....." [المراجع]

لكنهم قد احترموا الملائكة أكثر من الله، واهتموا بمظاهر العبادة الخارجية مثل الختان، والصوم، وحفظ أيام الأعياد، أكثر من العبادة الحقيقية. المسيحيون فقط هم من يمتلكون الإعلان الوحيد الحقيقي عن الله، وهم "الوحيدون من بين كل أمم العالم الذين قد عرفوا الحق، لأنه يعترفون بالله الخالق، صانع كل شيء في الابن الوحيد والروح القدس؛ ولا يشركون بعبادته أحدًا." (فصل ١٥) وتظهر عبادة المسيحيين للإله الوحيد الحقيقي نفسها بشكل خاص في طهارة حياتهم، تلك التي يمدحها أرستيدس بأسمى المدائح: "إنهم يمتلكون وصايا الرب يسوع المسيح نفسه منقوشةً على صفحة قلوبهم ويحفظونها، مترقبين قيامة الأموات والحياة في العالم الآتي. إنهم لا يزنون ولا يرتكبون الفاحشة، ولا يشهدون بالزور، ولا يشتهون مقتنيات غيرهم؛ يكرمون الأب والأم ويحبون جيرانهم؛ يحكمون بالحق ولا يفعلون بالآخرين ما لا يرغبون في أن يُفعل بهم. إنهم يتوقون لصنع الخير بأعدائهم. إنهم متواضعون ولطفاء، يجتنبون العلاقات الجنسية غير الشرعية وكل نجاسة. إنهم لا يحتقرون الأرملة ولا يظلمون اليتيم، الغني بينهم يعطي الفقير بلا تقتير. وإذا رأوا غريبًا أخذوه تحت سقفهم وفرحوا به كما لو كان أخاهم، لأنهم يدعون أنفسهم إخوة، ليس بحسب الجسد بل بحسب الروح. إنهم مستعدون ليضعوا حياتهم من أجل المسيح. إنهم يحفظون وصاياه بلا أي انحراف، يعيشون حياة صالحة مقدسة كما أمرهم الرب إلهم، ويشكرونه كل ساعة من أجل كل الطعام والشراب والبركات الأخرى. من الواضح إذن أن هذا هو طريق الحق الذي يقود من يسافرون عليه إلى المملكة الأبدية التي وعد بها المسيح في الدهر الآتي."

ودفاع أرستيدس محدود المجال، وأسلوبه الأدبي غير متكلف،

وتعاليمه وحججه بسيطة. وبالرغم من بساطة هذا الدفاع، إلا أن لهجته متكبرة؛ فأرستيدس، كما لو كان يحتل منزلة أسمى، يستعرض الجنس البشري باعتباره وحدة مركبة، وهو متأثر جدًّا بالأهمية الكبرى التي للدين الجديد ورسالته. كما أنه، بثقة مسيحية في النفس، يرى في القطيع الصغير من المؤمنين الشعب الجديد والجنس الجديد الذي سيقود العالم الفاسد ليخرج من مستنقع الفساد الأخلاقي: "الأمم الأخرى كلها تضل وتخدع نفسها، تسير في الظلام متخبطة في بعضها البعض كما السكارى (فصل ١٦) إني لا أتردد في أن أقول إن العالم مستمر في الوجود فقط بسبب تضرعات المسيحيين."

أريستون الذي من بيلا (البيلاوي)

يبدو أن أول مُدافع عن المسيحية ضد اليهودية في مقالة مكتوبة هو أريستون الذي من بيلا[٧] (Aristo of Pella)، فقد قام بكتابة "المحاورة بين ياسون (Jason) وبابيسكوس (Papiscus) حول يسوع المسيح"، ذلك العمل الذي فُقد للأسف. ولقد كان "ياسون" مسيحيًّا من أصل يهودي، بينما "بابيسكوس" يهودي من مدينة الإسكندرية بمصر. ويخبرنا أوريجينوس أن الفيلسوف الوثني كيلسوس قد هاجم هذا الدفاع في كتابه "حوار الحق"، وذلك لأن كاتب الدفاع كان يميل لتفسير العهد القديم تفسيرًا رمزيًّا. وقد دافع أوريجينوس عن هذا العمل القصير، مُشيرًا إلى أن هذه المقالة قد كُتبت لأجل الناس عامة، ومن ثم، ما كان ينبغي أن تستفز شخصًا منفتح العقل ليُعلق عليها تعليقًا سلبيًّا. وتبعًا لما يقول أوريجينوس في عمله "الرد على كيلسوس" (فصل ٤ : ٥٢)، فإن هذا الدفاع يصف "الكيفية التي بها

---

[٧] هي مدينة بيلا "Pella" بفلسطين، مدينة خربة فِحْل الحالية. [المراجع]

يقوم مسيحي، مدعومًا بالكتابات اليهودية (العهد القديم)، بمناظرة يهودي، وهو يستمر ليُثبت أن النبوءات المتعلقة بالمسيح تتحقق في يسوع. وذلك بينما يقوم الخصم، بأسلوب شجاع وليس بساذج، بدور اليهودي في هذا الجدال"، ثم ينتهي النقاش ببابيسكوس اليهودي وقد اعترف بأن المسيح هو ابن الله، طالبًا المعمودية. وتسرد الشذرة المتبقية من الترجمة اللاتينية لهذه المحاورة، والتي هي بالمثل مفقودة، القصة نفسها. وفي الحقيقة، كانت هذه الشذرة، المنسوبة بالخطأ إلى كبريانوس، تحت العنوان (Ad Vigilium Episcopum de Judaica Incredulitate)، هي مُقدمة الترجمة اللاتينية لهذه المحاورة ولا بد من أن أريستون قد قام بتأليف عمله هذا حوالى عام ١٤٠م، كما أن التفسير الرمزي وحقيقة كون بابيسكوس سكندريًا، يشير إلى مدينة الإسكندرية باعتبار مكان الكتابة.

القديس يوستينوس

يوستينوس الشهيد هو أهم مدافع يوناني في القرن الثاني الميلادي[٨] وواحد من أنبل شخصيات الأدب المسيحي المبكر. ولد يوستينوس في مدينة "فلافيا نيابوليس" (Flavia Neapolis)، والتي كانت تُعرف قبلًا باسم "شكيم" (Sichem)، بفلسطين. وكان والداه وثنيين، وهو نفسه يخبرنا، في (Dialog. 2 - 8)، أنه قد جرب أولًا أن يلتحق بمدرسة فيلسوف رواقي (Stoic)، ثم بمدرسة فيلسوف مشائي[٩] (Peripatetic)، ثم أخيرًا بمدرسة فيلسوف فيثاغوري (Pythagorean)، لكن، ولا واحد من هؤلاء الفلاسفة قد أقنعه أو

---

[٨] لمزيد من المعلومات عن حياة وكتابات فكر القديس يوستينوس انظر: القديس يوستينوس الفيلسوف والشهيد، مركز باناريون للتراث الآباني، الطبعة الأولى، ٢٠١٢.

[٩] هي مدرسة فلسفية في اليونان القديمة، استمدوا أفكارهم من مؤسس تلك المدرسة الفيلسوف اليوناني أرسطو، الذي سماه تلاميذه المشّاء. [المراجع]

أشبع نهمه. لقد فشل الرواقي لأنه لم يشرح له أي شيء يتعلق بشخص الله، وأكثر ما كان يهتم به المشائي هو أن يدفع له يوستينوس أجرة الدرس فورًا، الأمر الذي قابله يوستينوس بأن تجنب حضور محاضراته؛ والفيثاغوري طلب منه أن يدرس أولاً الموسيقى، والفلك، والهندسة كضرورة، ولم يكن لدى يوستينوس الرغبة في ذلك. ومن ناحية أخرى، راقت له الفلسفة الأفلاطونية لفترة من الوقت، وقد كان ذلك إلى أن أقنعه رجل، عندما كان يتمشى على شاطئ البحر، بأن الفلسفة الأفلاطونية لا يمكنها أن تُشبع قلب الإنسان، ولفت نظره إلى "الأنبياء الذين وحدهم قد أعلنوا الحق". ثم يحكي يوستينوس قائلاً: "وعندما تكلم بهذا وأشياء أخرى كثيرة لا وقت لذكرها الآن، ذهب طالبًا مني أن أفكر في ما تكلم به إليَّ؛ ولم أره من حينها. لكن للفور اشتعل في روحي لهيب، وتملكتني محبة للأنبياء ولهؤلاء الرجال الذين هم أصدقاء للمسيح. وبينما كنت أُقلب كلماته في رأسي، وجدت أن هذه الفلسفة هي الوحيدة الآمنة والمفيدة. هكذا، ولهذا السبب، أصبحت فيلسوفًا، وأتمنى أن يكون كل البشر لهم نفس فكري، ولا يتحولوا عن تعاليم المخلص." (Dial. 8)

لقد قاده طلبه للحق إلى اعتناق المسيحية. كما يخبرنا يوستينوس أيضًا أن هذه الاستهانة البطولية التي كان المسيحيون يقابلون بها الموت قد لعبت دورًا ليس بصغير في تحوله للمسيحية: "أنا نفسي كنت أستمتع بتعاليم أفلاطون وأستمع إلى كلام شرير عن المسيحيين، لكن لما رأيت أنهم لا يظهرون أي خوف في مواجهة الموت وكل الأمور الأخرى التي تبعث على الخوف، فكرت في أنه لا يمكنهم أن يكونوا متوحشين وشهوانيين." (Apol. 2: 12)

وقد أدى به البحث الأمين عن الحق والصلاة المتضعة إلى اعتناق المسيحية في آخر الأمر: "عندما اكتشفت الخداع الشرير الذي ألقته

الأرواح الشريرة حول عقائد المسيحيين الإلهية لتصرف الآخرين عن الانضمام إليهم، سخرت من مؤلفي هذه الأكاذيب وخداعهم ومن الآراء الشعبية. وأعترف إني صليت وجاهدت بكل قوتي لأصبح مسيحيًا".

وبعد اهتدائه، الذي حدث على الأرجح في مدينة أفسس، كرَّس يوستينوس حياته كلها ليدافع عن الإيمان المسيحي. لقد سافر متنقلاً وهو يرتدي "الباليم" (pallium) - وهي عباءة كان يرتديها الفلاسفة اليونانيون - باعتبار مُعلما متجولا. ووصل يوستينوس إلى روما في عهد الإمبراطور "أنطونينوس بيوس" (١٣٨م – ١٦١م)، وأسس مدرسة هناك، وكان من تلاميذه "تاتيان" الذي قُدر له لاحقًا أن يصبح مُدافعًا. وهناك أيضًا لقى مقاومة شديدة تمثلت في شخص الفيلسوف الكلبي[١٠] "كريسكنس" (Crescens)، الذي اتهمه يوستينوس بالجهل. ولدينا رواية موثقة عن استشهاد يوستينوس مذكورة في (Martyrium S. Justini et Sociorum)، وهي معتمدة على محضر المحاكمة الرسمي. ووفقًا لهذه الوثيقة، قُطعت رأس القديس يوستينوس ومعه ستة آخرون عام ١٦٥م على أرجح الأقوال، ذلك في حين كان الحاكم "يونيوس روستيكوس" (Junius Rusticus) (١٦٣م - ١٦٧م) لا يزال في منصبه.

كتاباته

كان يوستينوس كاتبًا غزير الإنتاج، ولم تصلنا من كتاباته التي كان يعرفها يوسابيوس (Hist. 4: 18) إلا ثلاثة أعمال فقط

---

[١٠] الفلسفة الكلبية (Cynicism) مذهب فلسفي أسسه في القرن الرابع قبل الميلاد الفيلسوف أنتيستينيز، أحد أتباع الفيلسوف اليوناني سقراط. وكانت نقطة البداية لهذا الفيلسوف هي مذهب معلمه، الذي يرى الفضيلة وليس المتعة - الهدف الأساسي للحياة، وأنها تمثل السعادة الحقيقية. [المراجع]

موجودة في مخطوطة وحيدة حالتها متدهورة نُسخت عام ١٣٦٤م (Paris, No. 450). وهذه الأعمال الثلاثة هي دفاعاه ضد الوثنيين وحواره مع تريفون اليهودي. أما أسلوب هذه الأعمال فهو أبعد ما يكون عن الجاذبية، لأنه يتبع ما تُمليه عليه اللحظة كونه غير مُعتاد على اتباع خطة محددة. إنه ينحرف عن الموضوع، وأفكاره غير مترابطة، كما أنه ضعيف في صياغة الجمل الطويلة. يفتقد اسلوب يوستينوس التعبيري برمته إلى القوة، كما أنه نادرًا ما يصل إلى البلاغة أو دفء المشاعر. لكن، بالرغم من كل ما تنطوي عليه كتابات يوستينوس من عيوب، إلا أنها بالنسبة لنا ذات جاذبية لا تُحد، فهي تكشف لنا عن شخصية متفتحة وأمينة تحاول أن تصل إلى مساحة مشتركة مع الخصم. كان يوستينوس مقتنعًا بأن "كل شخص يستطيع أن يتكلم بالحق ولا يفعل سوف يدينه الله" (Dial. 82)، وهو أول كاتب كنسي يحاول أن يقيم جسرًا بين المسيحية والفلسفة الوثنية.

أولاً: دفاعا القديس يوستينوس

إن أهم كتابات يوستينوس الباقية هما دفاعاه، ويُعلق يوسابيوس عليهما في (Hist. Eccles. 4: 18) قائلًا: "ترك لنا يوستينوس مقالات ذات فكر مُثقف مُتمرس لاهوتيًّا، ومليئة بكل ما هو نافع. وسنُحيل الدارسين إليها، مُشيرين إلى ما قد وصلنا منها بشكل نافع. هناك مقالة كتبها دفاعًا عن عقيدتنا موجهًا إياها إلى أنطونينوس المُلقب بـ "بيوس" وأولاده، ومقالة أخرى كتبها إلى مجلس الشيوخ الروماني تحوي دفاعًا ثانيًا عنا، وجهه إلى خليفة الإمبراطور السابق الذكر وسميه المدعو أنطونينوس فيروس."

ونحن بالتأكيد لدينا دفاعان بقلم القديس يوستينوس، أطولهما

الدفاع المكون من ثمانية وستين فصلًا، موجه إلى أنطونينوس بيوس، وأقصرهما، المكون من خمسة عشر فصلًا، موجه إلى مجلس الشيوخ الروماني. لكن (E. Schwartz) يعتبر الأخير مجرد خاتمة للأول، ففي الغالب، كان كلام يوسابيوس عن دفاعين هو السبب الذي لأجله قُسم العمل الكامل في المخطوطة إلى قسمين، ثم وضعت الخاتمة في المقدمة كما لو كانت عملًا مستقلًا بذاته. أما اليوم فيوافق معظم الدارسين على أن العمل المعروف بالدفاع الثاني كان يشكل في الأصل ملحقًا للأول أو إضافة لاحقة عليه. وعلى أرجح الأقوال، كانت الأحداث التي وقعت في عهد الحاكم أوربيكوس (Urbicus) هي الدافع الذي يقف وراء كتابة هذا العمل، وهو يبدأ بوصف لأحداثها. والدفاعان موجهان إلى الإمبراطور أنطونينوس بيوس (١٣٨م - ١٦١م). ويبدو أن القديس يوستينوس قد كتبهما في الفترة ما بين عامي ١٤٨م و١٦١م، لأنه يقول في (Apology I: 46): "لقد ولد المسيح منذ مائة وخمسين عامًا في عهد كيرينيوس (Quirinius)"، وقد كُتبا هذان الدفاعان في مدينة روما.

الدفاع الأول

١. في المقدمة (الفصول ١ - ٣)، يطلب يوستينوس من الإمبراطور، باسم المسيحيين، أن يتناول قضيتهم باهتمام، وأن يكوّن قراره بدون أن تُضلله تحيزات الجماهير أو كراهيتهم.

٢. يتكون الجزء الرئيسي في الدفاع من قسمين:

(أ) القسم الأول (الفصول من ٤ - ١٢) هو نقد لموقف الدولة الرسمي من المسيحيين. وهنا ينتقد الكاتب الإجراءات القضائية التي تتبعها الدولة بشكل منظم ضد شركائه في الإيمان، والاتهامات الباطلة الموجهة إليهم. إنه يحتج على تصرفات السلطات الحمقاء في إنزال

العقاب لمجرد اعتراف الشخص باعتناق المسيحية؛ فاسم "مسيحي" مثله مثل اسم "فيلسوف" لا يُثبت إدانة شخص ما أو براءته. يُمكن إنزال العقوبات على جرائم أُدين بها متهم، لكن الجرائم التي اتُّهم المسيحيون بها ما هي إلا محض افتراءات. إنهم ليسوا بملحدين، فإذا رفضوا أن يعبدوا الآلهة، فهم يفعلون ذلك لأن تقديم العبادة لهذه الآلهة حماقة. إن معتقداتهم الأُخروية وخوفهم من العقاب الأبدي تحفظهم من السلوك الخاطئ، وتجعل منهم أفضل أعوان للدولة.

(ب) يتحول القسم الثاني (الفصول من ١٣ ـ ٦٧) إلى شرح الديانة المسيحية، مُعطيًا وصفًا تفصيليًّا بوجه خاص لتعاليمها وعباداتها وأساسها في التاريخ، وأسبابًا لاعتناقها.

أولاً: تعاليم المسيحيين العقائدية والأخلاقية:

من النبوءات الإلهية يمكن إثبات أن يسوع المسيح هو ابن الله ومؤسس الديانة المسيحية، ولقد أسسها بحسب إرادة الله حتى يُحول الجنس البشري ويُصلحه. ولقد حاكت الشياطين نبوءات العهد القديم وقلدتها في الأديان الوثنية السرية، وذلك يفسر سبب الكثير من التشابهات والتماثُلات بين الديانة المسيحية وأشكال العِبادة الوثنية. وبالمثل، اقتبس الفلاسفة، مثل أفلاطون، من العهد القديم، ولهذا السبب، لا يمكننا أن نتعجب من وجود بعض الأفكار المسيحية في الفلسفة الأفلاطونية.

ثانيًا: العبادة المسيحية:

يُعطي الكاتب هنا وصفًا لسر المعمودية، وخدمة الإفخارستيا، وحياة المسيحيين الاجتماعية.

٣. الخاتمة (فصل ٦٨) عبارة عن تحذير جاد للإمبراطور. ثم أضاف يوستينوس في نهاية الدفاع الأول المرسوم الذي أرسله الإمبراطور هادريان، حوالى عام ١٢٥م، إلى "مينوكيوس فوندانوس" (Minucius

(Fundanus) حاكم أسيا. وهذه الوثيقة ذات أهمية كبرى بالنسبة لتاريخ الكنيسة، فهي تنُص على أربعة قوانين وضعت من أجل إجراءات قضائية أعدل وأصح في المُحاكمات المُقامة ضد المسيحيين، وهذه القوانين هي:

(أ) الحُكم على المسيحيين يجب أن يتم من خلال إجراء قانوني أمام محكمة جنائية.

(ب) يمكن أن يُدان المُتهمون فقط إذا كان هناك دليل على أنهم قد ارتكبوا جريمة ضد القانون الروماني.

(ج) يجب أن تتناسب العقوبات مع طبيعة الجرائم ودرجتها.

(د) يجب أن يُعاقب كل اتهام كاذب بشدة.

وبحسب يوسابيوس في (Hist. Eccles. 4: 8: 8) ضم يوستينوس هذه الوثيقة في نصها اللاتيني الأصلي إلى دفاعه، ولقد ترجمها يوسابيوس إلى اليونانية، ثم أدرجها في كتابه "تاريخ الكنيسة" (٤ : ٩).

الدفاع الثاني

يبدأ هذا العمل بذكر الأحداث التي كانت قد وقعت مؤخرًا، فأوربيكوس، حاكم مدينة روما، كان قد قطع رأس ثلاثة من المسيحيين لأنهم اعترفوا بكونهم مسيحيين. ويلجأ يوستينوس مباشرة إلى الرأي العام الروماني محتجًا مرة أخرى ضد المُعاملة الخشنة غير العادلة التي يتعرض لها المسيحيون ومُجيبًا على انتقادات عدة. فهو، على سبيل المثال، يجيب عن السؤال الساخر الذي كان يسأله الوثنيون، وهو: لماذا لا ينتحر المسيحيون حتى يصلوا إلى إلههم بأقصى سرعة؟ فيجيب يوستينوس قائلًا: "لأننا، إن فعلنا هذا، سوف نسلك نحن أنفسنا ضد إرداة الله. لكن عند استجوابنا

لا نُنكر، لأننا لم نقصد أي شر، بل أننا نعد عدم قولنا الحق في كل الأشياء أمرًا شريرًا" (Apol. 2: 4). لقد أثارت كراهية الشياطين للحق والفضيلة الاضطهادات ضد المسيحيين، وتلك القوى الشيطانية نفسها هي التي أتعبت أتقياء العهد القديم والعالم الوثني. لكن، لن يكون لهذه القوى سلطان على المسيحيين إذا لم يكن الله يريد أن يقود أتباعه عبر التجارب والقلاقل إلى الفضيلة والمكافأة، وعبر الموت والخراب إلى الحياة الأبدية والسعادة. وفي الوقت نفسه، يعطي الاضطهاد المسيحيين فرصة ليظهروا سمو ديانتهم على الوثنية بطريقة مؤثرة. وختامًا، يطلب يوستينوس من الإمبراطور أن يتبع، في محاكمته للمسيحيين، العدل والصلاح ومحبة الحق.

ثانيًا: الحوار مع تريفون

هو أقدم دفاع مسيحي ضد اليهود لا يزال في حوزتنا. لكننا، للأسف، لا نملك نصه الكامل، فلقد فُقدت منه المقدمة وجزء كبير من الفصل (٧٤). ولا بد من أن الحوار قد كُتب بعد كتابة الدفاعين، لأن هناك إشارة إلى الدفاع الأول في الفصل ١٢٠. ويحتوي الحوار على نقاش دار على يومين مع شخص يهودي مُتعلم، وهو على الأرجح الرابي "تارفون" المذكور في المشناه[11]. ويعتقد يوسابيوس (Hist. Eccles. 4: 18: 6) أن مدينة أفسس هي المكان الذي أُقيم فيه هذا الحوار. وقد أهدى القديس يوستينوس عمله هذا لشخص يُدعى "ماركوس بومبيوس" (Marcus Pompeius)، وهو عمل طويل، يبلغ طوله مئة واثنين وأربعين فصلًا. وتحتوي المقدمة (الفصول من ٢ ـ ٨) على قصة مفصَّلة يرويها يوستينوس عن نموه الفكري واعتناقه المسيحية. ويشرح القسم الأول من الجزء الرئيس (الفصول من ٩ ـ ٤٧)

[11] هو كتاب يحوي الشريعة الشفوية، ويشمل التشريعات والشروحات اليهودية، وقد جمعه يهوذا هاناسي حوالى عام (٢٠٠م ـ ٢٢٠م). [المراجع]

وجهة النظر المسيحية بخصوص العهد القديم. لقد كان الناموس الموسوي ذا سُلطة قانونية مؤقتة، فالمسيحية هي الناموس الجديد والأبدي لكل جنس البشر. ثم يُفسر القسم الثاني من الجزء الرئيس (الفصول من ٤٨ ـ ١٠٨) سبب عبادة المسيح كإله، أما القسم الثالث من الجزء الرئيس (الفصول ١٠٩ - ١٤٢) فيُبرهن على أن الأمم التي آمنت بالمسيح وتبعت ناموسه هي إسرائيل الجديد وشعب الله المختار الحقيقي.

ويختلف النهج الدفاعي المتَّبع في الحوار عن ذاك المُتَّبع في الدفاعين لأنه موجه إلى نوع مختلف تمامًا من القراء، فالقديس يوستينوس، في حواره مع تريفون، يركز على العهد القديم، ويقتبس من أقوال الأنبياء كبرهان على أن الحق المسيحي كان موجودًا حتى من قبل المسيح. وبالفحص الدقيق لاقتباساته من العهد القديم، يكتشف المرء أن يوستينوس يفضل الفقرات التي تتكلم عن رفض الله لإسرائيل وإختياره الأمم الوثنية. ومن الواضح أن هذا الحوار ليس بأي حال من الأحوال إعادة إنتاج لتقرير اختزالي خاص بمناظرة حقيقية. لكن من ناحية أخرى، نجد أن صيغة الحوار ليست بكاملها مجرد أسلوب أدبي؛ إذ يبدو أن كتابة هذا العمل قد سبقته حوارات ونقاشات حقيقية. ومن الممكن أن تكون هذه المُناقشات قد حدثت في أفسس في زمن حرب "باركوخبا" المذكورة في الفصل الأول والتاسع.

ثالثًا: أعمال يوستينوس المفقودة

بالإضافة إلى الدفاعين والحوار مع تريفون، كتب يوستينوس عددًا من الكتابات الأخرى التي فُقدت، ولم تبقَ من هذه الأخيرة سوى العناوين أو بعض الشذرات الصغيرة. أحد هذه الأعمال ذكرها يوستينوس بنفسه، وآخر اقتبس منه إيرينيوس، وكثير منها جاء

ذكره في قائمة يوسابيوس. كما لا تزال هناك أعمال أخر اقتبس منها الكُتاب الكنسيون اللاحقون، وفيما يلي قائمة كتابات يوستينوس المعروفة لنا اليوم:

١. مقال ضد كل الهرطقات: ذلك العمل الذي يشير إليه يوستينوس بنفسه في الدفاع الأول: فصل ٢٦

٢. ضد ماركيون: وهو العمل الذي استخدمه القديس إيرينيوس في (ضد الهرطقات ٤ : ٦ : ٢)، ويذكره يوسابيوس في (Hist. Eccl. 4: 11: 8ff)

٣. مقالة ضد اليونانيين: وهو الذي يقول يوسابيوس بشأنه: "بعد مناقشة طويلة وموسعة تدور حول الكثير من الأشياء التي يتباحث فيها كل من المسيحيين والفلاسفة، يتحدث القديس يوستينوس عن طبيعة الشياطين."

٤. النُصح: وهو مقالة أخرى كانت بحسب يوسابيوس في (٤ : ١٨ : ٤)، موجهة إلى اليونانيين.

٥. عن سلطان الله: ذلك العمل الذي بناه يوستينوس ليس فقط على كُتبنا المقدسة، بل على كتب اليونانيين أيضًا.

٦. عن النفس: ويصف يوسابيوس محتوى هذا العمل في (٤ : ١٨ : ٥) هكذا: "يعرض يوستينوس فيه عدة أسئلة حول المشكلة محل النقاش، ويورد آراء الفلاسفة اليونانيين التي يعد بتفنيدها والإدلاء برأيه الخاص في كتاب آخر.

٧. كتاب بعنوان "المُرتل".

٨. في كتاب يوحنا الدمشقي "Sacra Parallela" ثلاث شذرات كبيرة من مقالة يوستينوس "عن قيامة الأموات"، ولكن أصالتها محل شك.

وفي الوقت الذي كانت فيه هذه الكتابات كلها قد فُقدت،

احتوت المخطوطات على عدد من الكتابات المنحولة تحت اسم يوستينوس. غير أنه من الجدير بالملاحظة أن ثلاثة من هذه الأعمال المنحولة لها عناوين تُشبه عناوين أعمال يوستينوس الأصلية المفقودة:

(أ) يُحاول كتاب "نُصح اليونانيين" (Cohortatio ad Graecos) أن يُقنع اليونانيين بالدين الحق في صورة خُطبة، فالأفكار التي كانت لدى الشعراء اليونانيين بخصوص الآلهة مُستهجنة، كما أن تعاليم الفلاسفة فيما يتعلق بالقضايا الدينية مليئة بالتناقضات. ويجد المرء الحق مع موسى والأنبياء، هؤلاء الذين عاشوا قبل الفلاسفة اليونانيين. لكن، يمكن للمرء أن يجد آثارًا من معرفة الله الحقيقية حتى في أعمال الشعراء والفلاسفة اليونانيين، إلا أن القدر القليل من الصلاح الذي تحتويه تلك الأعمال مأخوذ من كُتب اليهود. ويختلف موقف كاتب "نُصح اليونانيين" من الفلسفة اليونانية عن موقف القديس يوستينوس بشكل لافت للنظر، حتى إنه لهذا السبب وحده لا يمكن أن تُنسب كتابة هذا العمل إليه. لكن إلى جانب هذا، فإن أسلوبه الأدبي يفوق أسلوب يوستينوس، كما أنه يستخدم مُفردات لغوية مميزة. كل هذه الأسباب معًا كافية لتُثبت أن العمل ليس أصيلاً. وقد كُتب "نُصح اليونانيين" على الأرجح في القرن الثالث الميلادي، ويتكون من ٣٨ فصلاً، وهو أطول الكتابات المنسوبة إلى يوستينوس.

(ب) أما العمل الأقصر كثيرًا فهو المعروف باسم "خطاب إلى اليونانيين" (Oratio ad Graecos)، والذي يبلغ عدد فصوله خمسة فقط. والعمل زاهٍ ومفعم بالحياة من حيث الأسلوب الأدبي، ومُكثف وجذّاب من حيث الترتيب. ومثلما هو واضح من محتواه، هو عبارة عن دفاع مُهتدٍ يوناني عن نفسه، إنه "دفاع عن حياته" (Apologia pro vita sua). يهاجم الكاتب استباحة الآلهة الوثنية كما يصورها هوميروس (Homer) وهيزيود (Hesiod)، ثم يختم خطابه بدعوة

حماسية لاعتناق المسيحية. ويدل كل من الأسلوب البلاغي الرفيع والمعرفة الممتازة بالأساطير اليونانية على أن القديس يوستينوس ليس بكاتب هذا العمل. ويرجع زمن كتابة "الخطاب" على الأرجح إلى النصف الأول من القرن الثالث الميلادي، ونحن نملك نصّين له: النص الأقصر موجود باللغة اليونانية، أما الأطول، والذي حرَّره شخص اسمه أمبروسيوس (Ambrosius)، فموجود فقط في ترجمة سريانية.

(ج) أما العمل المعروف باسم "عن الرئاسة الواحدة" (De Monarchia) (٦ فصول) هو مقال يسعى لإثبات وحدانية الله من خلال الاستشهاد بأشهر شعراء اليونان. ويشهد اختلاف الأسلوب الأدبي لهذا العمل عن أسلوب يوستينوس بأن يوستينوس ليس بكاتبه، علاوة على ذلك، يعطي يوسابيوس وصفًا لمحتوى عمل يوستينوس الأصيل (De Monarchia)، وهو لا يتطابق مع محتوى هذا المقال.

وإلى جانب هذه الأعمال الثلاثة، هناك عدد من الأعمال الأخرى التي تنسبها المخطوطة إلى يوستينوس. وتتشابه أربعة من هذه الأعمال بشدة من حيث اللغة والتعاليم اللاهوتية حتى إنه لا بد من أن يكون كاتبها شخصًا واحدًا، ويبدو أن هذا الأخير قد عاش حوالى عام ٤٠٠م وكان له علاقة ما بسوريا. وهذه المقالات هي:

(أ) أسئلة وأجوبة عن الأورثوذكس: عمل يحتوي على مائة وواحد وستين سؤالاً وإجابة تتعلق بمسائل تاريخية، وعقائدية، وأخلاقية، وتفسيرية.

(ب) أسئلة المسيحيين للأمم: تشتمل هذه المقالة على خمسة أسئلة عقائدية يوجهها المسيحيون إلى الوثنيين ثم يجيب الوثنيون عليها، لكن يتم تفنيد هذه الإجابات لكونها تعج بالتناقضات.

(ج) أسئلة اليونانيين للمسيحيين: تشتمل هذه المقالة على خمسة

عشر سؤالاً يسألها الوثنيون، والعدد نفسه من أجوبة المسيحيين، وذلك فيما يتعلق بجوهر الله، وقيامة الأموات، وعقائد مسيحية أخرى.

(د) تفنيد بعض العقائد الأرسطوطالية: ويفند هذا العمل، في خمس وستين فقرة، تعاليم أرسطو فيما يتعلق بالله والعالم.

ولقد تعذرت معرفة هوية الكاتب الحقيقية لهذه المقالات حتى اليوم، فينسبها (A. Harnack) إلى "ديودوروس الطرسوسي" (Diodorus of Tarsus)، في حين فكر آخرون في "ثيودوريت الكورشي" (Theodoret of Cyrus) الذي تنسب إليه مخطوطة القسطنطينية كتابة "أسئلة وأجوبة عن الأورثوذكس"، لكن لا يمكننا أن نضمن بأي حال من الأحوال أن إيًّا منهما هو الكاتب.

وإلى جانب هذه المقالات الأربع، تنسب المخطوطات المقالات التالية ليوستينوس:

(هـ) شرح الإيمان أو عن الثالوث (Expostitio Fedei seu de Trinitte)، وهو شرح لعقيدة الثالوث، وكاتب هذا العمل غير معروف، لكن يبدو أنه لا يعود إلى ما قبل القرن الخامس الميلادي.

(و) رسالة إلى زينا وسيرينوس (Epistola ad Zenam et Serenum)، وهي دليل مفصل للسلوك النسكي المسيحي، مع وصايا تتعلق بفضيلتي التواضع والهدوء وهي تُذكرنا بالتعاليم الأخلاقية التي للفلسفة الرواقية. ويعتقد (P. Batiffol) أن "سيسينيوس القسطنطيني" هو كاتب الرسالة، وأنها قد كُتبت حوالى عام ٤٠٠م.

فكر القديس يوستينوس اللاهوتي

ينبغي أن نتذكر عند تحليل الفكر اللاهوتي للقديس

يوستينوس، أننا لا نملك وصفًا كاملًا ومفصلًا للإيمان المسيحي بقلمه، كذلك يجب علينا أن نأخذ في الاعتبار أن أعماله اللاهوتية الأصيلة، مثل "عن سلطان الله" و"عن النفس" و"عن قيامة الأموات" و"تفنيد جميع الهرطقات" و"ضد ماركيون"، قد فُقدت. ولا يمدنا "الدفاعان" و"الحوار مع تريفون" بصورة كاملة شاملة عن يوستينوس الشهيد كمعلم لاهوتي. لقد كانت لدى يوستينوس، في الأعمال المضادة للهرطقات، فرصة أكبر بكثير ليبحث ويتعمق في المسائل الخاصة بالعقيدة، في حين أنه، عند دفاعه عن الإيمان ضد غير المؤمنين، يركز بالأكثر على احتكام الإيمان إلى العقل. ويسعى يوستينوس ليشير إلى التشابهات الحاصلة بين تعاليم الكنيسة وتعاليم المفكرين والشعراء اليونانيين، وذلك لكي يبين أن المسيحية هي الفلسفة الوحيدة الآمنة والمفيدة. ولهذا السبب، ليس من المفاجئ أن يكشف التعليم اللاهوتي للقديس يوستينوس عن تأثير أفلاطوني؛ فمن بين كل النُسُق الفلسفية الوثنية، كان يوستينوس يُجِل النسق الأفلاطوني بالأكثر.

١. مفهوم الله

هناك بالفعل، في مفهوم يوستينوس عن الله، ميل واضح للفلسفة الأفلاطونية. الله لا بداية له (ἀῤῥητος)، ومن هذه الحقيقة يجب علينا أن نستنتج أنه لا اسم له: "لا ينبغي أن نطلق اسمًا على أبي الكل، غير المولود. لأن كل من يُدعى باسم يكون من سماه أكبر منه. أما الكلمات مثل "الآب" و"الله" و"الخالق" و"السيد" فليست بأسماء، لكنها ألقاب مشتقة من أعماله ووظائفه الصالحة. إن لقب "الله" ليس اسمًا، لكنه فكرة مزروعة في طبيعة البشر بخصوص الشيء الذي لا يمكن تفسيره." (٢: ٦).

وأفضل اسم له هو "الآب"، لأنه بما أنه هو الخالق، فهو حقًّا أبو كل الأشياء (πατὴρ τῶν ὅλων, ὁ πάντων πατήρ). وينكر يوستينوس الحضور الجوهري لله في كل مكان، فبحسبه، يسكن الله الآب في المناطق التي تعلو السماء، ولا يمكنه أن يغادر مكانه، ولهذا السبب لا يمكنه أن يظهر في العالم: "إن من يملك أقل قدر من الذكاء لن يجرؤ أن يقول إن الخالق وأبا كل الأشياء قد ظهر في بقعة صغيرة من الأرض تاركًا كل الأمور فوق السمائية." (Dial. 60) "لأن الآب الذي لا ينطق به، و رب كل الأشياء، لا يأتي إلى أي مكان، ولا يسير، ولا ينام، ولا يقوم، بل يبقى في مكانه أيا كان هذا المكان، ينظر بسرعة ويسمع بسرعة، بلا عيون له ولا آذان، إلا أنه ذو قوة لا توصف؛ يعرف كل الأشياء، ولا يفلت واحد من ناظريه. أنه لا يتحرك لأي بقعة من العالم كله ولا يتقيد بها، لأنه كان موجودًا قبل أن يُخلق العالم. كيف إذن يمكنه أن يتكلم لأي شخص، أو أن يراه أي شخص، أو أن يظهر على أصغر بقعة من الأرض في حين كان الشعب في سيناء غير قادرين حتى على النظر إلى مجده الذي أرسله؟" (Dial. 127)

ولكن بما أن الله مُتعالٍ وسامٍ فوق كل البشر، من اللازم إذن أن يُقام جسرٌ فوق الهوة التي تفصل بين الله والإنسان، وهذا ما فعله اللوغوس "الكلمة"، فاللوغوس هو الوسيط بين الله الآب والعالم. فالله يتواصل مع العالم من خلال اللوغوس فقط، ويظهر نفسه من خلاله بشكل حصري. إذًا، يكون اللوغوس هو الدليل إلى الله ومُعلِّم الإنسان، وهو في الأصل كان يسكن كقوة بداخل الله، لكن قبل خلق العالم بوقت قصير، خرج وصدر منه ثم خلق العالم بنفسه.

ويوستينوس في حواره مع تريفون يشرح ولادة اللوغوس بصورتين مختلفتين: "أنها تشبه بالضبط ما نراه يحدث في حالة النار، تلك التي

لا ينقص منها شيء عندما تُشعَل منها نار أخرى لكن تبقى على حالها كما هي، كذلك تظهر النار التي أُشعلت كما لو كانت موجودة من تلقاء نفسها بدون أن تنقص من وهج تلك التي أُشعلت منها." (Dial. 61). أو بالضبط مثل العمل الذي يخرج من الإنسان بدون أن ينقص من جوهره. هكذا لا بد أن تُفهم ولادة اللوغوس، الكلمة الإلهي، باعتبار عملية تحدث داخل الله.

أما عند الحديث عن العلاقة بين الآب والابن، فيبدو أن يوستينوس يميل إلى "الخضوعية" أو "التبعية التراتبية" (Subordinationism)، وهذا يتضح من كلامه في (Apology 2, 6): "ابنه الوحيد الذي يليق به وحده أن يسمى "الابن" و"الكلمة"، الوحيد الذي كان معه وولد منه قبل المخلوقات. وعندما خلق الآب به في البدء كل شيء ودبره، سماه "المسيح" في إشاره إلى أنه قد مُسح، وأن الله به دبر كل شيء." ومن ثم، يبدو أن يوستينوس يفترض أن اللوغوس قد استقل خارجيًّا بغرض خلق العالم وتدبيره فقط[١٢]. لقد منحته الوظيفة الشخصية وجودًا شخصيًّا، فأصبح شخصًا إلهيًّا، لكنه خاضع للآب[١٣]. (Cf. Dial. 61)

وتعاليم يوستينوس عن اللوغوس هي أهم تعاليمه، لأنها تشكل جسرًا بين الفلسفة اليونانية والمسيحية، ذلك لأن يوستينوس يعلم أنه بالرغم من أن اللوغوس الإلهي قد ظهر بملئه في المسيح، إلا أن

---

[١٢] إن تعبير "ولد منه قبل المخلوقات" لا يعني أن الولادة قد حدثت قبل خلق المخلوقات بفترة وجيزة أو قد حدثت فقط من أجل خلق المخلوقات، ولكن هذا التعبير قد يعني التفريق بين ولادة الابن أزليًا والتي بالتأكيد هي قبل خلق المخلوقات في الزمن. [المراجع]

[١٣] يقول ق. يوستينوس في حوار: ٦١ عن الابن "يصنع إرادة الآب وولد بإرادة الآب" ومن الواضح أنه لم يكن يفرق بين الولادة بالطبيعة من جوهر الآب والولادة بإرادة الآب وهو ما يبدو واضحًا من كلامه التالي، فعلى الرغم من أنه يقول عن الابن إنه ولد بإرادة الآب إلا أنه يصفه بأنه كلمة الآب وحكمته وقدرته ومجده وهذا في الحقيقة يتماشى مع التعليم بأن الابن مولود بالطبيعة وليس بالإرادة من جوهر الآب. وهذا الأمر قد حسمه الآباء في مجمع نيقية فيما بعد حيث أكدوا أن الابن مولود بالطبيعة من جوهر الآب وليس بإرادة الآب. [المراجع]

"بـذرة اللـوغـوس" كـانت قـد انـتـشـرت بـين الجـنـس الـبـشـري برمـه قبل المسيح بوقت طويل، لأن كل إنسان يمتلك بـذرة (σπέρμα) من اللـوغـوس. ومـن ثـم، ليس فقط أنبياء العهد القديم، بـل حتى الفلاسفة اليونانيون، قد حملوا بذرة خصبة من اللوغوس في نفوسهم، فعلى سبيل المثال، كان "هيراقليطس" (Heraclitus)، و"سقراط"، والفيلسوف الرواقي "ميسونيوس" (Musonius) هـؤلاء الذين عاشوا بحسب توجيهات اللوغوس الكلمة الإلهي - مسيحيين حقًا: "لقد تعلمنا أن المسيح هو بكر الله، وقد أوضحنا أنه هو اللوغوس الذي يشترك فيه كل البشر، وأن هؤلاء الذين عاشوا بحسب اللوغوس هم مسيحيون، حتى لو اُعتبروا ملحدين، مثل هـؤلاء الذين كانوا بين اليونانيين، سقراط، وهيراقليطس، وأناس مثلهم" (Apology 1: 46)

هـكـذا، لا يمـكـن أن يـكـون هـنـاك تـعـارض بـين المسيحية والفلسفة، لأن: "كل حق نطق به البشر مهما كان هو ملك لنا نحن المسيحيين. لأننا، إلى جانب الله، نعبد ونحب اللوغوس الذي هو من الله غير المولود وغير الموصوف. لأنه من أجلنا صار إنسانًا، حتى يشترك في آلامنا ويجلب لنا الشفاء. فكل الكُتَّاب، من خلال بذرة اللوغوس التي طُعمت فيهم، كان لهم قبس من الحقيقة، لأن بذرة الشيء وتقليده الـذي يُعطى بحسب قـدرة ذاك الـذي يناله هو أمر، والشيء نفسه الـذي يُشترك فيه بحسب نعمة الله هو أمـر مختلف تمامًا." (Apology 2: 13)

ويـقـول أيـضًـا: "لأنـه مهما كـان الـشـيء الحـسـن الـذي نطق به المشرِّعون أو الفلاسفة، فقد توصلوا إليه بعثورهم على جزء من الـلـوغـوس والـتـأمـل فـيـه. لـكـن بمـا أنـهـم لم يـكـن لـديـهـم معرفة باللوغوس كـامـلًا، الـذي هو المسيح، كـانوا كثيرًا ما يناقضون أنفسهم. كذلك هؤلاء الذين كانوا من جهة الولادة أقدم من المسيح،

عندما كانوا يحاولون أن يفكروا في الأشياء ويثبتونها بالمنطق، كانوا يمثلون أمام المحاكم باعتبارهم أشرارًا وفضوليين. ولقد اُتُّهِمَ سقراط، الذي كان في هذا الاتجاه أكثر اجتهادًا من جميعهم، بنفس الجرائم التي نُتهم بها نحن. لأنهم قالوا إنه قدم آلهة جديدة، ولم يعتقد بهذه الآلهة التي اعترفت بها الدولة.... لكن مسيحنا قد فعل هذه الأشياء بقوته الخاصة، لأنه لم يحدث أن أحدًا آمن بسقراط إلى درجة أن يموت في سبيل هذه التعاليم، لكن بالمسيح، ذاك الذي كان معروفًا لسقراط جزئيًا، لأنه كان ولا يزال اللوغوس الذي يسكن في كل إنسان." (Apology 2, 10)

وهكذا يعطي يوستينوس إثباتًا ميتافيزيقيًا لوجود عناصر الحق في الفلسفة الوثنية، لكنه بالإضافة إلى هذا، لديه أيضًا إثبات تاريخي. فالفلاسفة الوثنيون قد نطقوا بالكثير من الأقوال الصحيحة لأنهم كانوا قد استعاروها من أدب اليهود، من العهد القديم: "إن موسى أقدم من جميع الكُتَّاب اليونانيين، كما أنه مهما كانت أقوال كل من الفلاسفة والشعراء عن خلود النفس أو العقاب ما بعد الموت، أو التأمل في الأمور السماوية، أو ما يشبه هذا من تعاليم، فقد حصلوا على مثل هذه التلميحات من الأنبياء، لأنها قد مكنتهم من أن يفهموا هذه الأمور ويفسروها. ومن ثم، يبدو أن هناك بذارا للحق منتشرة بين جميع الناس." (Apology 1: 44)

لكن المسيحيين وحدهم هم الذين يمتلكون الحق الكامل، لأنه في المسيح يتجلى الحق بذاته.

٢. مريم وحواء

كان يوستينوس هو أول كاتب مسيحي يضيف نظيرًا للمُقارنة التي كتبها القديس بولس الرسول بين آدم والمسيح، وذلك بمقارنة

مريم بحواء، فهو يقول التالي في حواره مع تريفون (فصل ١٠٠) "لكن المسيح صار إنسانًا بواسطة العذراء حتى يدمر العصيان الذي خرج من الحية بنفس الطريقة التي بدأ بها. لأن حواء التي كانت عذراء لم تُدنس، بعدما حبلت بكلمة الحية، ولدت عصيانًا وموتًا. لكن العذراء مريم نالت إيمانًا وفرحًا عندما بشرها الملاك جبرائيل بالأخبار السارة، وهي أن روح الرب سيحل عليها، وقوة العلي ستظللها؛ لأن القدوس المولود منها هو ابن الله. وأجابته قائلة: "ليكن لي كقولك". ومنها قد وِلد ذاك الذي قد ثبت أن الكثير من نبوات الكتب المقدسة تشير إليه، والذي به يدمر الله كلًّا من الحية وهؤلاء الملائكة، ومن مثلهم من البشر."

٣. الملائكة والشياطين

يوستينوس هو أحد الكُتَّاب الأوائل الذين يشهدون لإكرام الملائكة: "الطغمات الأخرى من الملائكة الصالحين الذين يتبعونه ويتشبهون به، والروح النبوي الذي نعبده ونكرمه." (Apology 1: 6)

والملائكة يعتنون بالبشر جميعًا من السماء: "إنه قد أسند مهمة العناية ببني البشر وكل الأشياء التي تحت السماء إلى ملائكة عينها عليهم." (Apology 2: 5)

ويوستينوس ينسب إلى الملائكة أجساما تشبه الأجسام البشرية بالرغم من طبيعتها الروحانية: "مما هو واضح بالنسبة لنا هو أنهم يأكلون في السماء، هذا بالرغم من أنهم لا يتغذون على طعام يشبه طعام البشر؛ لأنه بالنسبة للمن الذي اغتذى عليه آباؤكم في الصحراء تقول الكتب المقدسة إنهم أكلوا "طعام الملائكة"." (Dial. 57) أما حقيقة كون القديس يوستينوس ينسب الجسد للملائكة فتظهر في رأيه بشأن سقوط الملائكة، فلقد كانت خطيئة الملائكة

الساقطين تتمثل في اتصالهم الجنسي بنسوة بشريات: "لقد تعدت الملائكة هذه الوظيفة، وفُتنت بحب النساء، وولدت أولادًا هم هؤلاء الذين نسميهم بالشياطين." (Apol. 2: 5)

والشياطين عقابهم في النار الأبدية بعد عودة المسيح (Apol. 1: 28). ولهذا، ما زالت لديهم القدرة حتى الآن ليضلوا البشر ويغووهم، فبعد مجيء المسيح أصبح كل مسعاهم هو أن يمنعوا الإنسان من الاهتداء إلى الله واللوغوس (Apol. 1: 26, 54, 57, 62). وهذا قد أثبته الهراطقة الذين هم أدوات الشياطين، لأنهم يبشرون بإله غير الآب وابنه. لقد أعمت الشياطين اليهود وأثارتهم ليسببوا كل تلك الآلام للوغوس الذي ظهر في يسوع، لكن ولأنهم يعرفون أن المسيح سوف يضم أغلب أتباعه من بين الأمم، لذلك كانوا متلهفين على نحو خاص ليفسدوا فرصته بينهم. ومن اللافت للنظر في هذا الخصوص ما يقوله يوستينوس عن تأثير اسم يسوع على الشياطين: "نحن نسميه المعين والمخلِّص، والقوة التي باسمها ترتعد الشياطين. واليوم، عندما تُطرد الشياطين باسم يسوع المسيح، الذي صُلب في عهد بيلاطس البنطي حاكم اليهودية، تتم هزيمتهم. وهكذا يظهر للجميع أن أباه قد منحه قوة عظيمة جدًا بها تخضع الشياطين لاسمه." (Dial. 30)

٤. الخطية الأصلية[١٤] والتألُّه

كان يوستينوس مقتنعًا بأن كل إنسان له إمكانية التأله. وكان هذا على الأقل هو الحال في بداية الخليقة، لكن الأبوين الأولين قد وقعا في الخطية وجلبا الموت على نفسيهما. ولكن الآن، استعاد كل إنسان القدرة على أن يصبح إلهًا: "لقد خلقوا على مثال الله، مُتحررين

---

[١٤] المقصود هنا هو الخطية الأولى التي دخل بها الموت إلى العالم.

من الآلام والموت، بشرط أن يحفظوا وصاياه، وحسبوا مستحقين أن يحملوا اسم أبنائه. لكنهم ـ مثل آدم وحواء ـ جلبوا الموت على أنفسهم: ليكن تفسير المزمور (٨١) كما تُريدونه أن يكون، لكن هكذا يظهر أن كل البشر قد حُسبوا مستحقين أن يصبحوا آلهة وأن يكون لهم القدرة على أن يصبحوا أبناء للعلي. إلا أنهم سقطوا تحت الحكم والدينونة كآدم وحواء." (Dial. 124)

٥. المعمودية والإفخارستيا

إن وصف ليتورجية المعمودية وليتورجية الإفخارستيا الذي يعطيه يوستينوس في نهاية الدفاع الأول هو ذو قيمة استثنائية، فهو يقول بشأن المعمودية: "ولسوف أحكي أيضًا عن الطريقة التي بها نكرس أنفسنا لله حينما نُجدد من خلال المسيح، مخافة من أن نبدو غير منصفين في الشرح الذي نقوم به إذا لم نذكرها. بما أن هناك كثيرين مقتنعون ومؤمنون بأن ما نعلم به ونقوله حقيقي آخذين على عاتقهم أن يعيشوا بحسبه، يتم إرشادهم ليصلوا ويتضرعوا إلى الله بالصوم من أجل غفران خطاياهم السابقة، ونصلي ونصوم معهم. ثم نحضرهم إلى حيث يوجد ماء، فيُجددون بنفس الطريقة التي تجددنا بها. لأنهم حينئذ ينالون الغسل بالماء باسم الله الآب سيد الكون، ومُخلصنا يسوع المسيح، والروح القدس .. وقد تعلمنا من الرسل السبب في هذا ـ الطقس ـ لأننا في ميلادنا الأول قد ولدنا من اجتماع أبوينا بدون معرفتنا وبلا اختيار منا ثم كبرنا في عادات سيئة وتدريب شرير، وحتى لا نظل أولادًا للجبر والجهل بل نصبح أولادًا للاختيار والمعرفة، وحتى نحصل على غفران الخطايا التي ارتكبناها في السابق. وهناك، يُدعى ذاك الذي اختار أن يولد من جديد وتاب عن خطاياه باسم الله الآب سيد الكون، فذاك الذي يقود الشخص المزمع

أن يغتسل إلى حيث الجُرن يدعوه بذلك الاسم وحده. ويُسمى هذا الغُسل بـ "الاستنارة"، لأن هؤلاء الذين يتعلمون هذه الأمور يستنيرون روحيًا. لكنه يدعوه أيضًا باسم يسوع المسيح الذي صُلب في عهد بيلاطس البنطي، وباسم الروح القدس الذي بواسطة الأنبياء سبق وأخبر بكل الأمور المتعلقة بيسوع المسيح." (Apol. 1, 61)

وهناك وصفان لخدمة الإفخارستيا في دفاعي يوستينوس. يصف يوستينوس في الأول (فصل ٦٥) الليتورجية الإفخارستية الخاصة بالمعمدين حديثًا، ويعطي في الثاني (فصل ٦٧) تفاصيل خدمة الأحد المعتادة. وتبدأ خدمة الآحاد بقراءة من الأناجيل القانونية التي يسميها يوستينوس صراحة بـ "مُذكرات الرسل"، أو من أسفار الأنبياء. يلي هذا عظة تحتوي على تطبيق أخلاقي لما قد جاء في القراءات. بعد هذا، تصلي الجماعة من أجل المسيحيين وجميع البشر في العالم كله، وفي ختام الصلاة يتبادل الأعضاء جميعهم قُبلة السلام. حينئذ، يُقدم إلى الرئيس الخبز والخمر والماء، فيتلو صلاة التقديس عليها. ويوزع الشمامسة التقدمات التي تم تقديسها على الحاضرين ويوصلونها إلى الغائبين. غير أن يوستينوس يضيف صراحة أن هذا الخبز ليس خبزًا عاديًا، وأن هذا الخمر ليس خمرًا عاديًا، لكنهما جسد ودم يسوع المتجسد، وهو يستشهد بكلمات التأسيس كدليل على هذا. وقد تُرك أمر صياغة كلمات الصلاة الإفخارستية للرئيس المُحتفل، لكن يوستينوس يذكر أن الإفخارستيا تُقدس بصلاة تحتوي على كلمات المسيح نفسه. إذًا، يبدو أنه ليس فقط كلمات التأسيس هي التي كانت جزءًا من الصلاة، بل على الأرجح كانت رواية التأسيس برمتها جزءًا ثابتًا من صلاة التقديس. لهذا السبب، يمكن للمرء هنا أن يتكلم عن ليتورجية نصف ثابتة (semirigid)، لأن بها عناصر ثابتة ولكن مع ذلك يبقى فيها مكان أيضًا للارتجال

الشخصي الذي يقوم به الكاهن المُقدِّس.

ومن الملفت للنظر أن يوستينوس، في وصفه لخدمة الإفخارستيا التي تتبع نوال سر المعمودية، لا يذكر القراءات التي تُتلى من الكتب المقدسة ولا العظة التي يلقيها الرئيس، ويبدو أنهما قد حُذفتا بسبب مراسم المعمودية التي سبقتهما. أما وصفه للقداس الخاص بالمعمدين حديثًا فهو كالتالي: "لكننا، بعد أن نغسل ذاك الذي قد آمن ورضي، نحضره إلى هؤلاء المدعوين إخوة في مكان اجتماعهم، حتى نرفع معًا بكل قلوبنا صلاة لأجل أنفسنا، ولأجل الشخص الذي نال الاستنارة، ولأجل الآخرين الذين في كل مكان، حتى نُحسب مستحقين. والآن بعد أن عرفنا الحق، يجب أن نكون مواطنين صالحين وحافظين للوصية، وذلك حتى ننال الخلاص الأبدي. وبعد أن نفرغ من الصلاة، نسلم على بعضنا بعضًا بقبلة. حينئذ يُقدم إلى رئيس الإخوة خبزًا وكأسا من الماء والخمر، فيستلمهما، ثم يأخذهما معطيًا السُبح والمجد لأبي كل شيء باسم ابنه والروح القدس؛ ثم يقدم شكرًا طويلًا لكوننا قد حُسبنا مستحقين أن ننال هذه الأمور على يديه. وبعد أن يختم الصلوات والتشكُّرات، يبدي جميع الحاضرين موافقتهم بقولهم "آمين"، وهذه الكلمة "آمين" باللغة الآرامية تعني "ليكن كذلك". وبعد أن يحتفل الرئيس بالإفخارستيا، ويبدي الجميع موافقتهم، يقوم هؤلاء الذين ندعوهم شمامسة بإعطاء كل واحد من الحضور جزءًا من خبز الإفخارستيا والخمر والماء، ثم يبقون على جزء للغائبين. ونحن نسمي هذا الطعام "الإفخارستيا"، ولا يسمح لأحد أن يشترك فيه إلا من يؤمن أن الأمور التي نُعلم بها صحيحة واغتسل في الحوض من أجل غفران الخطايا والولادة الجديدة، ومن ثم يعيش وفقًا لما أمر به المسيح. نحن لا نتناول الخبز والخمر كأنهما خبز وخمر عاديان، لكن كما أن كلمة

الله يسوع المسيح مخلصنا قد صار جسدًا وصار له لحم ودم من أجل خلاصنا، هكذا أيضًا الطعام الذي يُبارك بكلمة الصلاة التي خرجت منه والذي تغتذي عليه أجسادنا ودماؤنا بالاستحالة، هو أيضًا ـ كما تعلمنا ـ جسد ودم يسوع نفسه الذي صار جسدًا؛ لأن الرسل في المُذكرات التي كتبوها والمدعوة أناجيل قد أوضحوا أنهم قد أُمِروا أن يفعلوا كالتالي: أن يسوع قد أخذ خبزًا وشكر وقال: "اصنعوا هذا لذكري، هذا هو جسدي"، وبطريقة مماثلة، شكر وقال: "هذا هو دمي"، ثم ناولهما لهم وحدهم". (Apology 1: 62)

ويعطي القديس يوستينوس وصفًا لقداس الأحد العادي في الفصل رقم (٦٧). وهو يفسر حقيقة كون هذا اليوم قد أُختير ليصبح يوم الاجتماع الليتورجي للجماعة المسيحية بقوله إنه فيه خلق الله العالم وقام المسيح من بين الأموات: "وفي ذلك اليوم الذي يُدعى الأحد، يجتمع كل من يعيش في القرى أو المدينة في مكان واحد، ثم تُقرأ مُذكرات الرسل أو كتابات الأنبياء بحسب ما يسمح الوقت. ثم يختم القارئ، فيرشدنا الرئيس ويعظنا لنتمثل بهذه الأمور الرائعة، ثم ننهض جميعًا ونقدم صلواتنا. وكما قلت قبلًا، بعد أن نختم صلواتنا يؤتى بخبز وخمر وماء؛ ثم يقوم الرئيس على نحو مماثل برفع صلوات وتشكرات بقدر ما يستطيع، فيوافق الناس قائلين "آمين"؛ وتوزع الإفخارستيا ويشترك الجميع فيها، وتُرسل أجزاء للغائبين بواسطة الشمامسة. ثم يتبرع الأغنياء إذا ما أرادوا، بالذي يريدون أن يتبرعوا به، كل بحسب ما يقدمه. وتترك التبرعات في عهدة الرئيس الذي يساعد بها الأيتام، والأرامل، والمحتاجين بسبب المرض أو أي سبب آخر، وهؤلاء الذين في السجون، والغرباء الذين في سفر، وباختصار، كل من في حاجة. لكن يوم الأحد هو اليوم الذي نقيم فيه اجتماعنا العام لأنه هو اليوم الأول الذي خلق فيه العالم عندما حول الظلام والمادة. وقد قام يسوع

المسيح مخلصنا من بين الأموات في اليوم نفسه." (Apology 1: 67)

وقد ثار نقاش حاد لا يزال مستمرًا حول ما إذا كان يوستينوس قد اعتبر الإفخارستيا ذبيحةً أم لا. لكن، يمكننا أن نجد الفقرة الحاسمة بخصوص هذا الأمر في حواره مع تريفون اليهودي (الفصل ٤١): ""لا مسرة لي بكم يقول الرب؛ ولا أقبل ذبائحكم من أيديكم. لأنه من مشرق الشمس إلى مغاربها قد تعظم اسمي بين الأمم، وفي كل مكان يقدم لاسمي بخور وذبيحة طاهرة. لأن اسمي عظيم بين الأمم يقول الرب، أما أنتم فنجستموه". ثم يتكلم عن هؤلاء الأمم، يقصدنا نحن، الذين في كل مكان يقدمون له الذبائح. أي خبز الإفخارستيا وأيضًا كأس الإفخارستيا، مؤكدًا على أننا نعظم اسمه وأنتم تنجسونه." ولا شك أن يوستينوس هنا يساوي بوضوح بين الإفخارستيا والذبيحة التي تنبأ عنها ملاخي. غير أنه ثمة فقرات أخرى يرفض فيها يوستينوس الذبائح بشكل واضح، وهكذا يقول في حواره (فصل ١١٧): "أعترف أنه الآن عندما تُقدم هذه الصلوات والتشكُّرات ـ ذبيحة الشكر (الإفخارستيا) بواسطة رجال يستحقون، تكون هي الذبائح الوحيدة المرضية عند الله". كما أن لديه فكرة مشابهة تظهر في الفصل (١٣) من دفاعه الأول: "إن الإكرام الوحيد اللائق به هو ألا نحرق بالنار ما قد خلقه لإعالتنا، لكن أن نستخدمه لفائدتنا ولفائدة المحتاجين، وأن نقدم له الشكر بامتنان بالتسابيح والتراتيل، لأنه قد خلقنا". وقد استنتج البعض من هذه التعليقات أن يوستينوس يرفض الذبائح كلها ويقبل الصلاة فقط، خاصة الصلاة الإفخارستية. لكن هذا التفسير لا يفي فكره حقه، فلا يمكن لأحد أن يدرك مفهوم يوستينوس عن الذبيحة إن لم يأخذ في حسبانه تعاليمه فيما يخص اللوغوس. إن ما يرفضه يوستينوس حقًّا هو الذبائح المادية الحيوانية كما مارسها كل من اليهود والوثنيين. وهو

يحاول بمفهومه عن الذبيحة أن يصنع جسرًا يعبر الفجوة التي تفصل بين الفلسفة الوثنية والمسيحية بالضبط كما يستخدم مفهومه عن اللوغوس لنفس الغرض. إن مفهومه المثالي عن الذبيحة هو (λογικὴ θυσία) أو الذبيحة العقلية التي أعلن الفلاسفة اليونانيون أنها هي العبادة الوحيدة اللائقة بالله. في هذه الحالة، كما في حالة اللوغوس، تُعتبر المسيحية بمثابة التحقيق الكامل للمُثُل الفلسفية لأن بها مثل هذه الذبيحة. لهذا السبب، يتفق يوستينوس مع كل من الفلاسفة اليونانيين وأنبياء العهد القديم في أن الذبائح الخارجية لا بد أن تبطل، فلم يعد هناك مكان للذبائح الدموية المادية. إن الإفخارستيا هي الذبيحة العقلية التي طال انتظارها، إنها هي الـ (λογικὴ θυσία)، وذلك لأن اللوغوس نفسه يسوع المسيح هو الذبيحة. وتعريف يوستينوس لـ (λογικὴ θυσία) باعتبار هي نفسها الإفخارستيا قد ثبت أنه صحيح. كما أنه بإدخال يوستينوس هذه الفكرة إلى التعليم المسيحي، استأثر للمسيحية بأرفع إنجازات الفلسفة اليونانية، وشدد في الوقت نفسه على الطابع الجديد والمميز للعبادة المسيحية. لقد أبقى يوستينوس على الذبيحة المدركة بالحواس، لكنه من ناحية أخرى شدد على الطابع الروحاني للعبادة المسيحية، الذي بسببه تفوقت على الذبائح الوثنية واليهودية جميعها. وهكذا يُعبر مصطلح "الذبيحة العقلية" (Oblatio rationabilis) الوارد في ليتورجية القداس الروماني، عن مفهوم يوستينوس للذبيحة أفضل من أي كلمة أخرى.

٦. الأفكار الأخروية

أما فيما يتعلق بأفكار يوستينوس الأخروية، فهو يشارك المؤمنين بالملك الألفي اعتقادهم بهذا الملك: "لكني أنا وغيري من المسيحيين

ذوي الآراء السليمة في كل شيء متأكدون من أنه سيكون هناك قيامة للموتى ثم ألف سنة في أورشليم التي سوف تُبنى وتُزين وتوسع." لكنه يشعر أنه مُلزم بأن يعترف بأنه ليس كل المسيحيين لهم نفس وجهة النظر الألفية تلك: "إني أقول لك إن كثيرًا من هؤلاء الذين ينتمون إلى الإيمان النقي والصالح هم مسيحيون حقيقيون لكنهم يفكرون بطريقة مختلفة." (Dialogue 80)

وبحسب يوستينوس، تدخل أرواح المنتقلين إلى الهاوية أولًا ثم تبقى هناك إلى أن ينتهي العالم. والاستثناء الوحيد هم الشهداء، فأرواحهم تذهب مباشرة إلى السماء. لكن حتى في الهاوية، تنفصل أرواح الصالحين عن أرواح الأشرار، فأرواح الصالحين تبتهج متوقعة خلاصها الأبدي، بينما أرواح الأشرار تعسة بسبب عقوبتها وشيكة الوقوع. (Dialouge 5; 80)

تاتيان السوري

ولد تاتيان - السوري المنشأ - من أبوين وثنيين. وكما ذكرنا أعلاه، كان تاتيان تلميذًا ليوستينوس الشهيد. وهو يشترك مع معلمه في أنه بعد الكثير من الحيرة قد وجد أن التعاليم المسيحية هي الفلسفة الوحيدة الصحيحة. وهو يزودنا بالمعلومات التالية عن أسباب اهتدائه إلى المسيحية: "ولأني كنت قد رأيتُ هذه الأشياء، وبالأكثر لأني أيضًا قد سُمح لي بالدخول إلى الأسرار، ولأني في كل مكان قد فحصت الشعائر الدينية التي يقوم بها المخنثون والمأبونون، ووجدت أنه بين الرومان يتلذذ "جوبيتر" بالأشلاء البشرية ودماء الرجال المذبوحين، وأن أرطميس - في مكان لا يبعد كثيرًا عن المدينة العظيمة - تُجيز أفعالًا من نفس النوع، وأن شيطانًا هنا وآخر هناك يحض على ارتكاب الشر، أويت إلى نفسي، وبحثت عن

الكيفية التي بها يمكنني أن أصبح قادرًا على أن أجد الحق. وبينما كنت أولي اهتمامًا جادًا جدًّا لهذه المسألة، حدث أن وقعت في يدي كتابات قديمة جدًّا مقارنة بآراء اليونانيين، وإلهية جدًّا على أن تُقارن بضلالهم. وقد قادني عدم تكلُّف هذه الكتابات، وشخصية كُتابها غير المصطنعة، ومعرفتها المُسبقة بأحداث المُستقبل، ونوعية وصاياها الممتازة، وإعلانها عن أن مقاليد الأمور في الكون تتمركز في يد كائن واحد، إلى أن أؤمن بها. ولقد تعلمت روحي من الله، فاكتشفت أن الفئة الأولى من الكتابات - كتابات اليونانيين - تقود إلى الدينونة، في حين تصنع هذه (الفئة) حدًّا للعبودية التي في العالم وتنقذنا من تعددية الحُكّام ومن عشرة آلاف طاغية، في حين لا تُعطينا بكل تأكيد ما لم يكن لنا قبل أن نناله، لكن تعطينا ما كنا قد نلناه لكن الضلالة قد منعتنا من الاحتفاظ به." (Orat. 29).

ويبدو أن اهتداء تاتيان إلى المسيحية قد حدث في روما، وهناك تردد على المدرسة التي أنشأها يوستينوس. وبالرغم من أن يوستينوس كان مُعلم تاتيان، إلا أنه بمجرد مقارنة كتابتهما سنلاحظ وجود تضاد حاد بينهما، وهذا يظهر على وجه الخصوص في التقييم الذي يعطيه كل منهما للفلسفة والثقافة غير المسيحية، ففي حين يحاول يوستينوس أن يجد عناصر للحق في كتابات بعض المفكرين اليونانيين، يعلِّم تاتيان بالتخلي الكامل عن الفلسفة اليونانية من حيث المبدأ. ويظهر يوستينوس في دفاعه عن المسيحية الكثير من الاحترام للفلسفة غير المسيحية، في حين يظهر تاتيان كراهية صميمة لكل ما ينتمي إلى الحضارة، والفن، والعلوم، واللغة اليونانية. لقد تطرفت شخصيته حتى إنه تصور أن المسيحية لم ترفض التعليم والثقافة المعاصرة بشكل كافٍ. وقد عاد تاتيان إلى الشرق حوالى عام ١٧٢م حيث أصبح مؤسسًا لطائفة "الإنكراتيين" (Encratites)

أي "المُتقشفين" التي تنتمي إلى مجموعة الغنوسيين المسيحيين. ولقد رفضت هذه الهرطقة الزواج باعتبار زنى، وأدانت استخدام اللحوم تحت أي صورة، وشرب الخمر، وتمادت في هذا حتى استبدلت بالخمر الماء في الخدمة الإفخارستية، ولهذا السبب لُقب المُنتمون إلى هذه الطائفة بالـ "Aquarii" أي المائيون. ونحن لا نعرف شيئًا عن موت تاتيان.

كتابات تاتيان

أولاً: الخطاب إلى اليونانيين

بقى من أعمال تاتيان عملان فقط، هما: "الخطاب إلى اليونانيين" و"الدياتسرون" (Diatessaron). وزمن كتابة "الخطاب إلى اليونانيين" والهدف من كتابته موضع خلاف، وأغلب الظن أنه قد كُتب بعد موت القديس يوستينوس، لكن من الواضح أنه لم يُكتب في روما. أما إن كان تاتيان قد كتبه قبل ارتداده أم بعده فلا يزال غير مؤكد. ويعتقد بعض الدارسين أن "الخطاب" ليس دفاعًا كُتب بهدف الدفاع عن المسيحية أو لتبرير تحول الكاتب إليها، بل عظة تعليمية تشتمل على دعوة للالتحاق بالمدرسة التي أنشأها الكاتب. لكن حتى لو كان قد أُلقي كخطاب في افتتاح المدرسة، فلا شك أنه في البداية كان التفكير هو أن يكون خطابًا موجهًا إلى العامة. غير أنه يبقى صحيحًا أن هذا الخطاب ليس دفاعًا عن المسيحية بقدر ما هو مقالة هجومية عنيفة متطرفة ترفض الثقافة اليونانية برمتها وتستخف بها، فهو يرى أن فلسفة، ودين، وإنجازات اليونانيين أمور حمقاء، مخادعة، ولا أخلاقية، وبلا قيمة. ويقول تاتيان في المقدمة إن أي شيء يبدو ذا قيمة في الحضارة اليونانية، قد أخذه اليونانيون من البرابرة، لكن معظمها بلا قيمة أو يشجع على اللاأخلاقية، كأشعارهم وفلسفتهم وبلاغتهم.

وينقسم الجزء الرئيس من هذا العمل إلى أربعة أقسام:

١. القسم الأول (فصول ٤ : ٣ ـ ٧ : ٦) ويحتوي على رؤية الكون من منظور مسيحي:

(أ) يعطي الكاتب تعريفًا للمفهوم المسيحي عن الله (فصل ٤ : ٣ ـ ٥)

(ب) ثم يتناول علاقة اللوغوس بالآب، وتكون المادة، وخلق العالم (فصل ٥)

(ج) يتبع هذا وصف لخلق الإنسان، وقيامة الموتى، والدينونة الأخيرة (فصول ٦ ـ ٧ : ١)

(د) في نهاية القسم (فصل ٧ : ٢ ـ ٨) يتناول تاتيان خلق الملائكة، وحرية الإرادة، وخطية آدم وحواء، والملائكة الأشرار والشياطين، وهذا الموضوع يقودنا إلى القسم الثاني.

٢. القسم الثاني (فصول ٨ ـ ٢٠) ويحتوي على رؤية للشياطين من منظور مسيحي:

(أ) علم التنجيم من اختراع الشياطين، ولقد أساء الإنسان استخدام حرية الإرادة، ومن ثم أصبح عبدًا للشياطين. لكن هناك إمكانية أن يحرر الإنسان نفسه من هذا القيد، وذلك بأن يتخلى تمامًا عن كل الأمور العالمية. (الفصول ٨ ـ ١١)

(ب) وللحصول على قدرة على هذا التخلي ومن ثم الهروب من قوة الشياطين، يجب علينا أن نسعى لكي ترجع نفوسنا لتتحد بالروح السماوي. وقد كان هذا "الروح" في الأصل يسكن في صدر الرجل الأول[١٥]، لكنه قد رحل عنه بسبب الخطية الأولى، تلك التي كانت من عمل الشياطين. (الفصول ١٢ ـ ١٥ : ١)

(ج) الشياطين هي صور للمادة والشر، لذا لا تستطيع أن تُقدم

---

[١٥] المقصود هنا هو آدم. [المراجع]

توبة، لكن البشر هم صور لله، وهكذا يستطيعون أن يبلغوا الخلود عن طريق إماتة الذات. (الفصول ١٥ : ٢ - ١٦ : ٦)

(د) على الإنسان ألا يخاف الموت لأنه مُرغم على أن يرفض المادة كلها حتى يحوز الخلود. (فصل ١٦ : ٧ - ٢٠)

٣. القسم الثالث (فصول ٢١ - ٣٠) ويتناول الحضارة اليونانية في ضوء الموقف المسيحي من الحياة:

(أ) جهل التعاليم اللاهوتية اليونانية تتناقض مع سمو سر التجسد تناقضًا حادًا. (فصل ٢١)

(ب) المسارح اليونانية هي مدارس الرذيلة، وحلبة المصارعين تُشبه المجزرة. والرقص، والموسيقى، والشعر هي أمور أثيمة وبلا قيمة. (فصول ٢٢ - ٢٤)

(ج) الفلسفة اليونانية والقانون اليوناني متناقضان ومُخادعان (فصول ٢٥ - ٢٨)

(د) يُشرق على خلفية الحضارة اليونانية المُظلمة سمو الديانة المسيحية بإشراق أكثر لمعانًا. (فصول ٢٩ - ٣٠)

٤. القسم الرابع ويتناول عصر المسيحية وقيمها الأخلاقية (فصول ٣١ - ٤١):

(أ) الديانة المسيحية أقدم من كل الديانات الأخرى، لأن موسى عاش قبل هوميروس والمُشرعين اليونانيين كلهم بزمن طويل، بل وحتى قبل الحكماء السبعة. (فصول ٣١ : ١ - ٦، ٣٦ - ٤١).

(ب) الفلسفة المسيحية والسلوك الحياتي المسيحي يخلوان من كل حسد وحقد، ولهذا السبب يختلفان عن حكمة الكُتَّاب اليونانيين. وتعود الاتهامات الباطلة الموجهة إلى المسيحيين باللاأخلاقية وأكل لحوم البشر على هؤلاء الذين افتروها من عابدي الآلهة اليونانية، لأن مثل هذه الجرائم مُتكررة ومعروفة في العبادة اليونانية.

ولا يمكن وصم أخلاقية ونقاء المسيحيين بمثل هذه الافتراءات. (فصول ٣١: ٧ - ٣٥).

وفي الختام، يقدم تاتيان نفسه لأي نقد:

"يا أيها اليونانيون، أنا تاتيان، تلميذ الفلسفة البربرية، قد كتبت هذه الأمور من أجلكم. لقد ولدت في أرض الأشوريين، وتثقفت أولاً بتعاليمكم، ثم بعد هذا تثقفت بهذه التعاليم التي أخذت على عاتقي أن أنشرها من الآن فصاعدًا، عارفًا من هو الله وما هي أعماله، أقدم نفسي إليكم مستعدًّا لاختبار عقيدتي في حين ألتزم ثابتًا بأسلوب الحياة الذي بحسب الله." (Ch. 42, ANF 2: 81/2)

ثانيًا: الدياتسرون

إن أهم أعمال تاتيان هو "الدياتسرون" (Tὸ διὰ τεσσάρων εὐαγγέλιον). وهو في حقيقته، عبارة عن توفيق بين الأناجيل الأربعة. ولقد أطلق عليه تاتيان عنوان "الذي من خلال الأربعة" لأنه ينسق فقرات من الأناجيل الأربعة معًا ليؤلف منها رواية إنجيلية واحدة متواصلة. وقد كان هذا الكتاب لوقت طويل يستخدم رسميًّا في ليتورجية الكنيسة السريانية، ولم تُستبدل به الأناجيل الأربعة القانونية قبل القرن الخامس الميلادي.

وقد كُتب الدياتسرون في أغلب الظن بعد عودة تاتيان إلى الشرق، وقد فُقدت النسخة الأصلية، فيبقى السؤال قائمًا إذا ما كان الدياتسرون قد جُمع معًا باليونانية أم بالسريانية، إلا أن هناك من الأسباب ما يجعلنا نفترض أن تاتيان قد كتبه باليونانية ثم ترجمه بعد ذلك إلى السريانية. ومؤخرًا فقط اكتشف الأثريون الأمريكيون شذرة من نص الدياتسرون اليوناني، وهي تتكون من أربعة عشر سطرًا وجدت أثناء الحفريات التي قامت بها جامعة "جون هوبكينز"

(John Hopkins) في منطقة "دورا إيروبوس" بسوريا عام ١٩٣٤، ومن الواضح أنها قد كُتبت قبل عام ٢٥٤م. ويبدو أن وجود نص يوناني يعود إلى مثل هذا التاريخ المبكر يعزز من الرأي القائل بأن الدياتسرون قد كُتب أصلًا باليونانية. ويمكننا أن نعيد تكوين النص كاملًا من الترجمات الباقية لدينا. ولقد حُفظ الدياتسرون في ترجمات عربية، ولاتينية، وفرنكونية متوسطة. علاوة على ذلك، ألف "إفرايم سايروس" (Ephrem Syrus) تفسيرًا للدياتسرون في الفترة ما بين ٣٦٠م و٣٧٠م، وهو لا يزال في حوزتنا، وإن يكن ليس في نصه السرياني الأصلي، بل في ترجمة أرمنية تعود إلى القرن السادس الميلادي. وتوحي كل هذه الترجمات للدياتسرون بأنه قد أثر بدرجة عالية على النصوص الإنجيلية الخاصة بالكنيسة كلها. ولقد نشأ نص الترجمة اللاتينية للدياتسرون في زمن مبكر، وهو يشكل المحاولة الأولى لتقديم الإنجيل باللغة اللاتينية.

وقد فُقدت كل كتابات تاتيان الأخرى، وهناك ثلاثة منها قد ذُكرت بواسطة المؤلف نفسه في الدفاع الذي كتبه، فالفصل الخامس عشر من هذا العمل يفترض مسبقًا أن تاتيان كان قد كتب فيما مضى مقالة بعنوان "عن الحيوان" (περὶ ζῴων)، وفي الفصل السادس عشر يوضح أنه في مناسبة أخرى كتب عملًا عن الشياطين، ثم يُعلن في الفصل الرابع عشر أنه بصدد كتابة عمل مستقبلي عن "هؤلاء الذين يتباحثون في الأمور الإلهية". ويقتبس كليمندس السكندري في (Stromat. 3: 81: 1f) فقرةً من مقالة تاتيان "عن الكمال بحسب وصايا المخلص". كذلك يقول رودون (Rhodon) إن مُعلمه تاتيان "قد أعد كتابًا عن المعضلات" أخذ فيه على عاتقه أن يبين ما كان مبهمًا أو مخفيًا في الكتب الإلهية. إضافة إلى ذلك، يقول يوسابيوس إن تاتيان: "قد جرؤ على أن يعيد

صياغة بعض كلمات الرسول (بولس) ظنًا منه أنه يصحح أسلوبه الأدبي." (Hist. Eccl. 4: 29: 6)

ميلتيادس

ولد ميلتيادس الخطيب في آسيا الصغرى، وهو معاصر لتاتيان، وقد كان أيضًا على أغلب الظن تلميذًا ليوستينوس. ولسوء الحظ فُقدت كل كتاباته؛ لكن ترتليانوس (Adv. Valent. 5) وهيبوليتوس (Eusebius, Hist. Eccl. 5: 28: 4) يذكران أنه قد دافع عن المسيحية ضد الوثنيين والهراطقة على حد سواء. وبحسب ما يذكر يوسابيوس في (Hist. Eccl. 5: 17: 5) كتب ميلتيادس "دفاعًا عن الفلسفة المسيحية" وجهه إلى "الحُكام الأرضيين". ويبدو أن "الحُكام" المقصودين هنا هم على الأرجح الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١م - ١٨٠م) وشريكه في الحكم لوسيوس فيروس[١٦] (١٦١م - ١٦٩م). وقد كان عمله "ضد اليونانيين" المكون من جزئين ذا طبيعة دفاعية مشابهة، وكذلك كان الحال بالنسبة لعمله الآخر "ضد اليهود" والمكون أيضًا من جزئين. وقد تناولت المقالة التي كتبها ميلتيادس ضد المونتانيين مسألة "أنه لا يجب أن يتكلم النبي بنشوة صوفية (أو دهش) (Ecstasy)"، مُبينًا أن الأنبياء المونتانيين أنبياء كذبة. كذلك توجد مقالة أخرى لميلتيادس ضد الهراطقة كانت موجهة ضد الغنوسيين الفالنتينيين[١٧].

---

[١٦] لوسيوس فيروس كان قد شارك ماركوس أوريليوس الحكم في الفترة (١٦١م - ١٩٦م)، وقد انتصر على المملكة الفارسية في الشرق بعد محاولة لعودتها مرة أخرى.

[١٧] نسبة إلى فالنتينوس الذي ولد في دلتا نهر النيل حوالى عام ١٠٠م وتعلم في الإسكندرية. وقد أوجد أكاديمية للبحث الحر، كان من ثمرتها جماعات لها صبغة دينية بلا ضوابط. شهد له حتى مقاوموه بأنه كان معروفًا ببلاغته وعبقريته. وربما كان أكثر الغنوسيين تأثيرًا وكان له أتباع كثيرون وأقام كثير من تلاميذه مدارس خاصة بهم. [المراجع]

أبوليناريس أسقف هيرابوليس

كان كلاوديوس أبوليناريس أسقفًا لهيرابوليس، مدينة بابياس، في عهد الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٦١م - ١٨٠م). ويقول عنه يوسابيوس في (Hist. Eccl. 4: 27): "من بين كتابات أبوليناريس الكثيرة والتي حُفظت على نطاق واسع، وصلتنا الكتابات التالية: مقالة موجهة إلى الإمبراطور سابق الذكر ماركوس أوريليوس، خمسة كُتب ضد اليونانيين (πρὸς Ἕλληνας)، وكتابان عن الحق (περὶ ἀληθείας)، وكتابان ضد اليهود (πρὸς Ἰουδαίους)، ثم بعد هذا المقالة التي كتبها ضد هرطقة الفيرجيين (المونتانيين) والتي كانت قد قامت منذ وقت ليس بطويل، ثم بدأت حينها في النمو حيث كان مونتانوس مع نبياته الكاذبات، يضعون بداية الضلالة". ولم يبقَ لدينا أي كتاب من هذه الكتب التي ذكرها يوسابيوس، والأمر نفسه صحيح بالنسبة لعمل آخر لأبوليناريس لم يذكره يوسابيوس، لكنه كان معروفًا لكاتب كتاب "Chronicon paschale". وقد كان عنوان هذا العمل هو "عن الفصح". (περὶ τοῦ πάσχα) والاقتباسان اللذان يستشهد بهما كاتب الـ (Chronicon) توحيان بأن أبوليناريس كان ضد الموعد الأربعشري للفصح[١٨].

أثيناغوراس الأثيني

كان أثيناغوراس معاصرًا لتاتيان، لكنه يختلف عنه وعن يوستينوس على حد سواء، فرأيه في الفلسفة والحضارة اليونانية

[١٨] أي الاحتفال بالفصح في الرابع عشر من شهر نيسان بغض النظر عن كونه أي يوم من أيام الأسبوع. [المرجع]

كان أخف وطأة من رأي تاتيان، لكنه من ناحية أخرى يُظهر قدرات أكبر بكثير من قدرات يوستينوس، وذلك من حيث اللغة والأسلوب الأدبي وترتيب المحتوى. وهو بالفعل وبكل تأكيد أكثر المُدافعين المسيحيين القدامى بلاغة، فهو يحب الاقتباسات المأخوذة من الشعراء والفلاسفة، ويستخدم مُصطلحات وعبارات فلسفية. ويمكن أن نرى في كل من أسلوب أثيناغوراس الأدبي وإيقاعه أنه قد درس بمدرسة للبلاغة، وأنه قد قصد الكتابة وفقًا لأسلوب الأتيكيين (Atticists) البلاغي والأدبي.

ونحن لا نكاد نعرف أي شيء عن حياة أثيناغوراس، لأنه قد ذُكر في الأدب المسيحي القديم مرة واحدة (Methodius, De ressurrectione, 1: 36: 6 - 37: 1). وكان (Th. Zanh) يرى أن أثيناغوراس هو نفسه الذي أهدى إليه "بويثوس" (Boethos) الفيلسوف الأفلاطوني، كتابه المُعنون بـ "عن المصطلحات الصعبة عند أفلاطون" كما ذكر فوتيوس في (Bibl. Cod. 154f). وقد لُقب أثيناغوراس في عمله المعنون بـ "التوسل من أجل المسيحيين" بلقب "الفيلسوف المسيحي الأثيني". وبالإضافة إلى هذا العمل، كتب أثيناغوراس مقالة عن قيامة الأموات.

كتابات أثيناغوراس

أولًا: التوسل من أجل المسيحيين

كُتب "التوسل من أجل المسيحيين" πρεσβεία περὶ τῶν Χριστιανῶν) حوالى عام ١٧٧م، ووجهه أثيناغوراس إلى الإمبراطورين ماركوس أوريليوس أنطونينوس ولوكيوس أوريليوس كومودوس. وكان هذا الأخير ابنًا لماركوس أوريليوس الذي منحه لقب "إمبراطور" عام ١٧٦م. ولقد كُتب هذا العمل في لهجة هادئة،

وهو مُرتب بشكل جيد.

وتحتوي مقدمة هذا العمل (الفصول ١ ـ ٣) على العنوان، وتذكُر صراحة الهدف من كتابته: "سوف تعرفون من هذا الخطاب أننا نتألم ظلمًا ومخالفةً لكل القوانين والمنطق، مما سوف يُحتم على الحُكام أن يُبطلوا بقوة القانون هذه المعاملة المُهينة."

ثم يُفند أثيناغوراس في الفصول (٤ ـ ٣٦) التهم الثلاث التي وجهها الوثنيون إلى المسيحيين، وهي الإلحاد، وأكل لحوم البشر، وارتكاب زنى المحارم مع الأم:

١. ليس المسيحيون ملحدين، فبالرغم من أنهم لا يؤمنون بالآلهة الوثنية إلا أنهم يؤمنون بالله، فهم يعبدون الإله الواحد. ويمكن للمرء أن يجد الميل إلى التوحيد حتى عند بعض الشعراء والفلاسفة الوثنيين، لكن لم يحدث أبدًا أن اتهم أحد ما هؤلاء الرجال بالإلحاد بالرغم من أنهم لم يعطوا سوى أدلة ضعيفة على صدق أفكارهم. لكن المسيحيين قد تلقوا إعلانًا وتعليمًا إلهيًا بخصوص هذا الأمر من أنبيائهم، هؤلاء الذين أوحي إليهم بالروح القدس. إضافة إلى هذا، توجد لدى المسيحيين إثباتات منطقية لإيمانهم، فالمفهوم المسيحي عن الله أكثر نقاوة وكمالاً من الذي للفلاسفة، وهذه حقيقة يُظهرها المسيحيون، لا بالكلام فقط، بل بالأفعال أيضًا: "من من هؤلاء الفلاسفة اليونانيين قد طهر روحه حتى إنه بدلاً من أن يكره أعداءه أحبهم؛ وبدلاً من أن يتفوه بكلام بذيء عمن لعنوه باركهم؛ وصلى من أجل الذين يتآمرون على حياته؟ ... لكنكم سوف تجدون بيننا رجالاً غير متعلمين، وحرفيين، ونساء عجائز، هؤلاء الذين وإن لم يستطيعوا بالكلام أن يثبتوا فائدة تعاليمنا، إلا أنهم بأفعالهم يُظهرون فائدة امتلاكهم للحق الذي بها." (Apol. 11) وللسبب نفسه، أي كونهم يعبدون إلهًا واحدًا، فإن المسيحيين لا يعبدون آلهة

مُتعددة، ولهذا ليست لديهم ذبائح مثل الوثنيين، ولايؤمنون بالآلهة الوثنية. والأكثر من ذلك أنهم لا يُحبون العالم الذي هو أكبر من أي وثن، لكنهم يعبدون خالقهم.

٢. ليس المسيحيون مدانين بجريمة أكل لحوم البشر. إنهم لا يقتلون أحدًا، والأكثر هو أنهم لا يشهدون جريمة قتل وهي تتم، بالرغم من أن هذا الأمر يُعد مُتعة خاصة عند الوثنيين كما تدل عروض المُصارعين. كذلك يحترم المسيحيون الحياة البشرية أكثر من الوثنيين، ولهذا السبب يدينون جريمة التخلي عن الأطفال واهمالهم. إن إيمانهم بقيامة الأجساد كاف وحده لجعلهم يمتنعون عن أكل لحوم البشر.

٣. اتهام المسيحيين بارتكاب الزنى مع أمهاتهم - عقدة أوديب[١٩] ليس إلا نتيجة للكراهية، فالتاريخ يُظهر أن الرذيلة كانت دائمًا ما تضطهد الفضيلة. إن المسيحيين بعيدون جدًا عن ارتكاب مثل هذه الجرائم حتى إنهم لا يسمحون بارتكاب خطية ضد طهارة الفكر. كما أن الأفكار المسيحية فيما يتعلق بالزواج والعذرية تدل على شدة احترامهم للعفة.

وخاتمة الدفاع (الفصل ٣٧) عبارة عن توسل من أجل مُحاكمة عادلة: "والآن، بعد أن فندت التُهم العديدة، وأثبت أننا صالحون، ولطفاء، وودعاء بالروح؛ احنيا رأسيكما الملكيتين في موافقة. لأن من يستحق أن يأخذ ما يسأل، أكثر من هؤلاء الذين مثلنا يصلون لأجل حكومتكما، لكي يكون، وهو الأكثر إنصافًا، أن تسلم المملكة للابن من الأب، و(يصلون) حتى تزيد مساحة إمبراطوريتكما ويضُاف إليها، وحتى يخضع البشر جميعهم تحت سلطانكما؟ أيضًا

---

[١٩] عقدة أوديب هي مفهوم أنشأه سيجموند فرويد و استوحاه من أسطورة أوديب الإغريقية وهي عقدة نفسية تطلق على الذكر الذي يحب والدته ويتعلق بها ويغير عليها من أبيه ويكرهه، وهي المقابلة لعقدة إليكترا عند الأنثى. [المراجع]

من مصلحتكما أن نعيش حياة سلامية هادئة، وأن نفعل بطيب خاطر كل ما عُهد إلينا به".

ثانيًا: عن قيامة الأموات

يتكلم أثيناغوراس في نهاية الدفاع (فصل ٣٦) عن خطبة عن قيامة الأموات، وقد حُفظت لنا تحت عنوان "عن قيامة الأموات" (περὶ ἀναστάσεως νεκρῶν). وتذكُر مخطوطة "أريثاس"، التي تعود لعام ٩١٤م، صراحة أن هذه الخطبة بقلم أثيناغوراس، وهي تأتي مباشرة بعد دفاعه. والطابع الفلسفي موجود بوضوح في هذه المقالة، كما أنها تُثبت قيامة الأموات مستخدمة المنطق.

وتتكون المقالة من قسمين: الأول (فصول ١ ـ ١٠) يتناول موضوع الله والقيامة، مظهرًا أن حكمة الله، وقدرته الكلية، وعدالته، لا تتعارض مع قيامة الأموات، بل أنها في تناغم معها.

أما القسم الثاني (فصول ١١ ـ ٢٥) فيتناول موضوع الإنسان والقيامة. وقيامة الأموات ضرورة تقتضيها الطبيعة البشرية:

١. لأن الإنسان قد خُلق من أجل الأبدية (فصول ١٢ ـ ١٣).

٢. لأن الإنسان يتكون من جسد ونفس. وعلى هذه الوحدة التي دمرها الموت أن تُجدد بواسطة القيامة حتى يتمكن الإنسان من أن يعيش للأبد. (فصول ١٤ - ١٧).

٣. سيكُافأ الجسد والروح على حد سواء، لأن كليهما كان خاضعًا للنظام الأخلاقي، هكذا سيكون من الظلم أن تُترك الروح تُعاقب وحدها على ما فعلته مدفوعة من الجسد، هكذا أيضًا، على نحو مماثل، سيكون من الظلم ألا يُكافأ الجسد على الأعمال الصالحة التي تمت بالتعاون معه. (فصول ١٨ - ٢٣).

٤. خُلق الإنسان لينال السعادة، تلك التي لا يمكنه أن يبلغها في

هذه الحياة الأرضية، لكنه سيبلغها في حياة أخرى (فصول ٢٤ ـ ٢٥).

سمات الفكر اللاهوتي لأثيناغوراس

١. كان أثيناغوراس هو أول من حاول أن يثبت وحدانية الله علميًّا. فهو، في سبيل تحقيق هذا الهدف، حاول أن يُثبت وحدانية الله، التي شهد لها الأنبياء، باستخدام أسلوب التفكير التأملي. وهو يقوم بهذا عن طريق دراسة العلاقة القائمة بين وجود الله والمكان: "إذًا، فيما يتعلق بالتعليم الذي يقول بإنه من البداية كان هناك إله واحد، خالق هذا الكون، تفكرا فيه بالحكمة التي تجعلكما عارفين بالأساس الجدلي الذي تأسس عليه إيماننا. فإنه إن كان هناك منذ البدء إلهان أو أكثر، فإما أن يكونا في المكان الواحد نفسه أو أن كلا منهما كان في مكانه الخاص المنفصل عن الآخر. ولا يمكن أن يكونا في المكان الواحد نفسه. لإنهم إن كانوا آلهة فهم غير متشابهين؛ لأن غير المخلوقين غير متشابهين. الأشياء المخلوقة تُشبه من خلقت على مثاله؛ لكن غير المخلوقين غير متشابهين، لأنهم لم يولدوا من أحد ولم يخلقوا على مثال أحد... لكن لو كان الأمر على العكس من هذا، وكان كل منهم في مكانه منفصلاً عن الآخر، و بما أن هذا الإله الذي خلق العالم يسكن فوق الأشياء التي خلقها ورتبها، أين إذن يمكن أن يوجد الإله الآخر أو الآلهة الأخرى؟ لأنه إن كان العالم، قد خُلق دائريًّا، محدودًا بدائرة السماء، وخالق العالم يسكن فوق الأشياء التي خلقها، مُدبرًا إياها بعنايته الإلهية، أي مكان إذن قد بقى لإله آخر أو آلهة أخرى؟"

٢. أثيناغوراس أكثر وضوحًا من القديس يوستينوس وأقل تحفُظًا منه في تعريفه للاهوت اللوغوس ووحدته الجوهرية مع الآب. فهو يتجنب الخضوعية التي نادى بها المدافعون اليونانيون الآخرون كما

يمكننا أن نرى في الفقرة التالية: "لكن إذا حدث وطلبتما أن تعرفا بذكائكما الفائق معنى "الابن"، فسوف أقول باختصار إنه ناتج من الآب، ليس كمن أُحضر إلى الوجود، لأنه من البدء كان الله، الذي هو العقل (νοῦς) الأزلي، لديه اللوغوس في نفسه، كونه منذ الأزل مفعم باللوغوس (λογικός). لكن ما إن صدر ليكون هو الفكرة والقوة المُنشطة لكل الأشياء المادية، تلك التي كانت خامدة كطبيعة بلا أي صفة مميزة، وأرضًا غير نشطة، حتى اختلطت الأجزاء الأثقل بالأجزاء الأخف. والروح النبوي أيضًا يتفق مع أقوالنا، فهو يقول: "الرب جعلني أول طرقه لأجل أعماله." (Apol. 10, ANF 2, 133)

٣. أما بخصوص الروح القدس، فيقول أثيناغوراس: "نحن نؤكد أيضًا أن الروح القدس، العامل في الأنبياء، ينبثق من الله، ويفيض منه، ثم يعود إليه مرة أخرى مثل شعاع من الشمس" (Apol. 10)

٤. واحدة من أفضل الفقرات اللاهوتية الموجودة في الدفاع، هو ذلك التعريف الماهر لعقيدة الثالوث المسيحية، والذي يعد، بالنسبة لزمن ما قبل مجمع نيقية، متطورًا بشكل مدهش: "لقد أظهرت بما يكفي أننا لسنا ملحدين، كوننا نعبد إلهًا واحدًا، فمن إذن لا يصيبه الذهول عندما يسمع أن الرجال الذين يتكلمون عن الله الآب، والله الابن، والروح القدس، معلنين اتحادهم في القوة وتمايزهم في الترتيب، يلقبون بالملحدين؟" (Apol. 10, ibidem)

٥. وهو يقول في الفصل نفسه بشأن وجود الملائكة: "نحن نعترف أيضًا بوجود جماهير من الملائكة والخُدام الذين وزعهم الله، صانع العالم ومُخططه، وحدد لهم مهامهم المتعددة بواسطة كلمته، ليعتنوا بالعناصر، والسماء، والعالم، والأشياء التي به، والتدبير الجيد لهم جميعًا."

٦. كما أن أثيناغوراس هو شاهد ممتاز لعقيدة الوحي: "لأن

الشعراء والفلاسفة قد اتبعوا طريق الحدس في هذا الأمر كما في كل الأمور الأخرى، فتحرك كل واحد منهم بروحه، بسبب انجذابه للإلهام الذي من الله، ليُجرب ما إذا كان سيكتشف الحقيقة ويدركها أم لا. لكنهم لم يكونوا أهلًا بشكل كامل ليدركوها، لأنهم ظنوا أنه من المناسب ألا يتعلموا من الله عن الله، بل أن يُعلم كل واحد نفسه، هكذا توصل كل واحد منهم إلى استنتاج خاص به عن الله، والمادة والشكل، والعالم. لكن، نحن لدينا شهود على الأمور التي ندركها ونؤمن بها، إنهم الأنبياء، وهم رجال قد تكلموا عن الله وأمور الله مسوقين بروح الله. أنتما أيضًا ستعترفان.. بأنه سيكون من غير المنطقي بالنسبة لنا أن نكُف عن الإيمان بالروح الذي من الله، الذي قد حرك أفواه الأنبياء مثل آلات موسيقية، ونكترث لمجرد آراء بشرية." (Apol. 7, ANF 2, 132)

٧. وهو يرفع من شأن البتولية كواحدة من أجمل ثمار الأخلاق المسيحية: "سوف تجدان بيننا رجالًا ونساء قد كبروا ولم يتزوجوا رغبة في شركة أعمق مع الله." (Apol. 33) وبهذه الكلمات يُحدد أثيناغوراس بشكل جيد الهدف الإيجابي من البتولية المسيحية.

٨. وفيما يتعلق بالمفهوم المسيحي عن الزواج يقول أثيناغوراس في نفس الفصل: "ولأننا لدينا رجاء في الحياة الأبدية، نرفض كل أمور هذه الحياة، حتى مُتع النفس، فكل واحد منا يعتبر المرأة التي تزوجها بحسب القوانين التي وضعناها زوجة له، وهذا فقط بغرض إنجاب الأطفال. لأنه كما أن المُزارع ينثُر البذور في الأرض ينتظر الحصاد ولا ينثُر المزيد منها، هكذا أيضًا بالنسبة لنا إنجاب الأطفال هو مقياس انغماسنا في الشهوة الغريزية." وتدل كلمات أثيناغوراس بكل وضوح على أن الأطفال هم الهدف الأول والأخير من الزواج، وبالمثل، تُظهر فقرة أخرى الصراع الذي كان على المسيحيين الأوائل

أن يخوضوه في سبيل الدفاع عن حق الأطفال الذين لم يولدوا بعد في الحياة. فبينما كان الوثنيون يتهمون المسيحيين بارتكاب جرائم قتل أثناء عبادتهم، رد أثيناغوراس على هذا الاتهام كالتالي: "حينما نقول إن أولئك النسوة اللائي يتعاطين العقاقير ليجهضن أنفسهن يرتكبن جريمة قتل وسوف يعطين حسابًا أمام الله عن هذا، على أي أساس يمكننا نحن أنفسنا أن نرتكب جريمة قتل؟ لأنه لا يمكن لنفس الشخص أن يعتبر الجنين في بطن أمه كائنًا مخلوقًا ومن ثم موضعا لعناية الله، ثم يقتله عندما يخرج إلى الحياة؛ ولا أن يترك رضيعًا - لأن من يهملونهم متهمون بقتل الأطفال - ثم عندما يكبر يقتله. لكننا في كل الأمور [مواقفنا] واحدة لا تتغير، مُخضعين أنفسنا للعقل لا مهيمنون عليه." (Apol. 35, ANF 2, 147). وإشارة أثيناغوراس هنا للجنين باعتبار "كائنا مخلوقا" هي على جانب كبير من الأهمية، فوفقًا للقانون الروماني في ذلك الوقت، لم يكن الجنين يعتبر "كائنا" على الإطلاق، ولم يكن له حق في الوجود.

٩. وأثيناغوراس مقتنع للغاية باستحالة انفصام الزواج، لدرجة أنه، بحسب رأيه، حتى الموت لا يمكنه أن يفصم الرابطة الزوجية. كما أنه يذهب إلى أبعد من هذا بإطلاقه على الزواج الثاني لقب "الزنى المُهذب": "على المرء إما أن يبقى كما ولدته أمه أو أن يكتفي بزيجة واحدة؛ لأن الزواج الثاني ما هو إلا زنى مُهذب... لأن من يفصم نفسه عن زوجته الأولى، حتى لو كانت ميتة، فهو زانٍ مُقنع، ويقاوم يد الله، لأنه من البدء خلق الله رجلًا واحدًا وامرأة واحدة." (Apology, 33, ANF 2, 146 f)

ثيوفيلوس الأنطاكي

كان ثيوفيلوس، كما يقول يوسابيوس في (Hist. Eccl. 4: 20)،

سادس أسقف على مدينة أنطاكيا بسوريا. ويظهر من كتاباته أنه ولد بالقرب من نهر الفرات من أبوين وثنيين، ونال تعليمًا هيلّينيًّا. ولم يعتنق ثيوفيلوس المسيحية إلا بعد أن بلغ سن الرشد، وحتى في ذلك الحين، لم يكن هذا إلا بعد تفكير طويل ودراسة للكتب المقدسة. وهو يقول التالي بشأن اهتدائه إلى المسيحية: "لا تكن متشككًا بل مؤمنًا؛ لأني أنا نفسي أيضًا كنت أشك في قيامة الموتى؛ لكن بعد أن فكرت في هذه الأمور، صرت مؤمنًا. وفي الوقت عينه، تقابلت مع الكتب المقدسة التي للأنبياء القديسين، هؤلاء الذين بروح الله سبق وأخبروا بالأمور التي تمت بالفعل كما حدثت، والأمور التي تحدث الآن كما تقع، والأمور المستقبلية بالترتيب الذي ستكمل فيه. لهذا، مُعترفًا بدليل الأحداث التي جرت كما سبق وتنبأ الأنبياء عنها، أصبحت لا غير مؤمن بل مؤمنًا مطيعًا لله." (الرسالة إلى أوتوليكوس ١ : ١٤).

كتاباته

لم يتبقّ من كتاباته سوى ثلاثة الكتب الموجهة إلى "أوتوليكوس" (Ad Autolycum). ولا بد من أنها قد كُتبت بعد سنة ١٨٠م بفترة قصيرة، لأن الكتاب الثالث يحتوي على تسجيل لتاريخ العالم حتى موت الإمبراطور ماركوس أوريليوس (١٧ مارس ١٨٠م). والكاتب في هذه الكتب الثلاثة يدافع عن المسيحية ضد اعتراضات صديقه الوثني أوتوليكوس (Autolycus).

في الكتاب الأول، يتكلم عن طبيعة الله، الذي لا يمكن أن يُرى إلا بعيون الروح: "يُبصر الله هؤلاء الذين أُعطي لهم أن يبصروه عندما فُتِحت عيون أرواحهم؛ لأن الجميع لديهم عيون؛ لكنها في البعض مُشتتة ولا تُبصر نور الشمس. إلا أن كون الأعمى لا يرى لا يعني أن

الشمس لا تُشرق؛ لكن على العميان أن يلوموا أنفسهم وعيونهم ... مثل المرآة المصقولة، هكذا يجب على الإنسان أن يُنقي قلبه. فعندما يكون هناك صدأ على سطح المرآة، لا يمكن للإنسان أن يرى وجهه فيها؛ هكذا أيضًا عندما يكون في الإنسان خطية، لا يمكن لمثله أن ينظر الله." (الرسالة إلى أوتوليكوس ١: ٢) وفوق ذلك، يتناول الكتاب الأول سخافة الوثنية، والفرق بين الاحترام المؤدى للإمبراطور والعبادة اللائقة بالله: "أنا أُفضل أن أحترم الإمبراطور، لن أعبده بكل تأكيد، بل أصلي لأجله. لكني أعبد الله، الإله الحي والحقيقي، عارفًا بأنه هو من خلق الإمبراطور." (الرسالة إلى أوتوليكوس ١: ١١) وفي الختام يناقش ثيوفيلوس معنى وأهمية اسم "مسيحي"، ذلك الاسم الذي استهزأ به خصمه. ثم بعد شرحه لعقيدة قيامة الأموات، يختم بالكلمات التالية: "بما أنك قلت لي: "أرني إلهك"، فهذا هو إلهي وأنصحك بأن تخافه وتثق به." (الرسالة إلى أوتوليكوس ١, ١٤)

ويُقارن الكتاب الثاني بين تعاليم الأنبياء، الذين أوحي لهم بالروح القدس، وحماقة الديانة الوثنية وتناقض أقوال الشعراء اليونانيين ـ مثل هوميروس وهيردوت ـ فيما يتعلق بالآلهة وأصل العالم، ويُحلل بشكل مفصل رواية سفر التكوين فيما يخص خلق العالم والجنس البشري، والفردوس والسقوط، ويفسرها رمزيًا. وفي الختام يقتبس الكاتب بعضًا من وصايا الأنبياء التي تدور حول الأسلوب الصحيح لعبادة الله والسلوك الحياتي اللائق. ومن المثير للاهتمام أن نلاحظ أن ثيوفيلوس يشير إلى هذه الوصايا باعتبار متساوية في السلطة مع الأقوال السيبلية[٢٠] (Sibyl)، وهكذا يحفظ لنا شذرتين طويلتين من أقوال السيبلية غير موجودة في أي من مخطوطات (Oracula Sibyllina).

---

[٢٠] هي خليط من تقاليد يهودية وإضافات مسيحية، وهي على نفس نمط النبوات (العرافة) اليونانية. [المراجع]

وتتكون هاتان الشذرتان من أربعة وثمانين عددًا، وهي تمتدح الإيمان بإله واحد بكلمات جميلة.

ويظهر الكتاب الثالث تفوق المسيحية من وجهة النظر الأخلاقية، وهو يفند افتراءات الوثنيين واتهامهم للمسيحيين بالاستباحة. ومن ناحية اخرى، يُثبت الكتاب لاأخلاقية الديانة الوثنية من خلال الشرور التي نسبها الكُتاب الوثنيين إلى الآلهة الوثنية. وأخيرًا، وحتى يظهر أن الديانة المسيحية أقدم من كل الديانات الأخرى، يستعمل ثيوفيلوس تاريخ العالم ليُثبت أن موسى والأنبياء أقدم من كل الفلاسفة.

كتاباته المفقودة

وإلى جانب ثلاثة الكتب الموجهة إلى أوتوليكوس، كتب ثيوفيلوس - بحسب ما يذكر يوسابيوس في (Hist. Eccl. 4: 24) - مقالة "ضد هرطقة هيرموجينيس"[٢١] (Hermogenes)"، وعملاً "ضد ماركيون"[٢٢]، و"بعض الكتابات التعليمية". كذلك يذكر جيروم في (De Viris Illustribus: 25)، إلى جانب المقالات التعليمية، عملين آخرين لثيوفيلوس، وهما "تفسير الأناجيل" و"تفسير أمثال سليمان". كما يتحدث جيروم في فقرة أخرى (Epistula 121: 6: 15) عن "اتفاق الأناجيل" بقلم ثيوفيلوس. ويشير ثيوفيلوس نفسه عدة مرات إلى عمل "عن التواريخ" (περὶ ἱστορίων) كان قد كتبه قبل أن يكتب ثلاثة الكتب الموجهة إلى أوتوليكوس. ويظهر من كلامه أنه كان عملاً يضم تاريخ البشرية، فهو يقول في (٢: ٣٠): "أما بالنسبة لهؤلاء

---

[٢١] هو رسام غنوسي من قرطاج، ظن أن المادة أزلية وأنها معادلة لله، وهكذا يكون هناك إلهان، وبحسب ترتليان استقى هرموجينيس عقيدته هذه من الفلسفة الوثنية ومن الرواقيين الذين علموه أن يضع المادة في نفس المكانة مع الله كما لو كانت سرمدية، غير مولودة وغير مخلوقة، بلا بداية ولا نهاية. [المراجع]

[٢٢] وُلِد في مدينة سينوب شمال تركيا نحو سنة ١٢٠ م.، وكان أبوه أسقفًا على المدينة، وتأثر ماركيون بالغنوسية بسبب تردده على مدرسة سردون الغنوسي السرياني في روما. [المراجع]

الذين يرغبون في أن يكونوا على دراية بكل الأجيال، من السهل أن يقدم إليهم شروحات باستخدام الكتب المقدسة، لأننا كما سبق وذكرنا قد عالجنا جزئيًا هذا الموضوع، أي ترتيب سلسلة نسب الإنسان، في الجزء الأول من كتابنا "عن التواريخ".

ولقد فقدت جميع كتابات ثيوفيلوس ما عدا ثلاثة الكتب الموجهة إلى أوتوليكوس. وقد بُذلت جهود لإعادة تجميعها، لكنها حتى هذه اللحظة قد باءت بالفشل. وقد ظن (Zhan) أنه قد اكتشف "تفسير الأناجيل" في تفسير لاتيني للأناجيل الأربعة حرره (M. de la Bigne) تحت اسم ثيوفيلوس في (Bibliotheca SS. Patrum, Paris, 1575, 5, 169-192)، إلا أنه قد اتضح أن هذا التفسير ما هو إلا خليط من أقوال كبريانوس، وأمبروسيوس، وجيروم، وأرنوبيوس الصغير المنحول، وأغسطينوس، وقد كُتب في نهاية القرن الخامس الميلادي. وعلى نحو مماثل، فشل (Loofs) عندما حاول أن يُثبت أنه من الممكن بشكل جزئي إعادة تجميع مقالة ثيوفيلوس المعنونة بـ "ضد ماركيون" من عمل إيرينيوس "ضد الهرطقات".

وبالرغم من أن ثيوفيلوس يقول عن نفسه إنه "غير بارع في فن الكلام" (٢: ١)، إلا أنه يظهر دراية جيدة بفن البلاغة. صحيح أنه يكتب بأسلوب سهل ولبق مليء بالحيوية والقوة، إلا أنه أيضًا معتاد على استخدام أدوات بلاغية مثل الطباق والجناس، ويصل عمله إلى ذروة جاذبيته بما فيه من وفرة الصور المجازية الدقيقة. وثيوفيلوس يظهر بكونه متضلعًا في أدب وفلسفة عصره، وهذا يوحي بأنه كان ذا ثقافة ومعرفة شاملة.

وبالرغم من أنه - بشكل عام - يأخذ من المصادر نفسها التي أخذ منه المدافعون اليونانيون الآخرون، إلا أنه يستخدم كتابات العهد الجديد أكثر بكثير منهم، فبالنسبة له، لم يكن كتبة الإنجيل

أقل من أنبياء العهد القديم إلهامًا من الروح القدس: "إن الأقوال الداعمة موجودة في كل من كتابات الأنبياء والأناجيل، لأن جميع هذه الأقوال قد نُطق بها بوحي من الروح الواحد الذي لله." (٣: ١٢) والأناجيل بالنسبة له هي "الكلمة المقدسة"، كما أنه دائمًا ما يقدم لرسائل القديس بولس بجملة لا تتغير هي: "الكلمة الإلهية تُعلمنا." (διδάσκει ἡμᾶς ὁ Θεῖος λόγος) (٣: ١٤). وبكل وضوح يحسب ثيوفيلوس القديس يوحنا من ضمن حاملي الروح: "هكذا تعلمنا الكتب المقدسة وكل الرجال حاملي الروح، الذي يقول أحدهم وهو القديس يوحنا: "في البدء كان الكلمة"". (٢: ٢٢) وهكذا كان ثيوفيلوس هو أول من علَّم بوضوح أن العهد الجديد هو موحى به.

سمات التعاليم اللاهوتية لثيوفيلوس

١. ثيوفيلوس هو أول من استخدم كلمة (τρίας) ثلاثة، للتعبير عن الثالوث، فهو يقول إن ثلاثة الأيام الأولى للخليقة قبل خلق الشمس والقمر هي بمثابة صور للثالوث: "إن الثلاثة أيام التي سبقت خلق المنيرين هي رموز للثالوث: الله، وكلمته، وحكمته" (٢: ١٥).

٢. ثيوفيلوس هو أول كاتب مسيحي يميز بين اللوغوس (ἐνδιάθετος)، واللوغوس (προφορικός)، أي بين "الكلمة" الداخلي أو الكامن بداخل الله، و"الكلمة" المنطوق من الله. أما فيما يتعلق بأصل اللوغوس فيقول: "بما أن الله لديه "الكلمة" الداخلي (Λόγον ἐνδιάθετος) بداخله، فقد ولده وأصدره مع الحكمة قبل كل الأشياء. ولقد كان الكلمة مُعاونًا له في خلق الأشياء التي خلقها، وبه صنع كل شيء." (٢: ١٠) وهذا اللوغوس قد تكلم إلى آدم في الفردوس: "إن إله وأبا الكل بكل تأكيد لا يمكن احتواؤه،

وهو لا يوجد في مكان، لأنه لا مكان لراحته: لكن كلمته، ذاك الذي به صنع كل شيء، كونه هو قوته وحكمته، اتخذ شخص أبي ورب الكل، وذهب إلى الجنة في شخص الله وتكلم مع آدم. لأن الكتب المقدسة نفسها تعلمنا أن آدم قال إنه قد سمع الصوت، لكن لمن يكون هذا الصوت إلا لكلمة الله الذي هو أيضًا ابنه؟ إنه ليس كما يتكلم الشعراء ومؤلفو الأساطير عن أبناء الآلهة أنهم نتيجة اتصال جنسي، لكنه ـ كما يُبيّن الحق ـ هو الكلمة الذي كان كائنًا دائمًا في قلب الله، لأنه قبل أن يُخلق أي شيء كان عنده مشيرًا، كونه هو عقله وفكره. لكن عندما أراد الله أن يخلق كل ما عزم على أن يخلقه، ولد كلمته ونطق (προφορικόν) ببكر كل خليقة، لا كمن أصبح هو نفسه خاليًا من الكلمة، لكنه كمن ولد العقل، ومتحدثًا دائمًا مع العقل" (٢ : ٢).

٣. وثيوفيلوس، مثله مثل يوستينوس (Dial. 5) وإيرينيوس (Adv. Haer. 4, 4, 3)، يعتبر أن خلود النفس ليس من طبيعتها، بل مكافأة على حفظها لوصايا الله. إن النفس في ذاتها ليست بفانية ولا بخالدة، لكنها قابلة للفناء كما أنها قابلة للخلود: "هل خُلق الإنسان فانيًا بطبيعته؟ لا بكل تأكيد. هل كان خالدًا إذن؟ لا نوافق على هذا أيضًا. لكن سيسأل أحدهم، هل كان إذن لا شيء؟ هذا أيضًا لم يصب الهدف. فالإنسان بطبيعته ليس فانيًا ولا خالدًا، لأنه لو كان الله قد خلقه فانيًا، سيبدو وكأنه هو سبب موته. إذًا، لم يخلقه الله فانيًا ولا خالدًا، لكن خلقه، كما قلنا سابقًا، قابلًا لكلتا الحالتين؛ حتى إذا مال إلى أمور الخلود حافظًا وصية الله، ينال الخلود كمكافأة ويصبح إلهًا؛ لكن من ناحية أخرى، إذا عاد إلى أمور الموت عاصيًا الله، سيكون هو نفسه سبب موته، لأن الله قد خلق الإنسان حرًا ذا سلطان على نفسه" (٢ : ٢٧).

ميليتوس أسقف ساردس

ميليتوس أسقف مدينة ساردس[٢٣] بمقاطعة ليديا هو واحد من أكثر شخصيات القرن الثاني الميلادي احترامًا. وفي رسالة إلى البابا فيكتور أسقف روما (١٨٩م - ١٩٩م) ذكر "بوليكراتيس الأفسسي" اسمه من ضمن "كواكب الكنيسة في آسيا" الذين ذهبوا الآن إلى موضع راحتهم، وهو يدعوه "ميليتوس "البتول" (أي غير المتزوج) الذي عاش بكليته في الروح القدس، والذي يرقد في ساردس، منتظرًا مكافأة السماء عندما سيقوم من الموت." (Eusebius, Hist. Eccl. 5 :24 :5). وإلى جانب ما ذُكر في تلك الملاحظة القصيرة، لا نعرف إلا أقل القليل عن حياته. ولقد كان ميليتوس كاتبا غزير الإنتاج، وكتب في عدد كبير من الموضوعات المتنوعة في النصف الثاني من القرن الثاني.

في حوالى عام ١٧٠م، وجه ميليتوس دفاعًا عن المسيحيين إلى الإمبراطور ماركوس أوريليوس، ولم يبقَ منه إلا شذرات حُفظت بواسطة يوسابيوس وفي كتاب "Chronicon Paschale". وتوجد من ضمن هذه الشذرات عبارة ذات أهمية بالنسبة لمفهوم ميليتوس عن علاقة الكنيسة بالدولة، فهو أول من دافع عن فكرة تضامن المسيحية مع الدولة، فالدولة الدنيوية والديانة المسيحية أختان في الرضاعة؛ إنهما يشكلان معًا ثنائيا. بالإضافة إلى أن الديانة المسيحية تعني البركة والرخاء للإمبراطورية: "إن فلسفتنا أصبحت فألًا حسنًا على إمبراطوريتك، لأنه منذ ذلك العهد - الذي لأغسطس قيصر - زادت قوة روما في الحجم والعظمة. وأنت الآن خليفته السعيد، وسيكون

---

[٢٣] ساردس هي من أهم وأقدم مدن آسيا الصغرى (تركيا حاليًا)، وكانت قديمًا عاصمة ولاية ليديا. [المراجع]

هذا أيضًا مع ابنك إذا راعيت الفلسفة التي كبرت مع الإمبراطورية وبدأت منذ عهد أغسطس، وكان أجدادك يبجلونها مع الأديان الأخرى. أما الدليل الأكثر إقناعًا على أن ازدهار ديانتنا كان بركة للإمبراطورية، التي كانت حينها قد دُشنت بسعادة، هي حقيقة كونها لم تُعانِ من أية حوادث مؤسفة منذ عهد أغسطس، بل على العكس، كل شيء قد زاد من عظمتها وشهرتها في توافق مع الصلاة العامة." (Eusebius, Hist. Eccl. 4: 26: 7 - 8)

وحتى وقت قريب لم يكن لدينا من هذا الدفاع وأعمال ميليتوس الأخرى سوى الشذرات الصغيرة أو العناوين التي حفظها كل من يوسابيوس (Hist. Eccl. 4: 26: 2) وأنستاسيوس السينائي (Viae Dux 12: 13). ولهذا السبب كان أحد الاكتشافات الحديثة مثيرًا للاهتمام بشكل كبير، فقد اكتشف "كامبل بونر" مقالًا لميليتوس بعنوان "عظة عن الآلام" كاملًا تقريبًا، وقد قام بنشره. وكانت هذه العظة حتى ذلك الحين غير معروفة عنوانًا، إلا أنه كان يوجد منها بعض شذرات بلا عنوان باللغات السريانية والقبطية واليونانية. وتشغل تلك العظة الجزء الأخير من مخطوطة بردية تعود إلى القرن الرابع الميلادي تحتوي على الفصول الأخيرة من سفر أخنوخ، تنتمي ثماني أوراق منها إلى مجموعة تشيستر بيتي والمتحف البريطاني، و ست أوراق إلى جامعة متشيجان. وكما يدل عنوان العظة (εἰς τὸ πάθος) "عظة عن الآلام" تتناول العظة المكتشفة حديثًا آلام ربنا. وتوحي الكلمات الافتتاحية أنها عبارة عن عظة ألقيت في قداس بعد قراءة من العهد القديم، كما أن موضوعها يتناسب مع أسبوع الآلام حتى إن بونر يطلق عليها "عظة الجمعة العظيمة". وبما أن ميليتوس كان من أصحاب وجهة النظر الأربعشرية، إذًا كان هذا اليوم يوافق يوم الاحتفال بعيد الفصح

اليهودي. وقد أُعيدت فيها صياغة قصة الخـروج ـ وخاصة تأسيس وليمة الفصح ـ وفُسرت على أساس أنها رمز لعمل المسيح الخلاصي، فكلاهما أُطلق عليه لفظة (μυστήρια) أي "سر" بمعنى أن الأحداث لها تأثير فائق للطبيعة يتجاوز تاريخيتها، فلقد أصبح كل من الخروج والفصح رمزًا لما حدث لاحقًا عندما مات يسوع وقام مجددًا. إن آلام المسيح وموته تضمن للمسيحي هروبه من الخطية والفناء كما أن حمل الفصح المذبوح ضمن للعبرانيين الهروب من مصر. إن المسيحيين مثلهم مثل اليهود قد خُتموا كعلامة على خلاصهم، لكن اليهود قد رفضوا الرب وقتلوه كما تنبأ الأنبياء، وبالرغم من أن موته كان محدد مسبقًا، إلا أن مسئوليتهم عنه كانت باختيارهم. إنهم ضالون، ولكن المؤمنين الذين بشرهم المسيح في الجحيم بالإضافة إلى هؤلاء الذين على الأرض سوف يشاركون في انتصارات القيامة.

وتكشف لغة هذه العظة عن ولع بالكلمات الغريبة والشعرية، والأدوات البلاغية الأدبية. وأسلوب العظة الأدبي مُتكلف للغاية ومُصطنع، كما أن الطباق والجناس لهما فيه مكانة خاصة، وهذا يفسر إشارة ترتليانوس لامتلاك ميليتوس عبقرية ولباقة خطابية. (Jerome, De Viris Illus.: 24)

التعليم اللاهوتي في العظة

أولًا: الخريستولوجي

١. إن عقيدة إلوهية المسيح ووجوده السابق الأزلي يسيطر على التعاليم اللاهوتي لميليتوس، فهو يدعوه: إله (θεός) كلمة (λόγος) أب (πατήρ) ابن (υἱός) بكر الله ὁ πρωτότοκος (τοῦ θεοῦ) سيد (δεσπότης) ملك إسرائيل ὁ βασιλεὺς (Ἰσραήλ) ملكنا (ὑμῶν βασιλεύς). والحقيقة إن استخدام

لقب "أب" في الإشارة للمسيح هو استخدام غير معتاد، وهو يأتي في فقرة مهمة تشرح وظائف المسيح المختلفة: "ولأنه قد ولد كابن وسيق كحمل وقدم ذبيحة كشاة ودُفن كإنسان، قام من الموت كإله، كونه بالطبيعة إنسانًا وإلهًا. إنه هو كل شيء: هو القانون لأنه يحكم، هو الكلمة لأنه يُعلِّم، هو النعمة لأنه يخلِّص، هو الأب لأنه يلد، هو الابن لأنه مولود، هو الحمل الذبيح لأنه قد تألم، هو إنسان لأنه دُفن، هو إله لأنه قد قام. هذا هو يسوع المسيح الذي له كل المجد إلى دهر الدهور." (Bonner 10 - 8)

وهذا التطابق الكامل بين المسيح واللاهوت نفسه يمكن أن يُفسر في صالح (الموداليزم المونارخية) أي وحدة الرئاسة التي تلغي تمايز الأقانيم والتي ظهرت في فترة لاحقة، فإذا كان الأمر هكذا، فربما سيفسر هذا سبب إهمال كتابات ميليتوس وفقدانها في آخر الأمر.

٢. ومن ناحية أخرى، كان ميليتوس واضحًا جدًّا فيما يتعلق بعقيدة التجسد: "هذا هو الذي قد صار جسدًا في العذراء، الذي لم تُكسر - عظامه - على الشجرة، الذي في دفنه لم ينحل إلى تراب، الذي قام من الأموات وأصعد الإنسان من القبر السفلي إلى أعالي السموات. هذا هو الحمل الذي ذُبح، هذا هو الحمل الذي كان صامتًا، هذا هو من ولد من مريم الشّاة الحسنة." (Bonner 71 - 70) وبطريقة مماثلة، يدعو الكاتب المسيح: "ذاك الذي تجسد عن طريق العذراء مريم" (ἐκεῖνον ἔτι [σαρκωθέντα] διὰ παρθένου Μαρίας).

٣. ويشرح ميليتوس وجود المسيح الأزلي السابق في شكل مدائح ترنيمية، كما في الفقرة التالية: "هذا هو بكر الله، الذي ولد قبل نجمة الصبح، الذي جعل النور يطلع، وجعل النهار يسطع، الذي

فصل الظلمة، وثبت أول علامات الخليقة، الذي علق الأرض في مكانها، وجفف لجج المياه، الذي بسط قبة السماء، ورتب العالم (٨٢).

٤. وكانت وظيفة المسيح هي أن ينقذ الإنسان من الخطية (٥٤. ١٠٣) و الموت (١٠٢. ١٠٣) والشيطان (٦٧. ٦٨. ١٠٢).

٥. وكان وصف ميليتوس لنزول المسيح إلى الجحيم يوحي بأنه ربما قد ضمَّن في عظته بعض الأجزاء من ترنيمة ليتورجية أقدم: "لقد قام من الموت وصرخ إليك قائلاً: "من ذا الذي يقاومني؟ دعوه يقف أمامي، فلقد حررت المُدانين، وجعلت الموتى يحيون مجددًا، وأقمت من دُفن. من ذا الذي يرفع صوته ضدي؟" ثم يقول مجددًا: "أنا المسيح، أنا من هزمت الموت، وانتصرت على العدو، ودُست الجحيم، وقيدت القوي، ورجعت بالإنسان سالمًا إلى الوطن في أعالي السموات" ثم يقول: "أنا هو المسيح"" (١٠١ - ١٠٢).

ثانيًا: الخطية الأولى

لقد وصف ميليتوس هذه العقيدة بكل وضوح: "تترك الخطية علامتها على كل نفس، وتكرسها جميعًا للموت، فلا بد لها من أن تموت. هكذا يقع كل جسد تحت سلطان الخطية، ويسقط الجميع تحت سلطان الموت" (٥٤ - ٥٥).

ثالثًا: الكنيسة

يطلق ميليتوس على الكنيسة لقب: "مستودع الحق" (٤٠) (ἀποδοχεῖον τῆς ἀληθείας)

أعمال ميليتوس الأخرى

وبالإضافة إلى الدفاع والعظة المكتشفة حديثًا، كتب ميليتوس

الأعمال التالية:

١. كتابان عن الفصح دافع فيهما عما يُدعى بالعادة الأربعشرية (كُتبا حوالى عام ١٦٦م / ١٦٧م).

٢. مقالة عن الحياة المسيحية والأنبياء، وقد كانت في الغالب ذات طابع مضاد للمونتانية.

٣. عن الكنيسة

٤. عن يوم الرب

٥. عن إيمان الإنسان

٦. عن الخليقة

٧. عن طاعة الإيمان

٨. عن الحواس

٩. عن النفس والجسد

١٠. عن حسن الضيافة

١١. عن المعمودية

١٢. عن الحق

١٣. عن الإيمان وميلاد المسيح

١٤. عن النبوة

١٥. المفتاح

١٦. عن الشيطان

١٧. عن رؤيا يوحنا

١٨. عن الله المتجسد

١٩. ستة كتب تحتوي على "مقتطفات من الناموس والأنبياء عن مخلصنا وكامل إيماننا"، ولقد حفظ يوسابيوس مقدمة هذا العمل في (Hist. Eccl. 4: 26: 13 - 14)، وهي تحتوي على أقدم قائمة لأسفار العهد القديم القانونية.

٢٠. كتاب عن تجسد المسيح

ويظهر من كل عناوين كتاباته الضائعة تلك أن ميليتوس قد ناقش الكثير من الأسئلة العملية واللاهوتية الخاصة بزمانه بعقلية مُنفتحة.

كتابات منسوبة إلى ميليتوس

١. تحتوي مخطوطة سريانية خاصة بالمتحف البريطاني (Add. 14658) على دفاع تحت اسم ميليتوس، غير أنه ليس بقلمه. ويظهر محتوى هذا الدفاع أن كاتبه كان على معرفة جيدة بدفاعات أرستيدس ويوستينوس، ويبدو أنه قد كُتب بالسريانية ولم يُترجم عن اليونانية. أما زمن كتابته فهو على الأغلب كان في عهد الإمبراطور "كاراكالا" (Caracalla).

٢. هناك كتاب آخر في ترجمة لاتينية تعود إلى القرن الخامس منسوب بالخطأ إلى ميليتوس، وعنوانه هو: (ἡ κοίμησις τῆς θεοτόκος) وتوجد أدلة على أن هذه الرواية الأبوكريفية التي تدور حول رقاد العذراء المطوبة وصعودها إلى السماء لم تظهر قبل القرن الرابع الميلادي، وهي بمثابة نظير لإنجيل الطفولة الأبوكريفي. والنص موجود في عدة تنقيحات يونانية وعدد من الترجمات.

٣. عمل آخر منسوب إلى ميليتوس هو (Clavis Scriptura)، وهو عبارة عن قاموس للمصطلحات الكتابية جُمع من كتابات كل من أغسطينوس، وغريغوريوس الكبير، وكُتاب لاتين آخرين. ولقد حرره الكاردينال "بيترا" (Pitra) في عمله (Analecta Sacra, Vol. 2: 1884).

الرسالة إلى ديوجنيتوس

إن الرسالة إلى ديوجنيتوس هي عبارة عن دفاع عن المسيحية

كُتب على شكل رسالة موجهة إلى الوثني ذي المنصب المرموق "ديوجنيتوس" (Diognetus)، ونحن لا نعرف المزيد عن الكاتب أو المرسل إليه. ويعتقد ليتزمان (H. Leitzmann) أنه من الممكن أن يكون ديوجنيتوس هو نفسه المُعلم الخاص بالإمبراطور ماركوس أوريليوس، أما زمن الكتابة فهو محل تخمين. وهناك الكثير من الأمور المشتركة بين محتوى الرسالة إلى ديوجنيتوس وكتابات أرستيدس، لكن لا يبدو أن الرسالة تعتمد عليها بشكل مباشر. ومن ناحية أخرى، استخدم الكاتب كتابات إيرينيوس، وعلاوة على ذلك، يُذكرنا الفصل (٧ :١ ـ ٥) بما ورد في عمل هيبوليتوس "Philosophoumena" الفصل (١٠: ٣٣)، أما الفصلان (١١ و١٢) فهما بكل بساطة خاتمة هذا العمل. لهذا السبب اعتقد (R. H. Connolly) أن هيبوليتوس الروماني هو الكاتب، وهذا سيضع تاريخ كتابتها في بداية القرن الثالث، وهناك سبب آخر لهذا التاريخ يقترحه ما ذكره الكاتب في سياق العمل بأن المسيحية كانت قد انتشرت بالفعل في كل مكان.

وقد ظهر مؤخرًا اقتراح آخر بخصوص كاتب الرسالة، ذلك لأن (P. Andriessen) يعتقد أن كوادراتس هو من كتبها، وأنها ليست إلا الدفاع المفقود الذي كتبه هذا الكاتب. وبالرغم من أنه من الصحيح أن العبارة الوحيدة التي اقتبسها يوسابيوس (Hist. Eccl. 4: 3: 2) من هذا الدفاع غير موجودة في الرسالة إلى ديوجنيتوس، إلا أن هناك فجوة بين العدد ٦ والعدد ٧ من الفصل السابع تتناسب جدًا مع الشذرة التي من دفاع كوادراتس المفقود. كذلك تتفق المعلومات التي لدينا عن كوادرتوس من كتابات يوسابيوس، وجيروم، وفوتيوس، وسلسلة الشهداء الخاصة بـ (Bede) والرسالة الأبوكريفية الموجهة من القديس يعقوب إليه، مع محتوى الرسالة إلى ديوجنيتوس. أيضًا يتفق الانطباع

الذي نأخذه عن الكاتب من قراءة الرسالة إلى ديوجنيتوس مع ما نعرفه عن المُدافع كوادراتس تقليديًا، أي كونه كان تلميذًا للرسل، وأنه كان يكتب مستخدمًا الأسلوب الأدبي الكلاسيكي، وأنه لم يكن فقط معاديًا للوثنية، بل لليهودية أيضًا. بالإضافة إلى هذا، وكما نعرف من يوسابيوس، وجه كوادراتوس دفاعه إلى الإمبراطور هادريان؛ والحقائق التي تزودنا بها تلك الرسالة عن المرسل إليه ديوجنيتوس ستتناسب بشدة مع هذا الإمبراطور. أخيًرا، إذا افترضنا أن كوادراتس هو نفسه كاتب الرسالة إلى ديوجنيتوس، سيكون السؤال حول أصالة الفصلين الأخيرين (الفصلين ١١ و١٢)، الذين يشكلان معًا نوعًا من الخاتمة، هو في ضوء مختلف تمامًا. فكاتب هذه الخاتمة يسمي نفسه "تلميذ الرسل ومُعلم الوثنيين"، ويبدو لـ (P. Andriessen) أنه لا يوجد كاتب كنسي آخر يمكن لهذا الوصف أن ينطبق عليه كل الانطباق، غير أن اختلاف الأسلوب بين الفصلين الأخيرين وما سبقهما من فصول يبقى قائمًا. وهكذا، تعيد فرضية (Andriessen) فتح النقاش حول كاتب الرسالة إلى ديوجنيتوس.

ولسوء الحظ، لم يبق لدينا اليوم أي مخطوطات للرسالة، فالمخطوطة الوحيدة التي كنا نمتلكها هلكت عام (١٨٧٠م) عندما احترقت مكتبة ستراسبورج أثناء الحرب الفرنسية البروسية. وكانت هذه المخطوطة، التي تعود إلى القرن الثالث عشر أو الرابع عشر، مملوكة فيما مضى لدير (Maursmuenster) الألزاسي (Alsatian). وأُدرجت الرسالة في هذه المخطوطة ضمن كتابات يوستينوس الشهيد. ولقد اعتمدت كل الطبعات الخاصة بالرسالة على هذه المخطوطة.

وكانت مناسبة كتابة الرسالة هي طلب ديوجنيتوس الذي سأل صديقه المسيحي أن يمده بمعلومات عن ديانته، ويمكن للمرء أن يستنتج الأسئلة التي سألها ديوجنيتوس من مقدمة الرسالة: "أرى يا

ديوجنيتوس أنك تبذل الكثير من الجهد لتتحقق من ديانة المسيحيين وتسأل بشأنهم أسئلة دقيقة جدًا ومتأنية. إنك تسأل "من هو هذا الإله الذي يثقون به؟ وما هي نوعية عبادتهم التي تُمكنهم جميعًا من أن يحتقروا العالم ويستخفوا بالموت، ولا يقيموا اعتبارًا للآلهة التي يؤمن بها اليونانيون، ولا يمارسون خرافات اليهود؟ وما هو سر هذه المحبة القوية التي يكنونها لبعضهم البعض؟ ولماذا أتى هذا الدم الجديد أو الروح الجديدة إلى العالم الذي نعيش فيه في وقتنا هذا وليس قبل ذلك؟"

ويصور الكاتب (فصول ٢ - ٤) بكلمات تتوهج حماسة تفوق المسيحية على وثنية الأمميين الحمقاء وشكلية العبادة الخارجية عند اليهود. وهو في نقده للديانتين الوثنية واليهودية يستخدم براهين يمكن للمرء أن يجدها بالفعل في كتابات المدافعين اليونانيين.

وأفضل جزء من الرسالة هو التقرير الذي يصف فيه الكاتب الحياة الفائقة للطبيعة التي للمسيحيين (فصول ٥ ـ ٦): "إن المسيحيين لا يختلفون عن بقية البشر في الموطن، أو اللغة، أو الملبس؛ فالحقيقة أنهم لا يسكنون في مدن خاصة بهم؛ ولا يستخدمون لغة معينة؛ ولا يعيشون نمطا شاذا من الحياة. وبكل تأكيد لم تكن عقائدهم اكتشافًا يرجع الفضل فيه إلى أفكار بعض الرجال المحبين للبحث أو تأملاتهم؛ كما أنهم لا يُدافعون ـ كما تفعل بعض الجماعات الأخرى ـ عن أية عقيدة ذات منشأ بشري. لكنهم يعيشون في مدن يونانية أو غير يونانية كما هو نصيب كل واحد منهم، ويمتثلون لعادة البلد في الملبس، والمأكل، وطريقة الحياة. إن فحوى أسلوب حياتهم بكليته يدل على أنها تستحق الإعجاب، وهي باعتراف الجميع تخالف كل توقع. إنهم يقيمون في مواطنهم، ولكن كما لو كانوا غرباء؛ إنهم يشتركون في كل شيء كمواطنين،

ويتحملون كل الأعباء كغرباء؛ كل أرض غريبة هي وطنهم؛ وكل وطن هو أرض غريبة. إنهم يتزوجون كالآخرين وينجبون أطفالاً؛ لكنهم لا يهملون أطفالهم. إنهم يبسطون مائدتهم للجميع، لكن ليس مضاجعهم. إنهم في الجسد، ولكنهم لا يعيشون بحسب الجسد. إنهم يقضون أيام حياتهم على الأرض، ولكنهم يحملون جنسية السماء. إنهم يطيعون القوانين المستقرة، لكن حياتهم الخاصة تذهب إلى ما هو أبعد من تلك القوانين. إنهم يحبون الجميع، ويضطهدون من الجميع. إنهم غير معروفين، إلا أنهم يُدانون؛ يحكم عليهم بالموت، ولكن يُعادون إلى الحياة. إنهم فقراء، لكنهم يغنون كثيرين. إنهم محرومون من كل شيء، لكنهم أغنياء في كل شيء. إنهم مُهانون، لكنهم في إهانتهم يجدون مجدهم. يُفترى عليهم، لكنهم يُبرئون. يُشتَمون، ولكنهم يباركون؛ يُهانون، لكنهم يعطون كرامة. يفعلون الخير، ولكنهم يعاقبون كفاعلي شر، وعندما يُعاقبون يبتهجون لأنهم قد أسرعوا للحياة. يحاربهم اليهود كأشخاص من قبيلة مختلفة؛ ويضطهدهم اليونانيون. وهؤلاء الذين يضطهدونهم لا يستطيعون أن يعطوا سببًا لما يكننونه لهم من عداوة. ولنقل ذلك باختصار، كما أن الروح في الجسد، هكذا أيضًا المسيحيون في العالم. فالروح منتشر في كل أعضاء الجسد، والمسيحيون منتشرون في كل مُدُن العالم. والروح يسكن في الجسد لكنه ليس جزءًا منه؛ هكذا يسكن المسيحيون في العالم، لكنهم ليسوا جزءًا منه. إنه هو نفسه غير مرئي، لكنه محبوس في الجسد المرئي؛ هكذا المسيحيون معروفون في العالم هكذا، لكن ديانتهم تبقى خفية. وبالرغم من أن الروح لم يسىء إطلاقًا إلى الجسد إلا أن الجسد يكرهه ويحاربه لأنه يمنعه من الانغماس في شهواته؛ هكذا أيضًا العالم، بالرغم من أن المسيحيين لم يسيئوا إطلاقًا إليه، إلا

أنه يكرههم لأنهم يقاومون مسراته. والروح يحب الجسد الذي يكرهه؛ هكذا يحب المسيحيون الذين يكرهونهم. والروح محبوس في الجسد، ولكنه يحفظه؛ هكذا أيضًا المسيحيون محبوسون في العالم كما في سجن، إلا أنهم هم الذين يحفظونه. وبالرغم من أن الروح خالد، إلا أنه يسكن في مسكن مائت؛ هكذا أيضًا المسيحيون بالرغم من أنهم يسكنون كغرباء بين الأشياء القابلة للفساد، إلا أنهم يتطلعون لعدم الفساد الذي ينتظرهم في السماء. وكما أن الروح يكون في حال أفضل بتقنين المأكل والمشرب؛ هكذا أيضًا المسيحيون عندما يضطهدون يزدادون يومًا بعد يوم. هذا هو الدور المهم الذي أسنده الله إليهم، ومن غير المسموح به أن يهربوا منه."

ويحتوي الفصلان (٧، ٨) على تعليم ملخص فيما يتعلق بالمصدر الإلهي للإيمان المسيحي، ذاك الذي أعلنه ابن الله، بهدف إظهار جوهر الألوهة. ولقد ظهر الملكوت على الأرض في زمن متأخر كهذا لأن الله قد أراد أن يُظهر للبشرية عجزها وحاجتها للخلاص (فصل ٩). وفي الختام، ينصح الكاتب ديوجنيتوس أن يقبل العقيدة المسيحية (فصل ١٠).

والرسالة تستحق أن تُصنف ضمن أروع وأجمال أعمال الأدب المسيحي اليوناني، فالكاتب متمكن بلاغيًا، وعباراته مليئة بالجمال وموزونة بحذق، كما أن أسلوبه الأدبي واضح وصافٍ. ويكشف المحتوى عن رجل ذي إيمان متقد ومعرفة واسعة، وذهن متشرب تمامًا بمبادئ المسيحية. كما أن أسلوب الكتابة يتلألأ بالحرارة والحيوية.

هرمياس[٢٤]

هناك عمل آخر ذو طبيعة دفاعية يجب علينا أن نذكره هنا، وهو العمل المعروف بعنوان: "السخرية من الفلاسفة الدنسين" (δυασυρμὸς τῶν ἔξω φιλοσόφων)، الذي كتبه شخص ما يُدعى "هرمياس" (Hermias) ويحاول هرمياس في عشرة الفصول التي يتكون منها هذا الكتاب أن يظهر تفاهة الفلسفة اليونانية بالتهكم عليها، مُظهرًا تناقض تعاليمها فيما يتعلق بجوهر الله، والعالم، والنفس. ولا يُعرف أي شيء عن شخص الكاتب حتى اليوم، وسيكون من الخطأ أن نفترض أنه كان فيلسوفًا مُتخصصًا، فهو لا يدين بمعرفته الفلسفية إلى دراسة مكثفة للفلسفة القديمة، لكنه يستمدها من المُلخصات الشعبية الخاصة بالفلسفة. وعمله في الأساس ساخر لا تعليمي. ولم يرد ذكر هذا العمل الساخر في أي موضع في الأدب المسيحي القديم، ولهذا السبب من المستحيل تحديد زمن كتابته، خاصة لأن المحتوى لا يزودنا بأي معلومات يمكن لها أن تُساعدنا. وتختلف الآراء فيما بين عام ٢٠٠م إلى ٦٠٠م، لكن إذا حكمنا على أساس الأدلة الداخلية، سيكون القرن الثالث الميلادي هو الزمن الأرجح للكتابة. والمقالة موجودة في ست عشرة مخطوطة، واحدة منها فقط ترجع إلى ما قبل القرن الخامس عشر الميلادي، وهي المخطوطة (Codex Patmius 202) التي تعود إلى القرن العاشر الميلادي.

---

[٢٤] يُطلق عليه في بعض المراجع "إرميا"

الفصل السابع

بدايات الكتابات الهرطوقية

كان على المسيحية أن تدافع عن نفسها، ليس فقط ضد العدوين اللذين من الخارج، اليهودية والوثنية، بل أيضًا ضد العدوين اللذين من الداخل، الغنوسية والمونتانية. وبالرغم من أن هاتين البدعتين تنطلقان من الديانة المسيحية كنقطة بداية، إلا أن كل واحدة منهما كانت تختلف عن الأخرى اختلافًا تامًّا، ففي حين كان الغنوسيون هم زعماء حركة توفيق المسيحية مع العالم، كان المونتانيون يناصرون حركة الهروب الكامل منه. لقد سعى الغنوسيون، في توافق مع ثقافة العصر، إلى خلق مسيحية تستوعب الأساطير الدينية الشرقية، وتُعطي الدور الأكبر للفلسفة الدينية اليونانية، ولا تترك سوى مساحة صغيرة للوحي الإلهي كأساس لكل المعرفة اللاهوتية والإيمان وإنجيل المسيح. أما المونتانيون فقد عاشوا - انتظارًا لدمار العالم الوشيك - حياة دينية في عزلة وتخلٍّ كامل عن العالم ومسراته باعتبار الهدف المسيحي الوحيد الذي يجب على جميع المسيحيين أن يتجهوا صوبه. ولقد دعت كل من الطائفتين لنفسها بشكل ناجح، واستقطبت كلتاهما أتباعًا من داخل المجتمعات المسيحية. وهكذا، جازت الكنيسة في محنة ذات شقين، فالغنوسية قد هددت أساسها الروحي وطابعها الديني، في حين قامت المونتانية بتعريض إرساليتها العالمية وطابعها المسكوني للخطر. ومن هذين العدوين، كانت الغنوسية هي الأكثر خطرًا.

غنوسية عصور ما قبل المسيحية

ينبغي للمرء أن يتتبع بداية الغنوسية في عصور ما قبل المسيحية، فالبحوث الحديثة قد أثبتت أنه منذ أن دشن الإسكندر الأكبر العصر الهيلينستي بغزوه الانتصاري لبلاد الشرق (٣٣٤ - ٣٢٤ ق. م)، أخذ هذا المزيج الغريب من الديانة الشرقية والفلسفة اليونانية، الذي

ندعوه بالغنوسية، في التطور. وقد ورثت الغنوسية من الديانات الشرقية الاعتقاد بوجود ثُنائية تامة بين الله والعالم، وبين الروح والجسد، وخروج الخير والشر من مبدأين أوليين وجوهرين مختلفين تمامًا، والتوق للخلاص والخلود. كما أخذت الغنوسية عنصرها الفكري من الفلسفة اليونانية؛ فدخلت إلى الغنوسية التخمينات المتعلقة بالوسطاء الذين يتوسطون بين الله والعالم من الفلسفة الأفلاطونية الحديثة؛ ومن الفيثاغورية الحديثة دخل إليها نوع طبيعي من التصوف؛ ثم دخل إليها من الرواقية الحديثة تقدير الفرد و دوره الأخلاقي.

أولًا: سيمون الساحر

كان سيمون الساحر هو آخر مُمثل لغنوسية ما قبل المسيحية، ولقد كان مُعاصرًا للرسل، فعندما ذهب الشماس فيليبس إلى السامرة، كان سيمون الساحر مشهورًا جدًّا هناك، كما كان له أتباع كثيرون. ويذكر سفر أعمال الرسل (٨: ٩ ـ ٢٤) أنه كان يلقب بـ "قوة الله" و"العظيم". واسمه يظهر مع اسم "كيرنثوس" (Cerinthus) كممثلين للهرطقة الغنوسية في مقدمة ما يُعرف بـ "رسالة الرسل" (Epistola Apostolorum).

ويذكر يوستينوس الشهيد أن سيمون قد ولد في قرية "جيتون" (Gitton) بالسامرة، ووصل إلى روما في عهد الإمبراطور كلوديوس حيث عُبد كإله. وينسب هيبوليتوس الروماني إليه في (Philosophoumena 6: 7 - 20) كتابة عمل بعنوان "الأنباء العظيمة"، ومن الواضح أنه كان يحتوي على تفسير رمزي لرواية الخلق الكتابية، الأمر الذي يوحي بوجود تأثير للفلسفة الدينية السكندرية. لكن من المشكوك فيه جدًّا أن يكون هذا الكتاب، الذي نملك منه فقط بعض الشذرات، قد كُتبه سيمون الساحر.

ثانيًا: دوسيثيوس وميناندر

كان هناك رجلان سامريان آخران ذُكرا في الأدب المسيحي القديم باعتبارهما غنوسيين؛ وهما دوسيثيوس (Dositheus) وميناندر (Menander)، وقد جمعت كلا الرجلين علاقة ما بسيمون الساحر؛ فقد كان دوسيثيوس معلمه، في حين كان ميناندر تلميذه. وبحسب ما جاء في كتاب "Pseudoclementines"، أسس دوسيثيوس مدرسة في السامرة، ويذكر أوريجينوس أنه قد حاول أن يقنع السامريين بأنه هو المسيا الذي تنبأ عنه موسى. وولد ميناندر، بحسب شهادة يوستينوس، في "كابارتايا" (Capparetaea) بالسامرة، وبحسب ما يذكر إيرينيوس، أخبر أتباعه أنه قد أُرسل بواسطة القوة غير المنظورة كمخلص لخلاص جنس البشر. وفي حين كان ميناندر تلميذًا لسيمون الساحر، كان معلمًا لـ ساتورنيل (Satornil) وباسيليدس (Basilides). وهكذا يمثل ميناندر حلقة الوصل بين غنوسية ما قبل المسيحية والغنوسية المسيحية.

الغنوسية المسيحية

عندما دخلت المسيحية مُدُن الشرق العظيمة، اهتدى الكثير من الرجال ذوي المستوى العلمي الرفيع إلى الدين الجديد. وقد كان من ضمن هؤلاء المهتدين بعض ممن كانوا ينتمون إلى الطوائف الغنوسية التي تعود إلى ما قبل المسيحية، وهؤلا بدلًا من أن يتنازلوا عن عقائدهم السابقة، قاموا فقط بإضافة بعض العقائد المسيحية إلى آرائهم الغنوسية، وهكذا، ولدت الغنوسية المسيحية. وتختلف غنوسية ما قبل المسيحية عن الغنوسية المسيحية في كون شخص يسوع لا يلعب أي دور في أنظمتها العقائدية، في حين في الغنوسية المسيحية كانت الكرازة بالإله الواحد الحقيقي، أبي يسوع المسيح المخلص،

واحدة من عقائدها الأساسية. وقد سعى مؤسسو الفرق الغنوسية المختلفة إلى رفع المسيحية من حالة الإيمان إلى حالة المعرفة، وبهذه الطريقة يجدون للمسيحية مكانًا في العالم الهيلّيني كما لو كانت في بيتها.

وكان الإنتاج الأدبي الغنوسي ضخمًا جدًا، خاصة في القرن الثاني الميلادي، فقد كانت الكتابات المسيحية الأولى، وبدايات الشعر المسيحي، ذات طابع غنوسي. وقد كُتب الكثير من هذا الأدب بواسطة كُتاب مجهولين، وينتمي إلى هذه الكتابات الكثير من الأناجيل الأبوكريفية، وأعمال الرسل الأبوكريفية، ورسائل الرسل الأبوكريفية، وأسفار الرؤى الأبوكريفية. كما كان لهذه الكتابات تأثير عظيم بسبب محتواها الرائج شعبيًا. ويتكون الجزء الأهم من الأدب الغنوسي من مقالات لاهوتية كتبها مؤسسو الفرق الغنوسية المختلفة وتلاميذهم، لكن معظم هذه الكتابات قد فقد.

أولًا: باسيليدس

بحسب ما يذكر إيرينيوس في (Adv. Haer. 1: 24: 1)، كان باسيليدس مُعلمًا في مدينة الإسكندرية بمصر، وعاش في عهد الإمبراطورين هادريان وأنطونينوس بيوس (١٢٠م - ١٤٥م). وقد كتب باسيليدس إنجيلًا ليس في حوزتنا منه إلا شذرة واحدة، وتفسيرًا لإنجيله بعنوان "التفسير" (Exegetica) بقت منه عدة شذرات. ونجد هيجيمونيوس (Hegemonius)، في (.Acta Archelai, 67: 4 - 11 ed Benson)، يقتبس الفقرة التي تصف الحرب بين النور والظلمة من الجزء الثالث عشر من كتاب "التفسير". وكذلك يقوم كليمندس السكندري، في كتاب "المتفرقات" (:Stromat. 4: 12: 81: 1 – 88 5)، باقتباس عدة فقرات تتناول مشكلة الألم من الجزء الثالث

والعشرين - من نفس الكتاب - غير أن هذه الشذرات لا تمكننا من أن نحصل على فكرة أكيدة عن فكر باسيليدس العقائدي. وبالإضافة إلى هذا، ألف باسيليدس مزامير وأناشيد لم يبق منها أي شيء.

ويعطي إيرينيوس في (Adv. Haer. 1: 24: 3 - 4) الملخص التالي لتعاليم باسيليدس: "باسيليدس أيضًا، لكي ما يظهر أنه قد اكتشف شيئًا أكثر سموًا وقبولًا، يطور عقائده تطورًا هائلًا. فهو يقول إن العقل هو بكر الآب غير المولود، وأن منه أيضًا ولد "اللوغوس" الكلمة، ومن "اللوغوس" ولد "الفرونيسيس" (Phronesis) أي "الحكمة العملية"، ومن "الفرونيسيس" وِلد كل من "الصوفيا" أي "الحكمة" (Sophia) و"الديناميس" أي "القوة والحركة" (Dynamis)، ومن "الصوفيا" و"الديناميس" ولدت القوات والملائكة، هؤلاء الذين يدعوهم بـ "الأوائل"؛ وبواسطتهم خُلقت السماء الأولى. حينئذ تكونت قوى أخرى بالانبثاق من هؤلاء، وخلقت سماء ثانية شبيهة بالأولى؛ وبعملية مماثلة، عندما تكونت أيضًا قوى ثالثة بالانبثاق من هؤلاء تُشبه بالضبط تلك التي تعلوها، صنعت هي أيضًا سماء ثالثة؛ ومن هذه الثالثة أصبح هناك جيل رابع من الأحفاد في ترتيب تنازلي؛ وبنفس الطريقة أعلنوا أن الكثير والكثير من القوات والملائكة قد تكونوا إلى جانب ثلاثمائة خمسة وستين سماء. وهكذا تحتوي السنة على نفس العدد من الأيام في اتفاق مع عدد السموات. أولئك الملائكة الذين يشغلون السماء الدنيا، أعنى التي نراها نحن، قد صنعوا كل الأشياء التي في العالم، ووزعوا الأنصبة فيما بينهم في الأرض وفي تلك الأمم التي فوقها. ويظن أن رئيسهم هو إله اليهود، بقدر ما عزم أن يجعل كل الأمم الأخرى خاضعة لشعب خاصته، أعني اليهود، وقد قاومه وعارضه كل القوات الآخرين. بينما كانت كل الأمم الأخرى

في عداوة مع شعبه. ولكن الآب الذي بغير ميلاد وبغير اسم، وهو يدرك أنهم سيفنون، أرسل بكره المولود "نوس" أي العقل، ـ ذاك الذي يُدعى المسيح ـ لينجي الذين يؤمنون به من سلطان الذين صنعوا العالم. فظهر لأمم هذه القوات إنسانًا على الأرض وصنع معجزات لكنه لم يكن من مات، بل سمعان، رجل من قوريني[1] (Cyrene)؛ إذ أجبروه ليحمل الصليب عوضا عنه، فألقى شبهه عليه حتى يظنوا أنه يسوع، فصلبوه بالجهل والخطأ في حين أخذ يسوع هيئة سمعان ووقف يضحك عليهم. فهو؛ إذ كان قوة غير جسدانية وعقل الآب غير المولود، قد غير هيئته بإرادته وصعد إلى الذي أرسله، وقد هزأ بمن لم يقدروا الإمساك به؛ إذ لم يكن منظورًا من الكل. والذين علموا بتلك الأمور تحرروا من سلطان السلاطين الذين صنعوا العالم، لهذا يتعين علينا ألا نعترف بمن صُلب، بل بمن جاء في الجسد واعتقدوا أنه صُلب، ودُعي يسوع وأرسله الآب، حتى بهذا الحكم يبيد عمل صانعي العالم. (ANF I, 349).

ومن تلك الفقرة يتضح أن باسيليدس استنبط الاستنتاجات العملية التالية من دراسته لعلم الكون:

١. تأتي المعرفة (الغنوسية) من السلاطين الذين صنعوا العالم.

٢. قليلون فقط، واحد من كل ألف، أو اثنان من كل عشرة آلاف، قادرون على اقتناء المعرفة الحقة.

٣. لا بد من حفظ الأسرار بلا كشف.

٤. الاستشهاد لا طائل منه.

٥. يؤثر الفداء في النفوس فقط، لا الجسد، الخاضع للفساد.

٦. كل فعل ،حتى أشنع خطايا الشهوة، منشأه منتهى اللامبالاة من الشخص .

---

[1] مدينة تاريخية أسسها الإغريق في شرق ليبيا وهي موقع مدينة الشحات الحالية. [المراجع].

٧. لا ينبغي على المسيحي الاعتراف بمسيح مصلوب بل بيسوع، المرسل من الآب. وإلا ظل عبدًا تحت سلطان الذين صنعوا أجسادنا.

٨. لا بد من احتقار ذبائح الأمم، لكن يمكن استخدامها بلا أدنى تردد، لتفاهتها.

ومن هذا الموجز لإيرينيوس يتضح جليًا أن باسيليدس لم يشارك في النظرة الثنائية مثلما يزعم بعض الدارسين. إن شذرته من كتاب "التفسير" في (Acta Archelai) والتي تتناول الحرب بين النور والظلمة، لا يمكن أن تكون اقتباسًا يدل على فكره الثنائي، لأنها في سياقها تدل على أنها تفند بوضوح الثنائية الزوروداشتية[٢] بين النور والظلمة، بصفتها قوات الخير والشر.

ثانيًا: إيزيدور

تابع عملَ باسيليدس ابنُه إيزيدور (Isidore)، وما نعرفه عنه أقل حتى من الذي نعرفه عن أبيه، وقد أورد كليمندس السكندري اقتباسات قليلة من ثلاثة من كتبه في (Stromat. 2: 113; 6: 53; 3: 1 - 3). وقد كتب إيزيدور تفسيرًا لأقوال النبي بارخور (Parchor) حاول فيه أن يثبت أن الفلاسفة اليونانيين قد أخذوا من الأنبياء. وبالإضافة إلى هذا، ألف كتابًا عن "علم الأخلاق" (Ethica) ومقالًا عن "النفس المربوطة". ويتناول العمل الأخير موضوع الشهوات البشرية، تلك التي تصدر من جزء ثانٍ من النفس. وتُعطي الفقرة التي اقتبسها كليمندس من كتاب علم الأخلاق تفسيرًا غريبًا لكلام الرب الذي يتعلق بالخصيان في (مت ١٩ : ١٠).

ثالثًا: فالنتينوس

أما الشخص الأهم كثيرًا من باسيليدس وابنه إيزيدور فهو

٢ ديانة نشأت في المنطقة الشرقية من الإمبراطورية الفارسية. [المراجع]

"فالنتينوس" (Valentinus). ويقول إيرينيوس عنه في (:Adv. Haer. 3 3 :4): "جاء فالنتينوس إلى روما في عهد البابا "هيجينوس" (Hyginus) (١٣٦م - ١٤٠م)، وازدهر في عهد البابا "بيوس" (Pius) (١٥٠م - ١٥٥م)، وبقى حتى عهد البابا "أنيكيتوس" (Anicetus)".

وكان إبيفانيوس، في (Haer. 31: 7 – 12)، هو أول من ذكر أن فالنتينوس قد وُلِد بمصر، وتعلم بالإسكندرية، ونشر تعاليمه في مصر قبل أن يذهب إلى روما، ثم يضيف أنه في وقت لاحق ترك روما ليذهب إلى قبرص. ولقد أدخل كليمندس السكندري ست شذرات من كتابات فالنتينوس في كتابه "المتفرقات" (Stromata)، اثنتين منها من خطاباته، واثنتين من عظاته، واثنتين لا تدلان على أي من كتاباته قد نقلتا منها. وواحدة من الفقرات التي اقتبسها كليمندس (Stromat. 2: 20: 114)، هي كالتالي: "هناك خير واحد الذي حضوره هو الظهور، الذي بواسطة الابن، وبه وحده يمكن للقلب أن يصبح نقيًّا بطرد كل روح شرير منه؛ لأن كثرة الأرواح التي تسكن به لا تتركه يتكبد المشقة ليصبح نقيًّا؛ لكن كل واحدة منها تعمل أعمالها الخاصة، وكثيرًا ما تهينه بواسطة الشهوات غير اللائقة. ويبدو أن القلب أصبح مثل الحانة التي على جانب الطريق، لأن الأخير به الكثير من الثقوب والتجاويف التي صُنعت فيه، وكثيرًا ما يمتلئ بالروث، والرجال الذين يعيشون به حياة قذرة غير مُبالين بأن المكان ملك لآخرين. لذا، تتفق الأرواح الشريرة مع القلب طالما لم يؤخذ في الحسبان، كونه - أي القلب - نجسًا ومسكنًا للكثير من الشياطين. لكن فقط عندما يزوره الآب الصالح، يتنقى ويبرق بالنور. ويكون ذلك الإنسان الذي يمتلك مثل هذا القلب مباركًا جدًّا لأنه سوف ينظر الله".

وفقرات مثل هذه تُفسر السبب الذي لأجله وجد فالنتينوس

الكثير من بين المؤمنين - المسيحيين - يؤمنون به. وهي تسلط الضوء على ما قاله إيرينيوس في (Adv. Haer. 3: 15: 2) عن فالنتينوس وتلاميذه: "بهذه الكلمات يخدعون البسطاء ويغونهم، مُقلدين طريقة كلامنا، حتى ربما يسمع لهم هؤلاء (المخدوعون) أكثر فأكثر؛ حينئذ يُسأل هؤلاء عنا، وكيف أننا، في حين أن تعاليمهم تُشبه تعاليمنا، نُبقي أنفسنا بلا سبب بمعزل عن صحبتهم". (ANF 1, 439).

وقد وجد فالنتينوس الكثير من الأتباع في كل من الشرق والغرب، وهيبوليتوس يتكلم عن مدرستين يتبعا تعاليم فالنتينوس، مدرسة شرقية وأخرى إيطالية.

رابعًا: بطليموس

كان بطليموس أشهر أعضاء مدرسة فالنتينوس الإيطالية، وقد كتب "الرسالة إلى فلورا" التي تناقش قيمة الناموس الموسوي. وتُقسم الرسالة الشريعة الموسوية إلى ثلاثة أقسام رئيسة. ويأتي القسم الأول من الله، والثاني من موسى، والثالث من شيوخ الشعب اليهودي. مرة أخرى، فإن القسم المُنحدر من الله يصير إلى ثلاثة أجزاء: الجزء الأول يشتمل على الناموس النقي الذي لم يشُبه أي شر، وبكلمات أخرى، الوصايا العشرة. وهذا الجزء من الناموس الموسوي هو الذي جاء يسوع ليكمله لا ليوقفه. الجزء الثاني من الناموس هو ذاك الذي أفسده الظلم، أي ذلك الجزء الذي يشمل الوصايا التي تحض على الانتقام، تلك التي أوقفها المخلص. والجزء الثالث هو الناموس الطقسي الذي أعطاه المخلص معنى روحيًا. ولقد حُفظت هذه الرسالة في كتابات إبيفانيوس (Haer. 33: 3 – 7). وتُعد أهم قطعة من الأدب الغنوسي موجودة في حوزتنا اليوم.

خامسًا: هيراكليون

كتب عنه كليمندس السكندري في (Stromat. 4: 71: 1)، وكان هيراكليون (Heracleon) أكثر تلاميذ فالنتينوس احترامًا، وهو ينتمي إلى المدرسة الإيطالية مثل بطليموس. وقد ألف هيراكليون تفسيرًا لإنجيل يوحنا، اقتبس أوريجينوس منه ما لا يقل عن ثماني وأربعين فقرة في تفسيره لهذا الإنجيل، كما يستشهد كليمندس السكندري بفقرتين من كتابات هيراكليون بدون أن يشير إلى مصدر اقتباسهما، هل هما من تفسيره لإنجيل القديس يوحنا أم من كتاب آخر من كتاباته؟

سادسًا: فلورينوس

كان فلورينوس قسًّا رومانيًّا ينتمي إلى المدرسة الفالنتينية الإيطالية. ويوسابيوس هو أول من ذكر أن إيرينيوس قد وجه رسالة إلى فلورينوس "عن سلطان النفس، أو أن الله ليس خالق الشر"؛ ويبدو أن فلورينوس كان يدافع عن الرأي المُعاكس. ويقتبس يوسابيوس، في (Hist. Eccl. 5: 20: 4)، فقرة من هذه الرسالة يقوم فيها إيرينيوس بذكر فلورينوس: "إن آراء فلورينوس، تلك التي ربما سأتكلم عنها قليلًا، لا تنتمي إلى التعليم الصحيح، فهي غير متوافقة مع تعاليم الكنيسة، وتجلب على هؤلاء الذين يؤمنون بها الشر الأعظم. إن هذه الآراء لم يجرؤ حتى الهراطقة الذين هم خارج الكنيسة على المناداة بها. كما أن هذه الآراء لم يسلمها إلينا هؤلاء الذين كانوا شيوخًا قبلنا والذين كانوا مرافقين للرسل." (LCL. 1, 497) ثم يستمر إيرينيوس ليذكر فلورينوس بالأسقف بوليكاربوس أسقف سميرنا، ذاك الذي كان فلورينوس في أيام شبابه يعرفه شخصيًّا.

وبالإضافة إلى هذه الرسالة، كتب إيرينيوس عملًا بعنوان "عن

الثماني" (On The Ogdoad) ضد فلورينوس "عندما اجتذبته الضلالة الفالنتينية." (Eusebius, ibid. 5: 20: 1) وقد بقيت لدينا شذرة سريانية من رسالة وجهها إيرينيوس إلى البابا فيكتور يطلب منه فيها أن يتخذ خطوات ضد كتابات القس الروماني، لأنها قد انتشرت في بلاد الغال وهددت إيمان المسيحيين الذين تحت رعايته. وعنوان هذه الشذرة يصف فلورينوس باعتبار تابعًا لحماقة فالنتينوس، ومؤلفًا لكتاب مخز.

سابعًا: بارديصان

المعلومات التي لدينا عن المدرسة الفالنتينية الشرقية أقل من تلك التي لدينا عن المدرسة الفالنتينية الإيطالية. وبارديصان هو واحد من أهم تلاميذ فالنتينوس الشرقيين. ولد بارديصان يوم ١١ يوليو عام ١٥٤م في إديسا، وهو ينحدر من عائلة نبيلة وتعلم على يد كاهن وثني في "مابوج" هيليوبولس، وكان صديقًا للملك أبجر التاسع (Abgar IX Osrhoene). وأصبح بارديصان مسيحيًا في سن الخامسة والعشرين، وعندما غزا الإمبراطور كاراكلا إديسا عام ٢١٦م، هرب بارديصان إلى أرمينيا. ومات بعد أن عاد إلى سوريا عام ٢٢٢م - ٢٢٣م. ويذكره يوسابيوس في (Hist. Eccl. 4: 30) قائلًا: "رجل نبيل جدًا ومتمرس في اللغة السريانية." وكان بارديصان في البداية عضوًا في المدرسة الفالنتينية، لكنه ندد بهذه الفرقة لاحقًا، وفند الكثير من خرافتها. غير أنه، كما يقول يوسابيوس "لم يطهر قلبه تمامًا من دنس هرطقته القديمة." ووفقًا للمصدر نفسه، "ألف بارديصان محاورات ضد أتباع ماركيون وآخرين من قادة المعتقدات المختلفة، ونشرها بلغته وبخطه، مع الكثير من كتاباته الأخرى، وقد ترجمها هؤلاء الذين كانوا يعرفونها لأنها كانت كثيرة، كونه كان

مُناقشًا قويًّا ـ وقد ترجمها عن السريانية إلى اليونانية. ومن بينها حواره القوى مع أنطونينوس عن "حول المصير"، ويقولون إنه كتب العديد من أعمال أخرى، عقب اضطهاد تلك الفترة." (LCL I. 399).

وبينما ضاعت الكتابات الأخرى، بقى الحوار "عن المصير" أو "كتاب قوانين البلدان"، والذي يذكره يوسابيوس، محفوظًا في لغته السريانية الأصلية. ومع هذا، فالكاتب ليس بارديصان، بل تلميذه فيليب رغم أن بارديصان هو المتحدث الأساسي في الحوار، والذي يجيب على أسئلة ومشاكل أتباعه فيما يخص خصال الرجال وأماكن النجوم. ويعد بارديصان بحسب كلام مار إفرام السرياني هو مبتكر فن الترانيم السريانية، لأنه صاغ مائة وخمسين ترنيمة لينشر تعليمه. وقد ذاع نجاحه الباهر حتى إن إفرام السرياني في النصف الثاني من القرن الرابع اضطر أن ينافس بارديصان في هذا القطاع بتأليفه الترانيم بنفسه. وذهب بعض الدارسين في آرائهم إلى القول بأن القصيدة الجميلة "ترنيمة النفس"، في أعمال توماس الأبوكريفية، هي من عمل بارديصان. لكنه رأي مشكوك فيه للغاية، خاصة أن محتويات تلك الترنيمة الشهيرة لا تشير بأية علامة على غنوسية بارديصان. وفي قائمته عن العلوم، المعنون "الفهرست" من أواخر القرن العاشر الميلادي، ينسب العربي ابن أبي يعقوب إلى بارديصان ثلاث كتابات أخرى، يتناول إحداها "النور والظلمة" ويتناول الثاني "الطبيعة الروحية للحق"، أما الثالث فتحدث عن "المتحرك وغير المتحرك".

ثامنًا: هارمونيوس

هارمونيوس هو ابن بارديصان، وهو الذي أكمل عمل أبيه. وكان المؤرخ سوزومين أول من أمدنا بكل المعلومات عنه وذلك في منتصف

القرن الخامس الميلادي. وبحسب سوزومين (تاريخ الكنيسة ٣: ١٦)، "كان هارمونيوس بليغًا في الأدب الإغريقي واسع الاطلاع فيه وكان أول من قرض الشعر أبياتًا في لغته العامية، وقد سلم تلك الأبيات إلى الجوقات المرنمة، وحتى الآن فإن السريان يتغنون من حين لآخر، لا بالأبيات المضبوطة التي كتبها يراع هارمونيوس بل بأبيات أخرى على نفس الوزن. لأنه مثلما كان هارمونيوس وبشكل شامل لا يخلو فكره من أخطاء أبيه وقد علّم بالعديد من الآراء عن النفس، وميلاد الجسد وفنائه، وتعليم تناسخ الأرواح، الذي يروج له المعلمون الإغريق الفلاسفة، فقد أقحم بعضًا من هذه الأفكار في الأغاني المرتلة التي صاغها. وحين أدرك إفرام أن السريان انبهروا بالكلمات المنتقاة البليغة وتنوع النغم الموسيقي لكلمات هارمونيوس، تخوف أن يتشربوا بنفس الآراء، لهذا عكف بنفسه على دراسة أوزان شعر هارمونيوس، رغم جهله بالعلوم الإغريقية، وصاغ قصائد مماثلة تتفق وتعاليم الكنيسة، وترانيم مقدسة في تمجيد القديسين. ومنذ ذلك الحين راح السريان يشدون بقصائد إفرام المغناة بنفس الطريقة التي انتهجها هارمونيوس." ويظهر من هذا الاقتباس أن هارمونيوس حل بالكامل محل أبيه (بارديصان)، فيما عدا أن سوزومين يصرح في عبارة سابقة أن بارديصان قد ابتدع هرطقة ما تعرف باسمه. ولكن وبسبب حقيقة عدم ذكر إفرام لهارمونيوس على الإطلاق يمكن لنا استنتاج أن هارمونيوس اكتفى فقط باستكمال عمل أبيه.

تاسعًا: ثيودوتوس

كان ثيودوتيوس عضوًا ينتمي إلى مدرسة فالنتينوس الشرقية. ونعرفه من خلال ما يسمى "Excerpta ex Scriptis Theodoti"، والذي يعد ملحقًا لكتاب "المتفرقات" لكليمندس السكندري،

وهو يحتوي على ستة وثمانين من الاقتباسات تتضمن اقتباسات من كتابات ثيودوتوس رغم أن ذكره قد جاء فقط في أربعة منها. وتتناول المحتويات أسرار المعمودية، وإفخارستيا الخبز والماء، والرشم بالزيت كوسيلة للتخلص من سطوة القوة الشريرة. علاوة على ذلك، فإن المعتقدات الفالنتانية الأصلية عن (pleroma) و (ogdoas) وعن الطبقات الثلاث للبشر موجودة في تلك المقتطفات.

عاشرًا: ماركوس

يذكر إيرينيوس شخصًا باسم ماركوس علَّم في ديوان حاكم آسيا كعضو في مدرسة فالنتينوس الشرقية. ويبدو من رواية إيرينيوس أن ماركوس هذا قد شارك في تعاليم فالنتينوس عن الإيونات، وأنه كان يمارس طقس الإفخارستيا بالسحر والخداع، وأنه أغوى الكثير من النساء. وقد كرز تلاميذه حتى في القسم القريب من الرون (Rhone) في بلاد الغال وكان إيرينيوس يعرف بعضًا منهم شخصيًا. ويذكر إيرينيوس في (Adv. Haer 1: 20: 1) أنهم استخدموا قدرًا كبيرًا من كتابات أبوكريفية وغير أصيلة قد ألفوها بأنفسهم.

حادي عشر: كاربوكراتِس

إلى جانب باسيليدس وفالنتينوس، أبدعت الإسكندرية في مصر مؤسسًا لطائفة غنوسية أخرى، هو كاربوكراتِس. وبحسب إيرينيوس في (Adv. Haer 1: 25: 1) زعم كاربوكراتس وأتباعه "أن العالم وما يحتويه قد خلق بواسطة ملائكة أدنى بكثير من الآب غير المولود. وزعموا أيضًا أن يسوع هو ابن يوسف وأنه كان مثل سائر الناس فيما عدا أنه اختلف عنهم في أن نفسه بقدر ما كانت راسخة ونقية كان يتذكر تمامًا تلك الأمور التي شهدها في دائرة الله غير

المولود. ولهذا حلت عليه "قوة" من الآب، والتي بواسطتها يمكنه أن يفلت من خالقي العالم. ويقولون إنها بعد أن جازت فيهم كلهم وظلوا أحرارًا في كل المجالات، صعدت ثانية إليه."

وكان مركز يسوع هذا فريدًا بشكل منقطع النظير لأنه وبنفس المنوال "فإن النفس (soul) التي تشبه نفس المسيح يمكنها أن تزدري بأولئك الحكام الذين كانوا صانعي العالم، وبنفس الطريقة تتلقى "قوة" لتحقيق نفس النتائج. وقد رفعتهم هذه الفكرة - أعني أتباع كاربوكارتِس - إلى ذروة الكبرياء، حتى أن بعضهم أعلنوا عن أنفسهم أنهم مشابهون ليسوع بينما زعم آخرون أكثر قدرة أنهم أعلى وأسمى من تلاميذه، مثل بطرس وبولس وباقي الرسل، والذين اعتبروهم أدنى من يسوع." (Adv. Haer 1: 25: 2)

وكان أتباع كاربوكراتس يمارسون نوعًا خاصًا من الديانة التوفيقية: "كانوا أيضًا يقتنون صورًا، بعضها مرسوم والبعض الآخر مصنوع من مواد مختلفة. وكانوا يزعمون أن بيلاطس كان يحمل شبهًا من المسيح في ذاك الوقت حين كان يسوع يعيش في وسطهم. وقد كرموا تلك الصور واحتفظوا بها مع صور الفلاسفة في العالم، أي مع صور فيثاغورث وأفلاطون وأرسطو والباقين. وكانت لهم أيضًا أساليبهم الأخرى في توقير وتكريم تلك الصور تتبع نفس طرق الوثنيين." (Adv. Haer . 1 ، 25 ، 6).

"كما مارس الكاربوكراتيون أيضًا فنونًا سحرية وأعمال الرقية والتعاويذ وإعداد أشربة الجاذبية والحب، وكانوا يستدعون الأرواح للكلام معها، وإيفاد الشياطين في الأحلام وغيرها من الرجاسات، زاعمين أن لهم سلطانًا حتى للسيطرة على رؤساء وأمراء هذا العالم، ليس عليه وحسب بل على الأمور التي فيه." (Adv. Haer. 1: 25: 3)

وعن زمن ظهور كاربوكراتِس، فهو من الأهمية بمكان إذ

بحسب إيرينيوس فإن إحدى تلميذاته من النساء، وتدعى مرسيلينا، قد ذهبت إلى روما خلال حكم البابا أنيستوس (١٥٤م - ١٦٥م)، وأغوت كثيرين. وهو ما يثبت أن كاربوكراتس كان معاصرًا لفالنتينوس.

ثاني عشر: إبيفانِس

بينما لا تتوفر لدينا كتابات كاربوكراتِس، فإن العديد من فقرات المبحث "عن العدل" الذي صاغه ابنه إبيفانِس نجدها متوافرة لدينا. وقد كتب إبيفانِس هذا البحث كعبقرية إبداع طفل صغير. وقد مات في السابعة عشرة من عمره، وعبده الناس كأنه إله في كيفالونيا، الجزيرة مسقط رأس أمه، ألكسندريا. وقد كرس أهل كيفالونيا معبدًا باسمه في مدينة سيم، واحتفل أتباعه بتمجيده وتأليهه بالترانيم والذبائح في كل شهر قمري جديد. ويقتبس كليمندس السكندري فقرات من مبحثه "عن العدل" في كتابه (Storma. 3: 2: 5 - 9)، تدل على أن إبيفانِس كان يدافع عن مجتمع المقتنيات. بل إنه تمادى في طرحه حتى اعتبر النساء من بين المقتنيات المشاعة للجميع.

ثالث عشر: ماركيون

ولد ماركيون في سينوب، في بنطس، المعروفة الآن باسم سينوب، على البحر الأسود. كان أبوه أسقفًا، وتنتمي عائلته إلى أعلى الطبقات الاجتماعية في هذا الميناء المهم وتلك المدينة التجارية. أما هو فقد حقق ثروة كمالك سفينة. وقد جاء إلى روما عام ١٤٠م. في حكم أنطونينوس بيوس، والتحق في بادئ الأمر بجماعة المؤمنين. وسرعان ما تسببت تعاليمه في معارضة شديدة، حتى إن قادة الكنيسة طالبوه بتقديم اعتراف بإيمانه. وكانت النتيجة أن تم حرمه في يوليو من عام

١٤٤م. وثمة فارق جوهري بين ماركيون وبقية الغنوسيين. فبينما أسس الغنوسوين الآخرون المدارس فقط، فقد أسس ماركيون كنيسته الخاصة بعد انفصاله عن كنيسة روما. فأسس رئاسة تراتبية من الأساقفة والكهنة والشمامسة. وكانت اللقاءات أو الاجتماعات الليتورجية شديدة الشبه بما يتم في كنيسة روما. ولهذا السبب التف حوله من المريدين عدد أكبر من أي غنوسي آخر. ويذكر يوستين أن كنيسته بعد حرمانه قد انتشرت بشكل مكثف في كل المسكونة. وحتى منتصف القرن الخامس بقي العديد من تلك المجتمعات الماركيونية في المشرق، خاصة في سوريا، وفي مطلع القرون الوسطى بقيت منها مجموعات قائمة.

والمثير للأمر أن ماركيون قد تم حرمه على يد أبيه قبيل مجيئه إلى روما. وعلى الأرجح في موطنه سينوب واجهته معارضة كتلك التي تعرض لها في روما. لهذا نرى من المهم عرض بعض من تعاليمه، ولكن للأسف، فإن العمل الوحيد الذي حرره كان باسم "الطباق أو التضاد" (Antitheses) والذي يحوي لب تعليمه، قد فقد. بل إن رسالته إلى قادة الكنيسة الرومانية قد فقدت أيضًا، وهي الرسالة التي أقر فيها بإيمانه. ويضع إيرينيوس ماركيون مع الغنوسي السرياني سيردون الذي استقر في روما إبان حكم هيجينوس (١٣٦م - ١٤٠م) "وزعما أن إله الناموس والأنبياء ليس هو أبا ربنا يسوع المسيح، وأن أحدهما معلن والآخر مخفي مجهول، أحدهما عادل وبار والآخر صالح" (Adv. Haer. 1: 27: 1). ويسجل إيرينيوس أن ماركيون قد توسع في مدرسة سيردون في روما، "وفي خزي يجدف على من يدعى الله بالناموس والأنبياء، مؤكدًا أنه إله شرير يصنع الشر مغرم بالحروب، متذبذب في أحكامه يناقض نفسه أيضًا، وبالنسبة ليسوع الآتي من عند ذلك الآب، الذي هو فوق الإله الذي صنع العالم، إلى

اليهودية في زمن بيلاطس البنطي، الوالي، الذي كان حاكم طيباريوس قيصر، وقد ظهر في الجسد لسكان اليهودية في هيئة بشرية، ليمحو كل الأنبياء والناموس وكل أعمال ذلك الإله الذي خلق العالم، والذي يدعوه أيضًا بحاكم العالم. وعلاوة على ذلك، فهو يشوه الإنجيل حسب القديس لوقا ويزيل منه كل ما كتب عن ميلاد ربنا بل وكثيرًا أيضًا من تعليم عظات ربنا، والتي فيها نقرأ مكتوبًا بكل وضوح كيف يعترف ربنا أن صانع هذا العالم هو أبوه. وقد أقنع تلاميذه أنه هو نفسه أكثر استحقاقًا من الرسل الذين كتبوا الإنجيل، في حين لا يضع بين أيديهم الإنجيل بل جزءًا ضئيلًا منه، وبالمثل، شوه أيضًا رسائل بولس الرسول بأن نزع منها ما قاله رسول الإله الذي صنع العالم، وكيف أنه هو أبو ربنا يسوع المسيح، وكل ما اقتبسه الرسول في تعاليمه من الكتابات النبوية التي تتنبأ بمجيء الرب. ويقول، إن الخلاص هو لنفوسنا فقط، تلك النفوس التي تعلمت تعاليمه، ولكن الجسد لأنه في الحقيقة مأخوذ من تراب، لا يمكنه أن يشارك في الخلاص."

وفي فقرة أخرى في (Adv. Haer. 3: 3: 4) يسجل إيرينيوس أن بوليكاربوس أسقف أزمير- سميرنا - التقى يومًا ماركيون وحين سأله الأخير "هل عرفتني؟" أجابه: "لقد عرفتك فأنت بكر الشيطان."

ومثل كل المقاومين للهراطقة من كتاب الكنيسة الأولى، أحصى إيرينيوس ماركيون من بين الغنوسيين. لكن أدولف هارناك لا يتفق على اعتبار ماركيون من الغنوسيين على الإطلاق، بل أول "مصلح مسيحي "ومسترد "المذهب البولسي". وهارناك محق في أن ماركيون لم يبذل أدنى جهد لوصل الهوة في المسافة بين اللانهائي والنهائي بسلسلة متكاملة من الإيونات مثلما فعل الغنوسيون. بل إنه لم يشغل باله أبدًا بالمناظرات حول سبب الفوضى في العالم المنظور. وهو

يختلف أيضا عن الغنوسيين في رفضه وإنكاره لكل التفسير الرمزي للكتاب المقدس. ولكن من الجهة الأخرى، فإن التعاليم اللاهوتية لماركيون توضح تمامًا الخليط النموذجي للأفكار المسيحية والوثنية الأممية والتي تعد من أكثر مميزات الغنوسية. ومفهومه عن الألوهة مفهوم غنوسي صرف، فهو يميز تمامًا بين الإله الصالح الخير الذي يقيم في السماء الثالثة وذلك الإله العادل الأدنى منه. وفي مفهومه عن الكون أو الكوزمولوجي نرى أيضًا تلك السمة الغنوسية فالإله الثاني الذي خلق العالم والإنسان ماهو إلا "الديميورج" (demiurge) أي خالق العالم المادي، والمعروف تمامًا لدى الجماعات الغنوسية الآخرى. وفكر ماركيون فكر غنوسي أيضًا، فهو يعتقد أن الإله الثاني لم يخلق العالم من عدم، بل خلقه من مادة أزلية هي بذرة كل الشرور. ويماهي ماركيون هذا الإله مع إله اليهود إله الناموس والأنبياء. هو بار وعادل لكنه يعاني من الأهواء والشهوات، هو غضوب ومنتقم، هو خالق كل شر، ماديًا كان أم أخلاقيًا. ولهذا السبب هو مشعل كل الحروب. وتظهر التعاليم الخريستولوجية لماركيون نفس الميل الغنوسي. فالمسيح ليس هو المسيا الذي تنبأ عنه العهد القديم. فهو ليس مولودًا من العذراء مريم، لأنه لا يولد ولا ينمو، بل ولا يمكن أن يمر بما يمكن أن يشبههما حتى. وفي السنة الخامسة عشرة لحكم طيباريوس أعلن عن نفسه هكذا فجأة في مجمع كفرناحوم. ومنذ ذلك الحين صار له شبه بشري، ظل فيه حتى مات على الصليب. وبسفك دمه افتدى كل النفوس من سلطان الديميورج خالق المادة، الذي أباد حكمه بتعليمه ومعجزاته. وهنا تبرز أيضا سمة غنوسية في الطرح فإنه بحسب ماركيون يكون الفداء قاصرًا فقط على النفوس دون الأجساد، بينما يبقى الجسد خاضعا لسلطان الديميورج خالق المادة، ومصيره الفناء. ويصدمنا في تلك التعاليم غياب الرصانة

وكل منطق. ولا يشغل ماركيون باله بشرح أصل إلهه هذا، إله العدل ولا ما قيمة ذبيحة الصليب إن كانت فقط لشبح. وفي طريقته أيضًا لانتقاء نصوص العهد الجديد يظهر ميل واضح للغنوسية. فهو قد حذف كل النصوص والفقرات الدالة على أن الله أبا المسيح هو هو نفسه خالق العالم، وأن المسيح هو ابن الله الذي صنع السماء والأرض، وأن أبا يسوع المسيح هو هو إله اليهود، لأن كل تلك النصوص تناقض الآراء الغنوسية بطريقة مباشرة. وفوق ذلك، يتفق ماركيون مع فالنتينوس، في عدم اعترافه بالعهد القديم. لكنه يختلف مرة أخرى عن معظم الغنوسيين بمقدار عدم صياغته أية أناجيل جديدة أو أسفار مقدسة، رغم أنه استهدف عددًا من كتابات العهد الجديد وأنكر ورفض العهد القديم تمامًا. وكان ماركيون مقتنعًا تمامًا أن اليهود زيفوا الإنجيل الأصلي للمسيح بإقحام عناصر يهودية فيه. لهذا السبب يزعم أن المسيح استدعى بولس الرسول ليستعيد الإنجيل إلى شكله الأصلي. ولكن حتى رسائل القديس بولس قد تم تحريفها من قبل أعدائه، لهذا استبعد ماركيون أناجيل متى ومرقس ويوحنا ورفض الاعتراف بكل الزيادات اليهودية التي زعم ورودها في إنجيل لوقا، والتي تحوي جوهريًا إنجيل المسيح. واستبعد من مجموع رسائل القديس بولس الرسائل الرعوية والرسالة إلى العبرانيين. أما الرسائل التي احتفظ بها فقد حذف بعض الفقرات منها، فوضع الرسالة إلى أهل غلاطية أولًا، وغير اسم الرسالة إلى أفسس إلى الرسالة إلى لاودكية. وبهذا التغيير اختصر العهد الجديد في وثيقتين للإيمان أطلق عليهما اسم الإنجيل، والرسول. ثم أضاف إلى هاتين الوثيقتين كتابه المعروف بسم "الطباق" الذي برر فيه رفضه الاعتراف بالعهد القديم بتجميعه لكل النصوص المعترض عليها ليدلل على الخصال الكريهة لإله اليهود. وفيه أيضًا يشرح اعتراضاته

على الأناجيل وأعمال الرسل.

رابع عشر: أبيلِس

كان أبيلِس هو أهم تلاميذ ماركيون. وبحسب ترتليان فقد عاش أولاً مع ماركيون في روما، لكن وبعد قليل من الاحتكاك بمعلمه غادر إلى الإسكندرية بمصر. ثم عاد بعد ذلك إلى روما. ويمدنا رودون، خصمه اللدود والذي كان يعرفه شخصيًا، بالمعلومات القيمة التالية عن تلاميذ ماركيون وخاصة أبيلِس: "لهذا توقف الماركيونيون عن التوافق فيما بينهم وهم يتخبطون في آراء متضاربة. وكان أبيلِس واحدًا منهم، والذي كان محل توقير بسبب حياته وسنه. وكان يقر أن هناك مبدأً (أصلاً) واحدًا، لكنه زعم أن النبوات كانت بروح متناقض، وقد تم إقناعه بواسطة كلمات تتفوه بها شابة فيها روح نجس تدعى فيلومينا. لكن الآخرين، كالقائد نفسه ماركيون فقد زعموا بوجود مبدأين. وينتمي إلى هؤلاء بوتيتوس وباسيليكوس. وهذان قد اتبعا ذئب بنطس ماركيون، غير مدركين تقسيم الأشياء مثلما فعل هو، ولكنهما أخذا حلًا سهلًا؛ إذ أعلنا مباشرة عن وجود مبدأين دونما دليل. وانزلق آخرون إلى خطأ أفدح زاعمين بوجود ثلاثة طبائع لا اثنتين. أحدهم القائد والرئيس وهو سينيروس، مثلما أعلن أولئك الذين يمثلون مدرسته." (Hist. Eccl. 5: 13: 2 – 4)

الأهم من ذلك حقيقة أن نقاشًا دار بين رودون وأبيلِس، يسميه هارناك "أهم نقاش ديني في تاريخ الكنيسة"، ويصف رودون ذلك الحوار هكذا: "وحين تناقش معنا العجوز أبيلِس، ثبت أن تصريحاته كلها زائفة، ومن هنا اعتاد أن يكرر أن لا طائل من وراء فحص المناقشة فحصًا كاملًا، بل أن يظل كل واحد على معتقده، لأنه

أكد أن من يضعون رجاءهم في المصلوب يخلصون، إن هم ثبتوا في الأعمال الصالحة. لكن ومثلما قلنا، فإن أكثر الأجزاء غموضًا، في كل التعاليم التي طرحها، كان عن الله. لأنه داوم على القول إن ثمة مبدأ واحدًا تمامًا مثلما تعلن تعاليمنا............ وحين قلت له: "ما دليلك؟ أو كيف لك أن تقول بمبدأ واحد فقط؟ أخبرنا"، فقال إن النبوات تدحض نفسها بعدم ذكرها الحقيقة أبدًا، لأنها غير متماسكة وزائفة وتناقض بعضها البعض، وعن وجود مبدأ واحد، قال إنه لا يعلم كيف، لكنه مال فقط إلى هذا الرأي. وحين رجوته أن يقول الحق، أقسم أنه كان يقول الحق حين ذكر أنه لا يعلم كيف أن الله غير المولود واحد، ولكنه فقط يؤمن بذلك. فسخرت منه وأدنته، لأنه لا يعرف كيف يدلل على تعاليمه، رغم أنه يدعو نفسه معلمًا." (Hist. Eccl. 5: 13: 5 – 7)

ومن هذا العرض يتضح كيف اختلف أبيلِس مع ماركيون، في أهم القضايا: أولًا؛ رفض بشكل أساسي الثنائية المطروحة لمعلمه، وسعى أن يعود إلى فكرة المبدأ الواحد المنفرد. ومن ثم، فقد قدم ما يعرف بالديميورج - خالق المادة الشرير - بصفته مخلوقًا من مخلوقات الله، وملاكًا خلق العالم. ثانيًا؛ استبعد أبيلِس "دوسيتية" أو "شبهية" ماركيون، فلم يعتبر أن جسد يسوع المسيح خيال، بل كان له جسد حقيقي، رغم أنه لم يأخذه من مريم العذراء بل استعاره من عناصر النجوم الأربعة. وحين صعد أعاد جسده إلى تلك العناصر.

ومن جهة أخرى، تمادى أبيلِس أكثر مما ذهب إليه ماركيون في رفضه للعهد القديم. فقد اعتبر ماركيون العهد القديم مجرد وثيقة تاريخية تمامًا دون أية قيمة دينية، لكن العهد القديم في نظر أبيلِس كان مجرد كتاب كاذب زائف، مليء بالتناقضات والخرافات، ولا يعول عليه على الإطلاق. وحتى يثبت أبيلِس تجرد العهد القديم من

القيمة، صاغ كتابًا أسماه "القياسات المنطقية" حوى قرابة ثمانية وثلاثين كتابًا. وقد حفظ أمبروسيوس العديد من الفقرات من هذا العمل، في مبحثه باسم "الفردوس". ولم يتبق شيء من كتاب أبيللِس المسمى "التجليات" (φανερώσεις)، والذي قدم فيه رؤى فيلومينا النبية.

خامس عشر: الإنكراتيون (المتقلبون)

الإنكراتيون[٣] (Encartites) هم الذين يرتبط تعليمهم بفكر ماركيون. مؤسس تلك الطائفة هو تاتيان السوري، وبحسب إيرينيوس يتفق الإنكراتيون مع ماركيون في رفضهم للزواج. ويدل غياب نسب يسوع في كتاب تاتيان الدياتسرون على أن ثمة شيئًا مشتركًا بينه وبين فكر ماركيون.

سادس عشر: يوليوس كاسيانوس

ينتمي يوليوس كاسيانوس إلى جماعة الإنكراتيين (المتقلبين). ويذكر كليمندس السكندري اثنين من كتاباته في كتابه (Storma 3: 13: 92)، أولهما باسم "التفسير"، ونعرف من كليمندس أن الكتاب الأول في هذا العمل يتناول عمر موسى. أما عنوان العمل الثاني فهو "عن التقشف والزهد في الجنس"، والفقرتان اللتان يقتبسهما كليمندس من هذا العمل تتناولان رفض كل المعاشرات الجنسية. وثمة فقرة ثالثة تتناول إنجيل المصريين الغنوسي. وعن تعليم يوليوس بخصوص الدوسيتية أو الشبهية، فإن كليمندس يربطه بفالنتينوس وماركيون. ومن الواضح أن يوليوس كاسيانوس قد علم

---

[٣] أي المتقشفين أو المتقلبين؛ وهي طائفة كانت تحرّم أكل اللحوم وتنظر إلى الزواج كزنا، وتمنع النساء من لبس الحلي، وتمنع شرب الخمر فاستعاضت عنه بالماء في الإفخارستيا. [المراجع]

في مصر حوالى سنة ١٧٠م.

كتابات غنوسية أخرى

وإلى جانب الكتابات الغنوسية التي ذكرها الكتاب الكنسيون، هناك كتابات غنوسية أخرى باقية في الترجمات القبطية.

١. مخطوط أسكويانوس (Codex Askewianus): وهو مخطوط من الرقوق كان يملكه من قبل "أ. أسكو"، وهو محفوظ الآن في المتحف البريطاني (تحت رقم ٥١١٤)، ويحوي أربعة كتب تحمل العنوان (Pistis Sophia)، وتمثل تلك الكتب الأربعة عملًا واحدًا. يتألف رابعها من رؤى من المفترض أن يسوع قد بعث بها لتلاميذه بعد قيامته مباشرة، وهو أقدم من الكتب الثلاثة الأخرى، والتي تحوي رؤى من نفس النوعية من السنة الثانية عشرة بعد القيامة. ولا بد أن يكون الكتاب الرابع قد سُطر في النصف الأول من القرن الثالث، في حين كتبت الثلاثة الأولى في النصف الثاني. وكل الكتب الأربعة تم تدوينها في مصر في دوائر باربلو (Barbelo) الغنوسية. وتُذكر بستيس صوفيا مرة واحدة فقط في الكتب الثلاثة الأولى، حيث يرشدهم يسوع بشأن النهاية المصيرية والسقوط وفداء بستيس صوفيا. وهي كائن روحاني من عالم الأيونات، تعاني من نفس مصير البشرية بشكل عام. ولما كان النص يحوي العديد من الألفاظ اليونانية فلا بد أن يكون الأصل مكتوبًا باليونانية. وبحسب "كارل شميدت" فإن المخطوط يعود إلى النصف الثاني من القرن الرابع.

٢. مخطوط بروسيانوس (Codex Brucianus): كان مملوكًا في البداية لجيمس بروس، والآن هو في مكتبة بودليان أوكسفورد، وهو بردية من القرن الخامس أو ربما السادس الميلادي، ويضم مخطوطتين

مختلفتين. تحوي الأولى الكتابين عن سر اللوغوس العظيم (λόγος κατὰ μυστήριον)، واللذين يماهيهما كارل شميدت مع كتابي جيو الموجودين في بستيس صوفيا. وهما يحويان استعلانات يسوع عن "الكنوز التي على النفس اقتناؤها"، ويتم التعبير عن الكنوز برسومات صوفية، وأرقام ورموز ومجموعات حروف بلا معنى. أما العمل الثاني في مخطوط بروسيانوس فهو مشوه. ويحوى مناظرات عن أصل وتطور العالم المتسامي، والذي يبدو أنه قد نشأ في دوائر (Seth) الغنوسية.

٣. مخطوط ثالث محفوظ في برلين: وهو يحوي ثلاثة أعمال. الأول بعنوان "إنجيل مريم" ويعرض رؤى استعلنت لمريم. والثاني بعنوان "أبوكريفا يوحنا" هو ترجمة عمل يوناني دحضه إيرينيوس في نهاية كتابه الأول "في ضد الهرطقات" (١ : ٢٩)، حيث يظهر يسوع في رؤيا ويعلن نفسه ليوحنا الرسول بصفته "أبو وأم الابن". والثالث بعنوان "حكمة يسوع المسيح"، وبحسب كارل شميدت، فإن هذه الحكمة تماثل كتاب الحكمة الذي حرره فالنتينوس.

مخطوطات نجع حمادي

وفي عام ١٩٤٦م تم اكتشاف مجموعة كبيرة من النصوص الغنوسية في مصر تتألف من إثني عشر مجلدًا أو أكثر من ألف صفحة باللغة القبطية. وقد تم العثور عليها في إناء من فخار بالقرب من مدينة نجع حمادي، في تخوم المدينة القديمة "شينوبوسكيون" على بعد ثلاثين ميلًا شمال الأقصر على ضفة النيل الشرقية. وتحوي الصفحات الألف سبعًا وثلاثين عملًا كاملًا وخمسًا في شكل شذرات. وكل تلك الأعمال كان قد فقد. وقد تم التعرف على بعضها بكونها تشبه ما اقتبس منه إيرينيوس وهيبوليتس

وأوريجينوس وإبيفانيوس في كتاباتهم الهجومية المناهضة للغنوسية. وهناك أعمال أخرى مجهولة ويوصف الكثير منها بالأعمال السرية التي لا يعرفها غير المؤمنين بها حتى إن الكتاب الكنسيين الذين كتبوا ضد الغنوسية ربما لم يروها أبدًا. وتنسب خمسة أعمال منها إلى "المثلث العظمة" هرمس. وتحمل أعمال أخرى عناوين مثل، صعود بولس الأول، رؤيا يعقوب الثانية، الإنجيل بحسب توما وفيلبس، الكتاب السري ليوحنا، الإعلانات الخمس بحسب شيث، إنجيل المصريين، تقاليد متياس، حكمة يسوع، رسالة الطوباوي يوجنستوس وحوار المخلص. وتتماثل عناوين عديدة من تلك العناوين مع عناوين أناجيل منحولة - أبوكريفية - ولكن لا تبدو الأعمال التي لهذه العناوين تحمل نفس الفكر. وقد ألقت تلك البرديات المكتشفة مزيدًا من الضوء على تاريخ الغنوسية في قرون المسيحية الأولى.

الفصل الثامن

بدايات الكتابات المضادة للهرطقات

لقد اتبعت الكنيسة سبيلين لمواجهة الخطر الناجم عن انتشار الأدب الهرطوقي. تعاملت السلطات الكنسية بالحرم على قيادات الهراطقة وأتباعهم وأصدرت رسائل رعوية لتحذير المؤمنين. وقد دعم الكُتاب اللاهوتيون مثل هذا الإجراء الوقائي الدفاعي الذي أثبت فاعليته، حيث أخذوا على عاتقهم مهمة فضح أخطاء الهراطقة بشرح التعليم الصحيح للكنيسة من الأسفار والتسليم. وهكذا ظهر ما يسمى بالكتابات المضادة للهرطقات، والتي لم يتبق منها اليوم سوى أقل القليل .

أولاً: كتابات باباوات وأساقفة القرن الثاني الميلادي ضد الهرطقات والانشقاقات

١. سوتر (١٦٦م. ١٧٤م)

كان يوسابيوس في كتابه "تاريخ الكنيسة" (Hist. Eccl 4: 23: 9-10) قد حفظ شذرة لرسالة كان ديونيسيوس أسقف كورنثوس قد بعث بها إلى البابا سوتر (١٦٦م - ١٧٤م) وهذا نصها: "تلك كانت عادتك منذ البدء، أن تصنع خيرًا بعدة طرق لكل المسيحيين، وأن ترسل مساهمات إلى كثير من الكنائس في كل مدينة، في بعض الأماكن لتخفف الفقر عن المحتاجين، وأن تخدم المسيحيين في المناجم بالمساهمة التي أرسلتها من البداية، محافظًا على عادة السلف التي للرومان، أعني الحقيقيين منهم مثلما أنت. ولم يمارس أسقفكم المطوب سوتر هذه العادة وحسب بل وزادها أيضًا بممارسته السخاء في التوزيع الذي للقديسين. وبحثه الإخوة القادمين إلى روما بكلماته الطوباوية كأب يحب أولاده." (LCL 1: 381 – 383). ويبدو من (Hist. Eccl 4: 23: 11) أن البابا سوتر قد كتب رسالة إلى مسيحيي كورنثوس مصحوبة بمساهمة مالية. أما

هارناك فيرى أن هذه الرسالة هي في الواقع المسماة بالرسالة الثانية لكليمندس والتي تناولناها قبلاً.

وبحسب (Praedestinatus 1: 26)، فإن سوتر كان قد كتب أيضًا عملاً ضد المونتانيين، لكن هذا التقرير لا يعول عليه على الإطلاق.

٢. إليوثيروس (١٧٤م - ١٨٩م)

أثبتت فحوص حديثة أن إليوثيروس وليس سوتر هو أول من رفض الهرطقة المونتانية في نص مكتوب. ويبدو أن نص (Auctoritates) الذي ذكره ترتليان في (Adv. Prax. 1)، كان يشير إلى هذه الوثيقة. وبحسب يوسابيوس في (Hist. Eccl 5: 3: 4 - 4:2 & 5: 1: 2 - 3) فإنه قد استقبل إيرينيوس الذي جلب له رسالتين بخصوص المونتانية. كانت الأولى من المجتمع المسيحي في ليون، والثانية من عدة شهداء في ليون. ويبدو أن كلتا الرسالتين حاولتا التدخل لصالح تعامل وسطي معتدل مع المونتانيين.

٣. فيكتور الأول (١٨٩م - ١٩٨م)

كتب فيكتور عدة رسائل تناولت الجدل حول عيد الفصح، وهي رسائل مهمة لتاريخ ما يسمى بأولوية روما (Hist. Eccl 5: 23 - 25). ويبدو أن القديس جيروم في (مشاهير الرجال ٣٤) كان يشير إلى تلك الرسائل. ومن الضروري أن تكون لفيكتور وثيقة أخرى لأنه وبحسب يوسابيوس (Hist. Eccl 5: 28: 6-9) قام فيكتور بحرم ثيودوتوس الدباغ من بيزنطة، والذي كان يعلم بأن يسوع كان إنسانًا مثل كل البشر باستثناء الميلاد المعجزي، وأنه صار إلهًا فقط بعد قيامته. ويبقى من الأمور غير المؤكدة للغاية ما إذا كان فيكتور هو أول كاتب كنسي يكتب باللاتينية، مثلما يقترح جيروم في (مشاهير

الرجال ٥٣) أم لا.

٤. زفيرينوس (١٩٨م. ٢١٧م)

وفقًا لأوبتاتوس أسقف ميلفيس (Contra Parm. 1, 9)، دافع زفيرينوس في كتاباته عن الإيمان الجامع ضد الهرطقات. ويبقى هذا القول غير مؤكد لعدم توفر مصدر آخر يصدق عليه، ورغم ذلك، يسجل هيبوليتس الروماني - أسقف روما أن زفيرينوس قدم تعريفًا مضادًا لتعليم سابليوس، حيث أعلن "أعرف إلهًا واحدًا فقط، يسوع المسيح، وليس معه آخر قد ولد وتألم." (Ref. 9: II: 3) ويطلق هارناك على هذه العبارة "أقدم تعريف عقيدي لأسقف روماني معروف لنا في نصه". وهو يفسرها بشكل يجعل البابا زفيرينوس من أتباع (modalist) الذي لا يعرف الله الآب ويكرز فقط بيسوع المسيح إلهًا للمسيحيين. لكن لا شيء يبرر ذاك التفسير، لأن حقيقة أن زفيرينوس يسمي يسوع المسيح "بالله المولود"، فهذا يؤكد بمعرفته "بالله الوالد" أي الذي يلد، والذي لا يتماهى مع المولود.

٥. ديونيسيوس الكورنثي

يعد ديونيسيوس الكورنثي من أشهر الكتاب بين الأساقفة غير الرومان، وكان يراسل البابا سوتر حوالى عام ١٧٠م. ويصف يوسابيوس في (Hist. Eccl 4: 23) رسائله الثماني، ويعد ما سجله يوسابيوس هامًّا لنا خاصة أنه لم يتبق من كتابات ديونيسيوس شيء يُذكر. وهذا ما وصفه يوسابيوس: "وبخصوص ديونيسيوس لا بد من القول إنه سيم على كرسي الأسقفية في إيبارشية كورنثوس، وإنه كان يمارس خدمته الإلهية بحماس بالغ، لا في إطار مخدوميه وحسب، بل كان يخدم البعيدين أيضًا، فصار نافعًا للكل جدًّا فيما كان يبعثه من رسائل عامة إلى الكنائس. ومن بينها

رسالة إلى اللاسيديمونيين (Lacedaemonians) تتضمن بعض التعاليم المستقيمة في موضوع السلام والوحدة. والرسالة إلى الأثينيين (Athenians) التي هي بمثابة دعوة للإيمان والحياة بحسب الإنجيل، وحتى يوبخهم راح يلومهم على أنهم كلهم مرتدون عن الحق منذ استشهاد بابليوس (Publius) الذي حدث أثناء الاضطهاد الذي كان في ذلك الوقت. وهو يذكر أن كوادراتوس قد سيم أسقفًا لهم بعد استشهاد بابليوس، ويشهد أن غيرته هي التي جمعتهم ثانية معًا فنالوا صحوة إيمانهم. بل ويذكر أن ديونيسيوس الأريوباغي قد اهتدى على يد الرسول بولس إلى الإيمان بحسب رواية سفر الأعمال، وكان أول من سيم على أسقفية إيبارشية أثينا. وثمة رسالة أخرى باقية له إلى أهل نيقوميديا (Nicomedians) كان يناضل فيها ضد هرطقة ماركيون ويقارنها بقاعدة الحق. كما كتب أيضًا إلى الكنيسة المقيمة في جورتينا (Gortyna) مع الإيبارشيات الكريتية الأخرى. وراح يرحب بأسقفهم فيلبس بسبب صيت الكنيسة التي تحت رعايته من جهة العديد من الأعمال النبيلة المشرفة، كما أشار إلى العناية في التصدي للتعاليم الخاطئة التي للهراطقة. وكتب أيضًا إلى كنيسة المقيمين في أماستريس (Amastris)، مع الكنائس في بنطس (Pontus)، وذكر أن باسكيلدس (Bacchylides) وإلبستوس (Elpistus) قد حثاه على الكتابة، وهو يطرح فيها تفاسير للأسفار الإلهية ويذكر أسقفهم بالاماس بالاسم، ويقدم لهم نصائح كثيرة عن الزواج والعفة ويأمرهم أن يقبلوا الذين اهتدوا وتابوا عن سقطاتهم، سواء في السلوك أو في خطأ الهرطقة. وتضاف إلى تلك القائمة رسالة أخرى إلى جنوسوس (Gnossus) يحث فيها بينيتوس (Pinytos)، أسقف الإيبارشية ألا يضع على الإخوة حملًا اضطراريًا ثقيلًا بخصوص العفة، وأن يراعي ضعف الكثيرين. وفوق

ذلك، هناك رسالة موجودة لديونيسيوس إلى أهل روما، بعث بها إلى سوتر، الذي كان أسقفًا آنذاك، ونحن لا نفعل شيئًا أفضل من أن نضيف بعض فقرات من هذه الرسالة، يمتدح فيها تصرفات أهل روما التي ظلوا متمسكين بها إلى وقت الاضطهاد الذي حدث في أيامنا. وفي نفس تلك الرسالة يقتبس هو أيضًا رسالة كليمندس إلى أهل كورنثوس، موضحًا أنها العادة منذ البداية أن تتلى الرسالة في الكنيسة: "اليوم نحفظ يوم الرب المقدس، ونقرأ عاليًا رسالتك التي سنداوم على قراءتها من حين لآخر لتحذيرنا ونصحنا، مثلما فعلنا مع تلك الرسالة التي بعث بها كليمندس إلينا..." وإلى جانب تلك الرسائل، هناك رسالة أخرى باقية لديونيسيوس إلى المدعوة كريزوفورا (Chrysophora)، وهي مسيحية عميقة الإيمان جدًّا، كان يكتب إليها رسائل منتظمة ليقوتها بالطعام الروحي. تلك هي الحقائق عن ديونيسيوس."

ومن هذا النص يتأكد لنا تقريبا أن رسائل الأسقف ديونيسيوس، فيما عدا الرسالة الأخيرة، قد تم تجميعها في مجلد واحد، ربما أثناء حياته. وربما كان يوسابيوس قد عرفهم على هذا النحو. وكانت رسائل ديونيسيوس إلى مختلف المجتمعات المسيحية محل تقدير مسكوني بالغ، وكان هو نفسه يقول إن الهراطقة كانوا يحاولون تزييفها: "حين كان المسيحيون يسألونني أن أكتب رسائل جديدة كنت أكتبها، فكان رسل الشيطان يملأونها بالزوان، بحذف أشياء وإضافة أخرى، لكن الويل في انتظارهم. لهذا إذا كان البعض يحرفون حتى كتب الرب، فليس غريبًا حين يتآمرون على كتابات هي أقل بكثير." (Hist. Eccl. 4: 23: 12). ولا بد أن الهراطقة الذين يشير إليهم هم تلاميذ ماركيون، ومونتانوس (Montanus)، لأنه في الرسالة الثالثة إلى أهل نيقوميديا يدحض هرطقة ماركيون، في

حين في رسالته إلى مسيحيي أماستريس وتلك المرسلة إلى مسيحيي جنوسوس يتناول المشاكل الناجمة عن البدعة المونتانية.

٦. بنيتوس أسقف جنوسوس

من بين رسائل ديونيسيوس أسقف كورنثوس، هناك الرسالة إلى بنيتوس (Pinytus) أسقف جنوسوس في كريت. ومن المؤكد أن الرسالة التي نال بها بنيتوس ردًا كانت بالتأكيد من بين مجموعة رسائل ديونيسيوس. وبعد أن يذكر يوسابيوس رسالة ديونيسيوس إلى بنيتوس، يكمل قائلًا: "وعن بنيتوس هذا الذي أعجب برد ديونيسيوس ورحب به، يحثه أيضا بدوره في وقت لاحق على توفير الطعام القوي للبالغين، ليقوت الشعب الذي يرعاه برسالة أكثر تقدمًا، حتى لا يقتاتوا دومًا تعاليم بسيطة كاللبن، ولكي لا يشيخوا تحت هذه التعاليم المعدة للأطفال. وفي هذه الرسالة تنكشف أرثوذكسية بينتوس في الإيمان، ورعايته لمن تحت يديه، وعلمه وفهمه للتعاليم اللاهوتية، في أبلغ صورتها." (Hist. Eccl. 4: 23: 8). ويضع القديس جيروم بينيتوس في كتابه (مشاهير الرجال: ٢٨).

٧. سيرابيون الأنطاكي

كان سرابيون الأسقف الثامن لأنطاكية. وتتفق حبريته تقريبًا مع حكم سبتيموس ساويرس. وتتناول رسالته إلى بونتيوس وكاريكوس الهرطقة المونتانية، ويعلن أن ربوع المسيحية كلها رفضت تلك النبوة المزعومة الجديدة لهذه الجماعة المُضللة. (Hist. Eccl. 5: 19: 2). وثمة رسالة أخرى له إلى كنيسة روسوس في كيليكيا (Rhossus in Cilicia) على الشاطئ السوري لخليج إيسوس. ويقتبس يوسابيوس نصًا من هذه الرسالة في (Hist. Eccl. 6: 12: 3 - 6) والتي تتناول إنجيل القديس بطرس المنحول: "من جهتنا، أيها الإخوة، فقد

قبلنا كلًّا من بطرس والرسل الآخرين كما المسيح. لكننا نرفض الكتابات التي تحمل أسماءهم زورًا، وكمختبرين، ندرك أن مثل تلك الكتابات لم تسلم إلينا. فأنا حين جئت في وسطكم، اعتقدت أن جميعكم يلتصق بالإيمان الحق، ودون أن أطالع الأناجيل التي زيفوها هم باسم بطرس، قلت: "إن كان هذا هو المصدر الوحيد الذي يسبب النزاع بينكم، فليُقرأ." لكني إذ علمت مما أخبروني به، أن ذهنكم قد انحرف إلى بدعة ما، فإني أسعى جاهدًا أن آتي إليكم ثانية. لهذا،يا إخوتي، انتظروا مجيئي سريعًا. ولكنكم سوف ترون مما كُتب لكم ما هي الهرطقة التي ينتمي إليها ماركيانوس، لأننا قد حصلنا على هذا الإنجيل (إنجيل بطرس) من أشخاص آخرين قد درسوه دراسة وافية، أعني بواسطة خلفاء الذين بدأوه، والذين نسميهم نحن بالدوسيتيين لأن معظم الأفكار فيه تنتمي إلى تعليمهم، وقد استطعنا قراءته، ووجدنا أن الجزء الأكبر فيه يتفق مع التعليم الحق للمخلص فعلًا، لكنهم أضافوا بعض الأمور إليه، والتي أشرنا إليكم عنها لمنفعتكم." ومن المثير أن شذرة كبيرة من هذا الإنجيل، والمكتشفة في أخميم عام ١٨٨٦م، تتفق تمامًا مع وصف سيرابيون. وهو يحوي تعاليم مستقيمة في مجمله، ولكنه يحوي أيضًا أفكارًا غريبة من إيحاء الدوسيتية. ويعرف يوسابيوس بأمر رسالة ثالثة لسيرابيون تم إرسالها إلى شخص يدعى دومنوس، كان قد انحرف عن الإيمان بالمسيح، في زمن الاضطهاد وعاد إلى العبادة اليهودية بإرادته. (Hist. Eccl. 6: 12: 1). ويضيف يوسابيوس أن كتابات أخرى لسرابيون ربما تكون موجودة حفظها أناس آخرون.

ثانيًا: التفنيد اللاهوتي للهرطقات

وحتى يتم القضاء على تأثير التعاليم الهرطوقية على أعضاء

الكنيسة، كان لا بد من تفنيد التعاليم اللاهوتية لكبار قادة الهراطقة، وفضح أخطائهم، وتقديم شرح صحيح لتعليم الرسل وخلفائهم المعينين قانونيًا وذلك فيما يختص بالله، وخلق العالم والإنسان، والتجسد الإلهي والفداء. وقد فُقد معظم البحوث اللاهوتية العديدة الصادرة خلال تلك الحملة ضد الهرطقات. ولا نعرف عن معظم الأعمال المضادة للغنوسية في القرن الثاني الميلادي ومؤلفيها إلا ما سجله يوسابيوس في كتابه "التاريخ الكنسي" فيذكر في (فصل ٤ : ٢٤)، كتابتين ضد الغنوسية للأسقف ثيوفيلس الأنطاكي، إحداهما ضد هرموجينس (Hermogenes)، والآخر ضد ماركيون. وقد صاغ الأسقف فيلبس أسقف جورتينا "مبحثًا رائعًا ضد ماركيون" (٤ : ٢٥). وكتب أجريبا كاستور ضد باسيليدس (٤ : ٧ : ٦ - ٨)، وكتب موديستوس ضد ماركيون (٤ : ٢٥)، ورودون ضد ماركيون، وأبيللِس (٥ : ١٣)، وتناول مكسيموس مشكلة الشر وخلق المادة (٥ : ٢٧)، ودحض موسانوس الإنكراتيين (٤ : ٢٨). وفوق ذلك، هناك مباحث وخطب كانديدوس وأبيون "عن سفر التكوين"، وسكستوس عن "القيامة"، وهراقليتوس "عن الرسول" والذي يذكره يوسابيوس في (٥ : ٢٧)، والتي تمت كتابته ضد الهرطقات الغنوسية. ورغم ذلك فمعظم تلك المباحث مفقود، ولا نملك سوى شذرات منها في عمل هجسيبوس.

١. هيجسيبوس

ولد هيجِسيبوس (Hegesippus) في المشرق ويذكر يوسابيوس في (Hist. Eccl. 4: 22: 7)، أنه كان "يقتبس من الإنجيل بحسب العبرانيين، باللغات السريانية وخاصة بالعبرانية، الأمر الذي يكشف أنه قد اهتدى إلى المسيحية من وسط عبراني، ويذكر أمورًا تظهر

أنها واردة من التقليد غير المكتوب لليهود."

وثمة أسباب لافتراض أنه كان يهوديًّا هيلّينيًّا، وقد قام برحلة إلى كورنثوس وروما يكتب عنها ما يلي: "وظلت كنيسة الكورنثيين في التعليم الصحيح حتى صار بريموس أسقفًا على كورنثوس، وقد تحدثت معهم في رحلتي إلى روما وأمضيت بضعة أيام مع الكورنثيين، انتعشت فيها نفوسنا بالكلمة الصادقة. وحين كنت في روما راجعت قائمة الخلافة حتى أنستوس الذي له شماس يدعى إليوثيروس، وخلف سوتر أنستوس وبعده جاء إليوثيروس. وفي كل قائمة وكل مدينة كانوا يؤمنون بما كرز به الناموس والأنبياء والرب." (Hist. Eccl. 4: 22: 2 - 3).

ويتضح من تلك الكلمات أن هيجسيبوس زار روما أثناء حبرية البابا أنستوس (١٥٥م ـ ١٥٦م) وظل هناك حتى زمن البابا إليوثيروس (١٧٤م - ١٨٩م). وكان السبب في رحلته ما سببته الهرطقة الغنوسية من محاذير آخذة في الانتشار. ولهذا قصد أن يجمع معلومات عن التعليم الصحيح من العديد من الكنائس الأكثر أهمية، ويسمع من تعليم روما مباشرة. وبعد عودته من روما قام بنشر تسجيله للرحلة في "مذكراته". وهو عمل لم يعد موجودًا الآن، وكان يحوي خمسة كتب، وهو بمثابة هجوم على الغنوسية. ويشهد يوسابيوس الذي احتفظ ببعض شذراته في (Hist. Eccl 4: 7: 15 - 8: 2)، بالسمة الجدلية لهذا العمل بالعبارات التالية: "في الوقت المثار عنه الحديث هذا، كان الحق يضم إليه العديد من الأبطال الذي شنوا حملة ضد الهرطقات الشريرة، لا من خلال المجادلات غير المكتوبة، بل من خلال الوثائق المكتوبة أيضًا. ومن بينها اشتهر هيجسيبوس وقد استفدنا كثيرًا بكلماته، فقد اقتبسنا الكثير من تقليده عن تفاصيل العصر الرسولي. وقد جمع معلوماته وبياناته في خمسة

كتب، مقدمًا بأسلوبه البسيط للغاية، التقليد الأكيد للكرازة الرسولية (τὴν ἀπλανῆ παράδοσιν τοῦ ἀποστολικοῦ κηρύγματος).

وتتناول معظم الشذرات التي حفظها يوسابيوس التاريخ المبكر لكنيسة أورشليم؛ وعلى سبيل المثال ما يتعلق بأسطورة موت القديس يعقوب، أخي الرب، مع سمعان الأسقف الثاني لتلك المدينة، وأقارب يسوع. وبقيت مسألة قائمة الأسماء التي وضعها هيجسيبوس عن الباباوات محل جدل. وبحسب الباحثين تيرنر وكاسبر (C. H. Turner & E. Caspar)، فإن كلمات يوسابيوس (γενόμενος δὲ ἐν Ῥώμῃ διαδοχὴν ἐποιησάμην μέχρις Ἀνικήτου) لا تدل على أن هيجسيبوس قد جمع قائمة بأسماء أساقفة روما بترتيب خلافتهم، لكن تشير إلى أنه في حملته ضد الهرطقات في زمنه قد زار كورنثوس وروما ومدنًا أخرى كبيرة الشأن من تلك المدن المسكونية، لكي يتأكد من تقليد حفظ التعليم الصحيح.

٢. إيرينيوس أسقف ليون

إيرينيوس أسقف ليون، هو واحد من أهم المعلمين اللاهوتيين في القرن الثاني قاطبة. وغير معلوم التاريخ الدقيق لمولده، لكنه ربما يقع فيما بين عامي (١٤٠م و١٦٠م). ومسقط رأسه في آسيا الصغرى، ومن المحتمل تمامًا أن يكون أزمير ـ سميرنا ـ لأنه في رسالته إلى القس الروماني الشيخ فلورينوس يخبرنا أنه كان في صدر شبابه يستمع إلى عظات بوليكاربوس أسقف أزمير. وتكشف رسالته عن تلك المعرفة الوطيدة بهذا الأسقف الشهيد والتي ما كان له أن يكتسبها من دون معرفة شخصية به: "لأنني، وأنا بعد صبي صغير، رأيتك ـ فلورينوس ـ

في آسيا السفلى، في بيت بوليكاربوس، حين كنتَ رجلًا ذا مرتبة في القصر الملكي، تسعى أن تثبت إلى جواره . وأتذكر أحداث تلك الأيام بوضوح أكثر مما أتذكر ما يقع حديثًا، لأن ما نتعلمه ونحن أطفال يشب مع النفس ويتحد بها، حتى إنني يمكنني أن أتكلم عن المكان الذي كان يجلس فيه الطوباوي بوليكاربوس ليحاجج، وكيف كان يدخل ويخرج، ونمط حياته، وهيئة جسده، والعظات التي كان يلقيها على مسامع الشعب، وكيف كان يعد المبحث مع يوحنا ومع آخرين رأوا الرب، وكيف كان يتذكر كلماتهم، وما هي الأمور التي تخص الرب والتي سمعها منهم، وعن معجزاتهم وعن تعاليمهم، وكيف تسلمها بوليكاربوس من شهود عيان "كلمة الحياة". وكيف كان ينقل كل شيء حسب الأسفار المقدسة. وقد كنت أنصت إلى تلك الأمور بشوق، بمراحم الله التي وهبها لي، وكنت أدونها، لا على ورق، بل في قلبي، وبنعمة الله صرت أرددها على الدوام." (Hist. Eccl. 5: 20: 5 - 7) .

ومن هذه الكلمات يتبين أن إيرينيوس كان على تواصل مع العصر الرسولي من خلال بوليكاربوس. ولأسباب غير معلومة، غادر إيرينيوس آسيا الصغرى متوجهًا إلى بلاد الغال (فرنسا حاليًّا). وفي عام ١٧٧م أو ربما ١٧٨م تم إرساله كقس للكنيسة في لوجدونوم (Lugdunum) بواسطة شهداء تلك المدينة إلى البابا إليوثيروس في روما ليتوسط في مسألة المونتانية. وكان الخطاب الذي حمله في ذاك الوقت إلى البابا قد منحه توصية رائعة: "قد سألنا أخانا ورفيقنا إيرينيوس أن يأتيكم بهذا الخطاب معه، ونلتمس منكم أن تستقبلونه في تقدير بالغ، لأنه غيور على عهد المسيح. لأننا لو كنا نعلم أن الرتبة يمكن أن تهب برًّا أي أحد، لكنا في البداية قد أوصينا به من أجل كونه قسًّا لتلك الكنيسة

- أي لوجدونوم - لأن ذلك هو مركزه." (Hist. Eccl. 5: 4: 2). وحين عاد إيرينيوس من روما، كان الأسقف العجوز فوتينوس قد مات شهيدًا، فصار إيرينيوس خليفته. وحين حرم البابا فيكتور الأول الآسيويين إبان الجدل حول عيد الفصح، كتب إيرينيوس إلى عدد من أولئك الأساقفة وإلى فيكتور نفسه يحثهم على صنع السلام بينهم. لهذا السبب يعلن يوسابيوس في (Hist. Eccl. 5: 24: 17) أن إيرينيوس عاش بحسب (معنى) اسمه، إذ برهن حقًّا بنفسه أنه صانع سلام وبعد تلك الواقعة اختفى نهائيا عن الأنظار، حتى أن سنة موته باتت مجهولة. وقبل زمن غريغوريوس أسقف صيدا، (Historia Francorum 1: 27)، لا نجد أي ذكر لموته كشهيد. ولما كان يوسابيوس لم يُلمح أبدًا لهذا الاستشهاد، فإن تلك الشهادة المتأخرة تصبح محل كثير من التساؤل.

كتابات إيرينيوس

إلى جانب خدمته لإيبارشيته، كرس إيرينيوس نفسه لمهمة تفنيد الهرطقات الغنوسية، بواسطة كتاباته المكثفة الكثيرة. وفي تلك الأعمال يقدم لنا دحضًا رائعًا وتحليلًا نقديًّا للمهاترات العجيبة للغنوسيين. وبما يملك من دراية عميقة بالمصادر، كان يمزج بين استقامة السلوك، وغيرته على حفظ استقامة التعليم اللاهوتي. وكانت معرفته الوثيقة والدقيقة بالتقليد الكنسي، والتي اكتسبها لقربه وصداقته لبوليكاربوس مع غيره من تلاميذ الرسل، هي خير معين له في صراعه ضد الهرطقات. ولسوء الحظ، فقدت أعماله في زمن مبكر. وبقي فقط عملان من بين العديد من الأعمال التي دونها بلغته اليونانية، أحدهما ذلك العمل الأهم، والذي تم حفظه لا في اليونانية لغته الأصلية بل في ترجمة لاتينية. وهي ترجمة حرفية يختلف

النقاد بشكل كبير في تاريخها.

١. العمل الرئيس لإيرينيوس وهو يحمل عنوان: "كشف ودحض الغنوسية المزعومة والزائفة" (Ἔλεγχος καὶ ἀνατροπὴ τῆς ψευδονόμου γνώσεως). وعادة ما يسمى "ضد الهرطقات". ومثلما يشير العنوان الأصلي، فإن العمل يتألف من جزأين. ويتناول الجزء الأول الكشف عن الهرطقة الغنوسية، ورغم تخصيص ذلك الجزء للكتاب الأول، فإنه غير نافع في تاريخ الغنوسية. ويبدأ فيه إيرينيوس بوصف تفصيلي لتعليم الفالنتينيين، يفسره بأسلوب هجومي (polemic)، وحين يفعل ذلك يبدأ على الفور في التعامل مع بدايات الغنوسية. فراح يتحدث عن سمعان الساحر ومناندر، ثم يقدم قادة آخرين من المدارس والطوائف الغنوسية على النحو التالي: ساتورنيل، باسيليدس، كاربوكارتس، فرنثوس، الأبيونيين (المساكين بالروح)، النيقولاويين، سردون، ماركيون، تاتيان، والإنكراتيين (المتقلبين). لكنه يؤكد على حقيقة أنه مع تلك الأسماء، فإن العدد الخاص بالذين لم ينحرفوا عن الحق بطريقة أو بأخرى، لم يتناقص. أما الجزء الثاني من "التفنيد" فيتضمن الكتب الأربعة التالية. وفي الكتاب الثاني؛ يفند إيرينيوس غنوسية الفالنتينيين وأتباع ماركيون لخلوها من المنطق. والكتاب الثالث، هو من تعليم الكنيسة عن الله والمسيح. والكتاب الرابع، من أقوال الرب. أما الكتاب الخامس فيتناول تقريبًا وبشكل حصري قيامة الجسد، والتي ينكرها كل الغنوسيين، وهو يتحدث في الختام عن الحكم الألفي، وهنا يثبت إيرينيوس أنه هو نفسه تابع لمذهب الحكم الألفي.

ويفتقر العمل بأكمله إلى الترتيب الواضح والوحدة في الفكر. ويتسبب الإسهاب والتكرار الممل في جعل العمل مضنيًا ومرهقًا.

ويرجع السبب في هذا العيب على أكثر الاحتمالات، إلى أن الكاتب كان يدون العمل على فترات متقطعة. وحسب مقدمة الكتاب الثالث، فقد أرسل بالفعل الكتابين الأولين معًا إلى الصديق الذي كتب نزولاً على رغبته. ثم تبعهما بالكتب الثلاثة الأخرى، الواحد تلو الآخر. ولكن يبدو أن المشروع قد سبق تصميمه منذ البداية، لأن الكاتب يشير أصلاً في الكتاب الثالث إلى ملاحظاته اللاحقة عن بولس الرسول، والتي ترد فقط في الكتاب الخامس. وفوق ذلك، فإنه وفي نهاية الكتاب الثالث، يعلن عن الكتاب الرابع، وفي نهاية الرابع عن الخامس. ولكن يبدو أن إيرينيوس كان يضع الإضافات والزيادات من وقت لآخر. ومن المؤكد أنه لم يكن يملك القدرة على تشكيل ما توفر لديه في نسيج واحد ليبدو ككل متجانس. إن عيوب الشكل والتي يستاء منها القارئ هي بسبب افتقاد الكاتب براعة التكوين (synthesis)، ومع ذلك فإن إيرينيوس كان يعرف كيف يقدم وصفًا بسيطًا واضحًا ومقنعًا لعقيدة الكنيسة. لهذا يبقى عمله من بين أهم وأعظم الأعمال لمعرفة الأنظمة الغنوسية ولمعرفة الفكر اللاهوتي للكنيسة الأولى. ولا يدّعي إيرينيوس أنه صاغ قطعة أدبية فنية أبدا، "لا تتوقعوا مني، وأنا الساكن بين الكلتيين (Celts) وقد اعتدت معظم الوقت على استخدام اللهجة البربرية، أن أقدم لكم بيانًا بلاغيًّا فصيحًا، لم أتعلمه أنا قط، أو أن أكتب صياغة فيها السمو، الذي لم أمارسه طيلة عمري أبدًا، أو أن تتوقعوا مني أي جمال أو إقناع في الأسلوب، وهو ادعاء لم يبدر عني أبدًا أيضًا، لكن اقبلوني كما أنا بروح مترفق حانٍ. فأنا بنفس الروح أكتب إليكم ببساطة، وبحق وصدق، وبأسلوبي المحلي الخاص بي."
(Adr. Haer. 1: intro: 3).

وفي وصفه للتعليم الغنوسي، يعتمد إيرينيوس على قراءته

المكثفة للبحوث الغنوسية، لكنه يعتمد على مؤلفين أقدم مناهضين للغنوسية، وإنه لأمر غاية في الصعوبة أن نحدد معالم تلك المصادر، خاصة وأن معظمها مفقود، حتى تلك الأعمال التي يذكرها إيرينيوس بصفة خاصة بالاسم، مثل " أقوال بابياس أسقف هيرابوليس"، وأقوال "شيوخ آسيا الصغرى"، و" مبحث ضد ماركيون"، بقلم يوستين الشهيد. ونحن نعرف يقينًا أن إيرينيوس كان قد استخدم تلك الأعمال، لكن من المستحيل أن نحدد مدى اعتماده عليها لأن كلها مفقود. وبحسب لووفز (F. Loofs)، فإن كتابات الأسقف ثيوفيلوس الأنطاكي كانت إحدى المصادر الرئيسة لدى إيرينيوس، ولكن لسوء الحظ فإن العملين المناهضين للغنوسية اللذين كتبهما ثيوفيلوس، وهما "ضد هرموجنيس"، و"ضد ماركيون"، لم يعودا موجودين الآن، وإن بقيت العناوين محفوظة لدى يوسابيوس. ولدينا بالطبع كتاب ثيوفيلوس "خطاب إلى أوتوليكوس"، ولكن لووفز نفسه ينبغي أن يقر أن وضع النصوص في شكل متواز والتي قام بها (لووفز) لمقارنة هذا العمل مع كتابات إيرينيوس لا يُعد دليلًا كافيًا على أن إيرينيوس كان قد استخدم هذا الكتاب. وفوق ذلك، فإنه من غير المؤكد، أن مبحث ثيوفيلوس "ضد ماركيون"، كان موجودًا في الوقت الذي كتب فيه إيرينيوس عمله الرئيس ضد الغنوسيين.

وقد وصل إلينا هذا النص في النسخ الآتية:

(أ) النسخة اللاتينية، حيث يتوفر النص الكامل، وهي نسخة محفوظة في عدد من المخطوطات، ويعتقد كل من (H. Jordan) و(A. Souter) أن تلك الترجمة قد تمت في شمال أفريقيا فيما بين عامي (٣٧٠م و ٤٢٠م). وبحسب (H. Koch) فإنها من المحتمل أن تكون قد نشأت قبل عام ٢٥٠م، لأن كبريانوس كان قد

استخدمها. ويتجاوز الباحث (W. Sanday) هذا الحد، فيرجعها إلى عام ٢٠٠م.

(ب) عدد من الشذرات من النص اليوناني الأصلي المفقود نجده محفوظًا بواسطة هيبوليتس ويوسابيوس وخاصة إبيفانوس. وكذلك هناك شذرات إضافية نجدها في بعض السلاسل (catenae) والبرديات، ومن تلك الشذرات يمكن تقريبًا إعادة تركيب النص الأصلي بالكامل.

(ج) ترجمة حرفية بالأرمينية تم اكتشافها للكتابين الرابع والخامس، وحررها (E. Ter Minassiantz).

(د) ثلاثة وعشرون شذرة متاحة بالترجمات السريانية.

٢. وإلى جانب هذا العمل الرئيس لإيرينيوس، نملك كتابًا آخر بعنوان "عرض التعليم الرسولي" (Ἐπίδειξις τοῦ ἀποστολικοῦ κηρύγματος). وحتى وقت طويل لم يكن معروفًا من هذا العمل سوى العنوان (Hist eccl 5: 26). وفي عام ١٩٠٤م تم اكتشاف النص الكامل في نسخة أرمينية بواسطة تير مكرتشيان (Ter-Mekerttschian) الذي حرره للمرة الأولى عام ١٩٠٧م. وهذا العمل ليس تعليميًا للموعوظين مثلما اعتقد بعض الدارسين، بل هو مبحث دفاعي مثلما يشير العنوان. وهو يتألف من جزأين، فبعد عدة ملاحظات تمهيدية حول الدوافع التي قادت إلى كتابة هذا العمل (الفصول ١ ـ ٣)، يتناول الجزء الأول (الفصول ٤ ـ ٤٢) المحتوى الأساسي عن الإيمان المسيحي، وهو يشمل شرح الأقانيم الإلهية الثلاثة، خلق وسقوط الإنسان، التجسد الإلهي، والفداء. ومن ثم فهو يصف كل التدبير الإلهي وعناية الله بالبشرية من آدم حتى المسيح. أما الجزء الثاني (الفصول ٤٢ ـ ٩٧)، فهو يطرح براهين الحق في الاستعلان المسيحي من نبوات العهد القديم، ويقدم يسوع بصفته

ابن داود والمسيا. ويكتب القديس إيرينيوس قائلا: "إذا كان الأنبياء قد تنبأوا هكذا أن ابن الله سوف يظهر على الأرض، وإن كانوا قد أعلنوا عن أين سيكون في الأرض، وعن كيفية وبأية طريقة سوف يُظهر نفسه، وإذا كان الرب قد أخذ في نفسه بالفعل كل ما تنبأوا به عنه، فإن إيماننا فيه يترسخ وتقليد كرازتنا لا بد وأن يكون تقليدًا صادقًا. أي صادقة هي شهادة الرسل الذين أرسلوا من الله، والذين كرزوا في كل العالم عن الذبيحة التي صنعها ابن الله من خلال تحمله الموت والقيامة." (فصل ٨٦). وفي الختام يحض القديس إيرينيوس قراءه أن يحيوا حسب الإيمان ويحذرهم من الهرطقة وشرها. ويظهر لنا من خلال عرض محتويات هذا العمل أنه دفاع لا يحتوي على أي جزء هجومي، فهو يقتصر هنا على البرهان الإيجابي عن العقيدة السليمة، ويحيل القارئ، في تفنيد الفكر الغنوسي، إلى العمل الرئيس لإيرينيوس والذي ذكرناه قبلاً.

٣. أما بالنسبة لأعمال إيرينيوس الأخرى فلدينا فقط شذرات منها أو مجرد عناوينها:

(أ) وجه إيرينيوس رسالة إلى القس الروماني فلورينوس بعنوان "عن السيادة الوحيدة" أو "أن الله ليس هو صانع الشر". ويقتبس يوسابيوس في (Hist eccl 5: 20: 4 - 8) فقرة طويلة من هذه الرسالة.

(ب) بعد أن انحرف فلورينوس عن إيمانه، كتب إيرينيوس "عن الثماني" ويقدم يوسابيوس الكلمات الختامية لهذا المبحث في (Hist eccl. 5: 20: 2).

(ج) وبعث إيرينيوس رسالة أخرى بعنوان "عن الانشقاق" إلى بلاستوس، الذي عاش في روما ولكنه نادى بتعاليم غريبة. وقد حفظ يوسابيوس عنوان الرسالة فقط (Hist eccl . 5: 20: 1).

(د) شذرة من الرسالة التي بعث بها إيرينيوس إلى البابا فيكتور

وهي محفوظة بالسريانية. في هذه الرسالة، يلتمس من البابا أن يتخذ إجراء ضد فلورينوس ليوقف كتاباته.

(هـ) ويقدم يوسابيوس لنا في (Hist eccl . 5: 23: 3; 24: 11 - 17) اقتباسات من الرسالة التي كتبها إيرينيوس إلى البابا فيكتور بخصوص حسابات موعد عيد الفصح.

(و) وفوق ذلك، فإن يوسابيوس في (Hist eccl . 5: 26) يبدو أنه كان على علم ببحثه "بخصوص المعرفة". كما كان يعرف "كتيبًا يحوي عدة مقالات يذكر فيها "الرسالة إلى العبرانيين" وما يسمى "حكمة سليمان"، حيث اقتبس فقرات معينة منهما." ومن المحتمل للغاية أن هذا الكتيب كان مجموعة من العظات.

(ز) أما الشذرات التي نشرها (Ch. M. Pfaff) عام ١٧١٥م، بزعم أنها من مخطوطات في تورين، فقد أثبت هارناك أنها مزيفة.

الفكر اللاهوتي لإيرينيوس

يعد إيرينيوس معلمًا لاهوتيًا مهمًا لسببين: أولاً؛ هو الذي كشف قناع السمة شبه المسيحية التي للغنوسية، ومن ثم عجَّل باستبعاد أتباع هذه الهرطقة عن الكنيسة. ثانيًا؛ دافع بنجاح باهر عن قوانين الإيمان التي للكنيسة الجامعة، والتي أنكرها الغنوسيون أو أساءوا تفسيرها حتى إنه بحق استحق أن يدعى مؤسس علم اللاهوت المسيحي. وإيرينيوس لم يشغل باله بتكوين نظريات أو التوصل إلى اكتشافات لاهوتية جديدة، بل على النقيض، كان يميل دائما إلى الشك حيال أي علم يهدف إلى التخمين: "من الأفضل ألا تتوفر للمرء أية معرفة مهما تكن عن سبب وجود أي شيء من الخليقة، بل عليه بالأولى أن يؤمن بالله وأن يستمر في محبته عن أن ينتفخ بمعرفة من هذا النوع، وعليه أن يتحاشى ذلك النوع من المحبة التي

هي حياة الإنسان. وعليه ألا يبحث أو يطلب معرفة أخرى سوى معرفة يسوع المسيح، ابن الله، الذي صلب لأجلنا، عن أن يطرح أسئلة ماكرة وتعبيرات فيها مماحكات لفظية فيسقط في الضلال." (Adv. Haer 1 :26 :2). وعلى الرغم من موقفه المليء بالشك، نحو اللاهوت التخميني، فإن إيرينيوس يستحق منزلة عالية وعظيمة؛ إذ كان أول من صاغ التعليم المسيحي بأكمله في مصطلحات عقائدية لاهوتية.

١. الثالوث

رغم أن معاصره ثيوفيلوس الأنطاكي كان أول من استخدم لفظة الثالوث (τριάς) فإن إيرينيوس لم يستخدمها في تعريف الله الواحد في ثلاثة أشخاص؛ بل بالحري كان يفضل التأكيد على سمة أخرى من سمات الألوهية في صراعه مع الغنوسيين وهي التطابق بين هوية الله الواحد الحقيقي، وخالق العالم، وإله العهد القديم، والآب أبي اللوغوس. ورغم أن إيرينيوس لم يناقش العلاقات الأقنومية للثالوث في الجوهر الواحد، إلا أنه كان مقتنعًا أن وجود الآب والابن والروح القدس قد تم إثباته بوضوح في تاريخ البشرية. فإن وجودهم سابق على خلق الإنسان، لأن الكلمات "نعمل الإنسان على صورتنا كشبهنا" موجهة من الآب إلى الابن والروح القدس، واللذين يطلق عليهما القديس إيرينيوس رمزيًا "يدي الله". (Adv. Haer 5: 1: 3; 5: 1 :28 :5 ;1 :5). وكان إيرينيوس المرة تلو المرة يشرح كيف يملأ الروح القدس، في خدمة اللوغوس، الأنبياءَ بمسحة الوحي، وكيف أعطى الآب الأوامر بكل هذا. وهكذا فإن كل تدبير الخلاص في العهد القديم هو إرشاد رائع بخصوص ثلاثة الأقانيم في الله الواحد.

٢. التعليم عن المسيح (الخرستولوجي)

(أ) بخصوص العلاقة بين الآب والابن يقول إيرينيوس بصراحة

ووضوح: "إن قال لنا أي أحد "كيف وَلد الآب الابن"؟ إذن، نجيبه أنه ما من إنسان يدرك هذا الخروج أو الميلاد أو الدعوة، أو مهما يكن الاسم الذي يطلقه المرء على ميلاده، الذي هو في الحقيقة يفوق الوصف. لكن الآب وحده هو الذي يلد، والابن هو المولود؛ وإذ إن ميلاده يعجز الكلام عن وصفه، فإن الذين يجاهدون أن يتكلموا عن طرق الميلاد والخروج، لا يمكن أن يكون ذهنهم سليمًا، فهم يحاولون وصف ما لا يوصف." (Adv. Haer 2: 28: 6)

وفوق ذلك، نجد عند إيرينيوس أول محاولة لإدراك العلاقة بين الآب والابن بشكل تأملي: "استعلن الآب بالابن، الذي هو في الآب، وله الآب في نفسه." (Adv. Haer 3: 6: 2) . وبهذه الكلمات، يعلم إيرينيوس بمبدأ "التواجد والاحتواء المتبادل" أو ما يعرف بـ (perichoresis) أو (circumincessio). ومثلما يدافع إيرينيوس ضد الغنوسيين عن التطابق بين الآب وخالق العالم، فهكذا يعلم أيضًا أن هناك مسيحًا واحدًا، حتى إن أطلقنا عليه أسماء عديدة، لهذا، فإن المسيح يتطابق مع ابن الله، ومع اللوغوس ، ومع يسوع الإله المتأنس، ومع مخلصنا وربنا.

(ب) الانجماع الكلي: تعد نظرية "الانجماع الكلي" (Recapitulation) أو (ἀνακεφαλαίωσις)[1] هي قلب ومركز التعاليم الخرستولوجية عند إيرينيوس، بل وقلب كل فكره اللاهوتي حقًا. ورغم أنه اقتبس هذا الفكر من الرسول بولس، إلا أنه قد طوره بشكل كبير. و"الانجماع الكلي" في مفهوم إيرينيوس هو اتخاذ الكل في المسيح منذ البداية. ويعيد الله تنفيذ الخطة الإلهية

---

[1] هذا المصطلح باليونانية يتكون من كلمتي: (ἀνά) وهي تعني: "إلى فوق، لأعلى"، و(κεφαλαίωσις) من فعل: (κεφαλαιόω) الذي يَعني: "يجمع تحت الرأس، يجمع".

الأولى من أجل خلاص البشرية والتي أعاقها سقوط آدم، فيجمع كل عمله منذ البداية ليجدده ويستعيده ويعيد ترتيبه في ابنه المتجسد، الذي يصبح بهذه الطريقة آدم الثاني لأجلنا. وإذ هلك الجنس البشري كله بسقوط الإنسان، كان على ابن الله أن يصير انسانًا، ليتمم إعادة خلق الجنس البشري: "المخلوقات التي هلكت، تملك لحمًا ودمًا. لأن الرب أخذ من الأرض ترابًا وخلق إنسانًا، ولأجله حدثت كل تدبيرات مجيء الرب. لهذا أخذ لنفسه جسدًا ودمًا جامعًا في نفسه ليس إنسانًا معيّنًا آخر، بل ذلك الإنسان الأول الذي خلقه الآب، طالبًا ذاك الذي كان قد هلك." (Adv. Haer. 5: 14: 2).

وبهذا الانجماع الكلي للإنسان الأصلي، ليس آدم شخصيًا فقط، بل الجنس البشري كله قد تجدد واستعيد: "حين تجسد، وصار إنسانًا، جمع في نفسه، تاريخ الإنسان الطويل جامعًا الخلاص فيه ليعطينا إياه لنقبل من جديد، في المسيح يسوع ما فقدناه في آدم، أعني، صورة الله وشبهه." (Adv. Haer 3: 18: 1). وفي الوقت ذاته، فإن الآثار الشريرة لمعصية آدم الأول قد أبيدت: "جمع الله في نفسه الخلقة القديمة للإنسان. ليميت الخطية ويجرد الموت من قوته ويحي الإنسان." (Adv. Haer 3: 18: 7). وبهذه الطريقة جدد آدم الثاني الصراع القديم ضد الشيطان، وغلبه. "لو أن الرب كان قد أتى من آب آخر غير الله الآب لما كان قد جمع في نفسه تلك العداوة الأولى والقديمة ضد الحية، وتمم وعد الخالق. ولكن بما أنه واحد، وهو نفسه الذي صنعنا في البداية ثم أرسل ابنه في النهاية، فإن الرب تمم أمره، مولودًا من امرأة، إذ أباد العداوة كما أنه كمّل الإنسان على صورة الله ومثاله." (Adv. Haer 5: 21: 2)

ولهذا فقد جدد المسيح كل شيء بجمعه كل شيء في نفسه: "إذن فما الذي أحضره المخلص عند مجيئه، اعلم أنه أتى بكل

الجدة، بأن أحضر نفسه، وهو نفسه الذي سبق التنبؤ عنه. لأن هذا قد أُعلن جهارًا أن هناك جدة سوف تأتي لتجدد الإنسان وتعطيه حياة." (Adv. Haer 4: 34: 1)

٣. التعليم عن العذراء مريم (المريولوجي)

هيمنت هذه الفكرة عن الانجماع الكلي وبشكل قوي على تعليم إيرينيوس بخصوص العذراء مريم. وكان يوستينوس هو أول من أظهر التوازي بين حواء ومريم، مثلما فعل بولس بين آدم والمسيح. ثم يأتي إيرينيوس ليمتد بهذا التوازي قدمًا: "ووفقًا لهذا القصد، وجدت مريم العذراء مطيعة قائلة: "هوذا أنا أمة الرب، ليكن لي كقولك." لكن حواء كانت عاصية، لأنها لم تطع وهي بعد عذراء. ومع أنه كان لها بالفعل زوج، وهو آدم، فإنها رغم ذلك كانت لا تزال عذراء، وكانت غير مطيعة، فجلبت الموت على نفسها، وعلى كل البشرية. هكذا أيضًا كانت مريم؛ إذ كان لها رجل خطيب (لها)، إلا أنها كانت عذراء؛ وإذ ظلت طائعة، صارت سببًا للخلاص، لنفسها ولكل الجنس البشري.

وعلى هذا الأساس، فإن الناموس يسمي المرأة المخطوبة لرجل بزوجته، رغم أنها لا تزال عذراء، هكذا كانت الإشارة بين مريم وحواء، لأن ما ارتبط معًا لا يمكن أن ينفصل الواحد عن الآخر، إلا بانعكاس العملية التي بها نشأت روابط الاتحاد بينهما، فيزيل الأخير رُبط الأول، ومن ثم يحرر هذا الأخير، الأول من رباطاته. وهذا في الحقيقة ما حدث، أن الأسر الأول انفك بسبب الرابط الثاني، لكن حل الرباط الثاني محل الأول الذي تم إلغاؤه. لهذا السبب أعلن الرب أن الأول يصير أخيرًا في الحقيقة والأخير أولًا، ويشير النبي أيضًا إلى نفس الأمر قائلًا: "عوضا عن آباء، يولد لك أولاد." لأن الرب، إذ صار مولودًا،

"البكر من بين الأموات" واحتضن الآباء القدماء، قد ولدهم ثانية إلى حياة الله؛ إذ جعل نفسه أول الأحياء، مثلما كان آدم بداية الأموات. لهذا فإن لوقا أيضًا، وهو يسجل سلسلة أنساب ومواليد الرب، رجع بها إلى آدم، مشيرًا إلى أنه - أي الرب - هو الذي ولدهم ثانية إلى إنجيل الحياة، وليسوا هم الذين فعلوا ذلك. هكذا أيضا انفكت عقدة عصيان حواء بطاعة مريم. لأن ما ربطته حواء العذراء سريعًا بعدم الإيمان، هذا قد حررته مريم العذراء بالإيمان." (Adv. Haer 3: 22: 4)

إذن وبحسب إيرينيوس، فإن عملية الفداء تتبع بالضبط نمط أحداث سقوط الإنسان، لأن كل خطوة خاطئة اتخذها الإنسان، بغواية الشيطان، قد عين الله لها إصلاحًا لينتصر على شيطان الغواية انتصارًا كاملًا. وتقبلت البشرية أصلًا جديدًا لها، عوضًا عن آدم الأول، ولكن إذ انخرطت المرأة الأولى أيضا في السقوط بعصيانها، فإن عملية الشفاء بدأت أيضا بطاعة امرأة. وإذ منحت الحياة لآدم الجديد، صارت حواء الحقيقية، والأم الحقيقية للأحياء وصارت أيضًا نبع السلام. وبهذه الطريقة تصبح مريم: حواء المحامية: "فإن كانت حواء السابقة قد عصت الله، فإن الثانية - مريم - قد انصاعت لتطيع الله، لتصير مريم العذراء المحامية المدافعة عن حواء العذراء. وهكذا، كما وقعت البشرية في عبودية الموت بواسطة عذراء، قد نجت منه أيضًا بعذراء . هكذا، أزيل عصيان عذري بعكسه، بطاعة عذرية."
(Adv. Haer 5: 19: 1)

وفوق ذلك فإن إيرينيوس يمتد بالتوازي بين حواء ومريم إلى ما هو أعمق وأعمق. فهو مقتنع تمامًا أن مريم هي الأم الجديدة للبشرية حتى أنه يدعوها رحم البشرية. هكذا يعلم بعمومية أمومة مريم، وهو يتحدث عن ميلاد المسيح بصفته "الطاهر الذي فتح بطهر ذاك الرحم الطاهر الذي يلد البشر من جديد في الله" (Adv. Haer 4: 33: 11)

٤. التعليم عن الكنيسة (الإكليسيولوجي)

(أ) تعليم ق: إيرينيوس عن الكنيسة مرتبط ارتباطًا وثيقًا بفكرته عن "انجماع الكل في المسيح". فالله يجمع في المسيح ليس الماضي فقط بل والمستقبل أيضًا. لذلك فقد جعله الآب رأس الكنيسة كلها لكي يواصل من خلالها عمله التجديدي إلى نهاية العالم. ويقول إيرينيوس: "لذلك إذ يوجد إله واحد هو الآب كما سبق أن أوضحنا، ومسيح واحد هو المسيح يسوع ربنا، الذي جاء بتدبير جامع وشامل لكي يجمع كل الأشياء في نفسه، ومن ضمن "كل هذه الأشياء" يوجد الإنسان كخليقة الله؛ لذلك فهو يجمع الإنسان أيضًا في نفسه. فغير المنظور صار منظورًا وغير المدرك صار مدركًا وغير المتألم صار متألمًا؛ والكلمة صار إنسانًا جامعًا كل الأشياء في نفسه. وهكذا، فكما أنه هو الأول بين الكائنات السماوية والروحية والأشياء غير المنظورة، هكذا أيضًا هو الأول بين الأشياء المنظورة والمادية. وهو يأخذ الأولية لنفسه؛ وإذ جعل نفسه رأس الكنيسة، فهو سيجذب كل الأشياء إلى نفسه في الوقت المحدد." (Adv. Haer 3: 16: 6)

(ب) كان إيرينيوس مقتنعًا بشدة أن تعليم الرسل يدوم حيًّا بلا تغيير. وهذا التقليد هو مصدر ومعيار الإيمان. هو قاعدة الحق. وبالنسبة لإيرينيوس، فإن قاعدة الحق تلك هي قانون الإيمان (الذي يقبل) في المعمودية؛ إذ يقول إننا نقبلها في المعمودية (Adv. Haer. 1: 9: 4). ويعطي وصفًا لإيمان الكنيسة الذي يتبع تمامًا التسليم الرسولي هكذا: "رغم أن الكنيسة منتشرة في كل العالم، منتشرة في كل المسكونة من أقاصيها إلى أقاصيها، فقد استلمت من الرسل وتلاميذهم الإيمان بإله واحد، الآب ضابط الكل، خالق السماء والأرض والبحار وكل ما فيها؛ والإيمان بالمسيح يسوع الواحد، الذي

هو ابن الله، الذي تجسد لأجل خلاصنا؛ والإيمان بالروح القدس الذي أعلن التدبير بواسطة الأنبياء، أي بمجيء المسيح وميلاده العذراوي وآلامه وقيامته من بين الأموات، وصعود ربنا المحبوب المسيح يسوع إلى السماء جسديًا، وظهوره ثانية من السماء في مجد الآب لكي يجمع كل الأشياء في نفسه ولكي يقيم أجساد كل البشر إلى الحياة، لكي تجثو للمسيح يسوع ربنا وإلهنا ومخلصنا وملكنا كل ركبة، بحسب مشيئة الآب غير المنظور، ولكي يعترف كل لسان له، ولكي يجري دينونة عادلة للجميع ولكي يطرد أرواح الشر والملائكة الذين تعدوا وصاروا مضادين وكذلك الأثمة والأشرار ومخالفي الناموس والدنسين، إلى النار الأبدية؛ ولكن في نعمته سوف يهب الحياة ومكافأة عدم الفساد والمجد الأبدي لأولئك الذين حفظوا وصاياه وثبتوا في محبته سواء منذ بداية حياتهم أو منذ وقت توبتهم. هذه الكرازة وهذا الإيمان تحفظه الكنيسة باجتهاد رغم أنها منتشرة في كل العالم، هي تحفظه بكل اجتهاد كما لو كانت كلها تسكن في بيت واحد، وتؤمن بهذا وكأن لها عقلًا واحدًا، وتكرز وتعلم وكأن لها فم واحد، ورغم أن هناك لهجات كثيرة في العالم، إلا أن معنى التقليد واحد، وهو هو نفسه. لأن نفس الإيمان تتمسك به وتسلمه الكنائس المؤسسة في ألمانيا، وأسبانيا، وقبائل القوط، وفي الشرق، وفي ليبيا، وفي المناطق الوسطى من العالم. ولكن كما أن الشمس وهي مخلوقة من الله، هي واحدة، وهي هي نفسها في كل المسكونة، هكذا أيضًا نور كرازة الحق، الذي يضيء على كل الذين يرغبون أن يحصلوا على معرفة الحق." (Adv. Haer. 1: 10: 1 - 2).

(ج) وحدها الكنائس المؤسسة من الرسل يمكن الاعتماد عليها في التعليم الصحيح للإيمان والحق، بسبب التسلسل غير المنقطع

للأساقفة في هذه الكنائس، هو الذي يضمن أن تعليمها هو الحق: "أي شخص يريد أن يميز الحق، فأنه يمكن أن يرى التقليد الرسولي واضحًا وظاهرًا في كل كنيسة في العالم كله، ويمكننا أن نحصي أولئك الذين أقيموا كأساقفة من الرسل في الكنائس وكذلك خلفاءهم حتى إلى يومنا الحاضر والذين لم يعرفوا أبدًا ولم يعلموا بتاتًا أي شيء يشبه التعليم الأحمق لهؤلاء - أي الغنوسين - فإذا كان الرسل قد عرفوا مثل هذه الأسرار الخفية التي يعلمونها على انفراد وسرًا للكاملين فقد استودعوا هذا التعليم بالتأكيد للرجال الذين أقاموهم كمسئولين عن الكنائس، لأن الرسل كانوا يريدون أن هؤلاء الرجال الذين استلموا منهم السلطان أن يكونوا بلا لوم أو عيب." (Adv. Haer. 3: 3: 1). ولهذا السبب فإن الهراطقة يفتقدون مؤهلًا أساسيًا، فهم ليسوا خلفاء الرسل، ولا يتمتعون بموهبة الحق: "ولذلك فإنه من اللازم طاعة القسوس في الكنيسة، الذين كما أسلفت يملكون الخلافة (التعاقب) من الرسل، فأولئك، وبالإضافة إلى خلافة الأسقفية، قد تسلموا موهبة الحق الخاصة، حسب المسرة الصالحة للآب." (4: 26: 2 A.N.F)

٥. أولية روما[٢]

وبعد أن أعلن إيرينيوس أنه لحسن الحظ في مركز جعله يحصي الأساقفة الذين عينهم الرسل مع خلفائهم حتى عصره، لاحظ أن ذلك سيبتعد به كثيرًا ليكتب قوائم خلافة أساقفة كل الكنائس التي أسسها الرسل. ولهذا السبب يريد أن يحصر نفسه في قائمة الأساقفة

---

[٢] ترفض الكنيسة الأرثوذكسية مثل هذا الطرح عن "أولية كنيسة روما" ورئاستها لباقي كنائس المسكونة، لأنه طرح لا يستند على أي أساس رسولي. للمزيد عن محاولات روما فرض هذا الأمر من خلال مجمع خلقيدونية انظر: الأب فِ. سي. صمونيل، مجمع خلقيدونية؛ إعادة فحص، ترجمة د. عماد موريس إسكندر، مراجعة دكتور جوزيف موريس فلتس، مركز باناريون للتراث الآبائي، ط١ ٢٠٠٩. [المراجع]

الذين يرعون أعظم تلك الكنائس فيقول في (Adv. Haer. 3: 3: 2):

"لكن في كتاب مثل هذا ستكون القائمة طويلة جدًا، أن نحصي القوائم الأسقفية في كل الكنائس. لكن بالإشارة إلى التقليد الرسولي وقانون الإيمان الذي تسلمناه بتعاقب الأساقفة في أعظم وأقدم وأشهر الكنائس، التي أسسها في روما الأمجدان بين الرسل، بطرس وبولس، يمكننا أن ندحض فكر الذين لأي سبب، سواء لإرضاء الذات، أو طلبًا لمجد باطل، أو لعمى بصيرة أو لشر فيهم، يعقدون اجتماعات غير قانونية."

ثم يورد بعدها تصريحًا في غاية الأهمية، ولسوء الحظ، لا نملك النص اليوناني الأصلي لهذه العبارة بل لدينا فقط الترجمة اللاتينية التي هي رغم ذلك رقيقة الحال:

"Ad hanc enim ecclesiam propter potentiorem principalitatem necesse est omnem convenire ecclesiam, hoc est eos qui sunt undique, fideles , in qua semper ab his qui sunt undique, conservata est ea quae est ab apostolis traditio"

وهنا يبرز السؤال: ما هو معنى الكلمة (principalitas)؟ والحقيقة أن الكلمات اللاتينية (principalitas, prinicipalis, principaliter)، يمكن أن تستخدم لترجمة العديد من الألفاظ اليونانية مثل: ἐξουσία, καθολικός, ἡγεμονικός, προηγουμένως,) (πρωτεύειν والتي تختلف بشدة عن بعضها البعض. ويقترح فان دين آينده (Van den Eynde) وباردي (Bardy) ترجمة كلمة (principalitas) بمعنى (ἀρχή, ἀρχαῖον, ἀρχαιότης). وفي هذه الحالة فإن إيرينيوس يمكن أن يكون قد جعل لكنيسة

روما مركزًا أعلى، بسبب "أصلها السامي" المتأسس، كما هو الحال، بأميري الرسل. وقد ترجم إرهارد (Ehrhard) عبارة (propter potentiorem principalitatem) إلى "بسبب قيادتها الأكفأ". وهكذا يمكن أن تُقرأ تلك الفقرة كلها كالآتي: "فإنه مع هذه الكنيسة وبسبب قيادتها الأكفأ، ينبغي أن تتفق كل الكنائس، أعني مؤمني كل الأماكن، لأن التقليد الرسولي قد تم حفظه على الدوام، بواسطة مؤمني كل الأماكن."

وفي أغلب الظن أن عبارة "ينبغي أن تتفق" (كل الكنائس معها) لا يمكن فهمها على أنها إلزام ولكنها حقيقة. ويبرهن على هذا سياق الكلام. فإن إيرينيوس يقصد أن يبرهن أن الخرافات والأساطير لدى الغنوسيين غريبة على التقليد الرسولي. من ثم، فإن تلك الفقرة التي اقتبسناها لا تشير إلى الدستور الكنسي بل إلى الإيمان الذي هو مشترك في كل الكنائس المتنوعة، والذي هو مضاد تمامًا للغنوسية، وتخميناتها. ومع هذا فإن كل هذه الفقرة ذات أهمية قصوى لتاريخ "أولية كنيسة روما"، لأن إيرينيوس ينسب لكنيسة روما "قيادة أكفأ من أية كنيسة أخرى"[٣]. والأكثر من هذا، فإنه يقر بأن كنيسة روما بسبب كونها قد تأسست على يدي بطرس وبولس، وبسبب الخلافة الأسقفية بها، وبسبب عقيدتها، فهي برهان قاطع للإيمان المسيحي. وتعد عقيدة "أولية كنيسة روما" هي بالطبع السبب الداخلي الوحيد المحتمل للإقرار بتفوق كنيسة روما. وبعد تلك الفقرة يبدأ إيرينيوس بشكل نموذجي في إحصاء الأساقفة الرومان حتى إلوثيروس (١٧٤م

---

[٣] هذه محاولة لتأويل النص من جانب المؤلف، فالأمر كله يتعلق بالتأكيد على أن كنيسة روما الرسولية تحفظ الإيمان المسلم بتعاقب الأسقفية. بل وحين يقول إن هذا الإيمان هو محفوظ بواسطة مؤمني كل الأماكن فهو يؤكد أن بقية الكنائس الرسولية تشترك في حفظ نفس التقليد المسلم، ولهذا فهي ينبغي أن تكون متفقة في ذلك الإيمان مع كنيسة روما، وهذا ما تؤكده الفقرة التالية أيضًا. أما بالنسبة للقيادة الأكفأ فهي وإن صحت الترجمة لا تعدو كونها وجهة نظر خاصة مرتبطة بالسياق الزمني وقت كتابة هذا النص. [المراجع]

- ١٨٩م)، ثم يكمل قائلًا: "بهذا الترتيب وبهذه الخلافة، وصل إلينا التقليد الكنسي من الرسل وكرازة الحق. وهذا هو الدليل الوافي أنه هو نفس الإيمان الواحد المحيي الذي قد استلمته الكنيسة من الرسل، وحفظته حتى الآن، وسلمته بالحق." (Adr. Haer. 3: 3: 3).

٦. الإفخارستيا

كان إيرينيوس مقتنعًا جدًّا بالحضور الحقيقي لجسد الرب ودمه في الإفخارستيا، حتى إنه يستنتج قيامة الجسد البشري، من حقيقة أن هذا الجسد قد اقتات على جسد ودم المسيح. "وحين يقبل الكأس المخلوط والخبز المصنوع فإنه ينال "كلمة" الله (ἐπιδέχεται τὸν λόγον τοῦ θεοῦ) وتصير الإفخارستيا دم وجسد المسيح، الذي منهما تنمو مادة جسدنا نحن وتتدعم، فكيف لهم أن يؤكدوا أن الجسد عاجز عن قبول موهبة الله، التي هي الحياة الأبدية، وهو الذي يقتات من جسد ودم الرب وهو عضو فيه ؟.... هذا الجسد الذي يقتات على الكأس التي هي دمه ويقبل نموًّا من الخبز الذي هو جسده، ومثلما حين يؤخذ غصن من الكرمة ويزرع في الأرض فإنه يثمر في موسمه، أو حين تسقط حبة حنطة في الأرض وتتحلل فإنها تنمو بزيادة مضاعفة بروح الله، فتصبح الإفخارستيا التي هي جسد المسيح ودمه، هكذا أيضًا أجسادنا؛ إذ تقتات بها، وتقع في الأرض، وتتحلل هناك، فإنها تقوم في وقتها المعين." (A.N.F 3 :2 :5)

"فكيف يقولون إن الجسد يفسد ولا يشترك في الحياة، ذاك الذي اقتات على جسد الرب ودمه. فإما أن يغيروا رأيهم أو فليمتنعوا عن تقديم التقدمات التي ذكرتها. لكن رأينا يتوافق مع الإفخارستيا، وأيضًا فإن الإفخارستيا تؤكد رأينا. فنحن نقدم إليه الذي له، خاصته، مظهرين وحدانية شركتنا وتوافق وحدتنا. معترفين بقيامة

الجسد والنفس، فإنه مثلما أن الخبز من الأرض، آخذ القوة من الله (προσλαβόμενος τὴν ἐπίκλησιν τοῦ θεοῦ) فلم يصر بعد خبزًا عاديًّا، بل صار إفخارستيًّا مؤلفًا من عنصرين، واحد أرضي والآخر سماوي، هكذا أجسادنا أيضًا؛ إذ تشترك في الإفخارستيا، لا تعود بعد قابلة للفساد، بل منتظرة رجاء القيامة الأبدية." (Adv. Haer 4: 18: 5)

ومن هذه الكلمات يظهر أن إيرينيوس يعتقد أن الخبز والخمر يتم تقديسهما من خلال الاستدعاء (استدعاء الروح القدس). كما أن السمة الذبائحية للإفخارستيا هي أمر يقيني بالنسبة له، لأنه يرى فيها الذبيحة الجديدة التي تنبأ عنها ملاخي النبي: "إذ يعطي تلاميذه توجيهًا بأن يقدموا لله بواكير مخلوقاته ـ ليس كمن يحتاجها، بل حتى لا يكونوا جاحدين غير شاكرين أو غير مثمرين ـ فقد أخذ المواد المخلوقة، أي الخبز وشكر وقال هذا هو جسدي، والكأس أيضا، التي هي جزء من هذه الخليقة التي ننتمي نحن إليها، واعترف أنها دمه، وعلمنا القربان الجديد الذي للعهد الجديد، الذي تسلمته الكنيسة من الرسل وتقدمه إلى الله في كل أنحاء المسكونة، إلى من يعطينا إياها كوسائل للبقاء، وهي بواكير عطاياه في العهد الجديد التي تحدث عنها من بين الأنبياء الإثني عشر، ملاخي الذي تنبأ قائلًا "لا مسرة لي بكم، يقول الرب الكلي القدرة ولن أقبل من أيديكم ذبيحة. فإنه منذ بزوغ الشمس وحتى غروبها، اسمي ممجد بين الأمم. وفي كل موضع يرفع بخور وذبيحة طاهرة لاسمي، عظيم هو اسمي بين الأمم، يقول الرب القدير" الأمر الذي يدل بكل بساطة بهذه الكلمات على أن الشعب السابق ـ اليهود ـ سيتوقفون حتمًا عن تقديم الذبائح لله، وأنه في كل مكان سترفع له ذبيحة، هي الذبيحة الطاهرة، ويتمجد اسمه بين الأمم." (A.N.F 4: 17: 5).

٧. الكتاب المقدس

يتضمن قانون العهد الجديد عند إيرينيوس الأناجيل الأربعة، ورسائل القديس بولس الرسول وسفر أعمال الرسل، ورسائل القديس يوحنا وسفر الرؤيا، والرسالة الأولى للقديس بطرس والعمل النبوي الحديث "الراعي" لهرماس، لكنه لا يضم الرسالة إلى العبرانيين. وهو لم يكن عنده بعد تحديدًا واضحًا للمجموع الكلي لهذه الكتابات، رغم أنه كان يعتبرها مجموعة متكاملة. ويطلق إيرينيوس على كتب العهد الجديد لفظ "سفر" (γραφή) لأن لها نفس سمات الوحي التي لكتابات العهد القديم، ويعلن قائلا عن أصل الأناجيل الأربعة: "كتب متى إنجيلًا مكتوبًا بين العبرانيين بلهجتهم المحلية بينما كان بطرس وبولس يكرزان في روما ويضعان أساس الكنيسة. وبعد رحيليهما، سلمنا مرقس أيضًا تلميذ بطرس ومترجمه، ما كان يكرز به بطرس في صورة مكتوبة، وسجل لوقا أيضًا رفيق بولس، في كتاب الإنجيل الذي كرز به. وبعد ذلك، فإن يوحنا تلميذ الرب، الذي كان يتكئ أيضًا على صدره، هو نفسه نشر إنجيلًا أثناء إقامته في أفسس في آسيا." (Adv. Haer 3: 1: 1)

ويشرح إيرينيوس أن ثمة أربعة أناجيل، لا أكثر ولا أقل هكذا: "لأنه من المستحيل أن يكون عدد الأناجيل أكثر أو أقل من هذه، لأنه إذ يحوى العالم أربعة أركان كائنة، وأربع رياح رئيسة، وقد بُذرت الكنيسة كبذرة في كل الأرض، والإنجيل هو عمود الكنيسة وقاعدتها، ونسمة الحياة؛ فمن الطبيعي أن يكون لها أربعة أعمدة من كل الربوع تتنسم عدم الفساد، وتبعث في الناس حياة. ولهذا فإنه من الواضح أن جابل كل شيء، "الكلمة" الجالس فوق الشاروبيم والحافظ الجميع معًا، حين أُظهر للناس، أعطانا إنجيله في أربعة أشكال يجمعها معًا الروح الواحد." (Adv. Haer 3: 11: 8).

ومن الأهمية لتاريخ الفن المسيحي، أن إيرينيوس، يشتق فيما يلي من العبارات، الرقم أربعة الخاص بالأناجيل من عدد الشاروبيم: "للشاروبيم أربعة وجوه، ووجوههم هي صور تدبير ابن الله. فإنه مكتوب، أن المخلوق الحي الأول "كان مثل أسد" (القديس يوحنا) كاشفًا بذلك عن قوته الحقة، وقدرته المرشدة، وملوكيته. والثاني، "مثل عجل" (القديس لوقا) مشيرًا إلى حالته كمقدم للذبيحة وكاهن. والثالث "له وجه انسان" (القديس متى) مصورًا بكل جلاء حضوره كإنسان. والرابع في شبه "نسر في التحليق" (القديس مرقس) مظهرًا عطية الروح القدس الطائر من علٍ ليحل على الكنيسة." ويبدو هنا الاختلاف عن التطور الذي حدث في الرموز فنجد أن الأسد يظهر هنا مشيرًا إلى يوحنا، والنسر إلى مرقس.

وعند تحديد قانونية عمل ما، فإن إيرينيوس يصر على أنه لا ينبغي النظر فقط إلى "رسولية" العمل ولكن أيضًا ينبغي اعتبار موضوع التقليد الكنسي. ولدى الكنيسة كذلك الصوت الحاسم في تفسير الكتاب، لأن كل كتابة من كتابات العهد القديم والجديد تشبه أشجارًا في بستان الكنيسة وهي التي تغذينا بثمارها: "ولهذا يليق بنا أن نتحاشى عقائدهم (المهرطقة)، وأن نحذر باهتمام ألا يقع علينا ضرر منها، بل أن نهرب إلى الكنيسة، لننمو في حضنها ونقتات على كتاب الرب. فإن الكنيسة قد زُرعت كفردوس في هذا العالم، لهذا يقول روح الله: "ومن كل شجر الجنة تأكل بحرية"، أي، كُلْ من كل كتاب من كتب الرب، لكن لا تأكل بذهن مرتفع، و لا تلمس أي اختلاف هرطوقي." (Adv. Haer 5: 20: 2).

٨. التعليم عن الإنسان (الأنثربولوجي)

متتبعًا الفكرة الأفلاطونية أن الإنسان مكون من جسد

(φύσις) ونفس (ψυχή) وعقل (νοῦς)، يعلّم إيرينيوس أن الإنسان مركب من جسد ونفس وروح. "يتفق الجميع أننا مركبون من جسد مأخوذ من الأرض، و نفس تقبل الروح من الله." (Adv. Haer. 3: 22: 1)

لهذا، فإن الجسد البشري الذي تحركه نفس طبيعية فقط، ليس هو بالإنسان الكامل والتام . ويبدو أن إيرينيوس في معظم الوقت كان مثل القديس بولس، يعتبر الجزء الجوهري الثالث، أي الروح، والذي يكمل ويتوج الطبيعة البشرية، هو روح الله شخصيًّا. وقد وعد المسيح بهذا الروح الإلهي كعطية لرسله ومؤمنيه، ويوضح القديس بولس للمسيحيين المرة تلو المرة، أنهم يحملون هذا الروح في نفوسهم كما في هيكل. ولكن من الصعب في بعض الفقرات أن نقرر ما إذا كان إيرينيوس يفهم الجزء الجوهري الثالث هذا للإنسان على أنه روح الإنسان أم روح الله. ويتجلى هذا من الفقرة التي يصف فيها الإنسان الكامل المخلوق بحسب صورة الله: "أنه بيدي الآب، أعني بالابن والروح خُلق الإنسان - وليس مجرد جزء من الإنسان - خلق على شبه الله. فالنفس والروح هما بالتأكيد جزء من الإنسان وبالتأكيد أيضًا ليس هما الإنسان؛ لأن الإنسان الكامل يتكون من مزيج واتحاد النفس التي تنال روح الآب، وخليط تلك الطبيعة اللحمية التي جبلت أيضًا على حسب صورة الله... لأنه إذا استبعد أحد الجسد من صناعة يدي الله، واعتبر الروح فقط صنعته، فإن هذا لا يكون إنسانًا روحيًّا بل يكون روح إنسان أو روح الله. ولكن حينما تتحد الروح المندمجة مع النفس بالجسد، يصير الإنسان روحانيًّا وكاملًا بسبب انسكاب "الروح" عليه، وهكذا صُنع الإنسان على صورة الله ومثاله. ولكن إن كانت النفس بلا روح، فالذي يكون هكذا هو في الحقيقة من طبيعة حيوانية؛ وإذ قد بقي لحميًّا، فسيكون كائنًا

ناقصًا يملك بالفعل صورة الله في تكوينه، ولكنه غير حاصل على المشابهة بواسطة الروح؛ وهكذا يكون غير كامل. وكذلك أيضًا، إذا استبعد أحد الصورة ووضع الجسد جانبًا فإنه لا يستطيع عندئذ أن يفهم أن هذا الكائن هو إنسان - كما قلت سابقًا - أو يفهمه كشيء ما آخر غير الإنسان. لأن هذا اللحم الذي قد جبل ليس هو إنسانًا كاملاً بذاته، ولكنه جسد إنسان وجزء من إنسان، وكذلك النفس ذاتها إذا اعتبرت بذاتها فقط فهي ليست إنسانًا بل هي نفس الإنسان وجزء من الإنسان. وكذلك أيضًا فإن الروح ليست إنسانًا، لأنها تدعى الروح، ولا تدعى الإنسان؛ ولكن امتزاج الثلاثة معًا واتحادها يكون إنسانًا كاملاً" (A.N.F 1 :6 :5) ويقول أيضًا: "هناك ثلاثة عناصر - كما سبق أن أوضحت - يتكون منها الإنسان الكامل وهي: الجسد، والنفس، والروح. أحد هذه الثلاثة هو الذي يحفظ ويشكل، وهذا هو الروح. أما بالنسبة للعنصر الآخر فهو المتحد والمشَكَّل فذلك هو الجسد؛ والعنصر الثالث هو بين هذين الاثنين ذلك هي النفس التي في بعض الأحيان حينما تسير وراء الروح تسمو بواسطة الروح، ولكن في أحيان أخرى إن تعاطفت مع الجسد فإنها تسقط في الشهوات الجسدية. إذن فأولئك (الناس) والذين هم كثيرون، الذين ليس عندهم ما يُخلص ويُشكل، وليس لديهم الوحدة، فإنهم سيكونون "لحمًا ودمًا"، وسيدعون هكذا (لحمًا ودمًا). (Adv. Haer 5: 9: 1).

إن قبول الجزء الثالث، أي الروح، والاحتفاظ به، وهو الذي يعتمد عليه الكمال الأساسي للانسان، إنما يشترط أعمال الإرادة والسلوك الأخلاقي. حتى الوجود الأبدي للنفس يعتمد على سلوكها هنا على الأرض لأنها ليست خالدة بالطبيعة. إن عدم مواتها وخلودها هي مسألة نمو أخلاقي. فهي قادرة أن تصير خالدة إن كانت شاكرة

لخالقها: "لأنه كما أن السماء التي فوقنا، أي الجلد، والشمس والقمر وبقية النجوم وكل بهائها، رغم أنها بغير وجود سابق، قد دعيت إلى الوجود، وتستمر عبر دهور طويلة من الزمن حسب مشيئة الله، هكذا أيضًا فإن كل واحد يفكر بنفس الطريقة بخصوص النفوس والأرواح، وفي الحقيقة، بخصوص كل المخلوقات، فإنه لن يضل أبدًا، طالما أن كل ما تم خلقه كانت له بداية حين تشكل، ويستمر محفوظًا ما دام يريد له الله أن يظل موجودًا ومستمرًّا في هذا الوجود... لأن الحياة لا تنشأ منا نحن، ولا من طبيعتنا، بل تمنح لنا حسب نعمة الله. ومن ثم فإن من يحفظ الحياة الممنوحة له، ويشكر ذاك الذي وهبها، سوف ينال أيضا طول الأيام إلى أبد الآبدين. ولكن من سيرفضها ويظهر نفسه غير شاكر لصانعه، فبقدر كونه مخلوقًا، وأنه لم يقدر الذي منحه، لم يميز العاطي، فإنه يحرم نفسه من البقاء إلى أبد الآبدين." (Adv. Haer 2: 34: 3)

ويعتقد إيرينيوس أنه كان من الضروري أن يفند تأكيد الغنوسيين في أن النفس أزلية غير مائتة بطبيعتها وبعيدًا عن سلوكها الأخلاقي، ومن ثم فإنه قد انقاد إلى هذه الأفكار الزائفة.

٩. التعليم عن الخلاص (السوتيريولوجي)

يتمثل محور تعليم إيرينيوس عن الفداء في حقيقة أن كل انسان في حاجة إلى الفداء وهو قادر على الفداء. وقد نشأ هذا من سقوط الأبوين الأولين، والذي من خلاله أصبح كل نسلهما خاضع للخطية والموت وفقدوا صورة الله[٤]. وقد حرر الفداء الذي تم بابن الله الجنس البشري من عبودية الشيطان والخطية والموت. وفوق ذلك، فقد جمع البشرية كلها في المسيح، كما أرجع الاتحاد بالله، والتبني لله، بل

[٤] يؤكد ق. أثناسيوس (ومعه كل الفكر اللاهوتي الشرقي) أن الإنسان لم يفقد الصورة الإلهية تمامًا بل إنها تشوهت فقط. [المترجم]

والتمثل به. لكن إيرينيوس يتحاشى لفظة "التأليه" (θεοποίησις) في هذا المضمار، ويستخدم عبارات مثل "أن يرتبط بالله" و"أن يلتصق بالله" أو "يشترك في مجد الله". لكنه يتحاشى إزالة الحدود بين الله والإنسان، مثلما جرت العادة في الأديان الوثنية وفي الهرطقات الغنوسية. ويميز إيرينيوس بين "صورة" الله و"مثال" الله. فالإنسان بطبيعته وبنفسه غير المادية، هو صورة الله، أما المماثلة مع الله فهي المشابهة مع الله بشكل فائق للطبيعة، وقد كان آدم يملكها بفعل طوعي إرادي من صلاح الله. وهذا الشبه الإلهي يتم ويتحقق بالروح الإلهي.

وفداء الفرد يتحقق بالكنيسة وأسرارها باسم المسيح. والسر الكنسي بالنسبة للطبيعة هو ما يمثله آدم الجديد للإنسان العتيق أو آدم القديم. ويقبل المخلوق كماله في الأسرار الكنسية. والسر هو ذروة الانجماع الكلي للخليقة في المسيح؛ فبالمعمودية يولد الإنسان من جديد لله. وفي هذه المناسبة، يشهد إيرينيوس لأول مرة في الأدب المسيحي القديم لمعمودية الأطفال: "لأنه جاء ليخلص الجميع بواسطة نفسه، وأكرر، الكل، إن به يولد الكل لله ثانية، الرضع والأطفال والصبية والشباب والكبار." (Adv. Haer 2: 22: 4).

١٠. التعليم عن الأخرويات (الإسخاتولوجي)

حتى في تعليمه الإسخاتولوجي، نرى تأثير نظرية الانجماع الكلي واضحًا على فكر إيرينيوس. إن ضد المسيح هو المضاد الشيطاني للمسيح، فهو انجماع كل الارتداد والظلم، والمكر والنبوة الكاذبة، والخيانة منذ بدء العالم حتى نهايته: "لهذا، نجد في هذا الوحش، حين يأتي، انجماعًا، مؤلفًا من كل أنواع الإثم وكل خديعة حتى تتجمع فيه كل قوة ارتداد، تندفع و تنحصر فيه، فيرسلها إلى آتون النار. وبشكل مناسب، إذن، فإن اسمه يتكون من الرقم ٦٦٦، فهو

يجمع في شخصه ذاته كل مزيج الشر والذي حدث قبل الطوفان بسبب ارتداد الملائكة... لهذا فإن الستمائة سنة... تشير إلى رقم اسم هذا الإنسان الذي فيه يتركز كل ارتداد الستة آلاف عام وكل الضلال والشر والنبوة الكاذبة، والخديعة، والتي بسببها يأتي أيضا طوفان النار" (Adv. Haer. 5: 29: 2).

ويطرح إيرينيوس حتى رأيه عن الحكم الألفي بموجب نظريته عن إعادة تأهيل وتجديد العالم: "يجهل كلاهما تدابير الله وسر قيامة الأبرار والملكوت الذي هو بدء عدم الفساد، الملكوت الذي بواسطته يعتاد المستحقون على إدراك الله تدريجيًا، ومن الضروري أن نخبرهم بخصوص هذه الأمور التي يليق أولًا بالأبرار أن يقبلوا الموعد بالميراث الذي وعد الله به الآباء، وأن يسودوا ويحكموا فيه حين يقومون ثانية ليعاينوا الله في هذه الخليقة التي تم تجديدها، وبعدها تقوم الدينونة. لأنه من العدل أنه في هذه الخليقة عينها التي تعبوا وتألموا فيها وتضايقوا، متألمين في كل شيء، أن ينالوا حتمًا مجازاة آلامهم، وأنه في الخليقة التي ذُبحوا فيها بسبب محبتهم لله، أن يتم إحياؤهم ثانية، وأنه في الخليقة التي تحملوا العبودية فيها، يحكمون حتمًا. لأنه الله غني في كل شيء ويملك كل شيء، ويليق إذن، أن الخليقة ذاتها؛ إذ استعيدت إلى حالتها الأولى، تصير بلا حدود تحت حكم الأبرار" (A.N.F 5: 32).

الفهرس الموضوعي*

الآب

آباء الكنيسة

الابن / الكلمة/ اللوغس

الأبوكريفا

* الفهرس الموضوعي من إعداد الأستاذة وسام عاطف زخاري.

الاستشهاد

الاضطهاد

الاعتراف/ التوبة

الإفخارستيا

الأمور الأخروية (الإسخاتولوجيا)/ القيامة من الأموات/ الدينونة

الكنيسة والدولة

الليتورجيا

الملائكة

النزاعات

إصدارات مركز باناريون للتراث الآبائي

يسعى مركز باناريون للتراث الآبائي إلى تحقيق هدفه من خلال أربع سلاسل متمايزة تكمِّل كل منها الأخرى بالإضافة إلى مجموعة خامسة من الكتب العامة:

أولاً: النصوص المسيحية في العصور الأولى

هذه السلسلة تقدِّم النصوص المسيحية في القرون الأولى في شكل أكاديمي غني بالمقدمات والمقارنات والحواشي والفهارس. يصدر منها:

١. الآباء الرسوليون — قيد المراجعة
٢. القديس يوستينوس الفيلسوف والشهيد — مايو ٢٠١٢
٣. القديس إيرينيوس - ضد الهرطقات — قيد المراجعة
٤. العلامة أوريجينوس - عظات على سفر التكوين — قيد المراجعة
٥. العلامة أوريجينوس - عظات على سفر الخروج — قيد المراجعة
٦. العلامة أوريجينوس - عظات على سفر اللاويين — قيد الترجمة
٧. التاريخ الرهباني في أواخر القرن الرابع الميلادي — ديسمبر ٢٠١٣
٨. القديس يوحنا كاسيان - الأنظمة — قيد المراجعة
٩. القديس يوحنا كاسيان - المحاورات — قيد المراجعة
١٠. الأنبا شنوده رئيس المتوحدين الجزء الأول — ديسمبر ٢٠٠٩

ثانياً: دراسات عن المسيحية في العصور الأولى

سلسلة تتضمن موضوعات تختص بالمسيحية في العصور الأولى في شكل دراسات "عرضية"، تناقش نفس الموضوع من عدة أوجه أو في عدة عصور، وتُقدَّم من خلال تقليد الكنيسة وتراثها الآبائي. صدر منها حتى الآن:

١. الإيمان بالثالوث (ت. ف. تورانس) — نوفمبر ٢٠٠٧

٢. مجمع خلقيدونية ـ إعادة فحص (فِ. سي. صموئيل) يوليو ٢٠٠٩

٣. الكنيسة وثقافة العصر (دكتور سامح فاروق) يناير ٢٠١٥

٤. التعليم الخريستولوجي بعد مجمع خلقيدونية (إيان تورانس)

قيد الترجمة

ثالثًا: دراسات عن آباء الكنيسة في العصور الأولى

سلسلة تقدِّم دراسات عن آباء الكنيسة، حيث تتناول ـ بطريقة "طولية" ـ كل أب على حدة من خلال استعراض سيرته، والأحداث التاريخية والكنسيّة في عصره، كما تتناول أيضًا كتاباته، وتعاليمه اللاهوتية. يصدر منها:

١. علم الباترولوجي (كواستن) الجزء الأول يناير ٢٠١٥

٢. علم الباترولوجي (كواستن) الجزء الثاني قيد الترجمة

٣. علم الباترولوجي (كواستن) الجزء الثالث قيد الترجمة

٤. علم الباترولوجي (كواستن) الجزء الرابع قيد الترجمة

رابعًا: الحياة الجديدة في المسيح

هذه السلسلة تهتم بالجانب الحياتي الاختباري للمسيحية، حيث ينبغي أن تتحول كل معرفة لاهوتية (نقدمها في السلاسل الثلاثة الأولى) إلى خبرة حياتية معاشة في المسيح (السلسلة الرابعة). لذلك تقدم هذه السلسلة التقليد الآبائي الشرقي الحي المُعاش داخل الكنيسة. صدر منها:

١. الإفخارستيا سر الحياة (دكتور مارك شنوده) نوفمبر ٢٠١٣

٢. الأعياد السيدية (دكتور مارك شنوده) قيد الإعداد

كتب عامة

١. العهد الجديد قبطي عربي "ترجمة بين السطور" قيد المراجعة

تقع مجموعة مجلدات "علم الآبائيات - باترولوجي" لمؤلفها جوهانس كواستن، تحت تصنيف الكتب المسمى "ينبغي اقتناؤها". فبرغم صدور كتب أخرى متنوعة ولاحقة عن "علم الآبائيات" إلا أن مجموعة كواستن تظل اللبنة الأولى والضرورية لكل باحث ومهتم بهذا الفرع من المعرفة. وبينما تأتي الكتب الأخرى التي تعالج نفس الموضوع في شكل مجلد واحد بسبب منهجها الانتقائي في العرض، جاءت مجموعة كواستن في أربعة مجلدات لما تميزت به من شرح وافٍ لكتابات الآباء ومنهجهم اللاهوتي، حتى قيل عنها إنها "المرجع الأشمل لمن يريد البدء في دراسة الأدب المسيحي المبكر".

وهكذا لن يتمكن فريقان من القراء على الأقل أن يستغنيا عن مجموعة كواستن: الفريق الأول وهو الذي يريد أن يحصل على معرفة أساسية شاملة عن الآبائيات أكثر من مجرد المقدمات التي تعرضها الكتب الأخرى؛ والفريق الثاني هو الذي يريد أن ينال معرفة أولية عن الآبائيات تؤهله للدخول إلى دراسات أكثر تقدمًا.

